التاريخ الإسلامي

تأليـف

الدكتور ابراهيم الشريقي
عضو المجامع العلمية الدولية

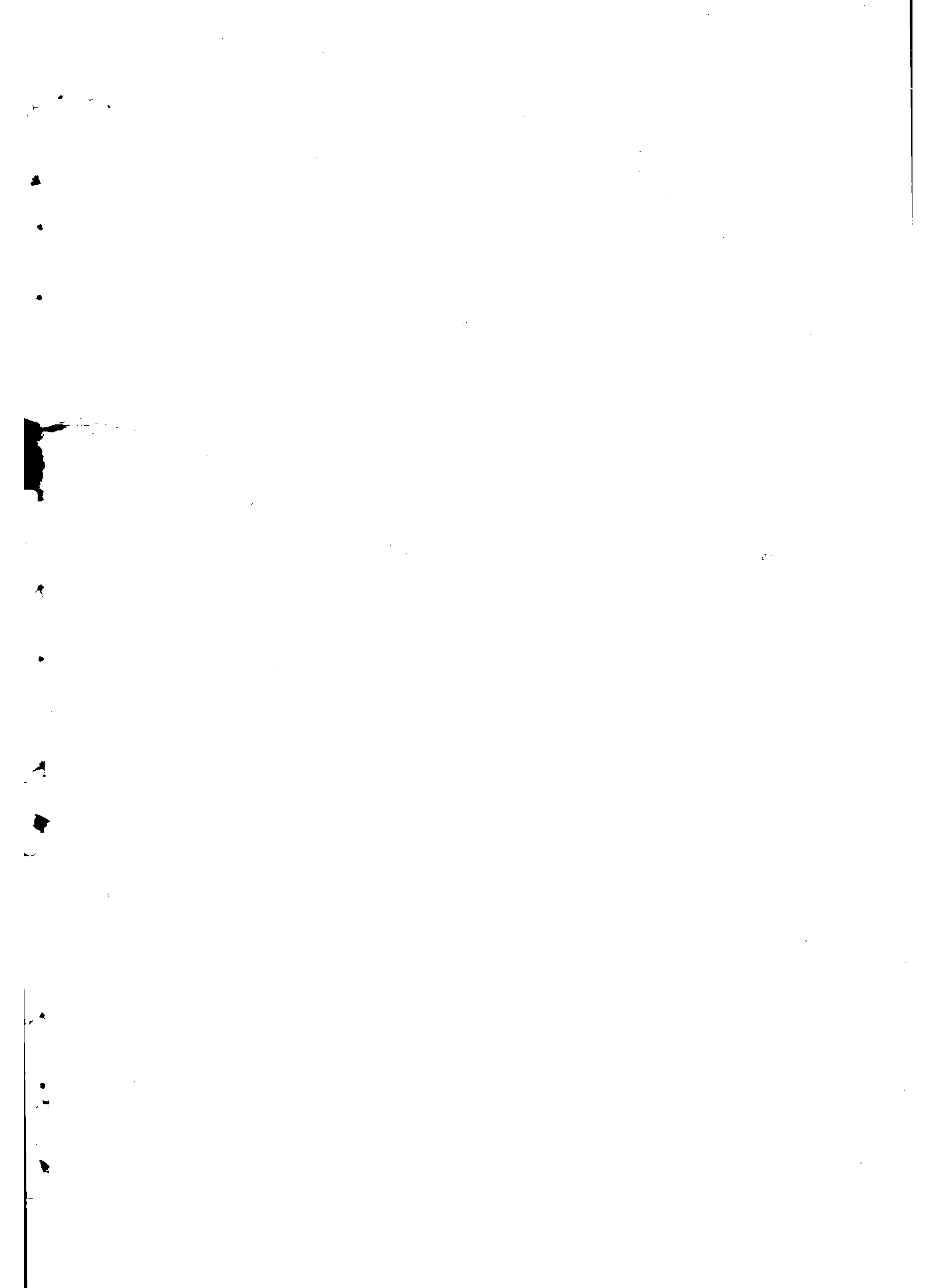
الطبعة الاولى
١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م

كلمة ثناء وتقدير

لقد كان لتشجيع صاحب المعالي الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي الفضل الكبير فى اخراج هذا الكتاب من سلسلة المعارف والعلوم التي نعدها للجيل الجديد في الوطن العربي والأقطار الاسلامية على أسس علمية شعارها النهج السليم المستمد من الروح الاسلامية مصدر الشعاع وينبوع الحضارة .

فالى معاليه أقدم وافر الشكر المقرون بالاحترام والتقدير .
والله نسأل أن يوفقنا الى الخير والسداد .

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تستند كل أمة من الأمم الحية على مقومات روحية وثقافية وعلمية وتاريخية تشكل أسس كيانها .

ومن نظرة على تاريخ العرب نجـد أن الاسلام هو مصدر مقومات الأمة العربية ووجودها كأمة نشأت وسادت وارتفعت الى قمة المجد .

لقد ظهر الاسلام فى مطلع القرن السابع الميلادي فى جزيرة العرب مهد الجنس العربي فقضى على الوثنية وحطم أصنامها وحرر العرب من جحيمها ومن النزعـة العصبية القبلية ، فتفتحت عقولهـم الى النور وتحولوا الى عبادة الله وحده لاشريك له .

أجل ان الاسلام هو الذي أوجد للعرب كيانا ووحدهم فى مجتمع يسوده الشعور بالتضامن والتسامح والاخاء والعدالة ، بعد أن كانـوا مجموعة من القبـائل متحاربة تتخبط فى ظـلام الجاهلية وخرافاتهـا ووثنيتهـا .

نذكر جميعا بفخار انـه فى مهد العروبة ظهرت قبل أربعة عشـر قرنا دعوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فكانت دعوة هداية

للناس كافة ، وايمانا بالخالق العظيم رب العالمين ، وتوحيد الشعوب فى أمة واحدة لا تعرف شعوبية ولا اقليمية .

ولا ننسى ان الاسلام تفرد بخصائص تميز بهاعن سائر الأديان الأخرى فكما نظم علاقة الانسان بربه ، نظم علاقة الانسان بأخيه الانسان ، وعلاقة الأفراد فيما بينهم وعلاقاتهم بالدولة . وهو فى دعوته وتشريعه يعتبر نظاما عالميا أوجب حماية الخصائص الفردية والجماعية والقيم الروحية والأخلاقية ، والوحدة بين أبناء الأمة فى الحقوق والواجبات والتضامن فى المسئوليات ، واقامة العدل والمساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب والأجناس والالوان . وحسبنا على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) .. كما حث على الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونصرة المظلوم .

تلك هي المبادىء التي قامت عليها الدعوة الاسلامية ، وتحت لوائها انضوت الشعوب من مختلف الأجناس والقوميات وانصهرت فى المجتمع الاسلامي الكبير .

وتمثلت المرحلة الأولى من التاريخ الاسلامي بانتشار الدعوة فى أرجاء الجزيرة العربية وقيام أول دولة فى المدينة المنورة فى عهد الرسول. وفى المرحلة الثانية حملت الرسالة الاسلامية الى خارج الجزيرة حيث تم فى عهد الخلفاء الراشدين فتح العراق وبلاد الشام وفارس ومصر . وفى المرحلة الثالثة شملت الفتوحات فى عهد الأمويين الذين اتخذوا دمشق عاصمة للخلافة : تركستان وبلاد المغول والسند والشمال الافريقي والأندلس . وفى هذه المرحلة التي دامت زهاء قرن من الزمن امتدت الدولة الاسلامية من حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسي غربا .

وبدأت المرحلة الرابعة بقيام الدولة العباسية التي بلغت فى عهد الخليفة هارون الرشيد أقصى اتساعها ، وأعلى درجة من القوة والثروة العلمية والثقافية . ودام حكمها خمسة قرون وربع القرن . وفى أواخر عهدها انتابها الضعف وازدادت الحركات الانفصالية فى بعض الأقاليم

وبرز نفوذ الأتراك الى الوجود وأخذ يمتد حتى تمت السيطرة للدولة العثمانية على العالم العربي فى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

وخلال هذه المراحل تعرضت الأقطار الاسلامية الى غزوات خارجية انقضت عليها من الغرب ومن الشرق . وكان أعنفها وأخطرها هي الحملات الصليبية وغزو المغول الرهيب . وقد قاوم المسلمون الغزاة ، وبفضل وحدتهم وايمانهم بعقيدتهم انتصروا على المعتدين وطردوهم من ديارهم وأرضهم .

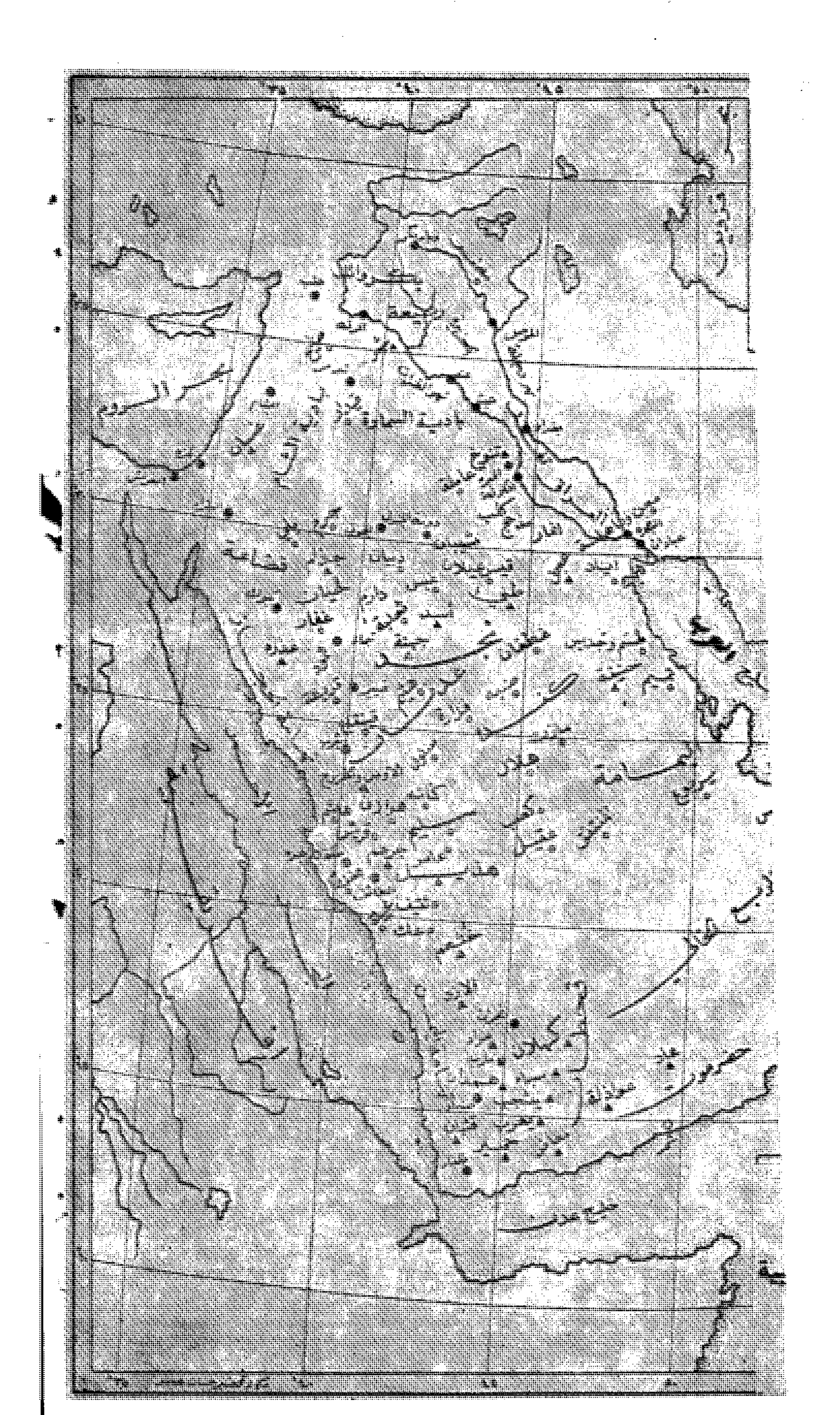
والذي ينبغي ادراكه هو ان المسلمين لم يدخلوا البلاد التي فتحوها كغزاة بل كجنود لنشر رسالة الاسلام الخالدة وحضارته التي لعبت دورا كبيرا فى نهضة الأمم والشعوب وفى مقدمتها شعوب أوروبا التي كانت قبل دخول الحضارة الاسلامية اليها عن طريق مراكزها فى الأندلس وصقلية تعيش فى ظلام العصور الوسطى .

وخلاصة القول ان التاريخ الاسلامي يشكل مرآة ومدرسة ، ففيه الكثير من البطولات والأمجاد والمآثر التي نفخر بها ونعتز بتراثها ومعالمها التي تعبر بصورها الناطقة عن عظمة الحضارة الاسلامية .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم ، آملين بأن نكون قد وفقنا فى اخراج هذا الكتاب للغاية المرجوة ألا وهي الاسهام فى نشر العلم والمعرفة بين أبناء أمتنا ، والله من وراء القصد وهو خير معين .

الدكتور ابراهيم الشريقي

رمضان المبارك ١٣٨٩
تشرين الثاني ١٩٦٩



الفصل الاول

العرب قبل ظهور الاسلام

الثابت تاريخياً ان الجزيرة العربية هي مهد الجنس العربي وموطنه الأول • تشكل منطقة واسعة مترامية الأطراف ، تحيط بها البحار من جهاتها الثلاث ، حدودها الطبيعية هي :

من الجنوب البحر العربي ومن الشمال العراق والشام ومن الشرق الخليج العربي ومن الغرب البحر الأحمر •

ويُقسِّم المؤرخون الجنس العربي الى قسمين كبيرين هما :

١) العرب العاربة

هم أبناء قحطان وموطنهم الأول بلاد اليمن والعرب القحطانيون تفرعوا جميعهم من فرعين وهما : كهلان ، وحمير أبناء سبأ

وتسموا بالعرب العاربة لانهم أول من تكلم اللغة العربية من شعوب الجزيرة ٠

٢) العرب المستعربة

هم أبناء عدنان الذين يعود نسبهم الى النبي اسماعيل ٠ وأطلق عليهم اسم المستعربة لأن اسماعيل كان يتكلم اللغة السريانية لغة أبيه ابراهيم ٠ ثم لما جاء به أبوه الى مكة وجاوره الجرهميون من القحطانيين فى الحرم وتزوج منهم تعلم وأبناؤه العربية من أصهاره فسموا بالعرب المستعربة ٠

وتقع منازل العرب العدنانيين الأولى فى الحجاز ونجد وتمتد حتى بادية الشام ، ثم امتزج بهم بعد ذلك القحطانيون بعد انهيار سد مأرب حيث هاجروا الى الشمال واستوطنوا نجد والحجاز وخاصة يثرب ٠

العرب البائدة :

كان هناك قبل العدنانيين والقحطانيين جيل كبير من العرب انقرضوا انقراضاً كاملاً ولم يبق لهم من عقب حيث بادوا عن آخرهم ٠٠ ولذلك قيل لهم العرب البائدة ٠ ومن هؤلاء عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس ٠ وأهم مواطنهم (حضرموت واليمامة ويثرب وعمان وتيماء ووادي القرى) ٠

ديانة العرب :

كان العرب يدينون بدين الحنيفية (دين ابراهيم عليه السلام) وهو دين التوحيد ثم أدخل التحريف عليه رجل اسمه عمرو بن لحي إذ كان أول من علمهم عبادة الاصنام ٠ وظل العرب يعبدونها قرونا

طويلة حتى جاء الله بالاسلام فأزال النبي ﷺ هذا الانحراف الوثني الخطير وعاد بالعرب الى جادة التوحيد الذي هو افراد الله تعالى وحده بالعبـــادة •

وكان فى جزيرة العرب أديان غير الوثنية العربية •• فهناك اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة •

فاليهودية فى العصــر الجاهلي كانت منتشــرة فى يثرب وخيبر واليمن ووادي القرى وتيماء • وليس هناك من العرب من دان بها الا أفراد قلائل ، لايكادون يذكرون • غير انه فى اليمن دان باليهودية أحد ملوك حمير وتبعه جماعته • ويظهر ان ذلك حدث قبل أن يدخل اليهود التحريف على دين موسى عليه السلام •

أما النصرانية فقد كانت منتشرة فى اليمن ونجران ومنطقة الجندل فى الشمال وبين عرب الغساسنة فى الشام والجذاميين فى الحيرة مـــن العـــراق •

والصابئة (عبادة النجوم والكواكب) فقد كان وجودها فى جنوب الجزيرة ضئيل جداً بحيث لايكاد يذكر • وكان يدين بها بعض القبائل فى حران وأعالي العراق واليمن •

وكذلك المجوسية القائمة على أن هناك إله للخير وإله للشـــر كانت منتشرة فى شرق الجزيرة العربية واليمن ولكن على نطاق ضيق جداً • ويظهر ان وجود المجوسية كان بحكم وجود الحكام من الفرس مع العلم انها تنتسب الى زرادشت الفارسي •

وقد كانت هناك أديان أخرى غير أنهـــا تلاشت بعـــد أن جاء الاســـلام فحمى آثار كل هـــذه الأديان من جزيرة العـــرب عندما

أشرقت شمسه عليها وأقام التوحيد الخالص .

ولم يكن العرب قبل الاسلام ينكرون وجود الله تعالى ، بل كانوا مع شركهم يؤمنون بـه خالقا كمـا جـاء ذلك فى القـرآن الكريم « وما يؤمـن أكثرهم بالله الا وهـم مشركون » (١٠٦ ــ يوسف) ؟ « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (٢٥ ــ لقمان) .

وفى ذلك العصر المظلم كانت جزيرة العرب تعج بآلاف الآلهة من الأصنام فكان لكل قبيلة صنم خاص ، وكان لقبائل قريش وحدها ثلاثمائة وستين صنماً نصبت كلها حول الكعبة . وقـد حطمها النبي صلى الله عليه وسلم جميعها يوم فتح مكة .

مقام الكعبة والحج :

لقد ظلت الكعبة منذ أن بناها ابراهيم الخليل ، محـل تقديس وتعظيم عند العرب يطوفون حولهـا ويعتبرونها بيت الله المعظـم . وظلوا على هذا الحال حتى جاء الله بالاسلام فزاد من تعظيمها وأقر الطواف بها فى كل وقت .

أما الحج فكان مشروعاً منذ عهد النبي ابراهيم ، وظل العرب طيلة عهود الوثنية يحجون الى البيت العتيق ويؤدون كل شـعائر الحج الا انهم أدخلوا عليه بدعاً جاهلية وأهمها التلبية الشركية وهي قولهم فى الحج (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك الا شـريكاً تملكه وما ملك) (١) وقد أقر الاسلام الحج وجعله أحـد أركان الاسلام

---

(١) أما تلبية الاسلام فهي : (لبيك اللهم لبيك ، لاشريك لك ، لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) .

بعد أن أزال عنه البـــدع •

تعظيـم الحـرم :

ومن التقاليد الابراهيمية التي ظلت مرعيـــة عند العرب قبـــل الاسلام تعظيم منطقة الحرم الواقعة حول الكعبة ، فقد كانوا مجمعين على تحريم سفك الدم فى هذه المنطقة لذا كانوا يعتبرون كل من دخلها آمناً حتى يخرج منها •

كما كان للعرب فى الجاهلية تقليداً حميداً أجمعوا على الالتزام به ، وأقره الاسلام فيما بعد ، وهو انهم اتفقوا على أن تكون أربعة أشهر من كل ســـنة (حرماً) لا يجوز القتـــال فيها مطلقاً وهي : (رجب وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم) وقد ساهم الالتزام بهذا القانون غير المكتوب فى جعل القبائل تنعـــم بالأمن الشامل فى فترة تمكنهم من أداء شعائرهم وانعاش أسواقهم التجارية ومواسمهم الأدبية بعيدين عن فوضى التخاصم والاقتتال التي هي الحاكم المتحكم فى شئونهم •

الحـــالة الاجتماعية :

كانت البداوة هي الطابع الرئيسي المميز لجميع سكان الجزيرة وحتى سكان المدن كمكة ويثرب وصنعاء ونجران • وكان هذا الطابع هو المتحكم فى شئونهم والمسيطر على تصرفاتهم من حيث روح القبلية والعصبية الجاهلية • وكانت حدة الطبع التي أذكتها الجاهلية العمياء فى نفوسهم تجعلهم فى حالة حرب دائمة مع بعضهم البعض • وأسباب هذه الحروب القبلية متنوعة ، وكثـــيراً مايخوضونها لأسباب تافهـــة كالحرب التي استمرت أربعين سنة بين بكر وتغلب من أجل ناقة قتلها كليب شيخ وائل فى نجد •

أما الغزو للسلب والنهب فقد كان شرعة جاهلية تسير عليها كل القبائل العربية آنذاك وبموجبها تقوم كل قبيلة بغزو الأخرى كلما سنحت لها الفرصة ورأت أنها قادرة على ذلك .

الولاء ونظام الحكم :

مما لا جدال فيه أن ارتباط العربي بقبيلته هو ارتباط وثيق وولاؤه لها هو فوق كل ولاء ، ولهذا فهو مستعد لأن يخوض حرباً لمجرد أن يتعرض أي فرد من أفراد قبيلته لأية اهانة .. بل ان المتبع عندهم (بحكم البيئة الجاهلية) ان تنصر القبيلة المنتسبين اليها حتى ولو كانوا هم الظالمين والبادئين بالعدوان . والى هذا أشار شاعرهم بقولـه :

لايسألون أخاهم حين يندبهم * فى النائبات على ماقال برهانا

لم يكن فى المجتمع العربي قبل الاسلام نظام حكم بالمعنى المعروف ، وكل مافى الأمر أن البدوي مجبول على الولاء لقبيلته ثم لشيخها أو رئيسها الذي تختاره وتمنحه (حسب العرف القبلي) بعض السلطات فى فض النزاعات والتكلم باسمها فى المفاوضات مع غيرها وليقودها فى الحروب التي تنشب بينها وبين أية قبيلة معادية أخرى . وبقاء رئيس القبيلة فى منصبه يتوقف على رجاحة عقله وسعة صدره وشجاعته وقوة شخصيته وكرمه .

ويمكن القول أن أقرب القبائل للاستقرار وعدم الاختلاف هي قبيلة قريش فى مكة التي عرفت وحدها شيئاً من الشورى وذلك بانشائها دار الندوة التي كانت بمثابة برلمان مصغر .

حب الحرية :

ان البدوي بحكم الانطلاق الكامل الذي ألفه فى جزيرته عبر التاريخ ، صار محباً للحرية المطلقة الى حد الافراط • ويعتبر عدوه الاكبر هو الذي يقيد حريته ، ولا يتورع عن سفك دم أي انسان اعتقد أنه مس حريته أو كرامته حتى ولو كان أكبر رأس فى قبيلته نفسها •

الأسرة والقومية :

الأسرةفى المجتمع العربيموجودة منذ وجد الانسان العربي•وكان تكوين الأسرة يبدأ بعقد الزواج بين الرجل والمرأة عن طريق وليها ثم يتسع نطاق الأسرة بالتناسل ، والولد ذكر كان أم أنثى يكون تابعاً لأبيه وليس لأمه ، وكانت حالة المرأة سيئة للغاية فى المجتمع الجاهلي ، وبلغت الاستهانة بها الى أنها تورث ولا ترث •• وظلت المرأة فى حالة استعباد حتى جاء الاسلام فحررها وكفل لها كامل الحقوق •

ولعل من أبرز التقاليد الاجتماعية قبل الاسلام هي الاعتزاز والتفاخر بالأحساب والأنساب الى حد المغالاة ، الأمر الذي جعلهم يقيمون مواسم ليفخر فيها بعضهم على بعض • وقد شجب الاسلام هذه العادات السيئة وفرض المساواة ، قال تعالى : ان أكرمكم عند الله أتقاكم •

شرب الخمر :

أما شرب الخمر فقد كان شيئاً شائعاً بينهم ، وكان شربها من أهم مايفخرون بتعاطيه من المشروبات ، ولا أدل على ولعهم بها من كثرة

اشعارهم فى وصفها والترنم بأوصافها • وقد جاء الاسلام فحرمها لكثرة مافيها من الضرر •

الصـــدق :

لقد طفحت كتب التاريخ بالحديث عن أن صدق اللهجة والصراحة فى القول والتنزه عن الكذب هي من الخصائص التي يمتاز بها الانسان العربي ، ولنفور العرب من الكذب اذا كذب أحدهم كذبة حفظوها عليه وتحادثوا بها فى أنديتهم وأسمارهم كأمر مستنكر معيب •

الجـــود :

أما سخاء النفس والكرم فهما من أسمى الصفات الحميدة التي فطروا عليها •• بل أصبح الكرم شرعتهم الاجتماعية المحببة يتبارون فى ساحاتها ويحاول كل منهم أن يكون أطول باعاً فيها • اذ ليس هناك من يختلف فى ان الكرم هو خلق العربي الذي يحرص على أن يكون ملازماً له ملازمته لروحه • والعربي اذا نزل الضيف بداره يبالغ فى اكرامه واذا لم يجد مايكرم به ضيفه الا راحلته أو فرس حربه ذبحها له فرحاً مسروراً •

ولتأصل هذا الخلق النبيل فى نفوسهم صاروا ينظرون الى البخل كأحط صفة يأنف كل منهم أن يتصف بها • وقد بلغ مستوى البذل والكرم بينهم حدا لم تبلغه أمة من الامم ، وكان بينهم أعلام مشاهير فى الكرم مثل حاتم طي •

عزة النفس والشجاعة :

كما ان من مزاياهم عزة النفس والتعفف ، والى هـذه الصفة الحميدة أشار عنترة بن شداد بقوله :

ولقد أبيت على الطوى وأظله ❊ حتى أنال به كريم المأكل

أما الشجاعة فهي من أهم الخصال التي يحرص العربي على أن يتحلى بها ، وكثيراً مايركبون المخاطر ويبذلون أرواحهم بسخاء متناه لاغاثة ملهوف أو انجاد مكروب التجأ اليهم •• أما شجعانهم المشاهير فأكثر من أن يحصيهم عدد •• وعلى سبيل المثال نذكر : عنترة بن شداد ، وربيعة بن المكدم وعمرو بن معدي كرب •

صيانة الأعراض :

العفة والحرص على صيانة العرض من أبرز الخصائص التي امتاز بها العرب على جميع الأجناس • ولقد نشأوا على الخلق وتوارثوه عبر الأجيال وبالغوا فى التمسك به وتنشئة بناتهم عليه حتى صرن لا يتصورن أن الحرة تفرط فى عرضها مهما كانت الظروف والأحوال •• ولعل أكبر شاهد على ذلك قول هند بنت عتبة (عندما بايع النبي ﷺ نساء مكة على ألا يزنين) فقالت مستغربة : « أوتزني الحرة يا رسول الله ؟ » •

حماية الجار :

وحماية الجار خلق متأصل فيهم ، بل وقانون معمول به فى طول البلاد وعرضها لا يجرؤ أي فرد على خرق هذا القانون الغير المكتوب الا الذي يرغب فى أن يعرض قبيلته لخوض حرب طاحنة •

فأية قبيلة ملزمة بحماية أي انسان يعلن فرد منها انه قد أجاره ، أي أعطاه الحماية •• واذا ماعتدى أي انسان على هذا المستجير فان القبيلة بأجمعها تهب للانتقام من المعتدى عليه حتى ولو أدى ذلك

الى بذل مئات الأرواح .

الوفاء بالعهد :

أما الوفاء بالعهد فهو أمر مقدس لا يمكن التهاون بشأنه . وان نقضه عندهم يعتبر جريمة لا تغتفر . ولذلك فانهم اذا أعطوا عهداً يسترخصون كل غال فى سبيل الوفاء به . وكم خاضوا حروباً وبذلوا دماءا غالية من أجل الوفاء بعهد أعطوه كما تشهد بذلك كتب التاريخ .

ثقافة العرب

يعتبر المجتمع العربي عبر عصور الجاهلية من أغنى المجتمعات بعناصر الثقافة الأدبية من حيث قوة التصور وحسن التعبير والقدرة على الوصف ورقة الأسلوب وحلاوة المنطق وحفظ الأحداث واستيعاب الأقوال ورسوخ المعاني فى الأذهان .

وكان العرب يعتمدون فى الاحتفاظ بانتاجهم الثقافى والأدبي على ذكائهم الخارق وقدرتهم المذهلة على الحفظ اذ هما الأوعية التي ظلت عبر القرون تحتفظ بانتاجهم الثقافى بصورة تدعو الى الدهشة .

فقد كان أحدهم يسمع (ولمرة واحدة) قصيدة من الشعر أو خطبة من الكلام الجزل فيحفظها فى الحال وتظل ذاكرته تختزنها ويتحدث بها كلما أراد دون أن ينسى منها حرفاً واحداً ، وهذا ما أنعش الأدب وساعد على نشر الثقافة .

اللغــة :

كانت اللغة الحميرية منذ أقدم العصور هي لغة الثقافة والحضارة ٠ وكان الحميريون أول من كتب لغتهم من العرب ، والخط الحميري لاتزال آثاره باقية فى اليمن على الصخور واللوحات الأثرية ٠ وقد ازدهرت الثقافة والحضارة الحميرية فى اليمن وخاصة فى عهد ملوك التبابعة ، فكانت فى عهودهم أكثر بلاد اعــرب تحضراً وثقافة وتمدناً ، الا أن تعرضها للغزو الخارجي ووقوعها تحت الاحتلال الحبشي ثم الفارسي وتعرضها أيضاً لكوارث الطبيعة كانهيار ســد مأرب مفخر حضارتها ومصدر انتعاشها الاقتصادي ــ أوقف تقدمها فى أكثر المجــالات ٠ كما أصاب اللغة الضعف فتوقفت عن التطور بسبب تطعيمها بألفاظ غريبة من لغــات المحتلين مما أفقدها ميزتهــا الى درجة الانحطاط والتلاشي ٠

وبينما اللغة الحميرية تضعف ويأخذ نجــم ازدهارها فى الأفول كانت لغة العدنانيين تنمو وتزدهر فى أواسط الجزيرة وشمالها وخاصة فى الحجاز ومكة (موطن القرشيين) الذين انتعشت لغتهم وأخــذت تسمو وتتطور حتى احتلت مكان الصدارة فى عذوبة اللفظ وسهولة التعبير ومتانة الأسلوب والاستيعاب لكل معاني البلاغة ٠

وعندما أزف ميعاد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت لغة قريش قد بلغت الكمال بين جميع لهجات الجزيرة ، ثم نزل بهــا القرآن الكريم فرفع شأنها وعزز مكانتها ٠ وكان ذلك سبباً فى انصراف العرب عن اللهجات العربية الأخرى حتى تلاشت نهائياً ٠

الشعر والأسواق العربية :

والدليل على تفوق لغة قريش من أن الأسواق العربية التي يقيمها العرب خلال كل عام كانت تقام بالقرب من الحرم حيث يفد إليها الناس من جميع أنحاء الجزيرة . وأهم هذه الأسواق : عكاظ ، ومجنة ، وذو مجاز .

وقد كانت هذه الأسواق بالاضافة الى التبادل التجاري تعتبر فى الدرجة الأولى مواسم ثقافية على أعلى المستويات الأدبية ، تقام فيها مباريات شعرية بين أبرز فحول الشعراء . وكان يجلس فيها محكمون أكفاء منصفون يعلنون فوز الشاعر الأفضل وتعلق قصيدته على الكعبة بمثابة جائزة تعتبر مفخرة عظيمة للشاعر لا يدانيها شيء . وكانت هذه القصائد تسمى المعلقات .

وكان الشعر من أهم وسائل التعبير والاعلام وتسجيل الأحداث الهامة لدى العرب ، ولذلك كان له المنزلة الأولى فى هذه الأسواق الثقافية التقليدية .

وبالاضافة الى الشعر كانت الحكم البليغة والكلام الجزل يتحدث به الحكماء والبلغاء فى خطب تاريخية فريدة مثل : أكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي الذي ألقى فى سوق عكاظ خطبته المشهورة وفيها انتقد مذهب الوثنية وبشر بدين الاسلام .

ولقد كان لهذه الاسواق التي تقام فيها المواسم الادبية عدة مرات فى السنة أكبر الأثر فى نشر الثقافة بين القبائل ، وتشجيع التنافس بين الشعراء والحكماء والبلغاء لاختيار أجمل الألفاظ وأرصن

التعبيرات وأرق الأساليب ، فساعد ذلك على الوصول باللغة العربية الى ما وصلت اليه من مستوى عال رفيع عند بزوغ شمس الاسلام حيث جاء والجزيرة العربية التي سادتها لغـة قريش تزخر بالشعراء والفصحاء والخطباء ٠

العـلوم :

بالرغم من طابع البداوة السائد بين القبائل الذي لايترك مجالا لشمس العلوم ان تظهر بحكم انشغال البدوي بالانتقال من منطقـة الى أخرى بحثاً عن الرعي لاشباع ماشيته التي هي عماد حياته ، فان هناك مناطق من بلاد العرب قد شهدت حركات عمرانية زراعية تشهد للعرب بحذاقتهم فى علوم الهندسة والتخطيط ، ولا أدل على ذلك من سد مأرب فى اليمن الذي يعتبر آية فى الهندسة والتصميم ٠

وللبدو معرفة خارقة بتقلبات الأجواء ، والاستدلال على قرب نزول المطر وتأخره وذلك بتقدير اتجاهات الرياح الى درجة ان الحاذقين منهم يأمرون ذويهم فى أوقات معينة بعدم البقاء فى بطون الوديان لأن سيولاً كبيرةً ستأتي فى أوقات معينة ٠

أما الطب فان الرقية والتعاويذ من الأمور الشائعة بينهم ٠ وهناك العقاقير التي يجمعونها من الأعشاب وعرفوا فيهـا بالتجارب لمعالجة كثير من الأمراض ٠ كما ان لهم براعة فى تجبير الكسور التي تصاب بها العظام ، والكي بالنار الذي يحتل الصدارة عندهم فى المعالجة ٠ وكان بينهم أطباء لهم شهرة فى معرفة الأمراض ووصف الأدوية لهـا مثل الحارث بن كلدة ولقمان بن عاد ٠

التجـــارة :

لقد عرف العرب التجارة من أقدم الأزمان وكانوا عـلى بداوتهم مهرة فيها الى حد بعيد • وزاد من ازدهار تجارتهم موقع جزيرتهم الذي يشكل حلقة اتصال بين الشرق والغرب • وكانت تأتي اليها السلع من الهند والشرق الأقصى عن طريق موانئها الجنوبية لينقل الكثير منها الى موانىء البحر الأبيض المتوسط ومختلف الأقطار الأوروبية الغربية • يضاف الى ذلك أن مناطق عـديدة فى جزيرتهم تصدر الى الخارج منتوجاتها المحلية وسلعاً كثيرة تدر على أهلها أرباحاً طائلة •

الفصل الثاني

بزوغ فجر الاسلام

سيرة الرسول :

ولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمكة يوم ١٢ ربيع الأول من عام الفيل الموافق سنة ٥٧١م •

نسبه الشريف من جهة والده : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان •

أما نسبه من جهة أمه فهو ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ويلتقي نسب أمه مع نسب أبيه فى جده كلاب ابن مرة ••

وكان بنو هاشم (أسرة النبي صلى الله عليه وسلم) فى الذروة من الشرف بين قبائل قريش ، وقد اتصفوا بكرم الأخلاق والجود لذلك كانت لهم سقاية الحجيج ورفادتهم • وكان عبد الله أصغر أبناء عبد المطلب العشرة من الذكور و أحب أبنائه اليه ، وكانت أم عبد الله من الأوس من بني النجار فى يثرب • وامتاز عبد الله بحسن السلوك ودماثة الخلق وحسن المعاشرة • وعندما تخطى السابعة والعشرين اختار له أبوه زوجة من أشرف وأكرم بيوت يثرب وهي آمنة بنت وهب الزهرية ، فكانت مثال المرأة العفيفة الكريمة •• وقد سعد عبدالله بزواجها لما وجد فيها من كريم الصفات وشرف الخصال ، الا أن عشرته لها لم تدم طويلاً ، فبعد مرور مايقرب من أربعين يوم على زواجه منها ذهب الى الشام فى رحلة تجارية ، وفى هذه الرحلة توفى بالمدينة عند أخواله بني النجار على اثر مرض ألم به وهو عائد من الشام • وكانت زوجته السيدة آمنة حامل بالرسول • وعندما ولدته فرح به جده عبد المطلب فرحاً عظيماً •

نشـــأته :

وقد أرضعته أمه لمدة سبعة أيام ، ثم أرضعته ثوبية مولاة عمه أبي لهب وأرضعت قبله عمه حمزة (ر) وكما هي عادة أهل مكة أسلمته أمه لمرضعة بدوية هي حليمة السعدية من قبيلة هوزان ، فأخذته معها الى البادية حيث أرضعته لمدة سنتين ثم فطمته • وأقام فى ديار بني سعد مع مرضعته واخوته بالرضاعة نحو أربع سنين ، ثم عادت به حليمة الى مكة •

وفى السادسة من عمره ماتت أمه السيدة آمنـــة بنت وهب فى الطريق وهي عائدة من المدينـــة الى مكة بعد أن زارت بـــه أخواله

بني النجار • وقد دفنت فى الأبواء بين مكة والمدينة • ثم كفله جده عبد المطلب وازدادت عنايته به وتضاعف حبه له ، الا أن جده لم يطل به العمر فتوفى والرسول عليه الصلاة والسلام فى الثامنة من عمره •

وبعد وفاة جدّه عبد المطلب كفله عمه أبو طالب الذي لم يكن أقل حباً له وعطفاً عليه وبراً به من جده • وقد رعى الغنم بعد أن تخطى الثانية عشرة من عمره ليساعد عمه بما يكسبه فى تحمل أعباء المعيشة لأن أبا طالب كان شديد الفقر وكثير العيال •

وظل محل رعاية وعناية وحماية عمه الرجل الوقور حتى بلغ رشده وبعث نبياً مرسلاً • وكانت أول حرب يشهدها فى الرابعة عشرة من عمره هي حرب الفجار (سميت بحرب « الفجار » لأنها وقعت فى الأشهر الحرم التي نشبت بين قريش وحلفائها من جهة وبين قيس من جهة أخرى • وقد اشترك فيها فكان يساعد أعمامه بتجهيز النبل •

خارج الجزيرة :

كانت أول رحلة قام بها خارج الجزيرة هي رحلته الى الشام وهو فى الثانية عشرة من عمره •• ولم يكن فى رحلته متاجراً وانما ليصحب عمه أبا طالب الذي بشره فى هذه الرحلة بحيراً الراهب أن ابن أخيه محمداً هو النبي المنتظر كما هو مبين فى التوراة •

كان محمد ﷺ منذ نشأته مشهوراً بالصدق والأمانة والوفاء لذلك أوكلت إليه السيدة خديجة بنت خويلد القيام بشئون تجارتها •• وكان أول عمل تجاري قام به لخديجة أن ذهب ومعه غلامها ميسرة الى سوق حباشة فى اليمن فربح ربحاً حسناً • ثم ازدادت ثقتها

به فبعثت به الى الشام بتجارة لها فربح أرباحاً كبــيرة وكان عمره خمساً وعشرين سنة •

وقد توسمت السيدة خديجة فيه من الخصال الحميدة والأخلاق العالية ماجعلها ترغب فى أن يــكون زوجاً لها • وكانت من أشراف قريش كريمة الأصل والنسب مثال المرأة المخلصة الصالحة ــ وقــد خطبها له عمه أبو طالب فتزوجها وهي فى الأربعين بينما كان هو فى السادسة والعشرين •

وكانت السيدة خديجة (ر) خير معين للنبي ﷺ طيلة حياتها معــه ، فقد كانت تشد أزره أيام محنته فى مكة حينما اشتد أذى قريش له • وفى حديثه عنها قال : لقد آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقتني حين كذبني الناس ، وأعطتني مالها حين حرمني الناس • ومنها أنجب جميع أولادهماعدا ابراهيم فانهمن زوجته مارية القبطية (ر) •

سيرته قبل البعثة :

كان صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره بعيداً عن دنــس الجاهلية وفسادها الذي غرق القوم فى جحيمها • وفى سيرته قبــل البعثة الدليل الذي لا يقبل الجدل انه خلق ليؤدي رسالة عظيمة • فميزه الله بأخلاق وصفات لم يتحل بها غيره من عفة اللسان وطهارة الجنان وصدق الحديث وقوة الأمانة • وكان لهذه الصفات الحميدة الاحترام والاجلال من قومه على اختلاف طبقاتهم حتى انهم سموه بالأمــين •

لقد عرف قبل البعثة بعمق التفكير ورجاحة العقل وسمو الخلق مالم يتوفر لغيره ، فشاعت سجاياه بين قومه فى أوساط قريش الذين حكموه فى حل مشكلة الحجر الأسود ، وقصتها هي :

حينما جدد بناء الكعبة اختلف زعماء قبائل قريش على وضع الحجر الأسود •• الكل منهم يريد أن يحظى لنفسه بشرف حمله ووضعه فى مكانه بالكعبة ، وكادت الحرب الأهلية أن تنشب بينهم ولكن أحد زعمائهم هو (أبو أمية حذيفة بن المغيرة المخزومي) اقترح حلاً للمشكلة أن يحكّموا أول من يدخل المسجد فقبلوا • وكان محمد صلى الله عليه وسلم أول من دخل ، ففرحوا قائلين : هذا الأمين قد رضينا به ، فأوجد حلاً للمشكلة بأسلوب يدل على رجاحة العقل وسداد التفكير ، فقد أمر بفرش رداء ثم وضع فيه الحجر بيده وهنا أمر زعماء القبائل بأن يمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء فيرفعوا الحجر ، حتى اذا ماحاذى المكان المعد له بالكعبة أخذه بيده الكريمة فوضعه فيه • وبهذا التصرف الحكيم قطع دابر النزاع وجنب قريشاً حرباً أهلية طاحنة ، فرفع ذلك من منزلته بين القوم •

ومما شهده الرسول هو حلف الفضول الذي دعى عقلاء قريش الى عقده بينهم على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ، الا رفعوا عنه الظلم وردعوا الظالم •• وعقد هذا الحلف فى دار عبد الله بن جدعان ، ولاعجابه وتقديره للحلف كان يقول بعد أن بعثه الله : (لو دعيت الى مثله لأجبت) •

وعندما اقترب ميعاد بعثته حبب الله إليه الخلوة بنفسه ، بعد أن صار يضيق مما يرى ويسمع فى مجتمع قومه من تصرفات تنافى الفطر السليمة ، وكان مكانه المفضل للخلوة والتعبد (غار حراء) فى ضواحي مكة •

البعثـــة :

بعد أن اكتمل الأربعين من عمره ، وبينما كان مختلياً بنفسه فى غار حراء يتعبد نزل عليــه جبريل (ع) بالوحي وكان ذلك فى شهر رمضان عام ٦٠٩ ميلادية . وبدون مقدمات أمره جبريل أن يقرأ ففزع وقال : ما أنا بقارىء فكرر الأمر ثلاث مرات وفى المرة الرابعة قال له : (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم . ([1])

قال ﷺ فقرأتها ثم انتهى وانصرف عني ، فكأنما كتب فى قلبي كتاباً . ثم غادر الغار الى زوجته يرجف فؤاده من هول المفاجأة فأخبرها بما حدث له فقالت : ابشر يا ابن العم فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

وكان للسيدة خديجة من رجاحة العقل وصفاء البصيرة ماجعلها تستبعد أن يكون ماحدث لزوجها فى الغار من تلبيسات الشياطين ، لذلك لم تتجه للاستفسار الى الكهان والعرافين ، بل اتجهت الى رجل وقور ذي ثقــافة متينة اعتزل الأصنام وقرأ التوراة والانجيل وهو ابن عمها ورقة بن نوفل ، ولما أخبرته خبر زوجها قال لها مبشراً : ان صدقت يا خديجة لقد جاء الوحي الذي ينزل على الرسل ، وانه لنبي هــذه الأمة فقولي له فليثبت .

الـدعوة الى الله :

ثم نزل عليه الوحي من جديد ، وبدأت مرحــلة جديدة وهي الدعوة الى الاسلام بغير طريق المجابهة والصدع ، بل بطريق أقرب

(١) سورة العلق آية (١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) .

مايكون الى السرية .. وظل ﷺ طيلة ثلاث سنوات يعرض الاسلام (سراً) على من يتوسم فيهم الخير فآمن به نفر قليل من كبار النفوس كان في مقدمتهم ، زوجه خديجة ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، ومولاه زيد بن حارثة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والأرقم بن أبي الأرقم ، وغيرهم .

وبالرغم من علم قريش بظهور الدين الجديد ، إلا انهم لم يهتموا به خلال السنوات الثلاث . كما أن الرسول ، لم يتعرض لآلهتهم في تلك المدة . ولكن معارضة قريش كانت عنيفة عندما أعلن دعوته جهراً كما أمره الله أن يجهر بها ويبدأ بأقاربه فيدعوهم الى دين الاسلام ، فقال تعالى : وانذر عشيرتك الأقربين . وكان أول من دعاهم بني عبد المطلب فلم يستجب له أحد منهم الا ابن عمه (علي بن أبي طالب) كما لم يسمعه أحد منهم مايكره الا عمه أبو لهب الذي رد عليه رداً قبيحاً ..

مقاومة قريش للدعوة :

هبت قريش لمقاومة الدعوة لأنهم رأوا فيها هدماً لكيانهم الذي آقيم على الوثنية . ولما رآوا ان الرسول ﷺ متمسكاً بدعوته غير عابىء بما يفعلون أو يقولون ، بعثوا وفداً من زعمائهم الى عمه أبي طالب ليأمره بالكف عن التنديد بدينهم وتحقير أصنامهم ، فاستدعاه أبو طالب وقال له ناصحاً : ابق علي وعلى نفسك يا ابن أخي ولاتحملني من الأمر مالا أطيق ، فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وكانت هذه الكلمات النبوية الحازمة كافية لأن تجعل أبا طالب ينسى قريشاً وإنذارهم فيؤكد للنبي ﷺ أنه لن يتخلى عنه قائلاً : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت وحدث ماشئت •

الهجرة الى الحبشة :

وتمادت قريش فى غيها وبذلت قصارى جهدها لاخماد صوت دعوة التوحيد • وكان من أشدهم مقاومة للدعوة أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان • ولما لم تستطع قريش أن تنال بغيتها ازدادت كفراً وعتواً وايذاء للمسلمين ، وصبت جام غضبها على المستضعفين ، وعندها أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الى الحبشة لينجوا من بلاء قريش قائلاً لو خرجتم الى الحبشة فاذ بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، فهاجر جمع منهم اليها وذلك فى السنة الخامسة من البعثة •

وقد بعثت قريش بوفد الى النجاشي ليعيد إليهم المهاجرين أو يطردهم ، وحاولوا اغراءه بهم فاتهموهم بأنهم يطعنون بعيسى عليه السلام ولكن النجاشي رفض طلبهم وأحسن الى المسلمين ــ بعد أن تلا أحدهم سورة مريم أمامه • وبقي المسلمون فى الحبشة الى أن عادوا مع جعفر ابن أبي طالب فى السنة السابعة من الهجرة • وقد وصلوا والرسول فى خيبر بعد اتمام فتحها فكان سروره مزدوجاً بوصول صحابته من الحبشة سالمين وبفتح خيبر •

جحود قريش وتهديدها :

اشتد القرشيون فى مقاومتهم لدعوة الاسلام ، ومع ذلك فقد تزايد عدد المسلمين وقوي جانبهم بدخول رجلين فى الاسلام كان لهما

وزنهما الثقيل فى المجتمع القرشي ، وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب ، بعد ذلك لجأوا الى سياسة المقاطعة والتجويع فتعاهدوا فيما بينهم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب وكل المسلمين اقتصادياً واجتماعياً • وعانى الجميع من هذا الحصار أشد أنواع التجويع والحرمان ولكن بعض النبلاء من القرشيين استنكروا هذه المقاطعة ، فعملوا على انهائها بعد أن استمرت ثلاث سنوات •

واستمر الرسول يدعو الى ربه كل من يلقاه من أهل مكة وغيرهم فكانت دعوته تلقى تجاوباً ملموساً • وفى السنة العاشرة من البعثة أصيب بمصيبتين كبيرتين فى آن واحد كان لهما أكبر الأثر على نفسه هما وفاة زوجته خديجة التي كانت تشد أزره وتواسيه • وبعد مضي أربعين يوماً على وفاتها مات عمه أبو طالب الذي كان يحميه ويناصره •

وتجرأت قريش على النبي ﷺ وصار سفهاؤهم يمدون اليه أيديهم بالأذى • وقد أفصح عن ذلك فقال : (مانالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب) •

ومع مالحق به من أذى فكان يقول : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » •

ولما اشتد عليه الأذى من قومه فى مكة ذهب الى الطائف فعرض الاسلام على اشرافها ودعاهم الى نصرته فلم يكتفوا بتكذيبه ورفضهم لنصرته بل أغروا به سفهاؤهم فقذفوه بالحجارة •

بيعـة العقبـة :

عاد الرســول من الطائف ودخل مــكة فى حمــاية المطعم بن عدي ، واستمر قومه فى ايذائه والتضييق عليه وعلى أصحابه ، ولكنه لم يأبه لهم بل بقي راسخاً كالطود العظيم لاتزعزعه الشدائد ولا توهن من عزيمته المصائب ، بل تزده تصميماً واقداماً ، واستمر فى دعوته •
ثم خرج أيام الحج كعادته يدعو الحجاج الى الاسلام ، فالتقى بنفر من أهل المدينة المنورة ، من الأوس والخزرج ، فآمنوا به وتعاهدوا معه على حمايته ان هو جاء الى المدينة ، وكان ذلك فى منى بمكان يقال له « العقبة » •

الهجرة الى المدينة المنورة :

بعد بيعة العقبة أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة الى يثرب فهاجر الصحابة سراً الا عمر بن الخطاب (ر) فانه بعد أن طاف بالكعبة خرج علناً وهدد من يتبعه من المشركين •

وقررت قريش قتــل النبي ، فاجتمعت فى دار الندوة واتفقوا على ان تشترك جميع قبائل قريش فى قتله ، فيختار من كل قبيلة شاباً فيضرب محمداً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين جميع القبائل فيعجز بنو هاشم عن المحاربة فيرضون بالدّية • ولكن الرسول أفسد عليهم هذه الخطة فقرر الهجرة الى يثرب ، وغادر مكة ومعه أبو بكر الصديق فى الليلة التي اتفقت قريش على تنفيذ الجريمة فيها ، وترك ابن عمه علي ابن أبي طالب فى فراشه •

وجدّت قريش فى مطاردة النبي ﷺ وجعل زعماؤها مائة ناقة جائزة لمن يعيد إليهم محمداً حياً أو ميتاً ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ،

فقد تمكن وصاحبه من الافلات واتجها نحو يثرب بعد أن اختفيا فى غار (ثور) جنوبي مكة حيث مكثا ثلاث ليال •

وبعد رحلة شاقة استمرت أحد عشر يوماً وصلا قرية قبــاء فى ضواحي يثرب وفيها مكثا أربعــة أيام حيث أقام خلالها النبي أول مسجد أسس فى الاسلام •

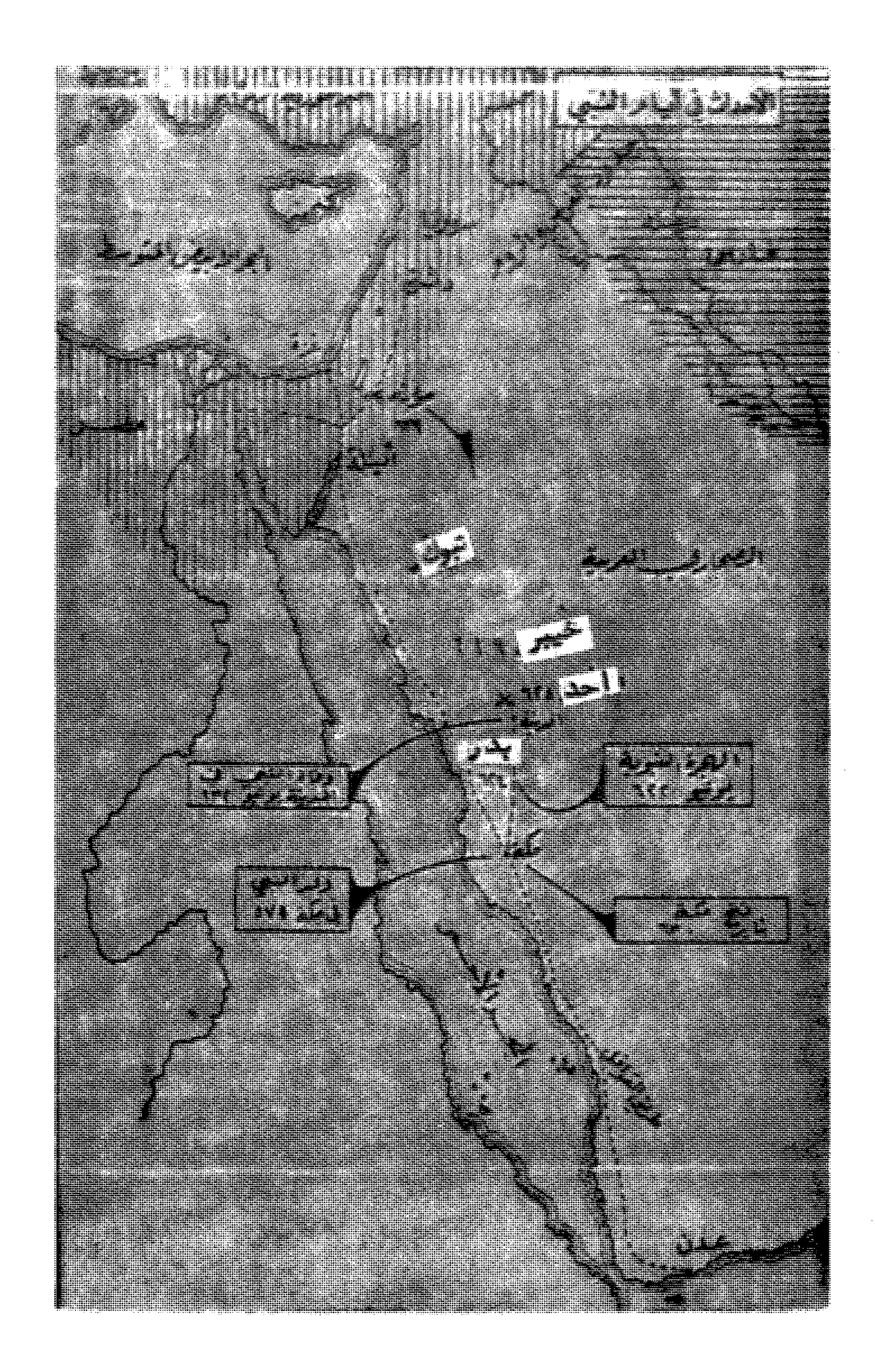
وفى يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول (سنة ٦٢٢ م) خرج أهل يثرب للترحيب بالرسول العظيم ، فكان ذلك اليوم يوماً تاريخياً لم تشهد المدينة مثله • ونزل فى دار (أبو أيوب الأنصاري) •

ومنذ ذلك التاريخ أطلق على يثرب اسم (دار الهجرة) أو المدينة وأطلق على الذين هاجروا إليها اسم المهاجرين وعلى الأوس والخزرج الذين آووا ونصروا النبي اسم الأنصار •

بنــاء الدولة الاسلامية

وكانت أولى المسائل التي اهتم بها النبي ﷺ بنــاء المجتمع الجديد على قواعد الاسلام ، وأول ماواجهه من مشاكل هو العــداء المستحكم بين قبائل الأوس والخزرج الذي هو من مخلفات الوثنيــة المظلمة •• وقد تغلب عــلى تلك المشكلة بحكمته ورجاحة عقله • ثم شرع فى بناء المسجد لتظهر فيه شعائر الدين الجديد ، ويكون ملتقى لمختلف العناصر القبلية فتتآلف فيه قلوبها فى ظل وحدة التوحيد •

وقد لجأ الى وسيلة حكيمة اجتث بها جذور الفرقة والبغضاء التي كانت تذكيها الحروب القبلية الجاهلية فعقد مؤتمراً عاماً فى المدينة آخى فيه بين المسلمين جميعاً • وبهذه المؤاخاة لم يعد أي وجود للشحناء فى المجتمع الاسلامي ، وأصبح أول مجتمع مثالي فى جزيرة العــرب


الصحراء العربية
خيبر
أحد
الهجرة النبوية
عدن

يسوده الهدوء والنظام وتسيطر عليه روح الاخاء والمحبة والتسامح .

وفى الوقت الذي تم فيه التآخي بين المسلمين منح يهود المدينة كافة الحقوق ، وتعهدوا له بالاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة ضد أي عدوان خارجي ، ولكن اليهود نقضوا العهد ..

غزوة بدر الكبرى

(سنة ٢ هـ ـ ٦٢٤ م)

كان القتال قبل الهجرة غير مأذون به للمسلمين ثم نزل به الاذن فى آيات منها قوله تعالى « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » . (٣٩ ، ٤٠ الحج) .

قبل معركة بدر الكبرى بحوالي تسعة عشر شهراً لم يحدث أي عراك دامي بين المسلمين والمشركين سوى الحادثة التي استولت فيها سرية عبد الله بن جحش على قافلة لقريش بين مكة والطائف وقتلت منهم رجلاً كان أول قتيل من المشركين .

وفى مكان يقال له بدر يقع على بعد ١٦٠ ميلا جنوب غرب المدينة المنورة كان بمثابة محطة رئيسية لقوافل قريش المتنقلة بين مكة والشام نشبت معركة بين المسلمين وقريش فى السنة الثانية من الهجرة وسببها أن المسلمين خرجوا للاستيلاء على قافلة تجارية لقريش التي استولت على أموالهم وصادرتها فى مكة .

أفلتت القافلة من المسلمين والتقوا بدلاً منها بألف مقاتل من

المشركين فاضطروا الى الاشتباك معهم فى بدر وذلك ماعناه الله تعالى بقوله « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أنغير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . (الانفال ٧) وقد كتب الله النصر للمسلمين فى هذه المعركة رغم قلة عددهم بعد أن قتلوا سبعين من المشركين وأسروا أعداداً كبيرة . وقد أطلق الرسول سراح بعضهم دون مقابل ، وبعضهم دفع عن نفسه الفدية ، والبعض الآخر أطلق سراحهم مقابل أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

أما الغنائم فقد جرى توزيعها حسب الآية الكريمة : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (الأنفال ٤١) .

غزوة أحد

(سنة ٣ هـ ـ ٦٢٥ م)

بعد الهزيمة الساحقة التي أنزلها المسلمون بقريش فى معركة بدر قرر قادتها أن يغسلوا عار تلك الهزيمة ويثأروا لقتلاهم فى بدر . ففي السنة الثالثة للهجرة جهزوا جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب لمهاجمة المسلمين فى يثرب وكانت قوات المسلمين تقدر بسبعمائة مقاتل .

وصل جيش قريش فعسكر بالقرب من جبل أحد الواقع شمالي المدينة ، وكان المسلمون قد خرجوا من المدينة وعسكروا فى موقع فم

الشعب وجعلوا جبل أحد وراء ظهورهم . ودارت المعركة فكان النصر للمسلمين فى المرحلة الأولى ولكنهم أصيبوا بنكسة حولت نصرهم الى هزيمة فقدوا فيها سبعين شهيداً بينهم حمزة بن عبد المطلب ، كما جرح الرسول ﷺ وأشيع أنه قتل . وكان سبب الهزيمة خروج الرماة على أوامر الرسول بتركهم أماكنهم فى الجبل الذي وضعهم فيه لحماية مؤخرة الجيش ، فقد اغتنم قائد سلاح فرسان قريش فرصة انسحاب الرماة من مواقعهم فكر على المسلمين من الخلف وأوقع الاضطراب والفوضى فى صفوفهم حتى تمزقت ، وقد اكتفت قريش بما حدث فعاد جيشها الى مكة بعد أن خسر أربعة وعشرين قتيلاً . وفى معركة أحد كشف الله المنافقين حيث تمرد منهم ثلاثمائة تركوا صفوف الجيش والنبي فى منتصف الطريق الى أحد . وقد كانت الانتكاسة درساً وعاه المسلمون فى الانضباط العسكري والتقيد بأوامر الرسول القائد .

غزوة الأحزاب

(سنة ٤ هـ ـ ٦٢٦ م)

أمر الرسول اجلاء يهود بني النضير عن المدينة بعد أن ثبت تدبيرهم مؤامرة لاغتياله . ولم يكد يستقر المقام لهؤلاء اليهود فى خيبر حتى اتفقوا مع زعماء قريش لمهاجمة المدينة والقضاء على المسلمين فيها . ولتحقيق مخططهم جمعوا مع قريش عشرة آلاف مقاتل من القبائل الوثنية فى نجد والحجاز . وقد بلغ النبي ﷺ أنباء هذا الحشد فجمع أعوانه وحفروا خندقاً شمالي المدينة كخط دفاع حسب مشورة سلمان

الفارسي (ر) • وهاجمت جيوش قريش وحلفائها المدينة وانضم اليها يهود بني قريظة الموجودين داخل المدينة بعد أن نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين •

شدد الغزاة الخناق على المسلمين والحصار على المدينة الصامدة كالطود • واستمر ذلك حوالي شهرين • ثم أرسل الله عليهم ريحاً شديدة ففكوا حصارهم عن المدينة دون أن يحققوا شيئاً من الأهداف التي جاءوا من أجلها •وكان فشل الاحزاب فى احتلال المدينة الاسلامية أكبر اندحار عسكري للمشركين واليهود وأعظم انتصار يحققه المسلمون فى العهد النبوي الأمر الذي أدى الى رفع سمعتهم فى جزيرة العرب •

صلح الحديبية :

بعد انتصار المسلمين على الأحزاب بادر النبي ﷺ الى تعميق جذور الدعوة وترسيخ قواعد الدولة الجديدة • وفى السنة السادسة للهجرة أمر أصحابه بالتهيؤ للعمرة فخرج ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين • وبالرغم من أنه لم يخرج للحرب فقد اعترض القرشيون سبيله ، فعسكر بأصحابه وهم بلباس الاحرام فى الحديبية على مقربة من مكة • ثم جرت المفاوضة بينه وبين القرشيين الذين طلبوا فى النهاية عقد صلح بينهم وبين المسلمين فأجابهم الى ذلك ، وكان من أهم بنود الاتفاق مايلي :

١) على المسلمين أن يرجعوا ولايدخلوا مكة ذلك العام •

٢) من حق المسلمين أن يدخلوا مكة معتمرين فى عامهم القادم ويقيمون فيها ثلاثة أيام •

٣) على المسلمين عند دخولهم الى مكة ألا يحملوا من السلاح الا السيوف فى أغمادها •

٤) انهاء حالة الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات •

٥) يلتزم الرسول بأن يعيد الى قريش من أبنائهم من جاء اليه بغير اذن وليه ، وليس على قريش أن تعيد من جاء اليها من المسلمين •

٦) تعطى الحرية المطلقة للقبائل المجاورة لقريش لتنضم الى أي الفريقين شاءت على أن تكون فى عهد الفريق الذي تنضم اليه وتطبق عليها أحكام والتزامات هذا الصلح •

مكاسب الصلح :

وقد كان صلح الحديبية نصراً عظيماً للرسول ودعوته • وخلاصة مكاسبه هي :

أ) اتاحة الفرصة للمسلمين والمشركين بأن يختلط بعضهم ببعض فى حرية وأمان ، الأمر الذي جعل القرشيين يتفهمون حقيقة الاسلام فيدخلون فيه عن فهم واقتناع •

ب) أوقف مقاومة قريش فساعد ذلك المسلمين على التفرغ لوضع حد لشغب اليهود فى خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء •

ج) تفرغ الرسول ﷺ لنشر الدعوة على نطاق واسع وأوفد رسله الى ملوك وأمراء الشرق يدعوهم الى الاسلام •

د) فر كثير من شباب قريش المسلمين من مكة وأرادوا الاقامة

فى المدينة ، فلم يسمح لهم النبي ﷺ بذلك وفاء بالعهد الذي أعطاه لقريش فى الحديبية ، فقطعوا الطريق بين مكة والشام ، وصاروا يهاجمون قوافل قريش التجارية ، فلجأت قريش الى النبي وأبلغته تنازلها عن الشرط المتعلق بعدم ايوائه من يريد من أهل مكة لتأمن على تجارتها فوافق على طلبها •

الرسول يدعو الملوك الى الاسلام :

أثناء الهدنة بين المسلمين وقريش دعا النبي ﷺ الملوك والرؤساء الى الاسلام وفى مقدمتهم : هرقل امبراطور الروم ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس عامل الرومان على مصر ، وباذان نائب كسرى على اليمن ، فبعث الى كل من هؤلاء رسولا خاصاً بكتاب منه ، وقد كان رد الفعل لدى هؤلاء مختلفاً فبينما غضب كسرى ومزق رسالة النبي قبل أن يقرأها ، تفهم هرقل الرسالة وأكرم حاملها وأيضاً المقوقس أجاب اجابة حسنة ، أما باذان فقد اعتنق الاسلام ومن معه من الفرس فى اليمن •

فتح خيبر

(سنة ٧ هـ ــ ٦٢٩ م)

كان أول عمل قام به النبي ﷺ بعد صلح الحديبية هو وضع حد لشغب اليهود ودسائسهم وانهاء سيطرتهم على منطقة خيبر التي اتخذوها مركزاً للحركات ضد المسلمين • مع العلم أنهم كانوا وراء غزوة الأحزاب التي خططوا لها مع قريش واشتركوا فى تنفيذها للقضاء

على الدعوة الاسلامية وتصفية أنصارها • وقد تمت السيطرة للمسلمين على خيبر بعد قتال شديد استمر شهرين ، وبسقوطها استسلمت باقي جيوب المقاومة اليهودية فى فدك ووادي القرى وتيماء • وبذلك تم نهائياً القضاء على الوجود اليهودي وخطره •

فتـــح مـــكة

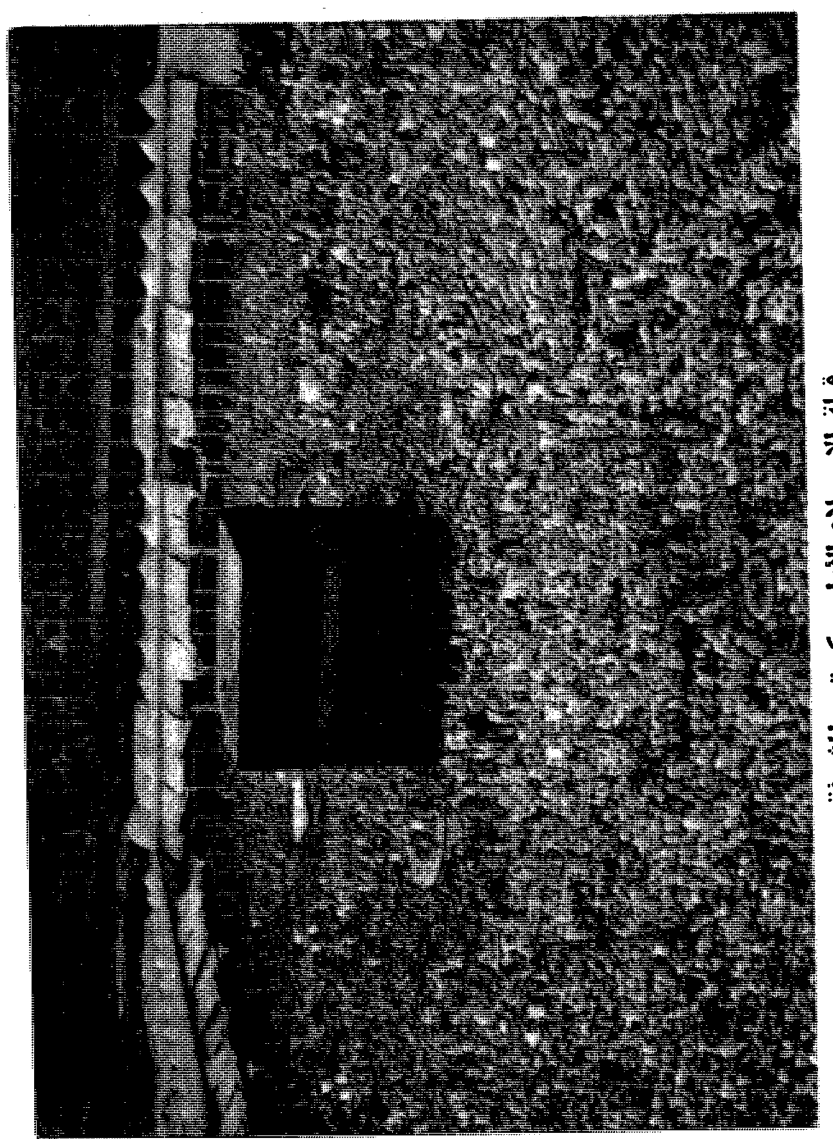
(سنة ٨ هـ ـ ٦٣٠ م)

اعتدى بنو بـــكر حلفاء قريش على خزاعة حلفاء النبي ﷺ فاعتبر النبي مساعدة قريش لبني بكر بالســـلاح والرجال نقضاً صريحاً لصلح الحديبية ، فقرر الزحف على مكة لأنهاء الوجود الوثني فيها •

وقد أمر الرسول ﷺ بالتعبئة العامة بين المسلمين فاجتمع لديه عشرة آلاف مقاتل خرج بهم من المدينة فى شهر رمضان السنة الثامنة للهجرة ، وكان قد التزم الكتمان فى زحفه حتى أن المسلمين لم يعلموا أنه يقصد مكة •

وكان ابو سفيان قد جاء الى المدينة بغية تجديد الصلح ولكنــه فشل فعاد الى مكة •• وعندما وصل الجيش الاسلامي الى ضواحيها خرج أبو سفيان يلتقط الأخبار فالتقى به العباس بن عبد المطلب فذهب به الى الرسول فأعطاه الأمان ، ثم أسلم •

ودخل المسلمون مكة من جهـــاتها الأربع ، ولم يحدث عنـــد فتحها الا بعض المناوشات فى الناحية التى دخلها خالد بن الوليد حيث اعترضه بعض المشركين فاضطر لقتالهم •



قبلة الاسـلام الاولى وكعبتهم المشرفة

وعند دخول مكة أعلن الرسول ﷺ : من دخل الحرم فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن حتى تمت السيطرة للمسلمين عليها .

تحطيم الأصنام :

بعد أن طاف الرسول بالكعبة سبعاً وخلفه أصحابه أمر بتحطيم جميع الأصنام وهو يقول (وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) « الاسراء ٨١ » ،ثم أذن بلال على سطح الكعبة ، وصلى المسلمون وخطب النبي ﷺ خطبة تجلى فيها التسامح فى أعلى مظاهره فقال : (لا إله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ، ثم خاطب قريشاً قائلا : (يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) «الحجرات١٣» . يامعشر قريش ماتظنون أني فاعل بكم قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم قال : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

غزوة حنين
(سنة ٨ هـ ـ ٦٣٠ م)

علمت قبائل هوازن باستيلاء المسلمين على مكة ، فساءها ذلك وقرر زعيمها مالك بن عوف النضري أن يزحف على المسلمين لاخراجهم من مكة ، وبلغ النبي ﷺ ذلك فخرج فى اثني عشر ألفاً من المسلمين . وفى وادي حنين ـ بين مكة والطائف ـ التقى بقبائل هوازن البالغ عدد رجالها آلاف المقاتلين .

ومع طلوع الفجر انفض المسلمون بقوة وايمان لا يغلب ، على هوازن وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة مزقتهم شر ممزق ، وغنموا فى هذه المعركة مالم يغنموا مثله فى أية معركة حدثت فى العهد النبوي .

حجة الوداع :

مما قال جابر (١) فى وصفه لحجة الوداع .. ان الرسول صلى الله عليه وسلم قصد مكة حاجاً فى السنة العاشرة من الهجرة فخرجنا معه من المدينة حتى أتينا ذا الحليفة .. الى أن قال : ثم ركب القصواء (٢) حتى اذا استوت ناقته على البيداء نظرت الى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك .. الى أن قال : حتى اذا زاغت الشمس خطب فى الناس ومما قال : ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا . كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع . فاتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمان الله . الى أن قال : ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله .

ولقد ذكر ان عدد الذين حجوا مع رسول الله فى ذلك العام مائة ألف . وفى حجة الوداع نزل على النبي آية من القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام

---

(١) صحيح مسلم ـ الجزء الرابع

(٢) الرسول صلى الله عليه وسلم ركب ناقته واسمها القصواء

دينا . » ولقد قيل ان هـذه الآية دلت على انقطـاع الوحي وان الرسول صلى‌الله‌عليه‌وسلم سوف يلتحق بالرفيق الأعلى . وبعد حجة الوداع بثلاثة أشهر مرض بالحمى ، ولما اشتد به المرض أمر أبابكر أن يصلي بالناس ، ولما بلغه أن الأنصار يبكون خرج الى المسجد معصوب الرأس متكئاً على علي بن أبي طالب حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وخطب فقال : (أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبي قبلي ممن بعثه الله ؟ فأخلد فيكم ، ألا اني لاحق بربي ، وأنكم لاحقون بي ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خـيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم بخير فان الله يقول : والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر . وأوصيكم بالأنصار خيراً فانهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم) .

وفـاة الرسول :

لما اشتد المرض عليه ﷺ لم يخرج من البيت حتى لقي ربـه وذلك ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة (الموافق ٨ حزيران ــ يونيه عام ٦٣٢ م) فحزن المسلمون حزناً عظيماً لهذا الخبر المؤلم ، ومنهم من مرض وبعضهم أنكر وفاته مثل عمر بن الخطاب الذي شـهر سيفه قائلا : من قال أن محمـداً قد مات قطعت رأسـه بسيفي هذا . وكان عمر يرى ان الرسـول لم يمت ــ بل يرى أنه وعد مثلما وعـد موسى وسـوف يرجع (قال تعالى : وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) « ١٤٢ ــ الأعراف » .

عندما سمع أبو بكر الصديق ماقاله عمر بن الخطاب ورأى ما آل اليه أمر المسلمين وقف فيهم خطيباً وقال (أيها الناس ، من كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لايموت ثم تلا الآية : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللهشيئاً وسيجزي الله الشاكرين » .

وفى ليلة الاربعاء فى اليوم الرابع عشرمنشهرربيعالأول سنة ١١ هـ دفن عليه الصلاة والسلام فى مكان فراشه فى بيت عائشة (ر) ..

مزاياه وصفاته :

اذا أردنا هنا أن نعد ونحصي مزايا الرسول ﷺ وصفاته وأفعاله الحميدة فلن تتمكن ، ولن نستطيع أن نوفيه حقه فمزاياه كلها حسنة ، وأفعاله كلها رشيدة ، وصفاته فى غاية الكمال والجمال . وكفاه فخراً أن امتدحه الرب جل جلاله فى كتابه ، فقال تبارك وتعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » وقال تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . » ١٢٨ التوبة ، وقال تعالى « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيرا . » ـ ٤٥،٤٦ الأحزاب . وقوله تعالى فى سورة النجم : والنجم اذا هوى (١) ماضل صاحبكم وماغوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو الا وحي يوحى .

لقد لاقى رسول الله فى سبيل دعوته من العنت والأذى والمشقة والضرر ماينوء عن حمله أشداء الرجال وعظمائهم . وبالرغم من ذلك استمر يدعو الى الله دون ضعف أو كلل ، ودون تعب أو ملل . وقد صبر وتحمل فوق مايحمل البشر ، وماذا كان يقول عندما يلحقه الأذى

من كفار قريش ؟ كان يدعو لهم فيقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

وكان الرسول أذكى الناس وأصدقهم لهجة . عرف بالعدل والشجاعة والبلاغة والحكمة . وقد اتصف بالتواضع والصبر والثبات ورجاحة العقل ورحابة الصدر والتسامح . وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويحث على مكارم الأخلاق وعمل الخير . ورفع شأن الفضيلة ، وبني المجتمع الاسلامي على أسس متينة .

مآثر الاسلام

كان للاسلام أثره العظيم فى نهضة العرب ، فأوجد لهم كياناً ونظاماً شمل جميع نواحي الحياة . وهذه هي بعض مآثره :

١ ـ قضى على الوثنية وحول الناس الى عبادة الله وحده لا شريك له .

٢ ـ أنقذ العرب من براثن الجهل الذي كان متفشياً فى أوساطهم فتفتحت عيونهم الى النور وتحرروا من الخرافات .

٣ ـ قضى على العادات الضارة وفسادها : (السلب والنهب وشرب الخمر والربا والزنا الخ ..) وأعاد الى المرأة كرامتها وحقوقها فى المجتمع .

٤ ـ أزال الفوارق بين الأجناس ، ونهى عن التواكل والتخاذل ، وحث على الانفاق فى أوجه البر والخير .

٥) أمر الصغير بأن يحترم الكبير ، وأمر كل فرد باطاعة رئيسه مالم يأمر بمعصية الله ، كما أمر ببر الوالدين ، وأوصى بالجار ، وحث

على مكارم الأخلاق .

٦) وحد العرب وجمع شملهم وكون لهم ذاتية ومجتمعاً له نظامه المستمد من القرآن الكريم .

لقد جاء الاسلام دين الهدى والحق للناس كافة . جاء برسالة تجمع الشعوب فى أمة واحدة لاتعرف شعوبية ولا اقليمية ، رابطتها العقيدة الدينية والايمان الراسخ والاخوة الصادقة .



الفصل الثالث

الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين

قيام الخلافة :

لم يعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بالخلافة لأحد بل ترك الأمر شورى بين المسلمين . وبعد وفاته كان لابد من اختيار خليفة يتولى شؤون المسلمين ودولتهم الناشئة . وقد حصل فى بادىء الأمر خلاف بين المهاجرين والأنصار ، فادعى المهاجرون المكيون أنهم أولى الناس بالخلافة لانتسابهم الى قبيلة النبي ﷺ ولكونهم أول من صدق بدعوته ، ومن جهة أخرى ادعى الأنصار المدنيون أنهم أحق بالخلافة لأنهم قاموا بنصرة الرسول وحمايته ، ورشحوا من جماعتهم سعد بن عبادة سيد الخزرج للخلافة . وأسرع كل من أبو بكر وعمر بن الخطاب الى مكان الاجتماع فى سقيفة بني ساعدة حيث

دارت مناقشات انتهت بمبايعة أبي بكر • وسميت تلك البيعة بالبيعة الخاصة ، وأما البيعة العامة فكانت فى المسجد فى اليوم التالي حيث بايعه عامة الناس •

أبو بكر الصديق

هو عبد الله أبو بكر بن عثمان الذي عرف باسم أبي قحافة ، يجتمع نسبه مع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ستة آباء لقب بالصديق لأنه كان يبادر فى تصديق الرسول فى كل ما يقول • وهو أول من أسلم من الرجال ، وخديجة (ر) أول من أسلم من النساء ، وعلي (ر) أول من أسلم من الصبيان •

وكان أبو بكر صديقاً للرسول ، ورفيقه فى الجهاد لنشر الدعوة الاسلامية التي أنفق فى سبيلها ماكان يملكه • وعندما ولي الخلافة خطب بالمسلمين فقال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني •• الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه •

حروب الردة :

قاوم أبو بكر الصديق حركة المرتدين والمتنبئين والقبائل التي رفضت دفع الزكاة بحزم ، فأرسل جيوشاً الى المرتدين فى اليمامة والبحرين وعمان واليمن ، فقضت على حركتهم وزعمائها أمثال مسيلمة الكذاب فى اليمامة الذي كان استفحل خطره بعد أن تزوج بامرأة من بني تميم اسمها سجاج ادعت النبوة كزوجها • وكان من

أشهر قادة المسلمين فى حروب الـردة خالد بن الوليد ، وعكرمـة ابن أبي جهل ، وعمرو بن العاص • ومن بين الذين استشهدوا أربعة من البواسل الذين اشتركوا فى غزوة بـدر الكبرى وهم : عمار ابن ياسر ، أبو حذيفة بن عتبة ، سالم بن سالم ، وعبد الله بن سهل •

وبذلك تم القضاء على المرتدين وأعيدت الوحدة الى الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام •

حملة أسامة الى البلقاء :

أرسل أبو بكر الصديق جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل بقيادة أسامة بن زيد لمحاربة الروم • وكان هـذا الجيش قد عقـد لواءه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته لتأديب الغساسنة الذين قتلوا والد أسامة زيد بن حارثة • وسار الجيش الى بلاد الشام واشتبك مع الروم فى معارك دارت رحاها بالبلقاء قرب مؤتة فانتصر عليهـا وعاد بغنائم ثمينة بعد أربعـين يوماً • وكان ذلك الانتصار فاتحـة خير وتمهيداً للفتوحات الكبرى •

فتح الحيرة والانبار :

جهز الخليفة أبو بكر الصديق جيشـاً بقيادة خالد بن الوليد وجعل تحت امرته المثنى بن حارثة الشيباني شيخ قبيلة بكر للاستيلاء على الحيرة والانبار ــ (سنة ١٢ هـ) وبعد عـدة معارك انتصـر الجيش الاسلامي على الفرس واستولى على الحيرة وشاطىء الفرات الغربي وبادية الشام وعلى عدة مدن فى العراق • ثـم ترك القيادة خالد الى المثنى بن حارثة وتوجه بناءً على أمر من الخليفة أبو بكر الى الشام لنجدة المسلمين •

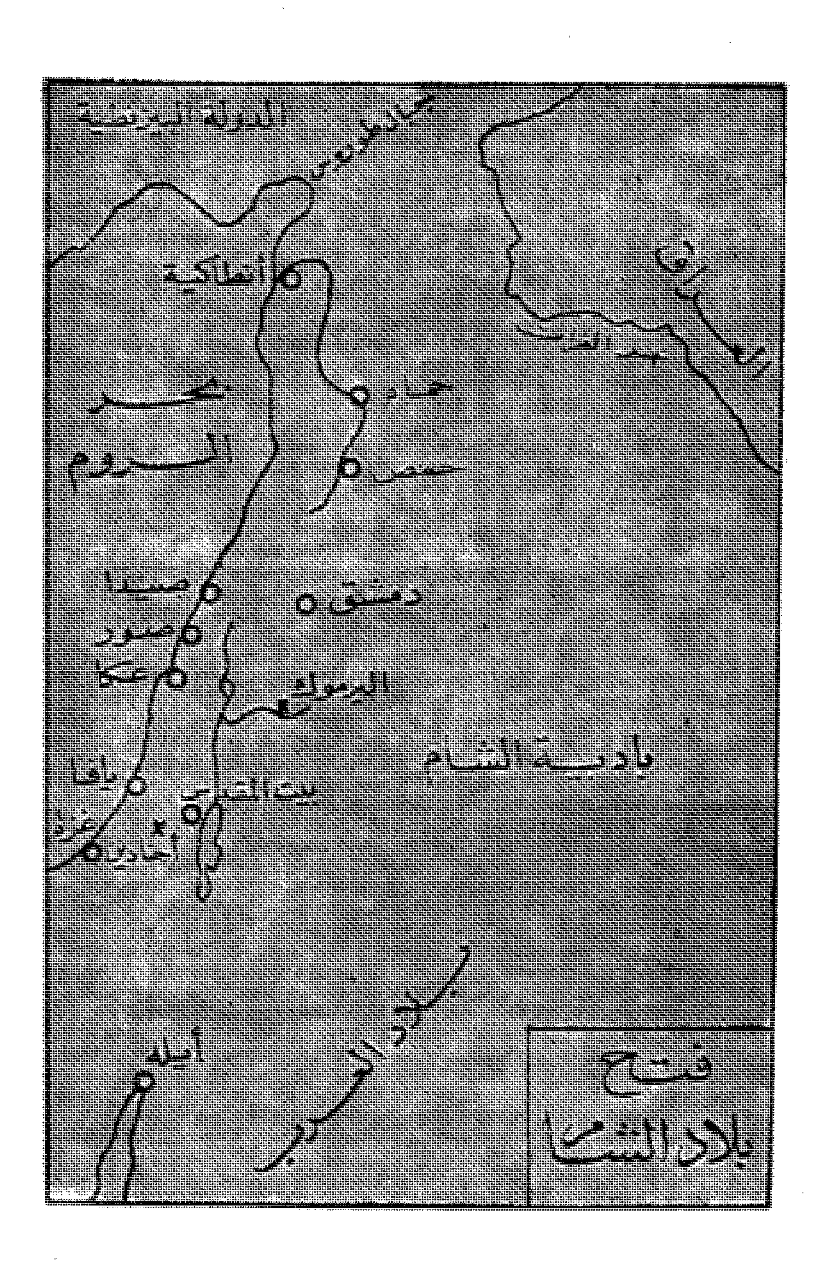
فتح الشام :

أرسل أبو بكر لفتحها أربعة جيوش تحت قيادة كل من أبو عبيدة عامر بن الجراح وجعل وجهته حمص ، وشرحبيل بن حسنة وجعل وجهته الأردن ، وعمرو بن العاص وجعل وجهته فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق . وكانت مجموع تلك الجيوش (٣٦ ألف) وعلى الفور أرسل هرقل امبراطور الروم جيوشه لقتالهم بقيادة ماهان الأرمني ، وكان عددها ٨٠ ألفاً . ولما اشتدت المعارك توالت على الروم الامدادات حتى بلغ عددها ٢٤٠ ألفاً فى الوقت الذي لم يزد فيه عدد المسلمين عن ٤٠ ألفاً مما اضطر القواد المسلمون الى طلب المدد من الخليفة أبو بكر ، فأرسل لهم خالد بن الوليد مع قواته من الحيرة وولاه قيادة جيوش المسلمين فى اليرموك . وكان خالد قائداً فذا ، فنظم الجيوش تنظيماً حسناً وجعل لها قلباً ومقدمة وميمنة وميسرة . وقد قاتلت جيوشه ببسالة منقطعة النظير ، وبينما كان القتال مستمراً عند اليرموك توفى أبو بكر الصديق ، وتولى الخلافة عمر بن الخطاب .

جمع القرآن فى عهد أبي بكر :

فى عهد أبي بكر جمع القرآن على اثر استشهاد فئة كبيرة فى الحروب من الذين يحفظون القرآن ، وعهد الى زيد بن ثابت أن يقوم بجمعه ليكون فى مصحف واحد .

وقد جمع القرآن من الرقاع وألواح اللخاف وصدور الرجال فى صحف تجمع سوره كلها ، تم ذلك فى عهد أبي بكر الصديق الذي حرص قبل وفاته على جمع صحف كتاب الله الكريم ليظل واحداً



الدولة البيزنطية
أنطاكية
بحر الروم
حماة
حمص
صيدا
دمشق
صور
عكا
اليرموك
بادية الشام
يافا
بيت المقدس
غزة
أجنادين
أيلة
فتح بلاد الشام

لا لبس فيه ولا تحريف •

وكان أبو بكر تقياً حريصاً على تنفيذ تعاليم الدين الاسلامي • وهو أصغر من الرسول بسنتين ، توفى سنة ١٣ هـ ـــ ٦٣٤ م عن عمر يناهز ٦٣ عاما • وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر • ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله •

عمـر بن الخطـاب

هو عمر بن الخطاب بن نيفل وكنيته أبو حفص ، يجتمع مـع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجد السابع من جهة أبيه وفى الجد السادس من جهة أمه ، وهو أصغر من النبي بثلاث عشرة سنة •

وكان عمر (ر) حازماً وعادلا ، شهد مع الرسول جميع غزواته • وقد عهد أبو بكر اليه بالخلافة وهو عـلى فراش مرضه بعـد أن استشار كبار الصحابة •• رأى ذلك حرصا على وحدة المسلمين أن يعهد بالخلافة الى شخصية تتوفر فيهـا العدالة والكفاءة والشجاعة تجمع كلمتهم لكي لايقع الخلاف وتنشب الفتنة فتجلب عليهم الوبال وتحل بالجيوش الاسلامية التي تحارب الروم فى الشام الهزيمة •

ودعا أبو بكر الصديق عثمان بن عفان وأملا عليه كتاب العهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد به أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين • أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب •• فإن صبر وعدل فذلك علمي به ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب •

ثم أشرف على جموع المسلمين فى المسجد وقال لهم : أترضون بمن استخلف عليكم ؟ قالوا سمعنا وأطعنا •

وبناء على هذا العهد تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر • وقد بايعه جميع الصحابة ، ولقب بأمير المؤمنين •

سير مراحل الفتوحات الاسلامية

كانت معركة اليرموك على أشدها عندما تولى الخلافة عمر بن الخطاب • وبقيادة البطل خالد بن الوليد حققت الجيوش الاسلامية انتصارات رائعة أكسبت الدولة الاسلامية الفتية هيبة ومكانة • وكان خالد قائداً شجاعاً حاذقاً بفنون الحروب وأساليبها ، خاض الكثير من المعارك فأكسبته خبرة واسعة • وخشية من افتتان المسلمين به أرسل الخليفة عمر كتاباً الى خالد يأمره بتسليم قيادة الجيوش الى عبيدة بن الجراح ولما وصله خاف اظهاره حتى لاتهن عزائم الجنود ، فأبقاه حتى تم النصر فى معركة اليرموك الحاسمة سنة ١٥ هـ ـ ٦٣٦ م ثم سلم القيادة الى أبي عبيدة وبقي معه يعمل جندياً فى سبيل واجبه الديني والوطني •

انتهاء سيطرة الروم

وبعد هزيمة جيوش الروم وابادة القسم الأكبر من كتائبها على ضفاف اليرموك وفى المرتفعات الجبلية وقرب درعا زحفت القوات الاسلامية بقيادة أبي عبيدة الى دمشق فاحتلتها ومنها تابعت الزحف الى المدن الأخرى فسقطت ، واستمرت فى ملاحقة فلول جيوش هرقل

امبراطور بيزنطية (الروم) حتى بلغت جبال طورس • وبذلك انتهت سيطرتها على سوريا وفلسطين •

الخليفة عمر يدخل القدس

وفى الوقت الذي كان الجيش الاسلامي بقيادة أبو عبيـدة بن الجراح يطارد قوات الروم المدحورة كان عمرو بن العاص يواصل سيره باتجاه بيت المقدس بعد أن انتصر على الروم فى موقعة أجنـادين • وعندما بلغت قواته المدينة المحصنة حاصرتها وطال حصارها ، عندئذ طلب البطريرك منغوريوس تسليمها على أن يحضر الخليفة عمر بنفسه فحضر عمر من المدينة المنورة وفى طريقه مر بالشام وتفقد أحـوالها ثم واصل السفر الى بيت المقدس عام ١٦ هـ (٦٣٧ م) حيث استقبله البطريرك بالترحيب وسلمه المدينة ، فأمن المسـيحيين على حيـاتهم وممتلكاتهم وكنائسهم وأطلق لهم حرية العبادة • وقد دهش البطريرك منغوريوس بما لمسه وانحنى أمام الخليفة وقال : حقاً يا أمير المؤمنين ان رسالتكم تمثل أسمى معاني التسامح والعدالة والحرية • تلك هي رسالة الاسلام العظيمة التي حملها عمر بن الخطاب من المدينة المنورة الى القدس • وفى اليموم التالي طاف عمر بالمدينة وشاهد معالمهـا التاريخية ، وفى موضع هيكل سليمان الذي دمره نبوخذ نصر (نبوكد) ملك بابل عام ٥٨٧ ق م • رأى قمامة فأمر بازالتها وبناء المسجد فى ذلك المكان •

فتح العراق وفارس

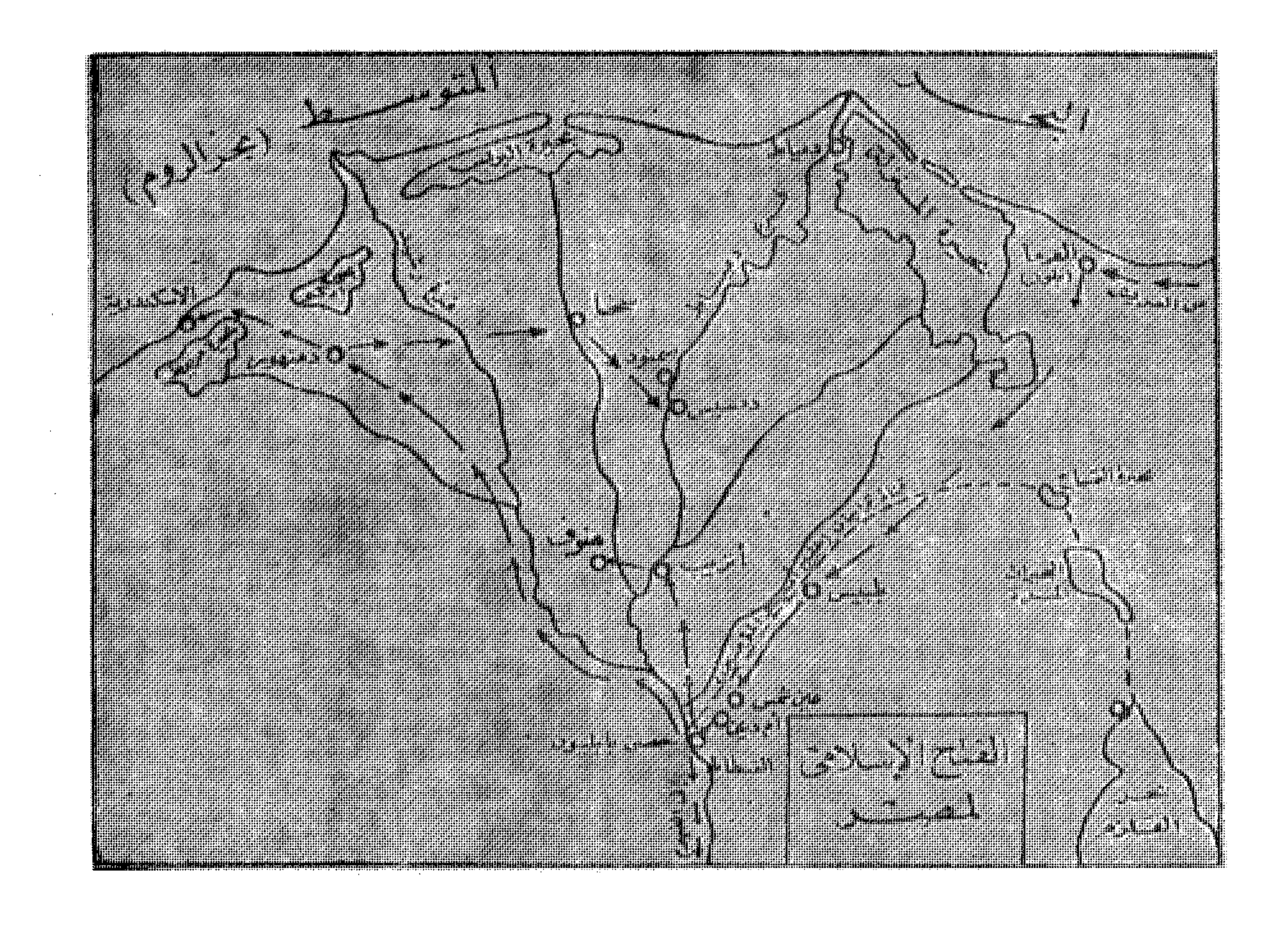
أعد الخليفة عمر الجيوش لفتح فارس ، وقد ولى سعد بن أبي وقاص قيادتها ، فنزل بها فى القادسية عام ١٧ هـ الموافق ٢٠ آب ٦٣٧ م ، وكانت جيوش الفرس التي يقودها رستم تزيد على جيوش المسلمين بأربعة أضعاف • واصطدم الفريقان فى قتال دام أربعة أيام وانتهى بالنصر المبين للمسلمين • وقد استشهد منهم ٧ـ٨ آلاف مقاتل، وقتل من الفرس ثلاثين ألفاً من بينهم القائد رستم • وبعد شهرين واصل الجيش سيره الى المدائن ودخل القائد المسلم سعد بن أبي وقاص قصر كسرى الابيض وهو يقرأ قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون • وزروع ومقام كريم • ونعمة كانوا فيها فاكهين » [1] وأعد الفرس من جديد جيشاً قوامه ١٥٠ ألف مقاتل ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب جيشاً بقيادة النعمان بن مقرن قوامه ٣٠ ألف ، وعند نهاوند دارت بينهما المعركة الحاسمة التي كتب الله النصر فيها للمسلمين وسميت (بفتح الفتوح) لأن امبراطورية الفرس بعدها لم تقم لها قائمة ، كان ذلك سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) • ثم تابعت الجيوش الاسلامية سيرها واستولت على بلاد فارس •

فتح مصر

فى أواخر عام ٦٣٩ م توجه عمرو بن العاص الى مصر لفتحها بعد أن استأذن الخليفة عمر بن الخطاب • وكان جيشه قوامه أربعة

---

(١) الدخان آية ٢٥،٢٦،٢٧


الفتح الإسلامي
لمصر
البحر
المتوسط
(بحر الروم)
الإسكندرية
دمنهور
سخا
منوف
بلبيس
عين شمس
الفرما
دمياط

آلاف مقاتل سار بهم من فلسطين بمحاذاة الساحل . وتمكن من من الاستيلاء على بلبيس ، ثم زحف على حصن بابليون حيث تقيم الحامية الرومانية فحاصرها ، وطلب من الخليفة عمر مدداً فأرسل اليه ثمانية آلاف مقاتل يقودهم الزبير بن العوام . وتم الاستيلاء على بابليون بعد أن ألحق بالروم هزيمة شنعاء .

وتابعت الجيوش الاسلامية تقدمها حتى بلغت الاسكندرية فحاصرتها وطال حصارها لأن المدد الى حاميتها كانت تصلها عن طريق البحر التي يسيطر عليه الأسطول البيزنطي . وأخيراً استسلمت المدينة بعد أن عقد المقوقس بطريرك الأقباط حاكم مصر من قبل الروم صلحاً مع عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ــ ٦٤٢ م ، وكانت أهم شروطه : يسمح للحامية الرومانية بالانسحاب ، يمنح للمسيحيين حريتهم الدينية ويحافظ على أرواحهم وأموالهم .

وقد رحب شعب مصر بالعرب وقائدهم عمرو بن العاص لما لمسه من العدل والشهامة والتسامح . وبقرب حصن بابليون أسس عمرو عاصمته الجديدة وأطلق عليها اسم الفسطاط ، وفيها بني مسجد سمي باسمه لايزال باقياً حتى اليوم . ولقد أدخل الكثير من الاصلاحات كما اهتم بالزراعة والري ، وجدد حفر القناة وسماها خليج أمير المؤمنين .

شخصية عمر بن الخطاب واصلاحاته

عرف الخليفة عمر بالعدل والتقوى والتواضع الذي ظهر فى ملبسه ومظهره وفراشه من سعف النخل الذي كان ينام عليه . وكان يطوف الاسواق ويتفقد بنفسه الرعية ويسهر على مصالحها . ولم يكن

يهمه من حياة الدنيا سوى اعلاء كلمة الله والدفاع عن الاسلام والحرص على كرامة المسلمين وأموالهم .

وقد جعل عمر بداية التاريخ العربي من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل رأس السنة يبدأ من أول المحرم . ونظم الدولة وقسمها الى ولايات ، وعين لادارتها الرجال الاكفاء النزهاء . ولضمان العدالة جعل القضاة مستقلين عن الولاة . كما أنشأ ديوان الجند لتسجيل أسماء الجنود ورتبهم وخدماتهم للدولة ، وأسس البريد ، وأنشأ أيضاً ديوان بيت المال لاحصاء أموال الدولة ومصروفاتها ، وأيضاً دار الحسبة ـ لمراقبة المكاييل والموازين والنظافة وقمع الغش الخ . كما أرسل العلماء والفقهاء للأمصار لتعليم المسلمين أمر دينهم .

وقتل عمر (ر) غدراً فى سنة ٢٣ هـ ـ ٦٤٤ م على يد أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة ، ولما علم عمر أن قاتله مجوسي ، حمد الله الذي جعل قاتله من الذين لم يسجدوا لله سجدة واحدة . ودفن عمر فى حجرة عائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر .

عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، يلتقي نسبه مع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف .

وقد شهد عثمان الغزوات كلها مع النبي الا غزوة بدر وذلك لانشغاله بتمريض زوجته رقية بنت رسول الله . ولما توفيت زَوَّجَهُ النبي أختها أم كلثوم ولذلك لقب (بذي النورين) . وكان من كتاب الوحي ، فقيهاً فى الدين ، سخياً ومتواضعاً .

بيعة عثمان

بعد أن طعن الخليفة عمر بن الخطاب لم يعهد بأمر الخلافة لواحد معين من بعده كما فعل أبو بكر عندما أحس بدنو أجله ، بل جعلها شورى بين المسلمين ، وأمرهم بأن يختاروا واحداً من كبار الصحابة وهم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام • وقد انتخب عثمان بن عفان للخلافة من بين هؤلاء الستة •

استمرار الفتوحات الاسلامية

واستمرت الفتوحات فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، ففتح كل من : خراسان ، أذربيجان ، وطبرستان ، وطرابلس الغرب التي كانت لاتزال تحت حكم الروم • كما أخمد الثورة التي نشبت فى بلاد فارس• وكان من أبرز الانتصارات هو تدمير الأسطول الاسلامي للأسطول الروماني فى موقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ ــ ٦٥٥ م •

نشوب الفتنة ووبالها

فى المرحلة الأولى لحكم الخليفة عثمان بن عفان ازدهرت الولايات الاسلامية وسادها الاستقرار ، وانتشر العرب فى شمال افريقيا ، وجمع القرآن فى مصحف واحد ووزعت منه عدة نسخ على الولايات •

وفى المرحلة الثانية من حكم عثمان الذي كان بلغ عمره ٧٦ سنة استعان بنفر من ذوي قرباه لتسيير أمور الدولة ، وسرح بعض الولاة الذين ولاهم سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وولى آخرين بدلا منهم استبدوا بالأهالي وعظم خطرهم ، فضج الناس من كثرة مالاقوه



من هؤلاء الولاة ، وأقبلت جماعة ثائرة من أهالي الكوفة والبصرة ومصر الى المدينة المنورة . ولما علم بهم الخليفة عثمان أرسل يستفسر عن سبب مجيئهم فعلم أنهم قادمون لعزله أو لقتله . فأشار عليه كبار أهل المدينة المنورة بضرورة مواجهة هؤلاء الثوار وقتالهم الا أن عثمان (ر) لم يرغب فى سفك دماء المسلمين ، ورفض مشورتهم وقال لهم (بل نعفو) . وعندما قابلهم وشرحوا له ماجاءوا من أجله ، دافع عن نفسه حتى أقنعهم ثم أجابهم الى بعض مطالبهم فرجعوا من حيث أتوا وفى الطريق تغلب عليهم شيطان النفس والهوى فعادوا ثانية الى المدينة المنورة زاعمين أن الخليفة كتب الى عماله بقتلهم .. وحاصروا عثمان فى داره ٤٠ يوماً ، ومنعوا عنه الماء وهو شيخ يزيد عمره على ثمانين سنة . . ثم تسلقوا داره فوجدوه يقرأ القرآن ، فقتلوه ونهبوا بيت المال ، ومات شهيداً سنة ٣٥ هـ (٦٥٦ م)

وقد أدى مقتل الخليفة عثمان الى مأساة كبرى كان لها أثرها الكبير ، وأخطارها القريبة والبعيدة ، فجرت فى أعقابها سلسلة من المآسي الدامية على المسلمين .

علي بن أبي طالب

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة . اشتهر بالبلاغة والشجاعة والبراعة فى القضاء

وبعد مقتل عثمان بن عفان عرض بعض الصحابة الخلافة على الامام علي فرفض . ولما ألحوا عليه اضطر الى اجابتهم وتمت البيعة فى مسجد المدينة . وقد بدأ بازالة الخلافات ، فعزل

جميع ولاة سلفه الخليفة الشهيد عثمان بن عفان لأنهم كانوا السبب فى تذمر الناس بل وفى الفتنة التي أدت الى مقتل عثمان ، فأذعنوا جميعهم ماعدا معاوية بن أبي سفيان الذي رفض الامتثال لأمر الخليفة علي وأصر على البقاء فى ولايته بالشام حيث علق على المنبر قميص عثمان وأخذ يطلب بثأر الخليفة المقتول بحجة أنه قريبه وولي دمه .

موقعة الجمل

واتخذ الامام علي كرم الله وجهه الكوفة فى العراق عاصمة لـه وبينما كان يستعد لقمع حركة التمرد بالشام واخضاع معاوية للطاعة ظهرت حركة فى مكة بزعامة الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله ، وتوجه الثوارالىالعراق وكان بصحبتهم أم المؤمنين عائشة . فجهز الامام علي جيشاً قاده بنفسه وسار الى البصرة لملاقاة الثوار ، وكاد أن يقنعهم ببراهينه الساطعة وحججه البليغة لولا أن ابن سبأ اليهودي وأعوانه ممن اشتركوا فى مقتل عثمان خافوا على أنفسهم من القصاص فبادروا باشعال نار الحرب . وكان النصر فيها للامام علي وأتباعه . وقد قتل فى تلك المعركة طلحة وابنه والزبير . حدث ذلك فى سنة ٣٦ هـ (٦٥٦ م) وقد سميت بموقعة الجمل لأن أم المؤمنين عائشة كانت تركب جملا . وبعد انتهاء المعركة أعاد علي أم المؤمنين الى المدينة المنورة معززة مكرمة وأرسل معها ابناه الحسن والحسين لحراستها .

موقعة صفين

حاول الامام علي بالطرق السلمية حسم النزاع ولكن معاوية لم يستجب ، وعندئذ جهز جيشاً لقتال معاوية وأتباعه من المتمردين فتقابل الجيشان فى (صفين) غرب الفرات سنة ٣٧ هـ (٦٥٧ م) ،

واستمرت الحرب بينهما ثلاثة أيام رجحت فيها كفة الامام علي ، وكاد يهرب جيش معاوية لولا أن أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع المصاحف على أسنة الرماح بقصد التحكيم الى كتاب الله • وكان ذلك بنظر علي خدعة ولكن قادة الجيش أشاروا عليه بقبول التحكيم فعمل بمشورتهم • واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، فاختار الامام علي أبو موسى الأشعري لعلمه وفقهه وورعه ، واختار معاوية عمرو بن العاص لدهائه • وقد اتفقا على خلع كل من الامام علي ومعاوية وأن يختاروا من بين المسلمين خليفة وذلك ليقضوا على الفتن وحقنا لدماء المسلمين • وعند اعلان نتيجة التحكيم طلب عمرو بن العاص من أبي موسى الأشعري بأن يتقدم فيعلن النتيجة أمام الجميع لأنه أكبر منه سناً، فتقدم أبو موسى قائلا : « أيها الناس انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها من أن نخلع علياً ومعاوية ونرد الأمر شورى فالتمسوا من هو أهل للخلافة » وبعد انتهائه تقدم عمرو بن العاص وقال : ان هذا قد خلع صاحبه ، وأنا أخلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولي عثمان وأحق الناس بمقامه • وعندئذ وقعت الفتنة وانقسم جيش الامام على نفسه قسمين ، قسم أيده (الشيعة) وقسم آخر تمرد ، عرف باسم الخوارج فناصبوه العداء واتخذوا من بينهم خليفة يدعى عبد الله بن وهب •

وعندما رأى الامام علي أن الخوارج يشكلون خطراً ويرفضون الانصياع الى الطريق المستقيم ، خرج عليهم وقضى على قسم كبير منهم فى موقعة النهروان سنة ٣٨ هـ ، وهرب الباقون •

وبعد تصفية الخوارج استتب الأمر لعلي فى العراق واستقر فى

عاصمته الكوفة . أما معاوية فقد ظل فى الشام يعــد العدة ويجهز القوات ليأخذ الخلافة .

وخلاصة القول أن التحكيم لم يحسم النزاع بــين الامام علي ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان الذي استقل بولايته (الشام) بل وسع شقة الخلاف وادى الى انقسام المسلمين .

شخصية الامام علي ومميزاته :

لقد أضيف لاسم الامام علي لقب (كرم الله وجهه) لأنــه لم يسجد لصنم ، ولم يعبد سوى الله وحده . وهو الذي قدم نفسه فداء للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بمبيته فى فراشه ليــلة الهجرة . وقد تزوج من فاطمة الزهراء بنت رسول الله فولدت له الحسن والحسين. واشتهر الامام علي بن أبي طالب بالشجاعة والبطولة والفصاحة ، فلم يفر من معركة ، ومابارز أحداً الا غلبه . وكان أول المبارزين يوم بدر ، وأحد الثابتين يوم أحد ويوم حنين مع رسول الله . وكان يرجع اليه الصحابة فى الكثير من أمور الدين ، وقال عنه النبي (أقضاكم علي) . وهو أحد الستة الذين قال عنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ــ توفي الرسول وهو عنهم راض .

مؤامرة الخوارج وعاقبتها

اتفق ثلاث رجال من الخوارج على قتل الامام علي وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان . وقد تعاهدوا فى الكعبة فيما بينهم بأن ينفذوا خطتهم فى يوم واحد ، وحددوا يوم ١٧ رمضان لتنفيــذ المؤامرة . واختار كل واحد منهم رجلا يقتله ، فالامام علي تعهــد

بقتله عبد الرحمن بن ملجم ، ومعاوية تعهد بقتله البرك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن العاص تعهد بقتله عمرو بن بكر التميمي • وخرج ثلاثتهم كل واحد يقصد الرجل الذي تعهد بقتله •• وطعن ابن ملجم الامام علي وهو متوجه لصلاة الصبح فقتل • أما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة يوم ١٧ رمضان لسبب مرضه ، فخرج نائبه وهو (خارجة بن أبي حبيبة) فقتله عمرو بن بكر التميمي ظناً منه أنه عمرو بن العاص • وأما معاوية فان الذي تعهد بقتله ضربه بالسيف فأصابه على وركه وجرح جرحاً بليغاً ، لكنه عولج حتى شفي •

وهكذا كان فقد نفذ الخوارج مؤامرتهم الاجرامية •• ومات الامام علي شهيداً فى ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ (٦٦١ م) ودفن فى الكوفة

بيعة الحسن وتنازله :

بعد يومين من وفاة علي بن أبي طالب بايع الناس ابنه الحسن (ر) ، وأول من تقدم هو قيس بن سعد بن عبادة الذي كان على امرة أذربيجان فبايعه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بايعه كبار القوم فى المسجد بالكوفة •

وحاول بعض قادة الجيش اقناع الحسن بن علي لقتال معاوية الذي كان بالاضافة الى ولاية الشام التي استقل بها ضم اليه ، مصر ولكن الحسن لم يكن فى نيته أن يقاتل أحدا ، ورأى أن انقسام المسلمين على أنفسهم يشكل خطراً على أمتهم وبلادهم ، والأفضل هو ايجاد الجو الملائم للوصول الى صلح ينهي النزاع ويحقن دماء الأمة الاسلامية •

وقد جرت اتصالات ومفاوضات دامت عدة أشهر انتهت الى عقد صلح بين الحسن بن علي ومعاوية ، أهم شروطه هي : (١) يتنازل

الحسن عن الخلافة لمعاوية • (٢) يطبق معاوية الشريعة الاسلامية ، ويجعل الخلافة من بعده على أساس (شورى) أي انتخاب بين المسلمين، ويحافظ على آل البيت وأمنهم وسلامتهم ، ويسمح الى الحسن بأن يأخذ خمسة آلاف درهم من بيت مال الكوفة •

وبعد أن تم الاتفاق حضر معاوية الى الكوفة ومعه صديقه عمرو بن العاص عام ٤١ هـ ، فبايعه الحسن بن علي وتبعه أنصاره • وأطلق على هذه السنة التي تمت فيها وحدة الكلمة اسم (عام الجماعة) • وبذلك استتبت الأمور ، وأعيد للدولة الاسلامية وحدتها وهيبتها •

ثم رحل الحسن بن علي ومعه أخوه الحسين وعمهم عبد الله بن جعفر الى المدينة المنورة وفيها توفي عام ٤٩ هـ (٦٦٩ م) ودفن بالبقيع قريباً من قبر أمه فاطمة الزهراء •

نتـــائج الفتـــوح
فى عهـــد الخلفاء الراشدين

خلال عهد الخلفاء الراشدين الذي امتد منذ وفاة الرســـول صلى الله عليه وسلم سنة ١١ هـ حتى سنة ٤٠ هـ اتســـعت أرجـــاء الدولة الاسلامية فشملت الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين ومصـــر والعراق وفارس وبلاد القفقاس وبرقة وطرابلس الغرب وقبـــرص ورودس • وتم تصفية الامبراطورية الفارسية ، واقتـــلاع جذور الامبـــراطورية البيزنطية (دولة الروم) من الشرق حيث كان الصراع فيه محتدماً بين الدولتـــين •

وقد انتشر الاسلام خلال عهد الخلفاء الراشدين انتشاراً واسعاً بدخول كثير من سكان البلاد التي فتحها العرب فيه تحت لواء الرسالة الاسلامية • وفى هذه البلاد اتخذوا مباديء الاسلام أساساً لتوطيـــد حكمهم ، قوامها الحرية ، والعدل ، والمساواة ، والتسامح ، والحفاظ على ممتلكات السكان ومصالحهم •

وبالاضافة الى بناء المساجد والعناية بتثقيف المسلمين فقد تأسست عدة مدن فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ونظمت الدولة والادارة فى الولايات ، وانتشرت اللغة العربية فى البلاد المفتوحة حيث أقبلت شعوبها على تعلمها فساعد ذلك على توطيد العلاقات والاختلاط بـــين العرب الذين خرجوا من الجزيرة العربية لنشر الدعوة الاسلامية والاقوام الاخـــرى •

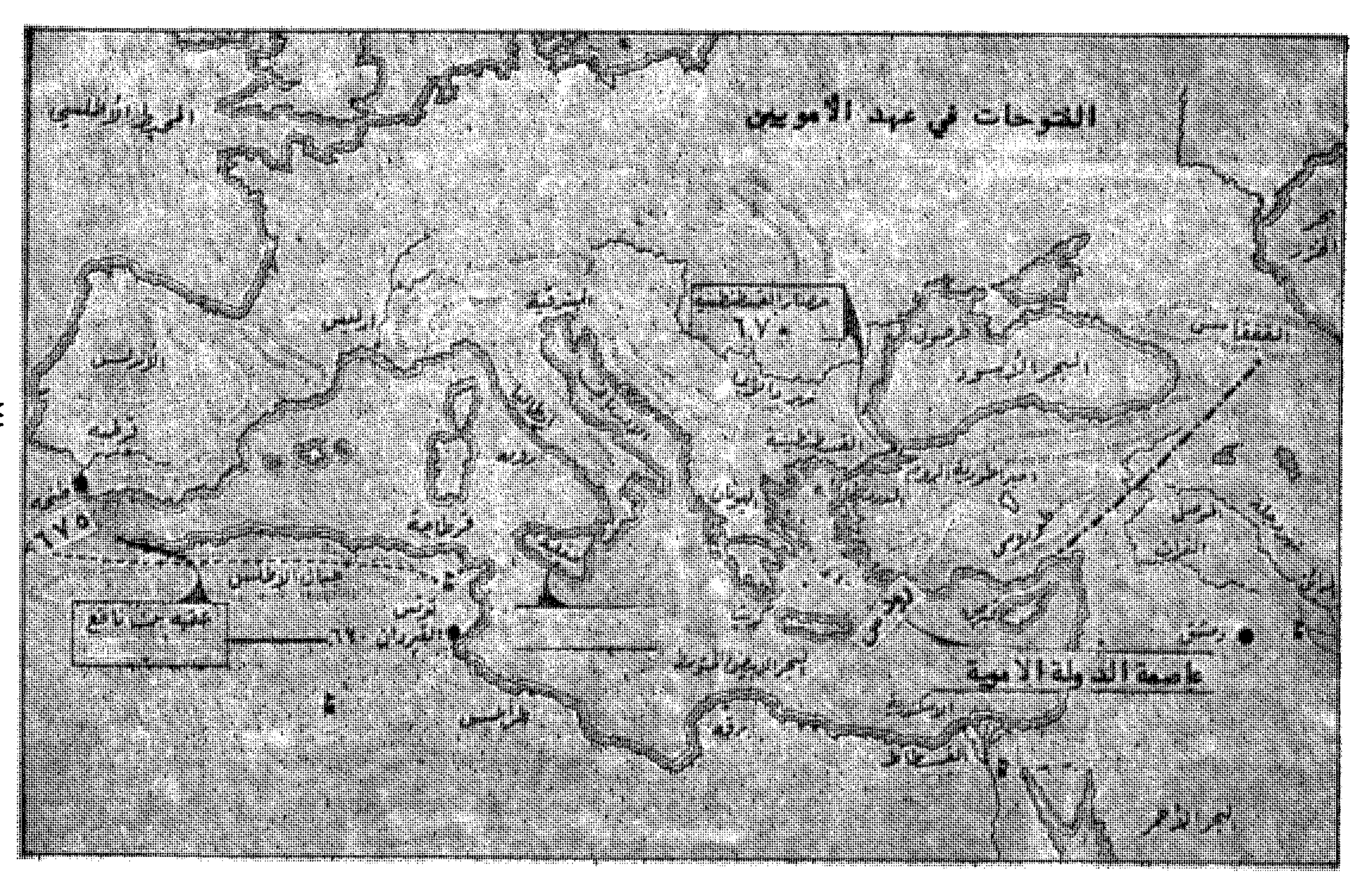
الفصل الرابع

الدولة الاموية

ينتسب الأمويون الى أمية بن عبد شمس الذي كان فى الجاهلية سيداً من سادات قريش ، وكان فى الشرف والرفعة يعادل عمه هاشم بن عبد مناف ، ولذا فقد تنافس كلاهما على رئاسة قريش فى الجاهلية ، واستمر التنافس بين الاسرتين فى الاسلام .

معاوية ابن أبي سفيان

يعتبر معاوية مؤسس الدولة الأموية ، وهو أول خليفة من الأمويين فى الاسلام ، ولد بمكة قبل الهجرة بخمسة عشر سنة وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه وأمه هند وباقي الأمويين الذين لم يتساووا مع البيت الهاشمي فى شرف السبق الى الدخول فى الاسلام


الفتوحات في عهد الأمويين
عاصمة الدولة الأموية
دمشق
البحر الأسود
٦٧٠
القيروان ٦٧٠
جبال الأطلس
برقة
الفسطاط
البحر الأحمر

ومناصرة الرسول • وقد اشترك معاوية فى فتح فلسطين ، وولاه الخليفة عمر الأردن ودمشق ، ولما تولى عثمان الخلافة ولاه الشام كلها • وبعد مقتل عثمان استقل ونقل خلافته بعد أن استتب له الأمر الى دمشق •

الفتوحات فى عهده :

وجه معاوية اهتمامه الى الامور الداخلية والتوسع فى الفتوحات فأمر القائد المهلب بن أبي صفرة بغزو بلاد السند ، فزحف على أفغانستان واستولى على كابول سنة ٤٤ هـ (٦٦٥) ومنها استمر حتى وصل الى مدينة لاهور بإقليم البنجاب • وفى خراسان تمكنت الجيوش الاسلامية من الاستيلاء على بخارى وسمرقند •

وعمل معاوية على تقوية الأسطول الاسلامي حتى بلغ عدد سفنه ١٧٠٠ سفينة ، ففتح رودس وقبرص وبعض جزر اليونان فى البحر الأبيض المتوسط • وفى سنة ٤٩ هـ حاصرت الجيوش الاسلامية القسطنطينية براً وبحراً ولم تتمكن من الاستيلاء عليها لمتانة أسوارها ومناعة موقعها ، واستخدام الروم النار الاغريقية التي أحرقت مجموعة من سفن العرب فعادوا الى الشام •

وامتدت الفتوحات الاسلامية الى افريقيا بقيادة عقبة بن نافع ففتح طنجة سنة ٦٧٠ م ثم ذهب الى تونس وأسس مدينة القيروان وجعلها قاعدة حربية له عام ٥٥ هـ (٦٧٥ م) •

أعمال معاوية :

كان معاوية رجلا حازماً وسياسياً محنكاً ، نجح فى تنظيم الدولة فى الداخل • وأسس ديوان التسجيل ، وأنشأ مصلحة البريد التي عمت

جميع الولايات ، وجعل الخلافة سلالية ترتكز على مبدأ وراثي بعد أن كانت الخلافة شورى بين المسلمين •

وتقرب معاوية لرؤساء العرب ، واختار الولاة الأكفاء لادارة الأقاليم • ولم يكن يستعمل الشدة الا متى رأى استعمالها محتماً ، وكان بطيء الغضب ضابطاً لثورات النفس ، ومن أقواله الدالة على تصرفاته : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، اذا شدوها خليتها واذا خلوها شددتها » •

لقد رأى معاوية أن يحصر الخلافة فى نسله ، فعهد الى رجاله المخلصين بترويج الدعوة لقبول الناس البيعة لابنه يزيد بولاية العهد • وقد جرت البيعة فى دمشق فى اجتماع عام ضم العلماء والوفود التي جاءت من الولايات • وهكذا ضمن الخلافة من بعده لابنه يزيد •

وقبل وفاة معاوية ترك وصية ليزيد أوصاه بإكرام أهل الحجاز ومسايرة أهل العراق ، والتعاون مع أهل الشام •

وفى عام ٦٠ هـ (٦٨٠ م) توفى معاوية بدمشق ودفن فيها بعد خلافة دامت عشرين سنة •

خلافة يزيد بن معاوية

بعد موت معاوية بويع يزيد بالخلافة من قبل المسلمين ما عدا بعض الشخصيات فى الحجاز من أبناء الصحابة وأبناء الخلفاء وغيرهم • وعندما علم يزيد بالخبر كتب الى عامله على المدينة الوليد بن عتبة أن يأخذ له البيعة من الذين تمنعوا ، فتمكن من أخذ البيعة للخليفة يزيد

من عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر أما عبد الله بن الزبير فقد رفض وتوجه الى مكة .

ورفض ايضاً الحسين بن الامام علي مبايعة يزيد وقال لعامله الوليد : ان مثلي لايبايع سراً ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً . ثم ترك المدينة المنورة وذهب الى مكة .

مأساة كربلاء وذيولها :

وردت على الحسين بن الامام علي الرسائل من الشيعة بالعراق ملحين طالبين أن يأتي لمبايعته . فتوجه الحسين (١) اليهم مع أهل بيته على رأس عدد قليل من أتباعه لم يتجاوز ٨٠ رجلا ،وعندما وصل الى كربلاء قدم عليه جيش بقيادة عمر بن سعد سيره عبد الله بن زياد والي يزيد على الكوفة ، وأخذ يشدد الحصار على الحسين وجماعته ومنعهم من الوصول الى الماء لاملاء القرب للقافلة ، وعند ئذ طلب الحسين من قائدهم الموافقة على أحد الشروط التالية حقناً لدماء المسلمين وهي : اما أن يسمح له بالذهاب الى الحدود الشريقة ليجاهد فى سبيل الله لمقاتلة الكفار ، واما أنيسمح له بأنيعود الىالمدينةالمنورة ، أويأخذه الىالخليفة يزيد بن معاوية ، فرفض القائد عمر بن سعد وأمر فرسانه بالانقضاض عليه ، وكان عددهم أربعة آف ، فقاتل الحسين ومن معه قتال الأبطال الى أن استشهدوا جميعاً ولم يبق سوى النساء وطفل صغير هو علي زين العابدين بن الحسين ، ومن الذين قتلوا ١٦ رجلا من أهل بيته و٦٤

(١) أوفد الحسين قبل سفره الى الكوفة ابن عمه مسلم ابن عقيل فرحب به أهلها ، ثم مالبثوا أن تفرقوا عنه خوفاً من بطش الوالي عبد الله بن زياد الصارم الذي لاحق مسلم وقتله ولم يعرف الحسين بخبر مقتلهالا بعد ان وصل الى العراق .

من أنصاره • واحتز رأس الحسين وحمل الى يزيد بدمشق فأمر برده الى أخت الحسين زينب فدفن مع الجسد فى كربلاء • وسميت تلك الموقعة بموقعة كربلاء ، فكانت كرب وبلاء • حدث ذلك فى العاشر من شهر محرم عام ٦١ هـ الموافق عام ٦٨٠ ميلادية •

الاعتداء على المدينة وحصار مكة :

أثارت مذبحة كربلاء موجة من السخط والاستياء والنقمة على يزيد بن معاوية فى جميع الولايات الاسلامية ، فأثر ذلك على مركزه ونفوذه وبالأخص فى الحجاز التي لم تبايعه فئة من وجوهها بالخلافة بعد وفاة أبيه معاوية •

وحاول يزيد استرضاء أهل المدينة المنورة ، فكتب الى عامله أن يرسل وفداً من أشرافها ، فاتصل بوجهاء البلد وذهب وفد برئاسة عبد الله بن حنظلة الى دمشق لزيارة يزيد ، وعاد غير راض مما شاهده ولمسه •

وثار أهل المدينة وأعلنوا خلع يزيد ، وطردوا عامله ، فأرسل اليهم جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل بقيادة مسلم بن عقبة المري • ووصل الجيش الى المدينة وحاصرها من جهة الحرة ، وأمهل السكان ثلاثة أيام ليعودوا الى طاعة الخليفة فرفضوا واعتبروا الحصار امتهاناً لمدينة الرسول • وقد انقض جيش يزيد على المدينة وسكانها الذين دافعوا ببسالة ، وتمكن من احتلالها واخضاع أهلها بالسيف بعد أن قتل منهم زهرة شبابهم وكبار قادتهم ثم أباح القائد مسلم بن عقبة المدينة لجنوده ثلاثة أيام فعاثوا فيها نهباً وقتلا وفساداً • وسميت تلك الوقعة بوقعة الحرة ، حدثت فى سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) •

وبعد أن قام الجيش الأموي بتخريب المدينـــة المنورة توجه الى مكة المكرمة لاخضاع عبد الله بن الزبير ، الذي صار يدعو لنفســه بالخلافة بعد مقتل الحسين بن علي • وبينما كان الجيش سائراً فى طريقه أدركت قائده المنية فخلفه الحصين بن نمير ، واستمر يواصل تقدمه حتى وصل الى مكة فحاصرها وأخذ يقذفها بالمنجنيق ، فأصابت قذائفــه الكعبة المشرفة واشتعلت فيها النيران وتهدم القسم الأكبر منهــا • وقد دافع ابن الزبير وأهل مكة وقاوموا الجيش الأموي • وفى تلــك الأثناء توفى الخليفة يزيد بن معاوية ، فلما علم قائده الحصين بن نمير بموته انسحب بعد أن كان مضى على حصار مكة شهرين وعاد الــى الشـــام •

التنافس علـى الخلافة

بعد وفاة يزيد عام ٦٤ هـ (٦٣٨ م) اشتدت حملة التنافس على الخلافة بين الأمويين وعبد الله بن الزبير الذي نجح بكسب ولاء أهل الحجـــاز •

وقد خلف يزيد ابنه معاوية الثاني ، وكان شاباً تقياً ورعاً محباً لبني هاشم ، ولكن خلافته لم تطل سوى أربعين يوماً ، فمرض واعتكف فى داره ، ولم يختار واحداً من بني أمية أو غيرهم ليتولى الخلافة بعده ، بل ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين • وبقي معتكفاً فى منزله حيث توفى بعد عشرة أيام •

الحجاز تبايع عبد الله بن الزبير :

ينحدر عبد الله بن الزبير من أسرة عريقة ، فأبوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق • وكان تقياً عالماً

وشجاعاً ، أحبه الجميع ومالوا اليه وبايعه بالخلافة أهل الحجاز بعد أن توفى يزيد • وقد عظم نفوذه ، وبايعه أهل العراق ومصر واليمن وفارس ولم يبق سوى بلاد الشام التي كان لعبد الله فيها أتباع وأنصار تؤيده • وكان بوده الذهاب الى الشام للحصول على البيعة ولكنه خشي من عدم الحصول على البيعة الجماعية والاصطدام بمقاومة مسلحة يغذيها الأمويون بالمال والسلاح ، فظل فى الحجاز واتخذها مركزاً لخلافته التي استمرت تسع سنين (حتى عام ٧٣ هـ) •

الشام تبايع مروان بن الحكم :

فى نفس الوقت الذي بايع فيه الحجاز عبد الله بن الزبير بالخلافة ، استغل الأمويون فرصة عدم قدومه الى الشام فالتفوا حول مروان بن الحكم (١) واختاروه خليفة (عام ٦٤ هـ — ٦٨٤ م) •

واتفق مروان مع القحطانيين فى الأردن وحوران الذين ظلوا موالين للامويين ومنهم جهز جيشاً قوامه ستة آلاف رجل وزحف به لقتال أنصار عبد الله بن الزبير الذين كانوا بقيادة الضحاك بن قيس الفهري • واشتبك الفريقان فى موقع مرج راهط شرق دمشق ، كان النصر فى تلك المعركة التي استمرت عشرين يوماً لمروان بن الحكم الأموي • وبذلك تثبت مركز مروان وأصبح المعترف به خليفة فى بلاد الشام • ثم جهز جيشاً وانتزع مصر من سلطة عبد الله بن الزبير وعزل عامله عبد الرحمن بن حجدم •

وهكذا أعاد مروان بن الحكم الى الأمويين هيبتهم ونفوذهم فى الشام ومصر • وعندما دنت منيته عهد بالخلافة من بعده لولديه عبد

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاصى بن امية بن شمس بن عبد مناف .

الملك ومن بعده الى عبد العزيز ، وأخذ لهما البيعة من مؤيديه . وبعد أيام معدودة من وصيته توفى بدمشق عام ٦٥ هـ (٦٨٥ م) .

عبد الملك بن مروان

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة المنورة سنة ٢٦ هـ ، وأخذ الفقه عن علماء الدين ، وحفظ القرآن الكريم ، وبرع فى الأدب والشعر .

وعندما تولى الخلافة بعد وفاة أبيه كان شقيقه عبد العزيز والياً على مصر ، فنعمت فى عهده بالأمن والرخاء . وقد أدخل الكثير من الاصلاحات منها بناء مقياس للنيل وتوسيع جامع عمروبن العاص فى الفسطاط ، كما جعل من مدينة حلوان عاصمة له .

ووجه الخليفة عبد الملك بن مروان اهتمامه الى الناحية الداخلية ، وتمكن بدهائه ورجاحة عقله وحكمته من القضاء على الفتن والفوضى. ولقد لقي من الصعوبات فى بادىء الأمر الشيء الكثير ، الا أنه مالبث أن تغلب عليها ووطد دعائم الدولة ، فلقب بالمؤسس الثاني للدولة الأموية.

اخضاع الكوفة :

تفرغ عبد الملك بن مروان بعد أن نظم الأوضاع فى بلاد الشام ومصر لتجهيز الجيش واعداده لاخضاع الولايات التي يحكمها عبد الله بن الزبير ، واخضاع البربر فى افريقيا ، واخماد ثورة الخوارج والعلويين فى العراق . وكان آنذاك فى العراق المختار ابن أبي عبيد الثقفي فى صراع مع جماعة الزبير على السلطة ، وبالوقت ذاته كان يلاحق قتلة الحسين بن علي وأتباع الأمويين . وتغلب فى باديء الأمر علي جميع أعدائه ، وعلى الجيش الأموي بقيادة عبد

الله بن زياد قرب الموصل عام ٦٧ هـ وقتل عبد الله فى تلك المعركة على يدي ابراهيم بن الأشتر النخعي قائد جيش المختار • وكان عبد الله فى عهد يزيد والي الكوفة عندما قتل الحسين بن علي ، وهو نفسه الذي أمر بجز رأسه وأرسله الى يزيد •

وخشي عبد الله بن الزبير أن يفقد سلطته على الكوفة فأرسل جيشاً بقيادة أخيه مصعب وانضم اليه عندما وصل الى البصرة المهلب بن أبي صفرة • وقد التحم مع جيش المختار فى معركة قرب الكوفة انتهت بهزيمة المختار وفراره الى داخل المدينة ، فلاحقوه وقتلوه مع عدد من جماعته •

وما كاد مصعب ابن الزبير ينتهي من اعادة النظام الى الكوفة حتى تحرك عبد الملك بن مروان على رأس جيش زحف به من الشام الى العراق ، ودخل الكوفة بعد أن تغلب على أنصار مصعب الذي أبى الاستسلام ، فقاتل هو وابنه عيسى وابراهيم بن الأشتر وبعض أنصاره حتى قتلوا • وبذلك انتهى حكم بن الزبير فى الكوفة عام ٧١ هـ • وتم للخليفة عبد الملك بيعة أهلها وانضم اليه القائد الشهير المهلب ابن أبي صفرة ، فأوفده لقتال الخوارج الذين استفحل خطرهم فحاربهم وانتصر عليهم فى سلسلة من المعارك •

انتزاع الحجاز من ابن الزبير :

لم يبق أمام عبد الملك بن مروان من الخصوم الا الخليفة فى مكة عبد الله بن الزبير ، فأرسل له جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي • فحاصر مكة وقام بقصفها بالمجانيق التي نصبت على الجبال المحيطة بها لارغام أهلها على طلب الأمان والطاعة لعبد الملك • وأصابت قذائف

المنجنيق الكعبة المكرمة وقتل خلق كثير . وقاوم عبد الله بن الزبير الجيش الأموي خمسة أشهر . ورغم انضمام بعض أتباعه واستسلام ولديه الى الحجاج فقد ظل يقاوم ويقاتل حتى قتل ومات شهيداً فى شهر جمادي الأولى عام ٧٣ هـ (٦٩٢م) وبموته استتب الأمر لعبد الملك بن مروان حيث دانت له جميع البلاد الاسلامية دون منازع . ولقد كافأ عبد الملك قائده الحجاج فولاه على العراق سنة ٧٥ هـ وكان الحجاج حازماً وعنيفاً . وقد تمكن من القضاء على سائر الفتن والثورات فى العراق . (١)

ثورة بن الاشعث والقضاء عليها :

لم يكد الوالي الحجاج بن يوسف ينتهي من اخماد الفتن والثورات التي أوقدها الخوارج فى العراق حتى فوجىء بتمرد عبد الرحمن بن الأشعث الذي كان الحجاج أرسله على رأس جيش لاخضاع كابول وحاكمها رتيبل الذي رفض دفع الجزية . ويظهر كما يقول الطبري وغيره من المؤرخين العرب ان الاشعث لم يوغل فى أرض رتيبل ويفرض عليه الخضوع بل اكتفى بالحصول على بعض الغنائم فاعتبر ذلك الحجاج ضعفاً وتهاوناً وهدد الأشعث بعزله اذا لم ينفذ ما أمره به ، فتمرد ورجع مع جيشه واحتل البصرة ثم الكوفة فبايعه الناس وخلعوا الحجاج بن يوسف الذي لم يتمكن من مقاومة الثوار ، فاضطر الى الانسحاب وسار حتى (دير تري) حيث ظل ينتظر مجيء النجدات من الشام . وعلى الفور أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً اشتبك فى شهر

---

(١) اشتهر الحجاج بن يوسف بخطبته التي القاها فى الكوفة عندما دخل المسجد وهو ملثم بعمامة خز حمراء .

جمادي الثانية عام ٨٣ هـ (٧٠٢) مع جيش عبد الرحمن الأشعث فى دير الجماجم ، واستمرت المعارك بينهما مائة يوم انتهت بانتصار الجيش الأموي وفرار ابن الاشعث الى رتبيل فى كابول مستغيثاً به ، فكتب الحجاج الى رتبيل يأمره أن يرسله اليـــه مقيداً ، فأذعن للأمر خوفاً وقتله وأرسل برأسه الى الحجاج •

اخضاع البربر واستئناف الفتوح :

استأنف الخليفة عبد الملك بن مروان سير الفتوحات التي كانت توقفت منذ وفاة عُقْبة بن نافع الذي قتل فى كمين نصبوه له البربر فى جبال الأوراس وهو عائد من طنجة عام ٦٣ هـ (٦٨٣م) وذلك فى عهد يزيد بن معاوية • وبعد مقتله استولى البربر على القيروان التي كان أسسها عام ٥٠ هـ واتخذها قاعدة لفتوحه •

وأرسل عبد الملك جيشاً كبيراً بقيادة حسان بن النعمان لمحاربة الروم واسترجاع المناطق التي كان استولى عليها عقبة بن نافع ، واخضاع البربر • وزحف الجيش من قواعده فى برقة حتى وصل الى قرطاجنة (١) واستولى عليها بعد معركة مع الحامية البيزنطية عـــام ٦٩٥م ، وعاد الروم واحتلوها بمساعدة أسطولهم البحري ، ثم عاد حسان بن النعمان وطردهم منها عام ٦٩٨ م •

وواصل القائد حسان بن النعمان الزحف عبر جبـــال الأطلس حيث اشتبكت قواته مع قبائل البربر فى عدة معارك كان أعنفها مع

---

(١) مدينة تاريخية تقع على بعد عشرة أميال غرب تونس ، أسسها الفينيقيون عام ٨١٤ قبل الميلاد .

القبائل التي تتزعمها (الكاهنة) صاحبة الفكرة القائلة : أحرقوا الزروع واجعلوا الأرض فقراء لكي لا يجد العرب شيئاً يستفيدوا منه •

وفى طبرجة التي تبعد عن قرطاجنة ١٢٨ كيلو متراً دارت رحى أكبر وأعنف معركة بين جيش ابن النعمان وقبائل الكاهنة ، فهزم فيها البربر وقتلت زعيمتهم وذلك عام ٨٧ هـ (٧٠٢م) •

وبعد ذلك النصر العظيم أقبل البربر على اعتناق الاسلام عن ايمان • وبفضل الاسلام تحولوا الى عبادة الله وتحسنت أحوالهم وساد الأمن بلادهم •

الاصلاحات الكبرى

(بناء مسجد الصخرة والقبة)

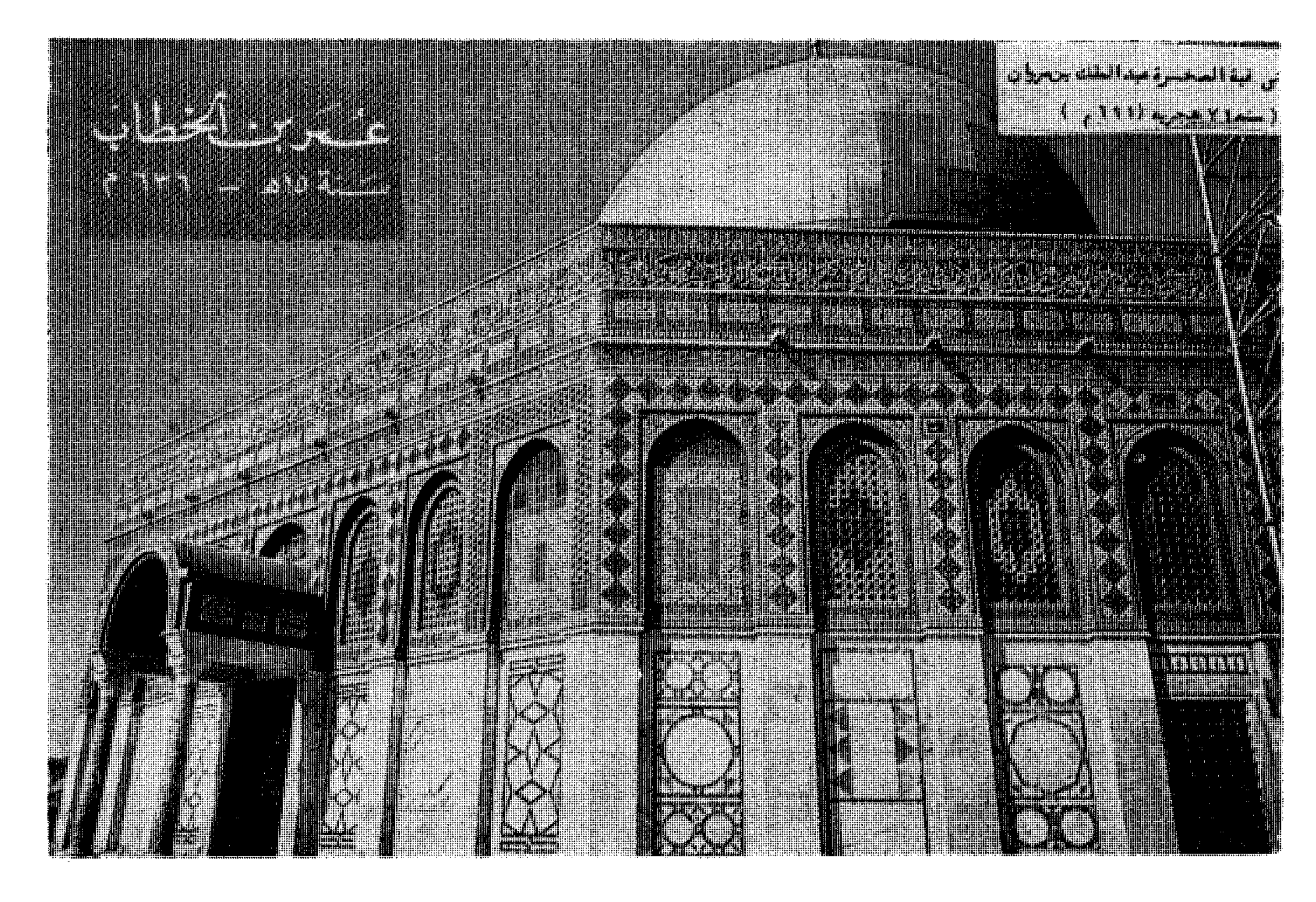
من أهم الاصلاحات التي قام بها عبد الملك خلال خلافته التي دامت منذ عام ٦٥ ــ ٨٦ هـ هي :

أولا ــ نقل الدواوين الى اللغة العربية بدلا من اللغات الفارسية واليونانية والقبطية التي كانت تستخدم فى الولايات الاسلامية •

ثانيا ــ وضع أساساً للنقد فى الولايات وذلك بتعميم التعامل بنقود عربية (١) هي الدينار والدرهم والفلس ، والدينار كان من الذهب ضرب فى عهد عبد الملك • أما الدرهم فكان من الفضة ، والفلس من النحاس •

---

(١) قبل الاسلام لم يكن للعرب نقود خاصة بهم . وأول من ضرب النقود العربية هو الخليفة عمر بن الخطاب .


عمر بن الخطاب
سنة ١٥هـ – ٦٣٦م
ى قبة الصخرة عبد الملك بن مروان
(سنة ٧٢ هجرية (٦٩١ م)

٣ ــ بناء مسجد الصخرة والقبة فى بيت المقدس • وقد اكتمل عـام ٧٣ هـ بأيدي صناع ماهرين اختيروا من الولايات الاسلامية ، ووكل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه بالاشراف على العمـل الذي استغرق حوالي سبع سنوات • وجاء بناء القبة من أحسـن وأروع البنـاء ، فزينت جدرانهـا وسقفها بالفسيفساء والجواهر ، وصبت صفائح من الذهب على أبواب المسجد والقبة ، وفى الداخل وضع العود القماري المغلف بالمسك ، وقناديل الذهب والفضة • ولم يكن عهدئذ أروع وأجمل من بناء قبة الصخرة فى العـالم • ويعتبر مسجد الصخرة أقدم بناء اسلامي بقي حتى الآن •

● وهناك أعمال واصلاحات أخرى قام بها عبد الملك بن مروان فى الولايات مثل اصلاح نظام البريد ، وتنظيم الدواوين • وفى آخر عهده طلب البيعة لابنه الوليد ومن بعده سليمان • وتوفى فى دمشق عام ٨٦ هـ (٧٠٥م) •

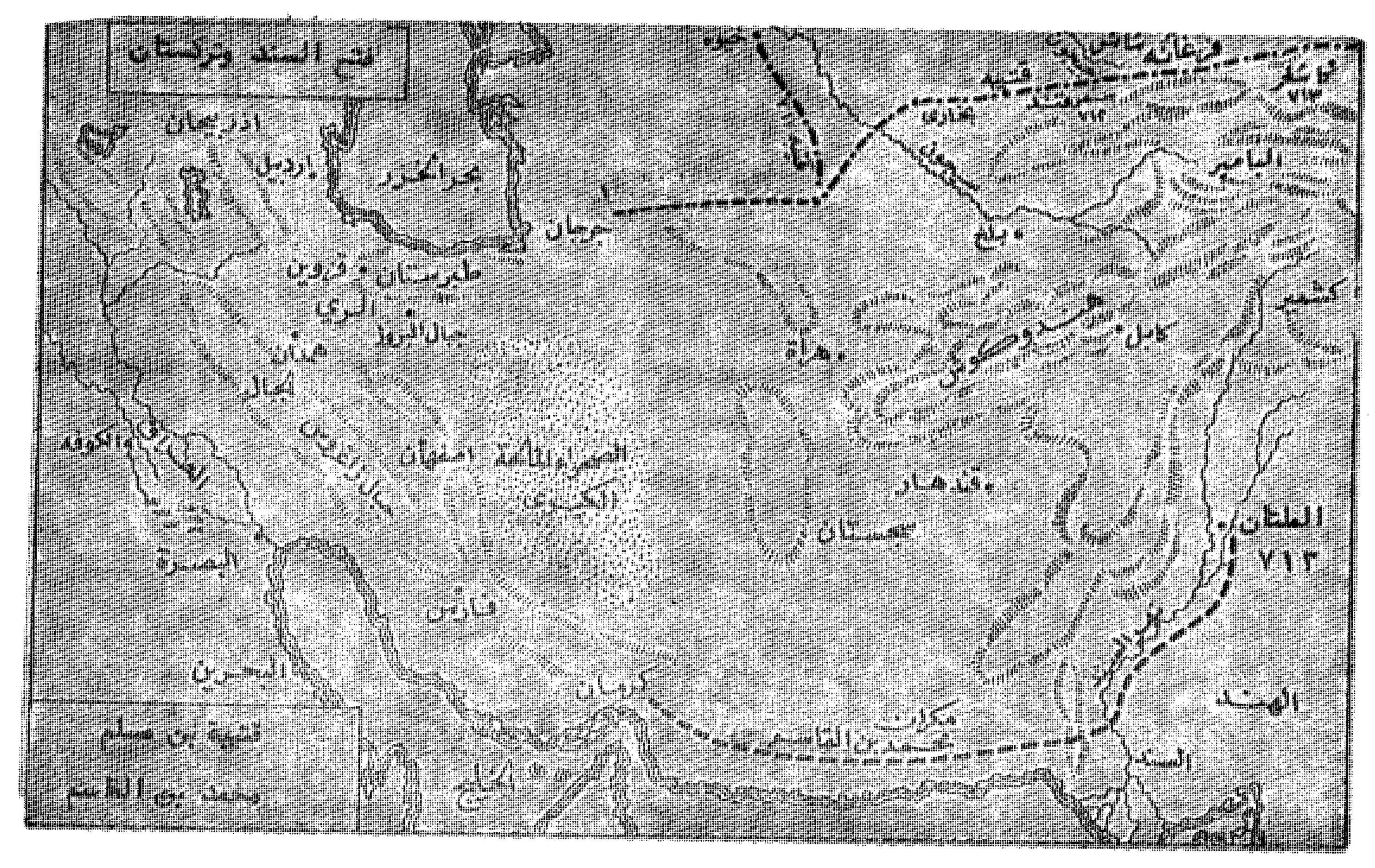
اتساع الدولة الاسلامية

(فى عهد الوليد بن عبد الملك)

تولى الخلافة الوليد بعد وفاة والده عام ٨٦ هـ ، وفى عهـده اتسعت الدولة الاسلامية وأصبحت حدودها من نهر السند وتخوم الصين شـرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً • وكان عهده عهـد رخاء واصلاحات عمرانية وفتوحات •

فتح تركستان والسند :

أمر الخليفة الوليد الوالي الحجاج بن يوسف بأن يرسل جيشاً لاخضاع تركستان وبلاد السند • وبقيادة قتيبة بن مسـلم الباهلي


فتح السند وتركستان
أذربيجان
أردبيل
بحر الخزر
جرجان
طبرستان
قزوين
الري
جبال البرز
همذان
الجبال
الكوفة
البصرة
البحرين
فارس
أصفهان
الصحراء المالحة الكبرى
هراة
بلخ
كابل
هندوكوش
قندهار
سجستان
كرمان
الخليج
مكران
محمد بن القاسم
الملتان
٧١٣
الهند
السند
كشمير
البامير
بخارى
سمرقند
قتيبة
فرغانة
كاشغر
خيوة
قتيبة بن مسلم
محمد بن القاسم

أحد زعماء القيسيين الذي عينه الحجاج على ولاية خراسان بدلا من المفضل بن المهلب عام ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ، خرج الجيش من مدينة ترو التي اتخذها مركزا لحركاته الحربية الى تركستان واشتبك فى معارك ضارية مع قبائلها العديدة المتمرسة على القتال . وتمكن القائد البطل قتيبة المشهور فى تاريخ العرب من دحر جيش خاقان الترك ملك بخارى والاستيلاء على مدن تركستان ، ثم دخل بلاد خوارزم وفتح سمرقند عام ٩٣ هـ (٧١٢ م) .

وحطم قتيبة الأصنام التي كان يعبدها سكان تلك البلاد ، ونشر الاسلام ، وبانتشاره دخلت المدنية الى بلاد تركستان .

وبينما كان قتيبة يفتح بلاد ماوراء النهر ، كان محمد بن القاسم الثقفي يزحف بجيش لفتح الهند عام ٨٩ هـ (٧٠٨م) ، فعبر الساحل الغربي وفتح الديبل (كراتشي حالياً) وبنى فيها مسجداً ثم تابع سيره الى بيرون واستولى عليها . ومنها تقدم عبر نهر السند واشتبك مع الملك داهر فى معارك ضارية قتل فيها ملك السند وهزم جيشه عام ٧١٢م ، وبإيمان وعزيمة واصل الجيش المسلم زحفه فاتحاً بلاد ماوراء نهر السند حتى وصل الى مدينة (الملتان) الواقعة جنوب البنجاب فاستولى عليها وغنم منها غنائم عظيمة بما فيها المجوهرات التي كان الهنود يقدمونها الى الصنم الذي يحجون اليه والمعروف باسم مزار (بوذي شهير) ، وفى الملتان وقبل أن يستأنف القائد محمد ابن القاسم سيره داخل بلاد الهند ليواصل فتحها وصله نبأ وفاة خاله الحجاج بن يوسف ثم توفى بعده الخليفة الوليد فتوقف الفتح فى بلاد الهند التي نشر فيها هذا القائد العربي رسالة الاسلام .

مراحل فتح الأندلس

فى الوقت الذي كان قتيبة بن مسلم يقوم بفتح بلاد تركستان ومحمد بن القاسم الثقفي بلاد السند كان موسى بن نصير الوالي على افريقيا يقوم باخضاع المناطق الباقية من الشمال الافريقي • وقد تمكن من اجلاء البيزنطيين عن السواحل باستثناء سبتة الواقعة فى المغرب • وكانت هذه مستعمرة حاكمها الكونت (جوليان) من أنصار ملك اسبانيا السابق (غيطشه) الذي خلعه فريق من القوط GOTHS (١) وقتله ، واعتلى العرش (رودريك) المعروف عند العرب باسم لذريق •

وعندما وصلت طلائع قوات موسى بن نصير الى سبتة اتصل الحاكم جوليان بموسى واقترح عليه القيام بغزو الأندلس • كما تعهد له بأن يشترك معه بمحاربة القوط وملكهم رودريك • فدهش موسى ابن نصير ، ونقل الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك عرض جوليان ، فكتب له الوليد بقبول الفكرة ولكن حذره أن يأخذ الاحتياطات لكل الأمور خشية أن تكون هناك خدعة أو مكيدة مدبرة من حاكم سبتة جوليان •

الحملة الاستكشافية :

اختباراً لصدق نوايا حاكم سبتة طلب موسى بن نصير ارسال حملة استكشافية مشتركة ، مكونة من خمسمائة رجل بقيادة طريف بن

---

(١) القوط GOTHS قبائل من أوروبا الشرقية احتلت اسبانيا فى أوائل القرن السادس الميلادي . وقبلهم أقامت قبائل الوندال الجرمانية فى القرن الخامس الميلادي دولة فى جنوب اسبانيا سميت واندالوسيا ، ثم أطلق عليها العرب اسم (الاندلس) .

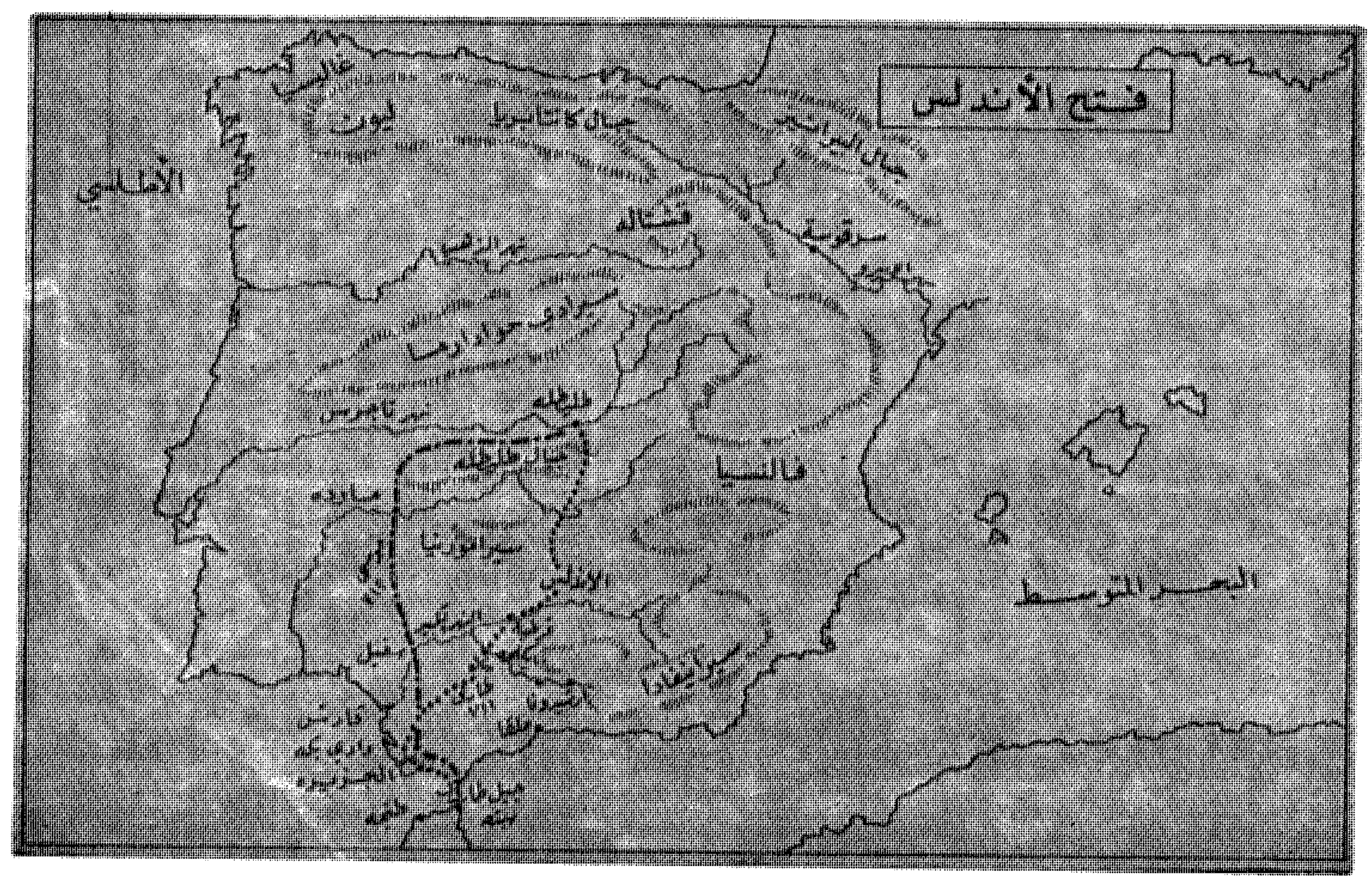
مالك ، بربري مسلم – سنة ٩١ هـ – ١٧٠م ، فجهز لها جوليان السفن اللازمة ، وتمكنت من انجاز مهمتها على خير وجه • وبعودتها حمل قائدها الى موسى بن نصير أخبار عن تفكك القوطيين وتذمر الأهالي من حكمهم الاستبدادي • فأكدت له هذه الحملة صدق نوايا جوليان وضعف وسائل الدفاع عن الأندلس ، فقرر فتحها •

طارق بن زياد يدخل اسبانيا :

كان طارق بن زياد آمرا على طنجة عندما أمره موسى بن نصير أن يقود جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتل معظمهم من مسلمي البربر لفتح الأندلس • والمعروف تاريخياً ان طارق كان مولى لموسى بن نصير وان موسى وثق به وقربه اليه وولاه على بعض الكتائب فى جيشه الذي حارب البربر والروم بافريقيا •

وفى سنة ٩٢ هـ – ٧١١ م عبر طارق بن زياد مضيق سبتة على سفن حاكمها جوليان ، وعندما نزل وجنوده قام باحراق السفن التي قدموا عليها وذلك خشية أن يفكر الجنود عند شدة القتال فى التقهقر الى حيث توجد السفن للهروب فيها • وكان نزوله على صخرة الأسد سميت فيما بعد باسمه وأطلق عليها اسم « جبل طارق » •

وبعد أن قام طارق بحرق سفنه وقف فى جيشه خطيباً ، فحمد الله وحث جنوده على القتال بشجاعة وصبر وثبات • ومما قاله فى خطبته الشهيرة : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم هنا فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم


فتح الأندلس
الأطلسي
ليون
جبال كانتابريا
جبال البرانس
قشتالة
سرقسطة
سيرادي جوادراما
طليطلة
فالنسيا
سيرا مورينا
سيرا نيفادا
مالقة
البحر المتوسط

بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لديكم الا ماتستخلصونه من أيدي عدوكم ، ولئن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهب ريحكم وتعودت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، واعلموا انني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة .. الى أن قال : واذا هلكت قبل وصولي اليه (يعني لملك القوط لذريق) فاخلفوني فى عزيمتي هذه . » وبعد تلك الخطبة البليغة دب الحماس فى جنود طارق وصار الكل منهم مثال البطولة والشجاعة يحذو حذو قائده .

هزيمة جيش رودريك :

وزحف طارق بن زياد لملاقاة جيش رودريك (لذريق) المؤلف من فيالق الفرسان والمشاة الكثيرة العدد والتقا الفريقان عند وادي بكة قرب مصب « نهر سلادو » حيث التحم الجيشان فى قتال مرير استمر سبعة أيام ، وفى اليوم الثامن توج المسلمون كفاحهم بالنصر ، وهزم القوط شر هزيمة ، وفر ملكهم رودريك ولكنه مات غريقاً . وتسمى هذه الموقعة « شريش » نسبة الى مدينة شريش الاسبانية .

وبعد ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون توجه طارق ابن زياد القائد العظيم الى طليطلة عاصمة الأسبان عن طريق استجه فاستولى عليها . ثم أخذت تتهاوى القرى والمدن الأسبانية وبسرعة فائقة تم الاستيلاء على قرطبة واشبيلية وكثير من المدن الأخرى . وهكذا تمكن طارق بن زياد فى مدة لاتتجاوز خمسة أشهر من فتح أكثر من نصف اسبانيا تحت لواء الاسلام ، فكتب له النصر المبين .

مساهمة موسى بن نصير :

وقد ساهم موسى بن نصير مع طارق فى فتح اسبانيا ، فسار على رأس جيش قوامه ١٨ ألف مقاتل سنة ٩٣ هـ ـ ٧١٢ م ، واتجه الى اشبيلية التي كانت تمردت بعد خروج طارق منها فحاصرها وارغم أهلها على الولاء والطاعة ، ثم فتح قرمونة (سيدونيا) ومدينة مريدة • وهناك بالقرب منها التقى موسى بن نصير بطارق بن زياد فلامه على مخالفته لأوامره اذ اعتبر موسى توغل طارق فى البلاد بدون مشورته عصياناً للأوامر ، ولهذا السبب وبخه •

وحاول طارق بن زياد بشتى السبل أن يبرر لموسى بن نصير سبب مخالفته مبيناً له الضرورة التي ألجأته لمواصلة القتال بحيث لو لم يفعل ذلك وتخاذل عن الاستمرار لهلك هو وجنوده • غير ان موسى لم يقتنع فى بادىء الأمر رغم ماقدمه طارق من براهين واعتذاره اليه • وأخيراً زال سوء التفاهم بين القائدين وأكمل طارق مع موسى فتح اسبانيا •

العوامل التي ساعدت على الفتح :

لا شك بأن قوة ايمان المسلمين وصبرهم وشجاعتهم مجتمعة فى بوتقة واحدة هي التي بفضلها حققوا تلك الانتصارات العظيمة • وهناك عوامل أخرى ساعدت على فتح هذه البلاد هي :

١ ـ استبداد ملوك القوط بالحكم وظلمهم للشعب •

٢ ـ ارهاق الأهالي بالضرائب الباهظة •

٣ ـ استعبد القوط طبقة من الشعب تعرف باسم طبقة العبيد ورقيق الأرض •

٤ — ارغام القوط لليهود باتباع الدين المسيحي قسراً والا تعرضوا للنفي ومصادرة أموالهم .

٥ — وجود خلاف ونزاع بين الأسرة المالكة من القوط وبين النبلاء القوطيين .

تلك العوامل ساعدت موسى وطارق على التقدم سريعاً وتحقيق الظفر تلو الآخر الى أن وصلا حدود اسبانيا الشمالية . ولقد راودت موسى بن نصير فكرة احتلال فرنسا عن طريق جبال البرانس ، ثم يتجه الى الشرق فيفتح القسطنطينية ومنها يتوجه الى الشام ، ولكن استدعاء الخليفة لموسى للحضور الى دمشق مع طارق حال دون تحقيق رغبته .

ملاحظة : لقد عمل الولاة على الأندلس بعد موسى بن نصير لتحقيق الفكرة التي كانت تراوده ، أشهرهم البطل عبد الرحمن الغافقي الذي عبر جبال البرانس عام ٧٣٢ ميلادية وتمكن من الاستيلاء على جنوب فرنسا بعد أن هزم دوق أكوتانيا على ضفتي نهر غارون ، ثم اتجه الى مدينة بوردو فحاصرها ودمر حصونها ، ومنها زحف شمالا الى بواتيه ، وهناك بين هذه المدينة ومدينة تور تقابل مع جيوش الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) فى موقعة أطلق عليها فيما بعد اسم (بلاط الشهداء) انتهت بمقتل عبد الرحمن الغافقي وانسحاب الجيش الاسلامي الى اسبانيا . وعاد العرب بعد عامين واحتلوا مدينة افينيون التي تبعد عن مدينة مرسيليا ٢٢٠ كم . وقد سبق عبد الرحمن الغافقي فى قطع جبال البرانس أحد القواد المسلمين (الحر بن عبد الرحمن الثقفي) ، فقام بحملات عام ٧١٧—٧١٨م على دوقات أكوتانيا ، وتابعها

بعده السمح بن مالك الخولاني فاستولى علـى سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط فى عام ٧٢٠م ثم احتل اربونة سنة ٧٢١م ومنها زحف الى تولوز حاضرة دوق اكوتانيا غير أن تلك الحملة باءت بالفشل بسبب استشهاد قائدها السمح بن مالك •

استدعاء الخليفة للقائدين موسى وطارق :

بعد الانتصارات التي حققها موســى بن نصير وطارق بن زياد استدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك فامتثلا لأمره ، وقد عين موسى قبل سفر الموكب الى الشام ابنه عبد العزيز نيابة عنه على الأندلس • وكان الموكب يضم بالاضافة الى عدد كبير من الضباط والجنود والخدم عشرات من الأمراء ونبلاء القوط جلبهم موسى لتقديم فروض الطاعة لأمير المؤمنين • ووصل الموكب الى دمشق فى شهر جمــادي الأولى عام ٩٦ هـ (٧١٥م) بعد رحــلة طويلة عبر الشمال الافريقي ومصــر وفلسطين • فقام موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد بتقديم الهدايا والتحف الثمينة للخليفة الوليد بن عبد الملك • وبعد أيام اعتل الوليد وأصيب بنكسة جديدة أقوى من الأولى التي أصابته قبل وصول الموكب الى دمشق ومات • وتولى الخلافة سليمان بن عبــد الملك فعزل موسى بن نصير وعامله معاملة قاسية لا رحمــة فيها • واتجه موسى الى الحجاز حيث قضى آخر أيامــه فى فقر وحالة يرثى لها ، وتوفى بوادي القرى سنة ٩٧ هـ عن عمر يناهز ٧٦ سنة • وبدوره طارق بن زياد فقد عزله سليمان عن القيادة ، وسمح له بالعودة الى طنجة حيث توفى فيها سنة ١٠٢ هـ (٧٢١) •

سياسة وليد العمرانية والاجتماعية :

لقد وصلت الدولة فى عهد الوليد الى ذروة الفتوحات ، واتسعت حركة العمران • ومن أهم الأعمال الاصلاحية التي قام بها خلال خلافته التي دامت حوالي عشر سنوات هي :

توسعة وتجديد المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، والجامع الأموي فى دمشق ، وأنشأ العديد من المدارس ، والمستشفيات الخاصة للمجذومين • وخصص الوليد لكل أعمى قائداً يقوده ولكل مقعد خادماً يخدمه ، وجعل للفقراء وأصحاب العاهات عطاء (صدقات) من بيت المال • وفى عهده تم تعريب الدواوين التي بدأها أباه من القبطية واليونانية الى العربية ، كما ازدهرت الفنون الاسلامية وخاصة فن العمارة •

وفى أواخر أيام الوليد أراد جعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز بدلا من أخيه سليمان الذي كان أوصى له بالخلافة عبد الملك بن مروان من بعد الوليد • وقد دعا الولاة والقواد وكبار القوم لمبايعة ابنه فاستجاب لرغبته البعض منهم ، وكتب الى أخيه سليمان يدعوه للحضور من الأردن ليفرض عليه مبايعة عبد العزيز فتمارض واعتذر ، ولكن اعتذاره لم يقتنع به الوليد فقرر أن يذهب اليه بنفسه ويرغمه على التخلي عن ولاية العهد الا ان الأجل المحتوم حال دون تحقيق رغبته فمات فى جمادي الثانية سنة ٩٦ هـ (فبراير ــ شباط ٧١٥م) •

خلافة سليمان بن عبد الملك :

تولى الخلافة سليمان بعد وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ (٧١٥م) ، وأول عمل قام به هو الانتقام من القواد الذين أيدوا أخيه الخليفة فى محاولة انتزاع ولاية العهد منه وتولية عبد العزيز • ومن الذين انتقم منهم محمد بن القاسم الثقفي الذي فتح بلاد السند وعين والياً عليها ، فعزله وسجنه ، وقيل انه مات تحت وطأة التعذيب • وعزل أيضاً قتيبة بن مسلم الباهلي الذي فتح بلاد ماوراء النهر ووصل الى داخل حدود الصين ، وقتل مع بعض بنيه واخوته • ونكل سليمان بموسى بن نصير وطارق بن زياد الذين سبق ذكرهما •

وقد أعاد الخليفة سليمان القواد الذين كان الحجاج بن يوسف (١) عزلهم وأمر بترقيتهم • ومن بين هؤلاء يزيد بن المهلب فعينه والياً على خراسان •

محاولة فتح القسطنطينية :

جهز سليمان بن عبد الملك جيشاً لفتح القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة الذي كان فى عهد الوليد عبر بقواته جبال طورس وتقدم داخل الممتلكات البيزنطية حتى وصل الى نقطة لا تبعد عن القسطنطينية سوى ٢٢٥ كيلو متراً (عام ٧١٠م) • وأراد سليمان ان يحقق مابدأه أخوه ، الا ان الجيش الذي أرسله بقيادة مسلمة طالت مدته دون أن يتمكن من فتح المدينة التي حاصرها براً وبحراً ، وعندئذ قرر أن يسير بنفسه على رأس جيش لنجدة أخيه • ولما وصل الى دابق

(١) الحجاج هو أول من وافق على عزل سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد ومبايعة عبد العزيز ابن الوليد . وكان سليمان ينوي معاقبته ولكن الحجاج توفى قبل الوليد .

مابين منبج وانطاكية مرض مرضاً شديداً حال دون مواصلة سيره • ولما شعر بدنو أجله أراد أن يجعل ولاية عهد الخلافة فى أبنائه ، وكان أكبرهم لا يتجاوز عمره الثامنة عشر سنة ، ولكنه عدل وأخذ بنصيحة أحد المقربين فأوصى بولاية عهد الخلافة من بعده الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وبعده أخيه يزيد ومات سليمان فى عام ٩٩ هـ ٧١٧م دون أن يتمكن من فتح القسطنطينية • (١)

الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز

لقد كتب سليمان بن عبد الملك وصيته بالخلافة الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وختمها بخاتمه وطلب من بني أمية مبايعة من اختاره لهم دون أن يخبرهم عن اسمه فبايعوه ، ولما فتحت الوصية بعد وفاته وجدوا أنها مكتوبة باسم عمر بن عبد العزيز فجددوا له البيعة ورضي عنه الجميع لما فيه من تقوى وصلاح وعلم بأمور الشريعة الاسلامية وحسن خلق وتواضع •

والخليفة الجديد ولد سنة ٦٢ هـ ، أبوه عبد العزيز بن مروان كان والياً على مصر فى عهد أخيه الخليفة عبد الملك ، وأمه أم عاصم ليلى بنت عمر بن الخطاب • أخذ الفقه عن كبار فقهاء المدينة المنورة ، وفيها درس الأدب والعلوم • وكان خير خلفاء بني أمية وأحسنهم سيرة وسريرة • لقب بالخليفة الصالح ، وهو صالح ومصلح ، سار على نهج جده عمر بن الخطاب فى اتخاذ العدل أساساً للحكم ، وفى معيشته وتقشفه فى ملبسه •

---

(١) فتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح العثماني عام ١٤٥٣ ميلادية ، وأطلق عليها فيما بعد اسم استنبول .

وعندما تولى الخلافة ذهب الى جامع دمشق (الجامع الأموي) وخطب في الناس فقال : (لست بقاض ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً) وبعد الصلاة أحضروا الركائب المعدة خصيصاً للخليفة فرفض أن يمتطيها وقال لا أغير دابتي . وأمر ببيع تلك الدواب ورد ثمنها الى بيت مال المسلمين .

اعادة الشيعة الى حظيرة السلم :

اتخذ عمر بن عبد العزيز شعار خلافته قول الله عز وجل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » . ولقد قام بعزل الولاة الذين ثبت لديه أنهم ظلموا الرعية وحققوا مكاسب شخصية ، وأبدلهم بولاة صالحين متقين مخلصين قد آثروا آخرتهم على دنياهم . ولتصفية القلوب وتوحيد كلمة المسلمين أمر عماله بمعاملة الشيعة معاملة طيبة وانصاف كل مظلوم منهم . وبهذه السياسة الحكيمة الرشيدة قضى على الفتن والحزازات ، وأعاد الشيعة الى حظيرة السلم ، بدليل انهم لم يثوروا خلال خلافته .

الغاء الضرائب المستحدثة :

كان خلفاء بني أمية السابقين يأخذون الجزية من الأعاجم رغم اسلامهم بالاضافة الى الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة [1] ، فمنع عمر بن عبد العزيز أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، كما أعفى المسلمين الأعاجم منها . فأدت هذه السياسة الحميدة الى دخول كثير

(١) النصارى واليهود .

من الناس فى دين الله أفواجاً ، منهم من اعتنق الاسلام محبة فى عدله ومنهم من دخل الاسلام هروباً من دفع الجزية • وألغى الخليفة أيضاً الضرائب التي ابتدعها خلفاء بني أمية ، والرسوم التي كان الحجاج فرضها فى العراق على الأراضي وأجور البيوت والنكاح وخراج من أسلم من أهل الذمة ، ولم يبق سوى الضرائب التي كانت مفروضة فى عهد الخلفاء الراشدين ، فأثر ذلك علـى الخزينة مما جعل أحـد الولاة يشكو الى عمر نقص الأموال والعجز نتيجة لكثرة الداخلين فى الاسلام ، مستأذناً من عمر فى استمرار فرض الجزية ، فلم يقره على رأيه وقال له : قبح الله رأيك ، ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً •

اعادة الأملاك المغتصبة الى أصحابها :

مراعاة للعدل وتنفيذاً لأحكام الشريعة الاسلامية السمحة فقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بإعادة الأراضي وغيرها من الأملاك التي أغتصبت فى عهد بعض الخلفاء الأمويـين الى أصحابها ، والتي لم يكن لها صاحب ترد الى بيت مال المسلمين •

وسبق لعمر الخليفة الصالح أن ورث أرضاً عن أبيه عبد العزيز فأعادها الى بيت المال • كما طلب من زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بأن تقدم ماوهبها والدها من مجوهرات الى خزينة المسلمين فاستجابت لطلبه بغبطة وقدمت حليها وجواهرها •

إزالة الظلم واشاعة العدل :

وألغى الخليفة عمر أساليب الحكم التي كانت متبعة فى عهد الخلفاء الأمويين الذين سبقوه • فقد كان الولاة يصدرون الأحكام بالقتل

وقطع اليد دون الرجوع الى الخليفة ، وكثيراً ماكانوا يرتكبون أخطاء فادحة فى تصرفاتهم وأحكامهم مما أساء الى سمعة الدولة والقضاء وأدى ذلك الى التذمر والسخط فى بعض الولايات وخاصة العراق فى عهد الوالي الحجاج بن يوسف .. تلك الأساليب الضارة والفاسدة ألغاها عمر بن عبد العزيز ، وأمر الولاة بأن لا ينفذوا حكما بقتل أو قطع يد أحد إلا بعد استشارته ، كما أمرهم بأن لا يأخذوا الناس بالظنة بل بالبينة وما جرت عليه السنة . وبذلك أزال الظلم وأشاع العدل .

سياسة السلم ونشر الاسلام :

لقد نعمت البلاد فى عهد عمر بن عبد العزيز بالهدوء والاستقرار والاطمئنان ، بدليل لم تقع فتنة أو حركة تذمر أو تمرد طيلة خلافته التي اتخذت النهج الاسلامي الصحيح قاعدة للحكم والعدل .

وفى عهده توقف التوسع فى الفتوحات لأن البلاد التي سبق وتم فتحها كانت تستدعي الاهتمام وبذل الجهود لتنظيم شؤونها وتحسين أحوال أهلها . ولذلك أوقف مواصلة الفتوحات ليكرس جهوده للشؤون الداخلية وتقوية دعائم الدولة . وقد أمر مسلمة بن عبدالملك قائد الجيش الذي كان الخليفة سليمان أرسله لفتح القسطنطينية ولم يتمكن من فتحها بالعودة مع جيشه الى الشام .

وكان لنظام المساواة بين المسلمين من العرب وغيرهم الذي طبقه الخليفة أثره العظيم فى البلاد التي افتتحت . فقد دخل كثير من أهلها فى الدين الاسلامي دونما خوف أو اكراه .

وحتى ملوك السند والهند استجابوا لدعوة عمر بن عبد العزيز ودخلوا فى دين الله .

وفاة الخليفة الصالح :

توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله وله من العمر ٣٩ سنة ، فى شهر رجب سنة ١٠١ هـ (شباط ــ فبراير ٧٢٠م) بقرية دير سمعان شمال سورية ، وقيل انه مات مسموما . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر كرسها لخدمة الاسلام والمسلمين . وقد كان دخله فى كل سنة قبل أن يتولى الخلافة ٤٠ ألف دينار فترك دخله لبيت مال المسلمين ولم يقتطع منه سوى ٤٠٠ دينار فى السنة . حقاً ان عمر الخليفة الصالح كان مثالا للعدل والانصاف وكرم النفس والتقوى والورع ، نهج طريق جده عمر بن الخطاب ، كما لم يتزوج غير امرأة واحدة هي فاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

وقد رثاه جرير (١) فقال :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ❊ يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به ❊ وسرت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعة ❊ تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

ورثاه الشاعر محارب بن دثار ، فقال :

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ❊ لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم ❊ كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يالهف نفسي ولهف الواجدين معي ❊ على العدول التي تغتالها الحفر

(١) جرير شاعر مشهور من قبيلة كليب ، كنيته أبو حذرة ، ولد فى اليمامة سنة ٦٥٣م ، وتوفى سنة ٧٣٢م .

تدهور حكم بني أمية

بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز بدأ نجم بني أميـة فى الأفول • فالخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم لم يكن البعض منهم على مستوى المسؤولية وبالتحديد الـذين انغمسوا فى الترف واللهو والاسراف • وقد أدى استهتارهم واسرافهم وانقسامهم على بعضهم البعض الى ضعف الدولة الأموية وتدهورها •

وخلال هذه المرحلة التي دامت ثلاثين سنة تولى الخلافة خمسة من بني أمية منهم واحد برز وأصلح الأمور هو هشام بن عبد الملك • وفيما يلي لمحة عن هذه المرحلة من الخلافة والخلفاء الـذين تعاقبوا على سدة الحكم :

يزيد الثاني بن عبد الملك :

تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ هـ ــ ٧٢٠م) حسب وصية أخيه الخليفة سـليمان بن عبد الملك • وكان أضعف شخصية عرفها العهد الأموي ، تأثر فى بداية حكمه بعمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، ولكن سرعان ما انقلب الى حياة الترف •• وفى عهده نشبت الفتن الداخلية وتأزمت الحالة وكان سببها سوء ادارته وتصرفاته • دامت خلافته أربع سنين ، وتوفى فى الأردن سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤م) • وقيل كان مرضـه السل فقضى عليـــه •

هشام بن عبد الملك :

بويع هشام بن عبد الملك [1] بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤م) ، وكان له من العمر أربع وثلاثون سنة • وقد تمكن من اصلاح ما أفسده يزيد بعد جهود تكللت بالنجاح • وبذلك أوقف التيار الذي كاد يجرف الدولة الأموية الى هاوية الانهيار •

وفى عهد الخليفة هشام فتح الجيش العربي بقيادة مسلمة بن عبد الملك عدداً من مدن الروم منها قيسارية عام ٧٦٦م وقونية وخرشنة • وأخذت الأساطيل البحرية العربية تشدد غاراتها على ثغور الروم فى حوض البحر الأبيض المتوسط • وكان أمير البحر عهدئذ عبد الرحمن بن معاوية ومن أكبر قواده عبد الله بن عقبة •

هزيمة الترك واخضاعهم :

وفى الوقت الذي كانت فيه الجيوش الاسلامية تقوم بقمع الفتن الداخلية التي اندلعت قبل ان يتولى هشام الخلافة ولم تخمد الا بعد أن أصلح هشام الأمور بحكمة ومقدرة ، كان الترك فى بلاد ماوراء النهر (جيحون) يوحدون صفوفهم ويجهزون قواتهم للقيام بحركة فى بلاد تركستان التي كان قتيبة بن مسلم أتم فتحها عام ٩٣ هـ •

وأمر الخليفة هشام والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يزحف بالجيش لتأديب الترك ، فالتقى بمجموعات منهم فى (غرفانة) حيث جرت معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة الترك وقتل أميرهم

---

(١) ولد هشام بدمشق عام ٧٢ هـ ، أبوه عبد الملك ، وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومي .

مع عدد كبير من قواته (سنة ١٠٨ هـ ـ ٧٢٧م) • وبالوقت الذي تمت فيه هزيمة الترك فى فرغانة كانت هناك جموع منهم بقيادة خاقان ملك الترك تهاجم اذربيجان ، فتصدى لها الحارث بن عمرو آمر المنطقة (١) واشتبك معها فى معركة قرب مدينة وارثان • وسرعان مالحقت الهزيمة بالترك ، وهرب الخاقان مع فلول قواته المنهزمة •

وفى سنة ١١٢ هـ أعاد الترك الكرة من جديد ، فأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك لقتالهم الجنيد بن عبد الرحمن الذي كان عينه الخليفة والياً على خراسان سنة ١١١ هـ خلفاً للوالي المعزول أشرس ابن عبد الله • وعبر الجنيد بقواته الى ماوراء النهر وسار حتى وصل مسافة لا تبعد عن سمرقند سوى أربعة فراسخ ، فهاجمه الخاقان بقوات كبيرة من الترك ، ورغم قلة عدد المسلمين بالنسبة الى أعداد عدوهم الهائلة فقد كتب لهم النصر واستعادوا سمرقند وبخارى • وفى هذه المعركة القاسية استشهد من المسلمين جماعة كثيرة ، وقتل من الترك عدد كبير •

أما فى منطقة اذربيجان فقد استعاد القائد سعيد بن عمرو الجرشي مدينة اردبيل التي كان استشهد فى مرجها القائد الجراح ابن عبد الله الحكمي • وهزم هذا القائد الباسل قبائل الخزر والترك هزيمة نكراء • وفى أعقاب تلك الموقعة ولى الخليفة هشام أخاه مسلمة ابن عبد الملك ارمينيا واذربيجان ، وسار بجيش لفتح عدة مناطق واوغل حتى وصل الى بلنجر •

---

(١) الحارث بن عمرو بطل معركة وارثان ، جرح فى المعركة ومات شهيدا .

وفى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) تولى ارمينيا واذربيجان مروان بن محمد (حفيد مروان بن الحكم) ، فأمده الخليفة هشام بجيش كبير فتح به بلاد الخزر وادنت له قبائلها وملكها .

ثورة البربر والقضاء عليها :

سبق وذكرنا ان البلاد كانت فى حالة سيئة عندما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك . ففي الشمال الافريقي اتخذ الوضع طابعاً ينذر بالخطر ، وراح البربر يستعدون للقيام بحركة تمرد ضد الحكم الأموي وهكذا حدث ، فقد ثاروا فى منطقة طنجة وجبال الأطلس والقيروان عام ١٢٢ هـ (٧٤٠م) وغاروا على الحاميات العربية وقتلوا مجموعة كبيرة من أفرادها . وعلى الفور أرسل الخليفة حملة عسكرية لتأديبهم ولكنها لم تتمكن من اخضاعهم واخماد حركة العصيان التي اتسعت وزادت خطورتها . وخشي الخليفة هشام من نكسة جديدة فجهز جيشاً بقيادة البطل حنظلة بن صفوان وأمره بالزحف على البربر . وتمكن بعد معارك عنيفة دارت فى القيروان من انزال الهزيمة بقبائل البربر الثائرة ، ثم واصل سيره الى طنجة ففك حصارها ودخلها ظافراً ، ومنها اتجه الى جبال الأطلس حيث تم اخضاع العصاة . وبذلك أعاد الأمن والاستقرار الى سائر المناطق فى الشمال الافريقي عام ٧٤٢ ـ ٧٤٣ م .

من التقويم الى التصدع والاضمحلال

لا شك بأن هشام بن عبد الملك أصلح الأمور الى حد ما وأنقذ الخلافة الأموية التي كانت على وشك الانهيار . فقد قمع الثورات التي اندلع لهيبها فى خراسان والعراق والشمال الافريقي ، وأخضع الترك وقبائل الخزر . كما افتتحت الجيوش الاسلامية فى عهده عدة مدن من المملكة البيزنطية وجزء من جنوب بلاد الفرنجة (حالياً فرنسا) ووصلت طلائعها الى سواحل الريفيرا المتاخمة لمملكة لومبارديا (حالياً ايطاليا) عام ٧٣٨ ميلادية .

وأخطر حادثة وقعت فى الكوفة فى عهد الخليفة هشام هو مقتل حفيد علي بن أبي طالب (زيد بن علي زين العابدين بن الحسين) . وكان سبب ذلك هو ان زيد لما جاء الى الكوفة لتسوية قضية تتعلق به شخصياً التف حوله أهل الكوفة وبايعته فئة كبيرة . واتفق مع أنصاره للتأهب والخروج فى موعد حدد تاريخه (مساء الأربعاء من مستهل صفر سنة ١٢٢ هـ ــ ٧٤٠م) وفى الموعد المحدد علم الوالي يوسف بن عمر الثقفي بالخطة ، فأمر بجمع الناس فى المسجد لمنعهم من الخروج . ولما حانت ساعة الموعد لم يخرج مع زيد الا عدد قليل من أنصاره لا يتجاوزون ثلاثمائة فارس اشتبكوا فى معركة عنيفة مع الجيش الذي سيره والي الكوفة . وقد أصيب زيد بن علي بسهم فقتله . كما قتل بعض أنصاره وعدد من الجيش الأموي .

وخلاصة القول ان هشام بن عبد الملك قد أعاد للدولة الأموية هيبتها وقوتها وحفظها من التصدع والانهيار . وكان يشبه الى حد كبير معاوية فى دهائه وعبد الملك فى مقدرته . ومن أهم الاصلاحات

العمرانية التي قام بها هي : فتح الآبار على طريق الحج الى مكة المكرمة وشق قنوات الري ، وتحصين الثغور •

وتوفى هشام وهو فى الثالثة والخمسين من عمره سنة ١٢٥ هـ ٧٤٣م بعد حكم دام تسعة عشر عاماً وستة أشهر •

وبعد وفاة هشام تدهور الوضع وانقسم البيت الأموي على نفسه ، وأخذت الحالة تسوء والدولة تسير الى طريق الزوال •

وفى هذه الفترة التي استمرت سبع سنوات وانتهت بزوال الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية تعاقب خلالها على سدة الحكم أربعة خلفاء من الأمويين هم :

أولا ــ الوليد الثاني بن يزيد :

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأمه بنت محمد يوسف الثقفي ، بويع بالخلافة بعد وفاة عمه هشام سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣م) بناء على وصية والده يزيد الثاني الذي تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز • وكان الوليد لا يصلح للحكم •• تهاون واستخف فى أمر الخلافة والرعية ، وغاص فى جحيم المنكرات فكرهه الناس وسادات بني أمية وقواد الجيش • وأخيراً قرروا التخلص منه ومبايعة ابن عمه يزيد ابن الوليد الذي تزعم الحركة وقضى على الوليد ، وقتل فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٦ هـ بعد حكم دام سنة وثلاثة شهور •

ثانيا ــ يزيد بن الوليد الأول

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وأمه شاهفرند بنت (فيروز) ابن يزد جرد آخر ملوك الفرس ، وأم فيروز بنت (شيرويه) بن كسرى

وأم أم فيروز بنت ملك الروم ، وأم شيرويه بنت خاقان ملك الترك •

عهـده للشعب :

تولى الخلافة بعد الوليد ، ومما قاله فى خطبته : (أيها الناس ، اني والله ماخرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك ، واني لظلوم نفسي ، ان لم يرحمني ربي ، ولكني خرجت غضباً لله ولرسوله ودينه ، وداعياً الى كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين أطفيء نور أهـل التقى ، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب كل بدعة ، وانه لإبن عمي فى النسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله فى أمره ، ودعوت الى من أجابني مـن أهلي وأهل ولايتي ، فأراح الله منه العباد والبلاد بحول الله وقوته • ولا أنقل مالاً من بلد الى بلد حتى أسد ثغرة ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولكم عندي أعطياتكم حتى تستدر المعيشة بين المسلمين ، واذا لم أوف لكم ، ورأيتم أحداً أردتم بيعته فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته • واستغفر الله لي ولكم) •

وكان الخليفة يزيد (١) محباً للخير ، مبغضاً للشر ، عادلا ومتواضعاً دعا الناس الى التمسك بدينهم واطاعة ربهم • وأوصى الولاة بالتعاون مع الأهالي والسهر على مصالحهم •

لم يكتب ليزيد العمر الطويل ، فقد مات بالطاعون كما قيـل فى نفس السنة التي بويع فيها بالخلافة (١٢٦ هـ ــ ٧٤٤ م) • وكانت مدة خلافته ستة أشهر •

---

(١) لقب يزيد بالناقص لانه ألغى زيادة عطاءالجنود والقواد التي كان الوليـد بن يزيد زادها لهم لكسب تأييدهم .

ثالثاً ـ ابراهيم بن الوليد :

هو ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، أخذ له يزيد البيعة قبل وفاته من أهل دمشق وقواد الجيش . وتولى الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد فى الوقت الذي عاد مروان بن محمد بن مروان من بلاد اذربيجان وارمينيا حيث كان حاكماً عليها . وقد زحف الى دمشق على رأس جيش مدرب ، وعند عين الجر (بين بعلبك ودمشق) اشتبك مع جيش الخليفة ابراهيم وهزمه ، ثم دخل العاصمة وبايعه كبار القوم . أما ابراهيم فهرب الى حران ومعه ابن عمه سليمان بن هشام قائد الجيش وبعد أن استتب الأمر لمروان بايعه ابراهيم الخليفة المعزول وابن عمه وأصحابه .

رابعا ـ مروان الثاني وزوال الدولة :

هو حفيد مروان بن الحكم ، قضى عدة سنوات فى الحروب يقود الحملات العسكرية لقمع الثورات واخضاع الترك وقبائل الخزر . ولقب بمروان الحمار لأنه كان يصبر على مكاره الحرب ويقاوم الشدائد والمصاعب ببسالة وبدون وهن أو ملل .

تولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ والبلاد فى حالة اضطراب ، فكرس جهوده لاخماد اللهيب المستعر وانقاذ الدولة الأموية واعادتها الى مكانتها . وبقوة وحزم قام بقمع حركات التمرد والعصيان والفتن التي تشعبت واندفعت كالسيل الجارف . وتمكن فى المرحلة الأولى من خلافته التي دامت خمس سنين وعشرة أشهر من قمع الثورة التي قامت فى العراق بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني وقتله ، كما قمع الثورة فى حضرموت وقتل زعيمها المختار بن عوف الازدي المعروف

باسم أبي حمزة الذي كان دخل الحجاز مع قواته واستولى على المدينة ومكة . وبالوقت ذاته تم القضاء على عبد الله بن يحيى وجماعته فى اليمن الذين كانوا بايعوا المختار بن عوف . ونشبت أيضا ثورات فى حمص ودمشق وفلسطين فقمعها جميعهـا الخليفة مروان . وكان أشدها خطراً عليه هي حركة ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي حاول انتزاع الخلافة من مروان بالقوة ، فاستولى على قنسرين واعتصم فيها مع جنوده . وكان أثناءها مروان فى حران ، فهب مسرعاً على رأس جيش وهزم قوات سليمان وقتل عدداً كبيراً من جنوده . أما سليمان نفسه فتمكن من الفرار الى تدمر .

انطلاق الدعوة العباسية :

وبينما كان مروان منهمكاً فى اخماد الثورات كان نشاط الدعوة لبني العباس قد اتسع نطاقه فى خراسان بقيادة أبو مسلم الخراساني (١) الذي انتدبه ابراهيم بن محمد الامام العباسي لنشر الدعوة . وكان ابراهيم يقيم مع أهل بيته واخوته وأعمامه فى قرية الحميمة بالبلقاء (الأردن) .

واستطاع أبو مسـلم الخراساني أن يضمن لنصرة الـدعوة العباسية مجموعة كبيرة من أهل خراسان . وحسب الخطة المرسومة اتخذ خراسان قاعدة للزحف على العراق .

ولم يكن الخليفة مروان يعلم مايجري فى الخفاء الا بعد أن اطلع على رسالة سرية كان ابراهيم الامام بعث بها الى أبي مسلم يأمره

---

(١) هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم الخراساني . قيل كان يسمى ابراهيم بن عثمان ابن يسار ، ولد باصفهان ، غير اسمه بأمرابراهيم الامام وتسمى عبد الرحمن بن مسلم .

بالاسراع فى تنفيذ الخطـة • وفى الحال أمر عامله فى البلقاء بالقـاء القبض على ابراهيم واحضاره مقيـداً الى حران التي كان مروان اتخذها مقراً لقيادته • فودع ابراهيم أهـله وأوصاهم بأن يـكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، كمـا أمرهم بالسـير الى الكوفة • ولما وصل الى حران زج به فى السجن •

وهكذا ظهرت الدعوة العباسية الى الوجود ، وقوي مركزها فى خراسان بعد أن أعلن القسم الأكبر من أهل مدينة (مرو) مساندتهم لحركة أبي مسلم الخراساني • وقد حاول الوالي نصر بن سيار التصدي للحركة والقضاء على اتباعها ، فأرسل الى أمير المؤمنـين مروان بن محمد كتاباً يخبره بحقيقة الوضع المتردي ويطلب منه ارسال نجدات عسكرية • ومما قاله فى كتابه للخليفة الأموي :

أقول من التعجب ليت شعري   أأيقاظ أمية أم نيـام ؟؟

فإن كانوا لحينهموا نيـاماً   فقل قوموا فقد حان القيام

الا ان مروان لم يستطع أن يفعل شيئاً لانشغاله باخماد ثورة الخوارج • والذي زاد الطين بلةً وجعل من الصعب عـلى نصر بن سيار مقاومة الحركة والقضاء على أبي مسلم هو اندلاع الفتنة بـين العرب القيسيين واليمنيين فى خراسان • فاستغلها أبو مسلم الـذي كان له يد فيها ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة مرو عام ١٣٠ هـ (٧٤٧ م) ورفع العلم العباسي الأسود فوق الامارة •

وانسحب نصر بن سيار من خراسان الى مدينة الري (جنوب شرق طهران) حيث ظل يترقب وصول نجدات ، ولكن لم يصـله شيئاً • واضطر بعد أن استولت قوات الخراساني على مدينة نيشابور

وأصبحت على أبواب مدينة الري الى الانسحاب مع جماعته الى مدينة همدان ، وفيها توفي سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ م) •

وبعد أن أصبحت خراسان بقبضة أبي مسلم بالاضافة الى عدد من المدن الهامة التي استولت عليها قواته بقيادة قحطبة بن شبيب هي : (نيشابور ، الري ، اصفهان ، نهاوند) أمر قحطبة بالزحف على الكوفة ، فاشتبك فى معركة عنيفة مع الجيش الأموي بقيادة الوالي يزيد بن هبيرة ، وكانت نتيجتها احتلال الكوفة ورفع العلم العباسي • وفى أثناء هذه المعركة الحاسمة قتل قحطبة قبل أن تحتل قواته المدينة التي دخلتها فى اليوم التالي بقيادة ابنه الحسن ، سنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) ، وأخذت البيعة لأبي العباس السفاح •

معركة نهر الزاب أنهت الامويين :

بعد سقوط الكوفة بيد العباسيين ، زحف الخليفة مروان على رأس جيش الى العراق • وعندما علم أبو العباس السفاح بنبأ تحرك مروان أرسل جيشاً بقيادة عمه عبد الله بن علي • والتقى الفريقان على ضفاف نهر الزاب الكبير على بعد ١٢٥ كيلو متراً من الموصل عام ٧٥٠م وقد هزم الجيش الأموي لعدة أسباب أهمها : (١) ضياع خراسان ودحر جيش يزيد بن هبيرة فى الكوفة والفوضى والانقسام أضعف معنويات الجيش • (٢) الخلاف الذي حصل بين مروان وبعض قواده قبل بدء المعركة • وبعد الهزيمة حاول مروان وجيشة عبور النهر للفرار فغرق من الجنود كما يقول بعض المؤرخين أكثر ممن قتلوا فى المعركة • وكان من بين الغرقى ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن الوليد وخلعه مروان •

ان معركة الزاب أنهت الحكم الأموي والخليفة مروان الذي ظل يستمر بالانسحاب وبسرعة حتى وصل الى مصر • وفى قرية بوصير بالفيوم داهمته ثلة من جنود العباسيين كانوا يطاردونه فعثروا عليه فى الكنيسة التي لجأ اليها ليلاً وأحاطوا به ، فخرج اليهم وقاتلهم ، وفى النهاية تغلبوا عليه وقتلوه • حدث ذلك فى شهر ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ (٧٠٥ م) •

وقد فتحت المدن أبوابها فى بلاد الشام وفلسطين للجيش العباسي ماعدا دمشق عاصمة الأمويين المحصنة تحصيناً قوياً • ففرض عليها عبد الله بن علي عم السفاح حصاراً استمر أياماً وأخيراً وقع الخلاف بين أهلها وانقسموا الى فئتين الأولى رفضت التسليم والثانية رغبت بالتسليم ، واشتبك القتال بين الفريقين داخل أسوار المدينة فساعد ذلك القائد العباسي على فتحها فى العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٢ هـ (حزيران ـ يونيه ٧٥٠م) • وقتل بالاضافة الى الأمويين مجموعة كبيرة من أنصارهم ، كما أحرقت راية الدولة الأموية البيضاء ، وارتفعت فوق القصور وأحياء العاصمة أعلام العباسيين السوداء •

واستمر العباسيون يلاحقون الأمويين ويقتلونهم حتى لم تقم لهم قائمة • ولم ينج منهم الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي هرب الى الأندلس وأنشأ فيها دولة مستقلة (سيأتي ذكرها بالتفصيل فيما بعد) •

أسباب سقوط الدولة الأموية :

١ ــ استقر الرأي منذ العهد النبوي عــلى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، ولم يعهد أي من الخلفاء الراشدين بالخلافة لابنه ، بينما حصرها الأمويون فى أبنائهم بالوراثة فى الوقت الــذي كان فيه من هو أحق منهم بها • وتصرفهم هذا لم يلق التأييد من كافة أوساط المسلمين لا سيما من الذين يرون أنهم أحق بالخلافة مثــل الامام علي ، والزبير بن العوام •

٢ ــ أهمل الخلفاء الأمويون مظاهر الحيــاة فى بساطتها التي عاشها كل من الخلفــاء الراشدين ، وقلدوا مــلوك الروم وأكاسرة الفرس فى حياة الترف •

٣ ــ سوء تصرف بعض خلفاء الأمويين فى نظام ولاية العهد أدي الى الانقسام والنزاع بين بعضهم البعض منذ أن أعــلن مروان بن الحكم ولاية العهد لولديه عبد الملك وعبد العزيز الواحد تلو الآخر ، وحذا حذوه ابنه عبد الملك فأعلن ولاية العهد لكل من ولديه ، الوليد ويليه سليمان • وبعد موت الوليد تعمقت هوة الشقاق بين الاخوة والأعمــام •

٤ ــ سلك بنو أمية سياسة غير عادلة مــع الموالي فى المراكز والمناصب فحقدوا عليهم وثاروا ضدهم فى عدة مناسبات •

٥ ــ تباين العدل فى حكمهم وحكامهم ، فبينما نجد أحدهم حاز كافة الصفات الحميدة التي ترضى عنها الرعية نجد الآخر جاء بنقيض الأول ، فكانت نتيجة ذلك اثارة سخط الناس وتذمرهم •

٦ ــ شجع بعض الأمويين والــولاة العصبية القبلية التي نهى

عنها الاسلام وقضى عليها عند أول ظهوره ، فأدى الى نزاع خطير بين القيسيين واليمنيين .

٧ ـ مطالبة آل البيت بالخلافة ومناصرتهم فى العراق . وكذلك ظهور الحركات السياسية التي قام بها الخوارج والعلويون .

مميزات العصر الأموي

لقد ساد العنصر العربي فى العصر الأموي ، وغيَّر نهج الحكم الذي أتبع فى عهد الخلفاء الراشدين ألا وهي الخلافة الديموقراطية .

وفى عهد بني أمية الذي امتد منذ عام ٤٠ الى عام ١٣٢ هـ (٦٦١ ـ ٧٥٠م) انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً فى البلاد التي افتتحوها ، وظهرت الحركة العلمية والأدبية بعد أن جرى نقل الدواوين من اليونانية والفارسية والقبطية الى العربية . وعم استعمال النقود العربية التي ضربت فى دمشق فى عهد عبد الملك بن مروان بدلا من النقود الرومية والفارسية التي حظر استعمالها . وشجع الأمويون الفنون والزخرفة وخاصة فن العمارة حتى بلغ القمة وصار مضرب المثل فى الروعة والتصميم . كما نظموا الجيش وبنوا الأساطيل البحرية ، وأنشأوا البريد ، وعمموا بناء المساجد والمدارس . واتسعت الفتوحات فى عهدهم حتى بلغت حدود الدولة الاسلامية من تخوم الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً .

ومن أشهر قواد الفتوحات فى العصر الأموي هم : عقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد (فى افريقيا والأندلس) . والمهلب بن أبي صفره ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن قاسم الثقفي فى

(بلاد ماوراء النهر والسند والهند) .

ومن فحول الشعراء الذين نبغوا فى العهد الأموي هم : جرير ، والفرزدق ، والأخطل . وهذا الأخير كان مسيحياً .

وكانت الـدولة مقسمة اداريا الى ولايات كبرى هي : (١) الحجاز واليمن وأواسط الجزيرة العربيـة (٢) سوريا وفلسطين ، (٣) العراق وفارس وخراسان . (٤) الجزيرة واذربيجان وارمينيا . (٥) مصر . (٦) افريقيا الشمالية والأندلس وجزر البحر المتوسط . وكان الخليفة هو المرجع الأعلى ، ولـكنه جعل للولاة سلطة واسعة فى الشؤون الادارية والمالية والقضائية .

الفصل الخامس

الدولة العباسية

العباسيون :

يتصل العباسيون فى النسب الى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكان العباس قبل الاسلام يعمل سادناً للكعبة وفى التجارة . وقد أسلم قبل فتح مكة ، ولم يكن يطمع فى الخلافة بعد الرسول أو يسعى فى طلبها مع انه كان أقرب بني هاشم الى رسول الله وأكبرهم سناً . وكان الخلفاء الراشدون يكرمونه ويحترمونه ويقدرونه .

وقام العباسيون بدعوتهم على أساس انهم لايريدون الخلافة

الا لانقاذ المسلمين من ظلم بني أمية وجبروتهم • وانهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وبالتالي فان على الناس اطاعتهم ، ذلك لأن من أطاعهم أطاع الله •• ومن عصاهم فقد عصا الله •

الخليفة الأول للدولة العباسية

أبـو العباس السفاح

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس ، ويكنى بأبي العباس ولـد فى الحميمة بالبلقاء (الأردن) سنة ١٠٤ هـ ، لقب بالسفاح ، واختلف الرواة فى تفسير هذا اللقب وأسبابه ، فمن قائل ان عبد الله كان كريماً محباً للضيوف يكثر الذبائح لهم ، ولكثرة ما أراق من دماء الذبائح لضيوفه أطلق عليه لقب السفاح ، ومن قائل ان هذا اللقب أطلق عليه بعد أن أطلق على نفسه فىخطبته التي قال فيها : (أنا السفاح المبيح) والله أعلم بالصواب • بويع له بالخلافة فى الكوفة سنة ١٣٢ هـ

توطيد دعائم الدولة العباسية :

اتخذ أبو العباس السفاح الحزم منذ البداية لتوطيد دعائم الدولة العباسية وحمايتها من الفتن والدسائس • فقضى على أنصار الأمويين وغيرهم من المناوئين للعباسيين •

وكان العلويون من الفئة التي كان يخشاها السفاح ويحسب لها ألف حساب • علماً بأن العلويين يرون أن الخلافة يجب أن تكون فى آل البيت وانها حق للامام علي كرم الله وجهه وذريته • وللتخلص من العلويين الذين كانوا يشكلون قوة كبيرة فى العـراق ، قرر السفاح

الفتك بزعيمهم أبي سلمة حفص بن سلمان (الخلال) ، الذي أسهم في تأسيس الدولة العباسية وحارب مع أنصاره الأمويـين ، فأرسل السفاح أخيه الى أبيمسلم الخراساني والي خراسان يستشيره بالموضوع فرحب بالفكرة وأرسل شخصاً اسمه مرّار بن أنس الضبي الى الكوفة لقتل أبي سلمة الخلال ، فقتله غدراً وأشيع ان الخوارج قتلوه .

وكان أبو العباس ينوي التخلص من أبي مسلم الخراساني الذي أول من آزره من الفرس ، ومكافأة لجهوده ومؤازرته للعباسيين ولاه خراسان حيث مالبث أن ازداد نفوذه وقويت شوكته فخشي منه أبو العباس السفاح على سلطانه مما جعله يعزم على قتله ، ولكن المنيـة وافته قبل أن يقضي على الخراساني .

أهم أعمال أبو العباس السفاح :

من أهم أعمال السفاح مايلي :

١ ــ قضى على العناصر المناوئة ووطد دعائم الدولة .
٢ ــ وضع علامات الأميال على الطريق بين مكة المكرمة والكوفة وذلك ليتسنى للمسافرين معرفة المسافة التي يقطعوها أثناء سيرهم .
٣ ــ نقل عاصمة الخلافة من دمشق الى الأنبار بالعراق ، وأطلق عليها اسم هاشمية الأنبار نسبة الى جدهم هاشم .
٤ ــ أبطل بدعة الخطابة جلوساً التي كان ينتهجها سلفه الأمويون وصار يخطب بالناس قائماً كما توجبه السنة المحمدية .

٥ ــ جعل شعار دولة العباسيين اللون الأسود ٠

وعلى طريقة الأمويين لم يجعل من ولاية العهد شــورى بــين المسلمين بل أراد حسماً للفتن والمنازعات أن يجعلها تعييناً من بعــده فأمر بالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور ، ومن بعده الى ابن عمه عيسى بن موسى ٠

وكان أبو العباس السفاح رجلا حازماً ، يحب المجالس والنقاش فى الأمور العامة ٠ وتميز بتشجيعه للأدب وحبه للشعر واكرام الشعراء ٠ ولم يقتن الجواري ، كما لم يتزوج سوى امرأة واحــدة اسمها (أم سلمة) (١) سيدة عربية أديبة اشتهرت بقوة الادراك وحسن الرأي ٠

وقد توفى السفاح بمرض الجدري بمدينة الأنبار سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) عن عمر لايتجاوز ٣٢ سنة ٠ وكانت مدة خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر ٠

الخليفة أبو جعفر المنصور

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وكنيته أبو جعفر المنصور ، ولد فى الحميمة بالبلقاء (الأردن) سنة ٩٥ هـ ، وكان أكبر سناً من أخيه أبي العباس السفاح ، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه ، وكان آنئذ فى الحجاز يؤدي فريضة الحج ، فلما وصله النبأ عاد مسرعاً الى الكوفة فبايعه أهلها ، ومنها سار الى الانبار مقر الخلافة ٠ وقد أخذت له البيعة من جميع الولايات الاسلامية باسم الخليفة المنصور ، وبحزم ووعي وحكمة سير أمور الدولة وثبت قواعدها ٠

---

(١) كانت أم سلمة زوجة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، مات زوجها بدمشق ، ثم تزوجت أبا العباس السفاح قبل أن يصبح خليفة بعدة سنين . وقد أنقذت فى عهد خلافته من الموت عددا من الابرياء .

اخماد فتنة عمه عبد الله بن علي :

وبالوقت الذي بايع أهل الكوفة والأنبار المنصور كان عمه عبد الله بن علي الذي أباد بني أمية فى بلاد الشام يدعو الى نفسه بالخلافة زاعماً أن السفاح كان وعده أن يكون خليفة من بعده وذلك مكافأة لانتصاره على الجيش الأموي واخضاعه بلاد الشام . فزحف عبد الله بن علي بجيش كبير عندما بلغه وفاة السفاح وهو فى طريقه لغزو بلاد الروم واتجه الى حران فاستولى عليها وتحصن فيها . وفى الحال أرسل الخليفة المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني الداهية ومعه القائد المشهور مالك بن هيثم الخزاعي . ولما علم عبد الله بقدوم أبي مسلم خاف أن ينقلب ضده جند خراسان اذا رأوا أبا مسلم فقتل منهم جماعة كبيرة ، وترك حران مع جنود الشام الى نصيبين وعسكر فيها . وهناك دارت معارك بين جيش الخليفة المنصور وجيش عمه عبد الله استمرت ٥ ــ ٦ شهور كان خلالها الحرب سجالا بينهما . وفى المعركة الحاسمة انتصر جيش الخليفة فى شهر جمادي الثانية سنة ١٣٧ هـ (كانون الاول ــ ٧٥٤ م) وفر عبد الله بن علي هارباً الى البصرة حيث أقام عند الوالي أخيه سليمان بن علي مختفياً . ثم علم المنصور به فسجنه وظل فى سجنه حتى مات .

الرسائل المتبادلة بين المنصور والخراساني :

وبعد أن أخمدت الفتنة عزم الخليفة أبو جعفر المنصور على التخلص من أبي مسلم الخراساني الذي شمخت نفسه وأصبح بمركزه القوي يشكل خطراً عليه . مع العلم أن السفاح كان ينوي قتل الخراساني بعدما انكشف له مكره وخطره ، ولكن الأجل وافاه قبل تنفيذ رغبته . وأرسل المنصور فى طلب أبي مسلم قبل أن يسير الى

خراسان عائداً من نصيبين حيث كان يقود جيش الخليفة ، فرد عليه أبو مسلم فى رسالة يقول فيها : (انه لم يبق لأمير المؤمنين عدو الا مكنه الله منه • وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف مايكون الوزراء اذا سكنت الدهماء • فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ماوفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة • فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وان أبيت الا أن تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي) •

ورد الخليفة برسالة بعثها الى أبي مسلم الخراساني حملها عيسى بن موسى ومعه أبو حميد المروزي يقول فيها : (قد فهمت رسالتك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة • وقد حمل اليك عيسى بن موسى رسالة أمير المؤمنين لتسكن اليها قلبك ان أصغيت اليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فان لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليه) •

نهاية الخراساني :

واستمر الخليفة المنصور يستعمل الدهاء والليونة ، ويوفد الى أبي مسلم الخراساني مندوبين ليقنعوه بالرجوع الى الطاعة حتى اقتنع وكتب الى الخليفة يعلمه بقدومه عليه • ولما وصل الى المدائن رحب به رجال القصر ، ثم أدخل على الخليفة ، فأظهر له الكرامة والاحترام ، وقال له :

اذهب الليلة وأرح نفسك من عناء السفر ، واحضر فى الغد • وعندما حضر صباحاً دخل على المنصور ووقف بين يديه ، فعاتبه الخليفة فى كل ماصدر منه ، وسأله عن سبب قتله سليمان بن كثير وابراهيم بن ميمون وهمامن كبار الدعوة العباسية ، فقال : خالفا أمري ، فغضب المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل اذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ ثم صفق بيديه فخرج الحرس من وراء الرواق وانهالوا على أبي مسلم الخراساني بسيوفهم حتى قتل • كان ذلك فى شهر شعبان سنة ١٣٧ هـ (٧٥٥ م) •

آل الحسن يثورون ويطالبون بالخلافة :

تجددت حركة المطالبة بالخلافة لذرية علي بن أبي طالب • وكان فى أواخر العهد الاموي ، وبالتحديد فى أواخر خلافة مروان بايع جماعة فى الحجاز محمد بن عبد الله بن الحسن المسمى بالنفس الزكية [1]• ويقول الطبري أن محمداً لم يبايع السفاح ، وكذلك تخلف هو وأخوه ابراهيم عن مبايعة المنصور •

وعندما أدى الخليفة المنصور فريضة الحج سنة ١٤٤ هـ ، سأل عبد الله بن الحسن عن ولديه محمد وابراهيم ، فقال : لا أدري أين هما ، ثم ألح المنصور على عبد الله فى طلب ولديه ، فقال لا أدري أين صارا ولا البلاد التي سافرا اليها • فغضب المنصور وأمر بسجنه ونقله مع أهل بيته وآل الحسن الى العراق •

وفى عام ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ظهرت الحركة فى الحجاز واستولى محمد بن عبد الله الملقب (بالنفس الزكية) على المدينة ومكة ، وأرسل وفوداً

---

(١) كان فى الحجاز من نسل الامام علي بن أبي طالب عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ابن أبي طالب وولداه محمد المسمى بالنفس الزكية وابراهيم .

الى الشام يدعو أهلها الى بيعته فلم يستجيبوا ، وقالوا لرسله ، ضجرنا من الحروب ومللنا من القتال •

وعندما علم الخليفة المنصور بخروج محمد بن عبد الله وتحصنه فى المدينة مع جماعته أرسل جيشاً بقيادة عيسى بن موسى وأمره بأن يؤمن على أرواح أهل المدينة ، وتمكن جيش المنصور من القضاء على حركة محمد بن عبد الله وقتله فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ •

وكان من المقرر حسب الخطة المرسومة أن يقوم ابراهيم أخو محمد بن عبد الله فى حركة بالبصرة فى ذات الوقت الذي يخرج أخوه فى المدينة ، ولكنه تأخر فى الوصول ولم يتمكن من جمع أنصاره العلويين الا بعد أن كان جيش الخليفة المنصور قد بلغ المدينة المنورة وقضى على حركة المقاومة فيها • وفى البداية كسب ابراهيم الجولة الأولى وتمكن من الاستيلاء على البصرة والأهواز والمدائن • أما الجولة الثانية فكان النصر فيها للجيش العباسي وانهزام جيش ابراهيم فى المعركة الحاسمة التي دارت رحاها بين الفريقين على بعد ستة عشر فرسخا من الكوفة •

وقد قتل ابراهيم بن عبد الله (١) فى شهر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ بسهم أصابه أثناء المعركة ، وبمقتله أخمدت حركة أولاد عبد الله آل الحسن فى الحجاز والعراق •

بناء بغداد عاصمة العباسيين

من أهم ماقام به أبو جعفر المنصور من أعمال عمرانية ظلت راسخة فى التاريخ ، بناؤه مدينة بغداد • ففي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) أمر المنصور ببناء عاصمته الجديدة على أنقاض قرية قديمة ساسانية

---

(١) قيل عن بعض المؤرخين ان الخليفة المنصور لما جلب له رأس ابراهيم بن عبد الله بكى بكاءا مرا وقال : والله لقد كنت لهذا كارها . ولكنك ابتليت بي وابتليت بك .

اسمها بغداد ومعناه (هبة) ، وسماها مدينة السلام • وهي تبعد عن المدائن عاصمة الفرس القديمة ٣٢ كيلومترا • وعندما اختار المنصور المكان لبناء المدينة على الضفة الغربية من نهر دجلة خيم فيه عدة أيام وليالي فوجده صالحاً تتوافر فيه سبل العيش وتسهل فيه المواصلات بين الولايات الاسلامية • وكان هو أول من وضع لبنة بيده فى بنـــاء بغـــداد ، وقال : (بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين) •

واتتقل الخليفة المنصور الى عاصمته الجديدة سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) حيث استمر البناء أربع سنوات حتى استكملت ، فكانت آية فى روعة الهندسة والفن المعماري والتصميم البديع • وقد جعلها فى تصميمها الهندسي مدورة تحيط بها أسوار مزدوجة ، ولها أربعة أبواب تمــر فيها طرق بعدد الأبواب وهي : باب الشام ، وباب البصرة ، وباب الكوفة ، وباب خراسان • وفى وسطها قصر الخليفة المسمى (باب الذهب) تتوسطه قبة خضراء ارتفاعها ٨٠ ذراعاً (٥٦ مترا) ، والى جانبه المسجد الفخم البناء • وغدت بغـــداد (دار السلام) منارة للعلوم والآداب ، ومركزاً عالمياً للحضارة الاسلامية •

تشجيع العلوم ومحاربة البدع :

وشجع الخليفة المنصور الحركة العلمية والأدبية ، وأقبل العلماء على ترجمة الكتب من اللغات الفارسية واليونانية الى اللغة العربية ، وتأليف الكتب فى الفقه والطب وعلم الفلك والرياضيات الخ •• وفى عهده صدر كتاب (الموطأ) للامام مالك ، والفقه لأبي حنيفة • وظهر من نوابغ الكتاب ابن المقفع الذي ترجم كتاب (كليلة ودمنة) الشهير الى العربية •

كما شجع الفنون ، واهتم بالزراعة وحفر أقنية المياه ، وجعل العنصر العربي قوياً فى الجيش ، ونظم البريد وجعله بمثابة (شرطة سرية) لجمع المعلومات عن أحوال الولايات وأخبار الولاة .

وقضى المنصور على كثير من البدع الدينية والعقائد الفارسية القديمة التي أبطلها الاسلام . وكانت آنذاك خراسان وبلاد ماوراء النهر موبوءة بهذه البدع التي أزال خطرها .

وفاة الخليفة المنصور :

توفى الخليفة المنصور وهو فى طريقه الى الحج سنة ١٥٨ هـ (٧٧٥م) ودفن فى مكة المكرمة ، وكان يومئذ عمر ٦٣ سنة ، ومدة خلافته ٢٢ سنة .

وكان قبل وفاته أخذ البيعة لولده المهدي بعدما حمل عيسى بن موسى على التخلي عن ولاية العهد . وكان عيسى بويع عندما اختار السفاح أخاه المنصور ولياً لعهده ودعا الناس لمبايعته ومبايعة ابن أخيه عيسى بن موسى خليفة للمنصور بعد وفاته ، ولكن المنصور أراد أن يحصر الخلافة بذريته فنفذ رغبته وجعل ولاية العهد لولده المهدي .

عهد خلافة المهدي :

تولى الخلافة محمد المهدي بعد وفاة أبيه المنصور (سنة ١٥٨ هـ) وأول عمل قام به هو اطلاق السجناء ما عدا الذين اقترفوا جرائم قتل ، وعزل الولاة الذين كانوا غير أكفاء ، وشكل هيئة استشارية للبت فى القضايا ورد المظالم .

وسار المهدي على نهج سليم قوامه السنة ، والاهتمام بالرعية ، ومكافحة البدع ، والقضاء على الملحدين . وكان يختلف عن أبيه

المنصور فى بعض النواحي وبالأخص الجود الذي اشتهر به المهدي ، فكان يوزع الأموال على الفقراء ، ويغدق على الأدباء والشعراء العطاء • وقيل انه فتح خزائن أبيه المملوءة بالذهب والفضة ووزعها على أبناء رعيته •

وفى سنة ١٦٠ هـ حج المهدي ، وكان معه ابنه هارون الرشيد • وقد وزع يومئذ على أهل مكة أموالا كثيرة • ولما دخل المدينة المنورة مكث فيها حتى أتم توسعة المسجد النبوي • وقبل عودته الى بغداد تزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية •

اقتحام بلاد الروم وفرض الجزية :

وفى سنة ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) جهز الخليفة المهدي جيشاً كبيراً قوامه ٩٥ ألف رجل بقيادة ابنه هارون الرشيد للزحف على بلاد الروم الذين كانوا قبل عامين شنوا غارة على المناطق العربية عبر جبال طوروس • وسار الجيش العباسي حتى بلغ ضفاف البوسفور ، وأصبح على بعد بضعة أميال من القسطنطينية ، فأسرعت الامبراطورة ايرين (١) الى طلب الصلح من الرشيد • وتم الاتفاق على أن تدفع الامبراطورة (ملكة الروم) جزية سنوية الى الخليفة قدرها ٧٠ ألف دينار •
وعاد هارون الرشيد من الحرب منتصراً ومعه وفد من الروم يحمل الجزية الى أبيه الخليفة محمد المهدي ، فاستقبلته بغداد استقبالا رائعاً •
وفى ذلك النصر العظيم قال مروان ابن أبي حفصة :

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً ... اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكها ... بجزيتها والحرب تغلي قدورها

---

(١) ايرينا زوجة الامبراطور ليو الرابع ، تسلمت مقاليد الحكم بعد وفاة زوجها باسم ابنها قسطنطين السادس الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد .

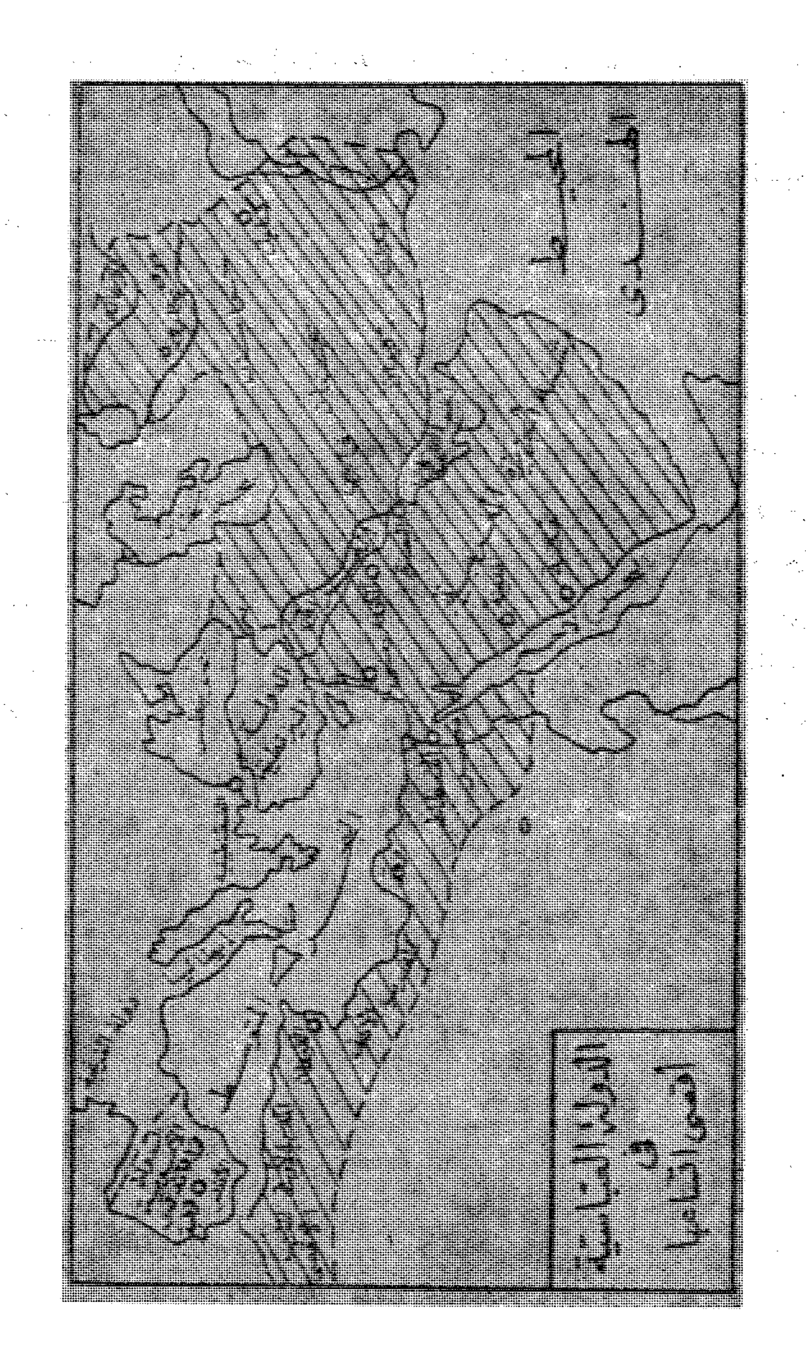
وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ هـ) توفى المهدي عن عمر يناهز ٤٣ سنة، وكانت مدة خلافته عشر سنوات • أما سبب وفاته فقيل أنه مات مسموماً ، وقيل أنه مات بالحمى ، وقيل أنه أصيب بكسر أثناء الصيد فمات على أثره •

خلافة الهادي بن المهدي :

بويع موسى الهادي بالخلافة بعد وفاة أبيه غير ان مدة حكمه لم تدم أكثر من سنة وشهرين : وقد وقع خلال فترة خلافته حادثة خطيرة فى الحجاز ، موجز قصتها هي : خرج الحسين بن علي بن الحسن (من آل البيت) ومعه جماعة من أنصاره ، ويقال أن السبب خلاف وقع بين عامل العباسيين وجماعة من أهل المدينة فتدخل الحسين وثار على العباسيين ، ثم انتقل مع جماعة من أنصاره الى مكة ، ولما علم الخليفة الهادي بالخبر أرسل جيشا بقيادة محمد بن سليمان العباسي لقمع حركة الحسين بن علي • وفى موقع (فخ) القريب من مكة دارت معركة بين الفريقين انتهت بمقتل الحسين وطائفة من جماعته وفرار الذين كتبت لهم النجاة من بينهم ادريس بن عبد الله بن الحسن وأخيه يحيى بن عبد الله [1] فالاول ذهب الى المغرب ، والثاني الى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين •

وحاول الهادي انتزاع ولاية العهد من أخيه هارون الرشيد ، وجعلها لابنه جعفر الصغير ، ولكن أمه (الخيزران) التي كان لها نفوذاً واحتراماً عظيماً فى عهد زوجها المهدي عارضت ذلك • وقبل أن يتمكن من تحقيق رغبته وافاه الأجل ومات سنة ١٧٠ هـ عن عمر ٢٣ سنة • وتختلف الروايات فى أسباب وفاته ، فقيل انه مات مسموماً ، وقيل مات بقرحة فى معدته ، وقيل دخلت قصبة فى منخره فمات ، والله أعلم •

(١) هما اخوان محمد النفس الزكية .



العصر الذهبي للدولة العباسية

فى عهد هارون الرشيد

عندما بويع هارون الرشيد بالخلافة عام ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، كان فى الثانية والعشرين من عمره ، وفى ذات اليوم الذي تولى فيه الخلافة ولد ابنه المأمون ، فسر بمولده ، ووزع يومئذ العطاء الجزيل على الفقهاء والشعراء والجند والفقراء •

ولد هارون سنة ١٤٥ هـ فى الري ، مدينة قديمة جنوب شرقي طهران • وقد أعده والده المهدي اعداداً حسناً ، وولاه قيادة الجيوش التي حاربت الروم وبلغت فى زحفها أبواب القسطنطينية وفرضت الجزية على الامبراطورة ايرين ، فأكسبته تلك القيادة والمهام التي عهد اليه والده بها خبرة فى شؤون الدولة واطلاعاً على أحوال البلاد •

وكان هارون الرشيد أشهر شخصية عرفها العصر العباسي الذي دام خمسة قرون وربع القرن • ففي عهده بلغت بغداد المركز الزاهر فى العلوم والفنون والتجارة •

حقاً ان عهده يعتبر من حيث الاستقرار والرفاه والتقدم والازدهار العصر الذهبي للدولة العباسية الاسلامية الكبيرة التي صنعت تاريخها العظيم ، وتبوأت المركز الأول فى التاريخ القديم • وقد خطب ود الرشيد الملوك وعظماء العالم منهم شارلمان امبراطور الغرب الذي تقرب من الخليفة العباسي ووطد معه علاقات متينة سنأتي على ذكرها ••

لم يسبق لملك فى الشرق أن ذاع صيته فى العالم فى تلك الحقبة الطويلة من التاريخ كالخليفة هارون الرشيد • فقد نشرت عن عهده مجموعات كبيرة من المصنفات ومئات الكتب بمختلف اللغات ، كما رويت القصص الكثيرة عن رجاحة عقله وقوة ادراكه ، وسرعة بديهته ، وكرمه ، وحبه لمجالس الطرب والغناء والشعر •

وكان الرشيد ورعاً ، محباً لأعمال الخير ، جزيل العطاء . وكان يتصدق من ماله فى كل يوم بألف درهم ، ويصلي فى كل يوم مائة ركعة تطوعاً . وقيل أنه طلب من رجل صالح أن يعظه ، فقال له يا أمير المؤمنين اذا ظمئت وانقطع الماء فكم تدفع ثمناً لشربة منه تدفع عنك غائلة الظمأ وترطب بها جوفك ، فقال هارون : أدفع قيمتها نصف ملكي ، فقال الناصح : واذا أصبت بمرض حصر البول وعز الدواء ، وبعد عناء شديد تمكنت من العثور عليه ، فكم تدفع ثمناً له ؟ فقال الرشيد : أدفع لذلك الدواء ملكي كله ، فقال الناصح : يا أمير المؤمنين مادام الأمر كذلك فازهد فى ملك لايساوي نصفه جرعة ماء ولا يساوي كله بوله .

والواقع أنه كان يقرب من مجلسه العلماء والفقهاء والشعراء ، ويصغي لأهل الفكر والموعظة ويقدرهم . وقيل أنه استدعى اليه الفقيه الجليل الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث ، وبعد انفضاض المجلس دعاه للغداء مع الحاضرين ، ثم قام الفقيه الضرير ليغسل فصب الخليفة هارون الرشيد الماء على يديه ، وقال له : أتدري من يصب لك الماء ؟ فقال لا . قال : هو أمير المؤمنين ، تعظيماً للعلم وأهله .

المرحلة الاولى من حكمه :

تميزت المرحلة الأولى من خلافة هارون الرشيد بتعيين يحيى بن خالد بن برمك [1] الذي رباه فى صغره كبيراً لوزرائه ، وقال له : (قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من حقي اليك ، فاحكم فى ذلك بما

(١) يحى البرمكي اعتنى بتربية هارون الرشيد عندما كان طفلا ، ون[illegible] الهادي بأن يعدل عن فكرة انتزاع ولاية العهد من أخيه هارونوتولية ابنه جعفر ، فزج الهادي فى السجن ثم أطلق سراحه هارون عندما تولى الخلافة .

ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ماترى ..) .

كما ولى الرشيد ولدي يحيى البرمكي المناصب الكبرى . فولى جعفر مصر والفضل خراسان . وشكل لجنة من القضاة والعلماء لوضع أصول الحكم فى مؤلف خاص . وأصدر عفواً عن جميع المساجين باستثناء الذين اقترفوا جرائم قتل .

وقد أعاد الخليفة والدته الخيزران الى القصر بعد أن كانت هجرته فى عهد أخيه الهادي بسبب خلافها معه ، وأصبحت لها الكلمة الاولى كما كانت فى عهد زوجها المهدي . وكانت الخيزران سيدة محترمة ، نيرة العقل تحب الشعر . وتوفيت سنة ١٧٣ هـ عن عمر لايتجاوز ٤٥ سنة .

ظهور حركة فى بلاد الديلم والمغرب :

ظهرت حركة جديدة قام بها أبناء عبد الله بن الحسن (من آل البيت) فى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين ، وفى بلاد المغرب . وقد سبقتها حركة أتينا على ذكرها ، قامت فى الحجاز فى عهد الهادي تزعمها الحسين بن علي (من آل البيت) وأخمدها الجيش العباسي بسرعة سنة ١٦٩ هـ بعد معركة قتل فيها الحسين . وكان معه يومئذ يحيى وشقيقه ادريس من ذرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فتمكنا من الفرار ، واتجه يحيى الى بلاد الديلم ، وادريس الى المغرب .

وفى بلاد الديلم قام يحيى بن عبد الله سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بحركة استفحل أمرها ، فأرسل الخليفة هارون الرشيد وزيره الفضل ابن يحيى على رأس جيش لاخمادها ، وكان الفضل رجلا سياسيا ماهراً فتمكن ببراعته وحسن تدبيره وفصاحته من استمالة يحيى بن عبد الله وذلك حقناً لدماء المسلمين . . وبعد أن أمنه على نفسه سار

بصحبته الى الخليفة هارون الرشيد فاحتفى به وأكرمه • ثم مالبث أن سجنه لدى جعفر ابن يحيى البرمكي فاستنجد به عبد الله ، وظل يتوسل حتى أطلق سراحه •

أما شقيقه ادريس بن عبد الله فى المغرب فقد التف حوله الكثير من البربر • وكان لبعد المسافة الشاسعة بين المغرب وبغداد وقلة المواصلات أثر كبير فى نجاح حركته الانفصالية عن الدولة العباسية • وقد شيد ادريس مدينة فاس فى موقع جميل واتخذها عاصمة له ، وأصبح هو الحاكم المطلق لبلاد مراكش •

وقرر الخليفة هارون الرشيد القضاء على ادريس بدون حرب وسفك دماء فى بلاد المغرب ، فأرسل رجلا يدعى الشماخ ، بربري من الموالي ، تنكر فى زي طبيب ، ودس السم لادريس فمات (٧٩٢ م) • ولكن الامر لم ينته بموته ، فالتف أنصاره حول ولده الطفل الصغير وبايعوه •

وعاد الخليفة هارون وأرسل سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) القائد العربي ابراهيم بن الأغلب لتوطيد النظام والامن فى الشمال الافريقي ، وأطلق له اليد فى حرية التصرف وادارة هذه البلاد • وتمكن من السيطرة على الوضع ، وبسط نفوذه • ومع مرور الزمن أصبحت المنطقة امارة مستقلة عرفت فيما بعد باسم دولة الأغالبة ، وبقيت مرتبطة معنوياً واسمياً بالخلافة العباسية •

اخماد الفتن الداخلية :

وقد نشبت فى فترات متقطعة منازعات وفتن داخلية أخمدها جميعها الخليفة هارون الرشيد • ففي بلاد الشام نشبت فتنة بين اليمنيين والقيسيين ، تحولت الى حرب أهلية مستعرة أخمدت سنة ١٨٠ هـ

(٧٩٦م) . وبعدها بثلاث سنوات ثارت قبـائل من الخزر ونهبت وقتلت عدداً كبيراً من أهالي ارمينيا واذربيجان ، فأرسل الخليفـة الرشيد جيشاً بقيادة حازم بن خزيمـة ونائبه يزيد بن مزيد ، فقمع ثورة الخزر وأعاد النظام والأمن . وفى طبرستان وخراسان نشبت فتنة سـنة ١٨٥ هـ فأخمدت . وبعدها ظهرت فتنة أخرى فقمعت ، وعاد الهدوء والاستقرار الى المنطقة .

العلاقات بين الرشيد وشارلمان

لقد توطدت العلاقات بين الخليفة هارون الرشيد وشارلمان [1] امبراطور الغرب الذي تبادل مع الخليفة العباسي السفراء والهدايا النفيسة . وكان من ضمن الهدايا التي أرسلها الرشيد الى شارلمان ساعة مائية صنعت فى بغداد ، وسيف من الذهب ، وفيل .

ويعتبر تبادل السفراء بين العاهلين حدثاً تاريخياً لـم يسبق أن حصل مثيله خلال التاريخ القديم . ففي العصور الغابرة كانت تعقد بين الملوك معاهدات سلم وتجارة . أما تبادل السفراء فـلم يحصل الا فى عهد هارون الرشيد وشارلمان .

وقد تقرب شارلمان من الخليفة العباسي وكسب وده ، ووقـع معه معاهدات صداقة وتجارة ، ومنحت التسهيلات للحجاج المسيحيين الوافدين من أوروبا الى القدس .

وعلاوة على ذلك ، كان شارلمان يتوخى من وراء تقوية علاقاته

---

(١) شارلمان هو ابن الامير بيبان لوبريف ، تبوأ العرش فى فرنسا عام ٧٧١ م ، واستولى على أوروبا الغربية ، وحارب الوثنية وحول السكسونيين فى ألمانيا الى المسيحية . وقد توجه البابا ليون الثالث امبراطورا على الغرب عام ٨٠٠ ، وتوفي عام ٨١٤م .

مع الرشيد كسب مودته للحصول على مركز أدبي فى الشرق ، والعمل على اضعاف الدولة الأموية فى الأندلس التي ظلت قائمة ولم يتمكن العباسيون من القضاء عليها . وأيضاً التعاون مع الخليفة العباسي على انهاك الامبراطورية البيزنطية .

واستعان الامبراطور شارلمان بالقوانين المطبقة فى الدولة العباسية لاصلاح نظام دولته . كما أوفد بعثات الى بغداد لدراسة فن البناء والطب وصناعة الأقمشة . علماً بأن أوروبا كانت آنذاك متأخرة غائصة فى ظلام العصور الوسطى .

انتصار الرشيد على امبراطور بيزنطية :

كنا أتينا على ذكر بلوغ الجيش العباسي أبواب القسطنطينية فى عهد المهدي وبقيادة ابنه هارون الرشيد وفرض الجزية على الامبراطورة ايرين وقدرها ٧٠ ألف دينار سنوياً . ولما خلعت ايرين عن العرش فى سنة ٨٠٢م واستولى على الحكم أحد النبلاء تحت اسم الامبراطور نقفور نقض اتفاق الجزية وكتب الى الخليفة هارون الرسالة التالية :

من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب .. أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت اليك من أموالها ماكنت حقيقاً بحمل أمثاله اليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ماحملته اليك من أموالها ، وافتد نفسك به ، والا فالسيف بيننا وبينك .

ولما قرأ الرشيد كتاب نقفور استفزه الغضب الشديد حتى لم يجرأ أحد أن ينظر اليه . وطلب دواة وقلماً ، وكتب على ظهر الكتاب :

بســم الله الرحمن الرحيم :

من هارون أمير المؤمنين ، الى نقفور كلب الروم • قد قرأت كتابك ، والجواب ماتراه دون أن تسمعه ، والسلام •

وفى الحــال صدرت الأوامر لتجهيز الجيش ، وتولى قيــادته الخليفة بنفسه ، وزحف حتى بلغ هرقلية على البحر الأسود • فخاف نقفور ملك الروم وطلب من الرشيد الموادعة على خراج يؤديه كل سنة ، فأجابه على ذلك • ولما رجع الخليفة ووصل الرقة على الفرات ليقضي فترة من الراحة فى قصره الجميل تمرد نقفور ونقض العهد • وكان البرد قد اشتد والثلوج بدأت تكسو جبال طوروس ، ورغم ذلك فقد عاد الرشيد من جديد وزحف بجيشه عبر تلك الجبال حتى بلغ سواحل البحر الأسود بعد ان اجتاح آسيا الصغرى ودمر حصون الروم وهزم جيشهم • فهلع نقفور وأرسل على جناح السرعة وفــداً يطلب الصلح • وكان من جملة بنود الاتفاق الذي وقعه امبراطور الروم هو أن يدفع الجزية دنانير ذهب تضرب فى القسطنطينية بأسماء هارون أمير المؤمنين ، وأولاده : الأمين والمأمون والمؤتمن • وذلك امعانا فى اذلالــه •

وبالوقت الذي كان الجيش العباسي يزحف باتجاه سواحل البحر الأسود ، كانت هناك حملة بحرية أرسلها الرشيد لاسـتعادة جزيرة قبرص التي أضاعها العرب أيام الحروب الأهلية • وقــد استولت على الجزيرة وأسرت عدداً كبيراً من جنود العدو • حدث ذلك سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢م) •

الخليفة هارون ينهي البرامكة :

يرجع أصل البرامكة الى برمك المجوسي ، وهم من أسرة فارسية عريقة • وقد أسلم أولاد برمك ، وكان أحدهم يدعى خالد قد آزر الدعوة العباسية منذ نشأتها وناصرها بكل مايملك وبشتى الوسائل ، ومكافأة له على صنيعه استوزره الخليفة العباسي السفاح • وبدوره المنصور ولاه على بلاد فارس ، ثم الموصل • ولما تولى الرشيد الخلافة قرب اليه يحيى بن خالد البرمكي وجعل منه الشخصية الكبيرة الأولى فى الدولة ، كما قرب أبناءه الفضل وجعفر وقلدهم المناصب الكبرى •

وكانت أسرة يحيى البرمكي أحظى الناس عند الرشيد وأحبها اليه • وقيل ان الخيزران أم هارون الرشيد أرضعت بلبنها الفضل بن يحيى ، وأم الفضل وجعفر أرضعت هارون لبنها • وهذا مايفسر ان الفضل يعتبر أخا لهارون بالرضاعة •

ويستدل من أقوال المؤرخين ومؤلفاتهم ان البرامكة بثقافتهم وعلمهم وخبرتهم قدموا خدمات جلى للرشيد وأسهموا معه فى تقوية دعائم حكمه • وقد ظلوا سبعة عشر سنة يتمتعون بنفوذ كبير وصلاحيات مطلقة فى ادارة شؤون الدولة ، جمعوا خلالها ثروات ضخمة ، وبنوا قصوراً فخمة ، واقتنوا الخدم والموالي حتى أصبح عددهم لايقل عن عدد موالي وخدم الخليفة •

وقد اختلف المؤرخون فى أسباب نقمة الخليفة هارون على البرامكة وتدميرهم واستئصال شأفتهم • فقال البعض ان السبب (العباسة) أخت الرشيد التي زوجها من جعفر البرمكي زواجاً صورياً ليستطيع

جعفر ان يحضر مجالسه العائلية ، واشترط عليه بأن لايقيم أية علاقة من أي نوع مع أختـــه العباسة • ولكن الوقت لم يطل حتى حملت العباسة من زوجها جعفر وولدت غلاماً وأرسلته سراً مع جارية من جواريها الى مكة ليربى عند مرضعة • فلما علم الرشيد غضب وقطع رأس جعفر وقضى على البرامكة • فهذه القصة التي تناقلتها الألسن بأشكال وأساليب مختلفة ليست هي بحد ذاتها السبب الرئيسي فى نكبة البرامكة ، بل هناك أسباب أعمق من تلك الرواية أهمها :

١ ــ كان البرامكة فى السنوات الأخيرة يبتون فى أمور هامة دون أخذ رأي الخليفة فيها ، مثال ذلك اطلاق سراح يحيى بن عبد الله الذي تزعم حركة مناوئة للدولة العباسية فى بلاد الديلم دون عــلم الرشيد ، الأمر الذي جعله ينقم على جعفر ويعتبر عمله خيانة •

٢ ــ تضخم ثروة البرامكة ، والانفاق بدون حساب من أموال الخزينة على قصورهم وجواريهم وأتباعهم وأنصارهم مما زاد نقمة الرشيد عليهم وبالأخص كما يقول المؤرخ ابن جرير وغيره عنــدما علم ان جعفر أنفق على بناء قصره أموالا ضخمة تقدر بمليوني ونصف مليون دينار أخذها من بيت المال (خزينة الدولة) •

٣ ــ ازداد نفــوذ البرامكة وهيمنتهم عــلى الدولة ، فخشي الرشيد من خطر نفوذهم الآخذ بالازدياد على الخلافة العباسية • وقد نقل الى الخليفة بعضــ المقربين اليه أن البرامكة يميــلون الى العلويين ، وربما فى المستقبل يقومون بحركة لاعادة الملك الى فارس باعتبارهم من أصل فارسي ، أو تحويل الخلافة الى العلويين •

تلك هي العــوامل التي أدت الى نكبــة البرامكة التي كان

للدسائس فى بلاط الرشيد دوراً فيها • وليس ثمة من شك بأن الثراء والنفوذ والتمتع بالسلطة المطلقة وتوزيع العطاء والمناصب على أنصارهم أثار العداء ونقمة الكثيرين من رجال القصر وجهاز الدولة وغيرهم من الأعيان والوجهاء على البرامكة • وحتى زبيدة فقد نقمت على يحيى ابن خالد البرمكي والد جعفر والفضل وشكته مرات الى الرشيد لتضييقه فى النفقة على عيال الخليفة ، بينما كان ينفق بسخاء من أموال الخزينة على عياله وقصور أولاده •

وأخيراً قرر الرشيد انهاء البرامكة ، فأرسل خادمه الأمين (مسرور) ومعه حماد بن سالم أبو عصمة مع ثلة من الجند الى قصر جعفر فألقوا القبض عليه وسجنوه ، ثم حز رأسه • وكان عمره وقتئذ ٣٧ سنة وفى نفس الليلة التي قتل فيها جعفر أمر الرشيد بسجن يحيى وولده الفضل ، وظلا فى سجنهما حتى ماتا • وقد كانت وفاة يحيى البرمكي فى سجنه ببغداد سنة ١٨٨ هـ (٨٠٣م) ، عن عمر يناهز ٧٠ سنة ، ووفاة ولده الفضل فى حبسه بالرقة سنة ١٩٢ هـ وله من العمر ٤٥ سنة •

أما أملاك البرامكة وأموالهم فقد صادرها الخليفة هارون الرشيد ، كما أعتق عبيدهم وجواريهم ، وطهر القصر وجهاز الدولة من أنصارهم وأتباعهم • وهكذا قضى على البرامكة واندثرت آثارهم حدث ذلك فى سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢م) •

ازدهار الحركة العلمية والتجارة والصناعة

ازدهرت الحضارة الاسلامية فى عهد الخليفة هارون الرشيد • وقد نشطت التجارة نشاطاً ملحوظاً حتى فكر فى وصل البحر الأبيض

المتوسط بالبحر الأحمر ، وكان ذلك قبل أن يفكر المهندس الفرنسي فيردينان دوليسيبس بأكثر من ألف سنة •

وكان من عوامل النشاط التجاري اتســاع الدولة الاسلامية والاختــلاط بالروم والصينيين والافريقيين وسائر شعوب البــلاد المفتوحة • وقد وصل العرب بتجارتهم شرقاً الى الصين ، وغرباً الى المحيط الأطلسي ، وجنوباً الى جزيرة مدغشقر ، كما عبروا صحراء افريقيا الكبرى حتى نهر النيجر •

وقد اهتــم الرشيد بأمور رعيته حتى انه كثــيراً ماكان يتنكر متخفياً ويسير فى طرق بغداد وأسواقها لكي يتعرف على أحوال الرعية فيتسنى له بالتالي انصاف المظلوم واغاثة الملهوف • ومن جملة أعماله التي قام بهــا : تأمين الطرق التجارية ، وحفر الآبار ، وانشاء المحطات على طول طرق القوافل لامداد المسافرين بما يلزمهم • كما أنشأ المدارس والمساجد والمستشفيات ، وشــجع التأليف وترجمت الكتب الهندية والفارسية والرومانية وغيرها الى اللغة العربية •

وقد عني الرشيد بنشر العلوم ، فأمر بتأسيس المعاهد لتخريج الأطباء • وكان هناك نوعان مــن الكليات الطبية النــوع الأول هو (البيمارستان) أي المستشفى ، والنوع الثاني ــ المدارس النظرية • كما شجع الصناعات فى الولايات الاســلامية ، وكان من أهمها أن ازدهرت فى عهده صــناعة السجاجيد الحريرية والقطنية والصوفية ، وصناعة البسط والنسيج والبسط المطرزة ، والأقمشة ، وصناعة الأواني الخزفية ، وأدوات الطهي ، والمصابيح • وكان لكل ولايــة صناعتها الخاصة التي اشتهرت بها ، فمثلاً اشتهرت الكوفة فى العراق بصناعة

الكوفيات ، واشتهرت دمشق بصناعة نوع من الأقمشة أطلق عليه الأوربيون اسم (داماسك) نسبة اليها ، وكذلك الموصل فى العراق فقد اشتهرت بصناعة نوع من الأقمشة أطلق عليه الغرب اسم (موسلين) نسبة اليها ، وأيضاً مصر اشتهرت ببعض الصناعات أطلق على معظمها اسم الدمياطي نسبة الى دمياط . وهناك صناعة القاشاني والفسيفساء فقد اشتهرت دمشق بهما . كما تقدمت صناعة الحلي وصقل الأحجار الكريمة فى كثير من المدن الاسلامية . وأصبح اللؤلؤ والياقوت والزمرد والماس من الجواهر المفضلة عند علية القوم . ويقال ان من أشهر الجواهر فى التاريخ الاسلامي ياقوتة حمراء كبيرة توارثها قديماً ملوك فارس الساسانيون ، ثم صارت الى الخليفة هارون الرشيد فاشتراها بمبلغ أربعين ألف دينار .

المجالس الاجتماعية :

وكان هارون الرشيد مثالاً للكرم ، فقصده الأدباء والشعراء وأرباب النوادر ، وأرباب الموسيقى والغناء . وكانت فى قصره تعقد الندوات ويتبارى فيها الشعراء ، ومجالسه الخاصة تتخللها التسلية والنوادر والغناء .

ومن مشاهير الأدباء والشعراء والموسيقيين فى عهد الرشيد هم :

الأصمعي ، أديب كبير ، شاعر ، ومؤلف ، عهد اليه الخليفة هارون الرشيد بتعليم ابنه الأمين . ولد فى البصرة سنة ٧٤٠ م ، وتوفى سنة ٨٢٨ م .

أبو العتاهية ، كني بأبي العتاهية لتعتعته وحبه للمجون ، نشأ

بالكوفة ، شاعر مشهور ،عاش فى أيام الرشيد حتى أيام المأمون ، توفى ٨٢٥م ، ومن أقواله :

فيا ليت الشباب يعود يوماً * فأخبره بما فعل المشيب

أبو نواس ، من كبار شعراء العصر العباسي ، قضى حياته مقرباً من الرشيد ، ولد فى الأهواز سنة ٧٦٢م ، وتوفى فى بغداد سنة ٨١٣م •

ابراهيم الموصلي ، موسيقي مشهور ، شاعر ، ومغني ، من ندماء الرشيد ، ولد فى الكوفة سنة ٧٤٢ م وتوفى فى بغداد سنة ٨٠٤ م •

وكان من أشهر أطباء الخليفة هارون جبرائيل بختيشوع ، مسيحي من طائفة السريان ، له كتب فى علم الطب ، توفى فى عام ٨٣٠ م •

أما زوجة الرشيد أم العزيز الملقبة (زبيدة) فهي عربية عباسية بنت جعفر بن المنصور ، لقبت زبيدة لأن جدها الخليفة المنصور كان يقول لها وهي صغيرة : أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب ذلك عليها وأصبحت تعرف بهذا الاسم • وتزوجها هارون الرشيد فى عهد أبيه المهدي ، وولدت له الأمين •

وكانت زبيدة محبة لأعمال البر والخير كريمة وجميلة ، لها منزلة عالية وأحب الناس الى الرشيد • وذكر المؤرخ المشهور ابن خلكان انه كانت تفرض على جواريها أن يحفظن القرآن الكريم • وقيل لما حجت أنفقت ثلاثة ملايين دينار على أعمال الخير والفقراء وجر الماء الى الحرم بمكة المكرمة من عين أطلق عليها اسم عين زبيدة • وقد عاشت حوالي ٦٢ سنة منها ٢٣ بعد وفاة الرشيد • وتوفيت ببغداد سنة ٢١٦ هـ •

ولاية العهد ووفاة الرشيد :

فى السنوات الأخيرة من حياة الخليفة هارون الرشيد أراد ان يختار أحد أبنائه للخلافة من بعده • وكان هناك تنافس بين فئتين ، الأولى تحبذ الأمين ابن زبيدة لولاية العهد ، والفئة الثانية تناصر المأمون • وهذه الأخيرة كانت بزعامة الفضل بن سهل من أصل فارسي ، يؤيد البيعة للمأمون باعتباره أكبر سناً من أخيه الأمين ، ومن أم فارسية اسمها مراجل • بينما الفئة الأولى كانت تمثل النفوذ العربي بزعامة زبيدة أم الأمين والوزير الفضل بن الربيع •

وأخيراً اتخذ الرشيد قراره وجعل ولاية العهد لأولاده الثلاثة على أن تكون ولايتهم بالتتابع ، الأول يكون الأمين ، ويليه المأمون ، ثم القاسم الملقب بالمؤتمن • وثبّت ذلك بعهد كتبه فى مكة المكرمة بعد أن أدى فريضة الحج سنة ١٨٧ ، وأشهد عليه الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة ، وأودعه الكعبة المكرمة •

ولضمان التفاهم والتعاضد بين أولاده ، ومنعاً لاثارة الغيرة والحسد والصراع بينهم فقد ولى كل واحد منهم امارة • فالأمين ولاه امارة الشام والعراق ، والمأمون خراسان وبلاد ماوراء النهر والمشرق ، والمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم المتاخمة الى الروم • وأخذت العهود من الأمين والمأمون بأن لايتدخل أحدهما بشئون ادارة امارة الآخر • كما أخذ عليهما عهداً بأن لايتدخلا فى ادارة أخيهما المؤتمن فى الجزيرة •

وفى عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) نشبت فتنة فى تركستان تزعمها رافع بن ليث تفاقم خطرها ، فسار ، الخليفة هارون الرشيد على رأس

جيش لاخمادها . وعندما وصل الى مدينة طوس فى خراسان مرض واشتدت به العلة ومات (١) وكان فى الخامسة والأربعين من عمره ، بعد أن تولى الخلافة ٢٣ سنة .

وقد رثاه الشعراء بقصائد كثيرة . ومما قاله الشاعر أبو الشيص :

غربت فى الشرق شمس * فلها العينان تدمع
ما رأينا قط شمساً * غربت من حيث تطلع

خلافة الأمين :

بعد وفاة هارون الرشيد تولى الخلافة ابنه الأمين ، وقد بايعه وجهاء بني هاشم والأمراء وقواد الجيش وعامة الناس . وكان الأمين عازماً كما ذكر المؤرخون على تنفيذ وصية أبيه والوفاء لأخويه بما تعهد ، ولكن وزيره الفضل بن الربيع ظل يحثه على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد لأنه كان يخشى ان أفضت الخلافة الى المأمون سيعزله من منصبه ويولي مكانه الفضل بن سهل (الفارسي) . مع ان الفضل ابن الربيع هو أول من نكث بالعهد الذي كان أخذه هارون الرشيد عليه للمأمون فى طوس حيث جدد البيعة لابنه قبل وفاته . ومن جملة مانص عليه كتاب تجديد البيعة يومئذ هو ان جميع الأموال والسلاح والدواب والمؤن التي هي بحوزة المأمون تبقى له ، والجنود مع قوادهم ينضمون اليه . وبعد وفاة الرشيد نقض بن الربيع العهد وعاد مسرعاً مع جنوده الى بغداد لعند الأمين .

---

(١) قال ابن جرير المؤرخ المشهور لما توفى الخليفة هارون الرشيد كان فى بيت المال (خزينة الدولة) ٧٠٠ مليون دينار .

الفتنة بين الأخوين :

واستمرت محاولات الفضل بن الربيع حتى وافق الأمين على انتزاع ولاية العهد من المأمون لولده الطفل الرضيع من بعده ، كما بعث رسولا الى مكة المكرمة لسحب كتاب العهد الذي كان والده الرشيد كتبه وأودعه فى الكعبة ، فمزقه وأحرقه •

وهكذا وقعت الفتنة بين الأخوين ، واشتد بينهما النزاع الذي كان فى الواقع نزاعاً بين العرب والفرس على النفوذ تحت ستار مؤازرة العرب للأمين والفرس للمأمون •

وسير الأمين جيشاً كبيراً الى خراسان لقتال أخيه بقيادة علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ هـ ، ولما بلغ الري اشتبك مع جيش المأمون الذي يقدر بأربعة آلاف مقاتل بقيادة طاهر بن حسين بن عيسى الخزاعي وكانت النتيجة مقتل علي بن موسى قائد جيش الأمين وفرار جنوده • وقد أثرت تلك الهزيمة على مركز الأمين فى بغداد حيث تضعضع الوضع وازداد تفاقماً بعد الهزيمة الثانية التي مني بها جيش الخليفة فى همذان وقتل قائده عبد الرحمن بن جبلة • ثم واصل القائد طاهر بن حسين تقدمه حتى وصل حلوان ، فاحتلها بسهولة ، ومنها اتجه الى الأهواز بعد أن سلم هرثمة بن أعين القيادة فى المنطقة •

نهاية خلافة الأمين :

حاول الأمين انقاذ نفسه وانقاذ خلافته ، فأتى بنجدات من بلاد الشام ، ولكن ماكادت تدخل بغداد حتى نشبت ثورة أهلية ، واشتد القتال بين الفئتين المتنازعتين وهما الفئة المؤيدة للأمين والأخرى المؤيدة للمأمون •

وأخيراً وصلت جيوش المأمون الى بغداد بقيادة طاهر بن حسين وهرثمة بن أعين ، وحاصرت المدينة حصاراً طال أمده ، ثم دخلتها بعد قتال عنيف • أما مصير الأمين فقد حاول عبور نهر دجلة الى الضفة الشرقية ليسلم نفسه للقائد هرثمة الذي كان وعد ان يحافظ عليه ويسير معه الى المأمون ليأخذ له الأمان والعفو ، ولكن محاولته لم تنجح ، فقد تتبعه جنود طاهر بن حسين وقتلوه •

وكان الأمين عندما قتل فى سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) فى السابعة والعشرين من عمره ، وكانت مدة خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر • وبعد مقتله نقلت أمه زبيدة من قصر أبي جعفر المنصور الى قصر الخلد ، وبعث القائد طاهر بولدي الأمين (موسى وعبد الله) الى عمهما المأمون بخراسان • وبذلك انتهى عهد الأمين وبايعت جميع الولايات أخيه المأمون •

عهد خلافة المأمون

فى المرحلة الأولى لم ينتقل المأمون الى بغداد بل بقي فى مدينة مرو بخراسان ارضاء لأهلها الذين ناصروه • كما منح وزيره الفضل ابن سهل صلاحيات واسعة ، وولى شقيقه الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والحجاز واليمن ، وأرسل طاهر بن الحسين الى الرقة لقمع حركة نصر بن شعث وولاه نيابة بلاد الشام والجزيرة والمغرب ، وولّى هرثمة بن أعين خراسان •

وعملا بمشورة وزيره الفضل بن سهل (الفارسي) فقد اختار

المأمون علي الرضا بن موسى (١) الذي ينتمي نسبه الى الامام علي ابن أبي طالب لولاية العهد ، وحظر ارتداء اللباس الأسود والاستعاضة عنه باللباس الأخضر . مع العلم ان الأسود هو شعار العباسيين والأخضر شعار العلويين . وقد اختلفت الآراء حول اختيار علي الرضا لولاية العهد ، فهناك فريق يقول : ان المأمون أراد بذلك ارضاءً للفرس أنصار العلويين ، وهناك فريق آخر يقول : ان المأمون كان يميل الى العلويين فى أول أمره لتأثره بالفرس ، وهناك فريق ثالث يقول : ان المأمون رأى ان علي الرضا أجدر من بني العباس بولاية العهد ، وهناك فريق رابع يقول : ان الوزير الفضل بن سهل هو الذي حث المأمون على هذا الاختيار لهدف معين قوامه تحقيق رغائب الفرس المتمثلة فى انتقال الخلافة الى العلويين عاصمتها احدى مدن فارس .

وليس ثمة من شك ان خلع السواد والاستعاضة عنه باللون الأخضر ، واختيار علي الرضا لولاية العهد هو من تدبير الفضل بن سهل الذي كان يخفي الكثير من الأمور على المأمون . وقد أدى ذلك الى نشوب حركة انقلابية فى بغداد أطاحت بحكم المأمون ومبايعة عمه ابراهيم بن المهدي بالخلافة فى شهر محرم ٢٠٢ هـ (٨١٦ م) .

ولما علم المأمون بالأمر اغتاظ من وزيره الفضل لسوء تدبيره واخفائه عن الخليفة حقيقة الوضع ، وفى الحال أصدر أمره بالسير الى

---

(١) هو علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب .

بغداد • وعندما وصل الموكب الى سرخس تسلل تحت جناح الظلام أربعة رجال الى غرفة الوزير الفضل بن سهل وقتلوه فى الحمـام • وتم اعتقال القتلة وقطعت رؤوسهم •

وفى طريقه الى العراق مر الخليفة المأمون بطوس حيث زار قبر والده هارون الرشيد • وفى بلدة طوس توفى فجأة فى أواخر شهر صفر عام ٢٠٣ هـ علي الرضا الذي كان اختاره المأمون لولاية العهد بناء على مشورة وزيره الفضل • ويدعي الشيعة انه أكل عنبا ومات مسموما ••

ولم تكد تصل أنباء قدوم المأمون الى بغـداد حتى ثار أهلها على ابراهيم المهدي الذي كانوا بايعوه قبل عامـين • وقبل دخول المأمون العاصمة العباسية أقام فى النهروان عدة أيام حيث وافاه طاهر ابن الحسين وبعض قواد الجيش • وفى ١٤ صفر سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩م) دخل بغداد بأبهة عظيمة وجيش كبير ، وبعـد أسبوع أعاد اللباس الأسود والرايات السوداء ، واختفى اللون الأخضر •

أما ابراهيم المهدي [١] عم المأمون فقـد هرب وظل مختفياً فى بغداد ستة أعوام ، ثم استسلم وعفا عنه ، كما عفا المأمون عن الثائرين باستثناء أربعة من كبار المتآمرين •

وبعد أن هدأت الحالة واستقرت الأمور تزوج المأمون فى سنة ٢١٠ (٨٢٦م) من بوران ابنة الحسن بن سهل شقيق الفضل بن سهل وزير مأمون السابق الذي اغتيل قبل ثمانيـة أعوام • وقد حضرت العرس زبيدة أم الأمين وخلعت على بوران بذلتهـا الأميرية وقالت

---

(١) كان ابراهيم المهدي يجيد الشعر والغناء والعزف على العود .

للمأمون : يا أمير المؤمنين ! فى عرسك ذكرى المحبة والمسرة من ذكرى أيام أبيك هارون الرشيد .. وقيل ان بوران فى ليلة حفلة عرسها طلبت من المأمون أن يعيد الى عمه ابراهيم المهدي منزلته ، وأن يأذن لزبيدة فى أداء فريضة الحج ، فحقق رغباتها .

القضاء على البدع والفتن :

اشتعلت نيران الفتن فى بعض الولايات وكان أشدها خطراً هي التي نشبت فى مصر حيث استولى الثوار بقيادة عبيد الله بن السري عليها وأقاموا لهم حكومة فيها . وقد سيَّر المأمون جيشاً فى عام ٨٢٥م بقيادة عبد الله بن طاهر بن الحسين (١) الذي تميز بالشجاعة ومكارم الأخلاق . ومما قاله فى خطبته البليغة التي ألقاها فى جنوده نقتطف ما يلي :

انكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، المدافعون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، الداعون الى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة الأمور الذين جعلهم الله رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فقاتلوا الذين شذوا وتمردوا وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين وسعوا فى الأرض فساداً ، فانه يقول تبارك وتعالى : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، فليكن الصبر معقلكم ، الذي اليه تلجأون ، وعدتكم التي بها تستظهرون .

وتمكن عبد الله من القضاء على حركة الثوار فى مصر واعادة

---

(١) طاهر بن الحسين القائد المشهور الذي ولاه المأمون خراسان سنة ٢٠٥ هـ وتوفى سنة ٢٠٧ هـ بمدينة مرو ، وولى الخليفة ابنه عبد الله مكانه .

الأمن والنظام وتوطيد حكم الخليفة العباسي • ومكافأة له فقد ولاه الخليفة المأمون الجزيرة وبلاد الشام ومصر •

وفى بلاد اذربيجان ظهرت حركة (بابك الخرمي) الـذي قام بنشر بدعته التي تبيح الكثير من المحرمات • واعتصم بابك فى المناطق الجبلية واستفحل خطره ، فأرسل المأمون جيشاً لقتاله والقضاء عـلى حركته التي استمرت حتى عهد المعتصم ، فأبادها وقتل بابك • (وسنأتي على ذكرها بالتفصيل) •

الثروة العلمية والأدبية

حذا المأمون حذو والده هارون الرشيد فى تشجيع العلم والأدب وقد أنشأ فى بغداد سنة ٨٣٠ ميلادية بيت الحكمة يشمل مدرسة للعلم والترجمة ومكتبة تزخر بمختلف الكتب والمصنفات العلمية والأدبيـة والفلسفية •

وفى عهـده ترجمت الكثـير من الكتب اليونانيـة والفارسية والسريانية الى اللغة العربية ، وكان من أشهر المترجمين هو حنين بن اسحق ، طبيب وفيلسوف ، نقل الى العربية عدة كتب عن اليونانية منها : كتب جالينوس وابقراط فى الطب ، وكتب المقولات والطبيعيات والأخلاق لارسطو ، وكتب الفلسفة والقوانين لافلاطون وثيماوس ، وأصول الهندسة لاقليدوس ، والكرة والاسطوانة لارخميدس • كما ترجمت مجموعات أخرى من كتب الطب والفلك والهندسة والموسيقى الخ •• وكان حنين ومساعديه من المترجمـين ، يتلقون بالاضافة الى مرتباتهم مكافآت مالية يمنحها الخليفة المأمون •

ان عصر المأمون يعتبر عصـــر الرقي والتقدم والتطور • ففي عهده ازدهرت العلوم والفنون الاسلامية ازدهاراً رائعاً وذلك بتشجيعه للعلم ورواده • وكان المأمون شغوفاً بالعلم والمعرفة ، فدرس فى عهد أبيه هارون الرشيد الفقه والأدب والتاريخ ، وتعمق بدراسة التشريع وعلم الفلك والفلسفة • وكان فصيح اللسان ، يجيد الشعر ، ويحب مجالس العلماء والأدباء والشعراء ، وقيل انه فى أواخر عهده أفسح المجال للمعتزلة لابــداء آرائهم بحرية وعقد الندوات للمناقشـــات الدينية والفلسفية • والجدير بالذكر ان كبار الأئمة وفى مقدمتهم الامام أحمد بن حنبل (١) اعتبروا آراء المعتزلة منحرفة تناقض كلام الله تعالى القائم بذاته المقدسة •

وفاة الخليفة المأمون :

كان المأمون قبل وفاته بثلاث سنوات عبر خلالها عــدة مرات بلاد الروم • ففي سنة ٢١٦ هـ (٨٣١م) دخل بلاد الروم على رأس جيش واحتل هرقلية ودمر عدة حصون • ثم عاد ثانية عندما رجع من مصر حيث قضى على فتنة عبدوس الفهري سنة ٢١٧ هـ وعبر بلاد الروم وحاصر لؤلؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً ، فخدعه أهلها وأسروه حيث ظل ثمانية أيام ، وعاد المأمون للمرة الثانية الى لؤلؤة فخرج أهلها وطلبوا الأمان والمصالحة •

وفى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) خرج المأمون من الرقة للزحف على

---

(١) الامام أحمد بن حنبل ، عالم كبـير وفقيه جليل ، صاحب المذهب الحنبلي المعروف باسمه ، ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ وتوفى سنة ٢٤١ هـ .

بلاد الروم ، فوافاه الأجل فى البدندرن شمال طرسوس ، فحمل اليها ودفن بها • وكان عمره ٤٨ سنة ، ومدة خلافته ٢٠ سنة وخمسة أشهر •

عهـد المعتصم بالله

هو محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون فى شهر رجب سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) بمدينـة طرسوس التي دفن بها أخيه • وكان المعتصم من أم تركية اسمها ماردة تزوجها هارون الرشيد فولدت له المعتصم وأم حبيب • وقد اتصف بالشجاعة والجرأة والقوة البدنية الخارقة ، فيروى انه كان يكسر بين أصبعيه زند الرجل ، ويمسح قطعة النقود من الذهب أو الفضة •

واعتمد المعتصم على العنصر التركي فى تكوين جيشـ خاص للتخلص من نفوذ العنصر الفارسي الذي ازداد قوة فى عهد المأمون وبالوقت ذاته لحماية الدولة من الحركات المعادية فى الداخل • وقد شكل فرقة خاصة من الترك استقدمهم من بلاد ماوراء النهر ، وألبسهم زياً خاصاً • وان بعمله هـذا أثار عداء الفرس بالدرجـة الأولى ، وبالتالي العرب الذين فقدوا مركزهم فى بيت الجند •

بناء حاضرة جديدة :

لم تمض فترة طويلة على تكوين فرقة عسكرية من الأتراك حتى خيم على بغداد موجة من الاستياء بسبب أعمال الضـباط والجنود الاستفزازية حيث أدت الى وقوع اصطدامات بين الأتراك والأهالي ، فاضطر الخليفة المعتصم الى بناء مدينة جديدة ينتقل اليها مع جنوده •

وعلى بعد ٧٠ ميلا شمال بغداد على ضفة نهر دجلة تم بناء (سامراء) [١] سنة ٨٣٦ ميلادية • وفيها بنى الخليفة قصراً فخماً ، ومسجداً بلغ علو مأذنته ٥٥ متراً ، وأحياء خاصة للضباط وجنود الأتراك • وظلت سامراء حاضرة للخلافة العباسية ٦٠ سنة •

حركة بابك الخرمي والقضاء عليها :

سبق وذكرنا ان بابك الخرمي صاحب البدعة الخرمية البابكية قام فى عهد المأمون بحركة فى اذربيجان استفحل خطرها • وقد أرسلت حملات عسكرية لاخمادها والقاء القبض على بابك ولكن فراره الى الجبال الوعرة واعتصامه فيه حال دون القضاء على هذه الحركة التي استمرت حتى عهد المعتصم الذي كان أوصاه المأمون حين أدركته المنية بأن يكافح الخرمية بدون هوادة حتى يبيدها •

وفى سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥م) جهز المعتصم حملة عسكرية للقضاء على بابك الذي قويت شوكته وانتشر أتباعه فى اذربيجان • واختار لقيادة الحملة حيدر بن كاوس المعروف باسم (الافشين) ، تركي من بلدة اشروسنة الواقعة وراء النهر • وكان الافشين خبيراً بحرب العصابات ، فأحكم الطوق على المنطقة ، وتمكن من اقتحام المواقع الجبلية حيث دارت المعارك العنيفة بين قوات الخليفة والثوار كانت حصيلتها تضعضع جماعة بابك وقتل الكثير منهم • ثم استمر تقدم الجيش العباسي عبر الجبال وممراتها الوعرة حتى بلغ قلعة بابك التي

---

(١) أطلق على المدينة فى أوائل الامر اسم (سرور من رأى) ، ثم اختصر الاسم وأصبح (سر من رأى) وبعد زوال الدولة العباسية ومع مرور الزمن أصبحت تعرف باسم سامراء .

اتخذها عاصمة له ، واسمها (البند أو البذ) ، فاقتحمها الافشين بعد قتال وحصار طويل ، وتمكن من آسر بابك وأخيه عبد الله وبعض أنصاره • وأرسل الجميع الى سامراء حيث أمر الخليفة المعتصم بقتل بابك وأخيه وصلبهما • وبذلك قضى فى عام ٨٣٧ ميلادية على حركة بابك الذي بلغت ضحاياه منذ ظهوره فى سنة ٢٠١ هـ حتى سنة ٢٢٢ هـ نحو ٢٥ ألف من المسلمين قتلهم ونكل بهم •

فتح عمورية فى بلاد الروم :

بعد أن قضى المعتصم على حركة بابك وبدعته قام بتجهيز جيش كبير لقتال الروم الذين كانوا استغلوا فرصة انشغال قوات الخليفة فى محاربة بابك باذربيجان فزحف ملكهم الامبراطور تيوفيل على المناطق العربية ، فاقتحم زبطرة المدينة التي ولد فيها المعتصم ونكل بأهلها ، ومنها اتجه الى ملاطية (ملطية) فسبى النساء المسلمات وقتل كثيراً من الرجال •

وسار المعتصم فى عام ٨٣٨ ميلادية على رأس جيش ضخم بعدده وبتجهيزه • وولى الافشين قيادة الجيش الثاني وأمره بعبور الجبال عن طريق الحدث والاتجاه الى أنقره حيث حدد اللقاء فيها • وبينما كان المعتصم يعبر بجيشه جبال طورس تقدمت قوات امبراطور الروم باتجاه الجيش الذي يقوده الافشين وانقضت عليه بسرعة خاطفة ، فصمد الجيش الاسلامي رغم الخسائر ، وتمكن من شن هجوم مضاد على الروم ، فدحرهم ، وانسحب الامبراطور تيوفيل مع جيشه المنهزم الى عمورية •

وفى أنقره التقى الجيشان حسب الخطة التي رسمها المعتصم ،

ومنها زحف الخليفة الى عمورية (١) بجيشه الكبير الذي قسمه الى ثلاث أرتال ، الأول الميمنة بقيادة الافشين ، والثاني الميسرة بقيادة اشناس ، والثالث القلب بقيادة المعتصم نفسه • وأطبقت الجيوش على المدينة المحصنة ذات الأسوار المنيعة والأبراج العالية ، وشددت عليها الحصار ، ثم اقتحمتها بعد أن هدمت قسما من أسوارها بالمنجنيق • وعلى غرار مافعله الروم فى زبطرة وملاطية فقد انتقم منهم المعتصم وأمر بهدم المدينة •

وكان من بين الأسرى المسلمين الذين أنقذهم جيش المعتصم بعد أن استولى على عمورية امرأة مسلمة اتخذها أحد النبلاء جارية فكان يعذبها وتصيح قائلة : (وامعتصماه) ، أي تطلب من المعتصم انقاذها • وكان خبرها قد نقله أحد التجار الى الخليفة المعتصم قبل أن يقتحم عمورية ، فلما استولى عليها أمر باحضار الجارية المسلمة والرومي الذي كان يعذبها ، وقال لها المعتصم قد حكمتك بهذا الرومي فاذا شئت قتله قتلناه لك ، فشكرت أمير المؤمنين وطلبت منه أن يعفو عنه ، فأكبر منها ذلك المعتصم وعفا عنه •

وقد خلد الشعراء معركة عمورية وانتصار المعتصم • ومما قاله أبو تمام الشاعر المشهور فى وصفه لتلك المعركة التاريخية نقتطف الأبيات التالية :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب
لقد تركت أمير المؤمنين بها   للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

(١) عمورية تبعد عن أنقرة نحو ١٥٠ كيلو مترا ، فيها ولد تيوفيل امبراطور الروم ، وأيضا والده الامبراطور ميخائيل .

ضوء من النار والظلماء عاكفة | وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت | والشمس واجبة من ذا ولم تجب
لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على | بان بأهل ولم تغب على عزب
تدبير معتصم بالله منتقم | لله مرتغب فى الله مرتقب
لم يغز قوماً ولم ينهض الى بلد | الا تقدمه جيش من الرعب
رمى بك الله برجيها فهدمها | ولو رمى بك غير الله لم تصب

اكتشاف المؤامرة :

عزم قواد العرب على التخلص من المعتصم ومبايعة العباس بن المأمون بالخلافة • فوضع عجيف بن عنبسة القائد العربي الخطة لاغتيال الخليفة وقواد الأتراك منهم الافشين واشناس • وظل العجيف يحث العباس ويلح عليه حتى وافق على خطة المؤامرة التي نقل سرها الى المعتصم أحد رجاله المخلصين وهو فى طريق العودة من عمورية الى طرسوس ، فأمر بقتل المتآمرين ، وسجن ابن أخيه العباس حيث ظل حتى مات •

نهاية الافشين :

ثبت للخليفة المعتصم ان الافشين القائد التركي يعمل سراً للوصول الى الملك وقيام دولة فى بلاد ماوراء النهر • وكخطوة أولى لتحقيق غايته راح الافشين يشجع مازيار بن قارن الثائر فى طبرستان ويحرضه على التمرد وعدم الانصياع الى نائب الخليفة فى خراسان عبد الله بن طاهر ، ظناً بذلك ان الوضع يتضعضع فيوليه المعتصم امارة خراسان مكان نائبه عبد الله • ولكن ذلك لم يتحقق ، فالخليفة أرسل جيشاً الى عبد الله بن طاهر للقضاء على حركة مازيار ، فتمكن من اخمادها

والقاء القبض على مازيار وأخيه قوهيار وارسلهما الى الخليفة فى سامراء ، كما بعث اليه الرسائل التي كان الافشين أرسلها الى مازيار .

وقد أمر المعتصم بقتـل وصلب مازيار ، أما الافشين فشكل لمحاكمته مجلساً يتألف من القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، والوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونائبه اسحق بن ابراهيم . فثبت انه كان على اتصال بمازيار المتمرد على الدولة ، وكان يراسل جماعة من بلده اشروسنة ويبعث اليهم بالأموال والهدايا لتوزع فى بلاد ماوراء النهر ، كما ثبت انه لا يزال يدين بمذهب المجوس دين آبائه وأجداده ، فأمر الخليفة بسجنه فى كوة ضيقة حيث ظل حتى مات سنة ٢٢٦ هـ .

وبعد مرور عام توفى الخليفة المعتصم فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٣م) ، وكان فى السابعة والأربعين من عمره ، ومدة خلافته تسع سـنوات .

خلافة الواثق بن المعتصم :

تولى هارون الواثق الخلافة بعد وفاة أبيه فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢م) . وكان الواثق مـن أم رومية اسمها قراطيس ، توفيت فى نفس السنة التي تولى فيها الخلافة . وعلى غرار خطـة أبيه فقد قرب الأتراك منه ، وقلدهم المناصب الكبرى فى الدولة ، كما اتخذ القائد التركي (اشناس) وزيراً له ولقبه بلقب سلطان ، وألبسه وشاحين وتاجاً مرصعاً بالجواهر .

وكان لدى الواثق وزيرين للاستشارة فى أمور الدولة هما أحمد بن دؤاد المعتزلي ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . وقد حاول الأول

بأسلوب لبق وأيده الثاني ضمناً العمل علـى الحد من نفوذ الأتراك الآخذ بالازدياد ولكنه لم يتمكن ، واضطر فى النهاية الى العدول عن محاولته بعد أن ثبت له ان مقاومة النفوذ التركي ستكلفه حياته وحياة أصدقائه ، والنتيجة ستكون سلبية .

وفى عهـد الواثق وقعت اضطرابات فى الحجاز ونجد ، فأرسل حملة عسكرية بقيادة القائد التركي بغا الكبير لاخضاع القبائل الثائرة . وتمكن جيش الخليفة من اخضاع بني سليم ، وبني هلال ، وبني فزارة فى الحجاز سنة ٢٣٠ هـ . أما فى نجد واليمامة فقد جرت معارك عنيفة تكبد فيها جيش بغا خسائرا فادحة ، وكادت قبائل بنو نمير وبنو تميم تهزمه لولا النجدات العسكرية التي وصلته من العـراق ، فعدلت الموقف ، وتم اخضاع القبائل سنة ٢٣٢ هـ .

وكان الواثق رجلاً عاطفياً ، أديباً وشاعراً ، يقرب منه العلماء ، ويعقد فى قصره الندوات للمناقشات العلمية والفلسفية . وفى هـذا الصدد يقول ابن جرير وغيره من المؤرخين : ان الواثق كان يعتبر من أهل العلم والأدب ، كرس أوقاتـه للمطالعة والدراسات التـاريخية والفلسفة والعلوم الطبيعية منذ صباه ، ترعرع فى بغداد ، وقضى عهد خلافته فى سامراء الحاضرة الجديدة التي بناها المعتصم .

وقد أصيب الخليفة الواثق بمرض قيل انـه مرض الاستسقاء ، فمات عن عمر لا يتجاوز ٣٦ سنة فى شـهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) ، وكانت مدة خلافته خمسة أعوام وتسعة أشهر .

عهد الخليفة المتوكل على الله

(مكافحة المعتزلة والبدع ـ محاولة القضاء على نفوذ الأتراك)

تولى جعفر ابن المعتصم الملقب بالمتوكل على الله الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ . وقام بحملة كاسحة ضد المعتزلة ، فحظر عليهم عقد الندوات ، ونشر الآراء المخالفة لمذهب السنة ، وطرد أتباعهم من دواوين الدولة . واستدعى الامام أحمد بن حنبل الذي قاوم المعتزلة وأكرمه ، وأصبحت له الكلمة الأولى النافذة ، ولم يعد يولي المتوكل أحداً فى القضاء والمناصب الكبرى الا بعد مشورته .

وحارب المتوكل أصحاب البدع ، وشدد الخناق على الذين لا يتبعون الكتاب والسنة ، كما أمر بتطهير الدواوين فى جميع الولايات من العناصر المنحرفة والفاسدة ومصادرة أموالهم .

وفى سنة ٢٣٧ هـ قامت حركة فى ولاية ارمينيا بزعامة البطريرك بقراط بن اشوط كانت تهدف الانفصال عن الدولة العباسية واقامة امارة مستقلة ، فألقي القبض على البطريرك وأرسل الى الخليفة ، فهاج الأرمن وحاصروا مدينة طرون مقر الوالي يوسف بن محمد يوسف فقتلوه ، وقتلوا معه عدداً من المسلمين . ولما بلغ الخليفة المتوكل ما وقع فى ارمينيا أرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة بغا التركي الذي أخضع فى عهد الواثق القبائل التي ثارت فى جزيرة العرب . وتمكن القائد بغا بعد معارك عنيفة من القضاء على حركة التمرد فى ارمينيا .

وفى عهد المتوكل ازداد نفوذ الأتراك الى درجة كبيرة ، فخشي

الخليفة أن يؤدي ذلك الى سيطرتهم على الدولة واغتصابهم للملك ، ورأى ان أفضل وسيلة للتخلص منهم تدريجياً هو انتهاج سياسة التقرب من العرب واعادة بعض النفوذ اليهم لكي يساندوه فى التخلص من الأتراك • وعلى هذا الأساس نقل عاصمته من سامراء الى دمشق سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧م) ، ولكن ذلك لم يحقق الهدف الذي كان يتوخاه ، فاضطر الى ترك دمشق والعودة الى سامراء بعد أن علم بالخطة التي يعدها الأتراك لاغتياله • وللتمويه أشيع ان مناخ دمشق لا يوافق صحة الخليفة فرجع الى العراق حيث أسس مدينة الماحوزة (١) بجوار سامراء أطلق عليها اسم المتوكلية ، واتخذها مقراً له •

مقتل الخليفة المتوكل :

لقد تآمر الأتراك على التخلص من المتوكل قبل ان يحقق مآربه ويقضي على نفوذهم ، وبالاشتراك مع ابنه المنتصر ورسموا الخطة لقتله • وكان المنتصر الابن الأكبر للمتوكل يحنق على أخيه المعتز الذي ينافسه على ولاية العهد ، وعلى أبيه الخليفة لأنه كان يحب المعتز أكثر منه • مع العلم ان المعتز من أم رومية اسمها (كابيه) •

وحسب الخطة التي رسمها القائد التركي بغا الكبير بالاتفاق مع المنتصر ، فقد دخل على المتوكل فى مخيمه القريب من مدينة الحوزة فى ليلة الثالث من شهر شوال سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) شرذمة

---

(١) فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩م) بدء ببناء مدينة الماحوزة ، وفى نفس السنة وقعت زلازل رهيبة فى الشرق دمرت مدينة اللاذقية وجبلة وانطاكية ، وأصيبت عدة [illegible] خرى بأضرار جسيمة •

من جنود الأتراك وقتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان . وكان له من العمر أربعون سنة ، ومدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر .

بداية الضعف فى الدولة العباسية

بعد مقتل الخليفة المتوكل قام القائد بغا ورجاله الأتراك بتنصيب ابنه المنتصر ، وأخذوا له البيعة من أخيه المعتز بالضغط والتهديد ، ثم بايعه الأعيان وعامة الناس . وبعد عدة أيام نقلوا الخليفة مع حاشيته من المتوكلية الى سامراء حيث توجد ثكنات الجيش التركي والقصر الفخم الذي بناه المعتصم .

وهكذا أصبح الأتراك أصحاب الكلمة الأولى فى تنصيب وعزل الخلفاء . وكل من لا يخضع لمشيئتهم ويسير حسب أهوائهم يكون مصيره العزل أو كمصير المتوكل الذي كان مقتله ايذاناً بزوال هيبة الخلفاء العباسيين . والمنتصر نفسه لم تدم خلافته سوى ستة أشهر ، فمرض ومات مسموماً . ويقول بعض المؤرخين ان الأتراك هم الذين أمروا طبيبه أن يفصده بريشة مسمومة للتخلص منه لأنه أبدى رغبة فى التحرر من سيطرتهم ، فقضوا عليه وهو فى ريعان شبابه لا يتجاوز عمره خمس وعشرين سنة .

لقد انتهى الدور الأول للعصر العباسي الذي تميز بقوة الدولة وفرض هيبتها واحترامها ، ونشر العلم والمعرفة ، وازدهار الحضارة .. انتهى ذلك الدور الذي استمر أكثر من قرن ، وبدأت مرحلة تسلط الأتراك على الخلفاء الذين تعاقبوا على سدة الحكم ، فزالت هيبة الخلافة ، ودب الضعف والانحطاط فى الدولة العباسية .

والجدير بالذكر ان سامراء ظلت حاضرة الخلافة حتى نقلها الى بغداد المعتضد بالله ، الرجل القدير الذي دامت خلافته عشر سنوات : ٢٧٩-٢٨٩ هـ (٨٩٢-٩٠٢م) • وقبله تولى الخلافة خلال الفترة التي استمرت (٣٢ سنة) أربعة من الخلفاء فى سامراء هم : المستعين بالله ، تولى فى سنة ٢٤٨ هـ وخلع وقتل سنة ٢٥٢ هـ • والمعتز بالله تولى فى سنة ٢٥٢ هـ وخلع ومات سجيناً سنة ٢٥٥ هـ • والمهتدي تولى فى سنة ٢٥٥ هـ وقتل فى سنة ٢٥٦ هـ ، والرابع المعتمد على الله ، تميز بضعف الارادة والانهماك بالملذات ، أبقوه الأتراك حتى توفى بعد خلافة اسمية دامت ٢٢ سنة وعدة شهور •

الحركات الانفصالية :

لقد أدى ضعف سلطان الخلفاء العباسيين الى تفكك الدولة الاسلامية الكبرى ، وانتشار الحركات الانفصالية فى أرجائها • وتعود أسباب الضعف والتفكك الى ظهور الاتجاهات السياسية عند الجماعات الاسلامية وانقساماتها فى الرأي (١) وانتشار البدع والآراء الفلسفية المتضاربة ، وتنمية الشعوبية وتغذية الروح الانفصالية ، وبروز العنصر التركي وامتداد نفوذه وتسلطه على الخلفاء منذ بداية عهد الواثق بن المعتصم •

تلك العوامل جميعها أدت الى اضعاف الخلافة العباسية ، وقيام حركات استقلالية فى الأندلس والشمال الافريقي وبلاد الشام وفارس الخ •• سنأتي على ذكرها بالتفصيل •

---

(١) السنة يمثلون أغلبية المسلمين ، التزموا أحكام القرآن وسنة الرسول . الشيعة رأوا ان الخلافة حق لعلي بن أبي طالب ثم لاولاده من بعده بالوراثة ، وانقسموا الى فرق منهم الزيدية والاسماعيلية والامامية الاثنا عشرية . الخوارج يرون ان الخلافة حق لكل مسلم حر ، وليست مقتصرة على العرب . المرجئة يرجئون الحكم على الذي يرتكب اثما الى يوم الدين ، ويفوضون أمره الى الله . المعتزلة مؤسسها واصل بن عطا ، تقول يجب تحكيم العقل فى حسم الخلافات .

الفصل السادس

الدولة الاموية في الاندلس

مؤسسها عبد الرحمن الداخل :

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان لقب بصقر قريش ، وعرف باسم عبدالرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء الأمويين • وقصة نجاته وفراره الى الأندلس خلاصتها :

عندما استولى العباسيون على الحكم جدوا فى البحث عن بني أمية • واستطاع عبد الرحمن الفرار مع أخيه الذي يصغره بسبع سنوات والالتجاء عند جماعة من البدو بالقرب من نهر الفرات فىالعراق حيث اختبأ لديهم ريثما تهدأ حركة البحث عن الأمويين الهاربين من

اضطهاد العباسيين • وبينما كان خارج خيمة مضيفه شاهد ثلة من جنود العباسيين تتجه نحو المخيم ، فخشي ان بقي عند البدو لا يسلم من الهلاك ، فأمر أخاه أن يتبعه حتى وصلا الى نهر الفرات ، فشاهدهما الجنود وجدوا فى مطاردتهما ، وما كادا يتجاوزا مسافة قصيرة عبر النهر حتى صاح بهما الجنود بأن يرجعا ولهما الأمان ، فرجع الأخ الصغير وقتلوه • أما عبد الرحمن فواصل سيره متنكراً حتى وصل الى فلسطين ، ومنها الى مصر ، ثم الى المغرب حيث لجأ الى قبيلة أخواله فى سبتة سنة ١٣٧ هـ بعد خمس سنوات من التجوال والتخفي والمتاعب مع مولاه الأمين المسمى (بدر) الذي كان لحق بسيده قبل ان يتجاوز فلسطين •

توطيد دعائم الدولة وسحق القوات المعادية :

فكر عبد الرحمن فى احياء الدولة الأموية بالأندلس ، فأرسل مولاه بدر ليتصل بأنصار الأمويين ، فوجد لدى جند الشام واليمنيين الاستعداد لنصرة سيده الأمير الأموي • وفى ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) عبر عبد الرحمن المضيق ونزل فى مكان اسمه المنكب أو المنقار على بعد ٦٣ كيلو متراً من ملقا • وسرعان ما انضمت اليه عدة كتائب عسكرية زحف بها الى اشبيلية ، فاستولى عليها وبايعه أهلها •

وكان يحكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فحشد جيشاً لقتال عبد الرحمن الداخل ، وفى موقع اسمه المصادرة بالقرب من قرطبة انهزم جيش الفهري سنة ١٣٩ هـ (٧٥٦م) ، ودخل الأمير عبد الرحمن قرطبة دخول الفاتحين • ثم قام بتوطيد دعائم دولته الفتية بالأندلس مستقلة عن الخلافة العباسية •

وحاول الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور استرداد الأندلس ، فعين فى سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) العلاء بن مغيث والياً عليها وأمده بالمال والرجال . وقد انضم اليه أنصار الوالي السابق يوسف الفهري (١) وغيرهم من العرب الحاقدين على الأمير عبد الرحمن الذي تمكن بجرأة وبسالة من سحق قوات العلاء وقتله أمام أبواب اشبيلية . ولما علم الخليفة العباسي بهزيمة جيشه وقتل عامله قال : الحمد لله الذي جعل بيني وبين عبد الرحمن هذه البحار الواسعة ..

وحاول شارلمان ملك الفرنجة بالاتفاق مع حكام المدن الاسبانية الشمالية القضاء على امارة عبد الرحمن الأموي ولكنه فشل واضطر للانسحاب بعد أن عجزت قواته من الاستيلاء على مدينة سرقسطة عام ٧٧٨ ميلادية .

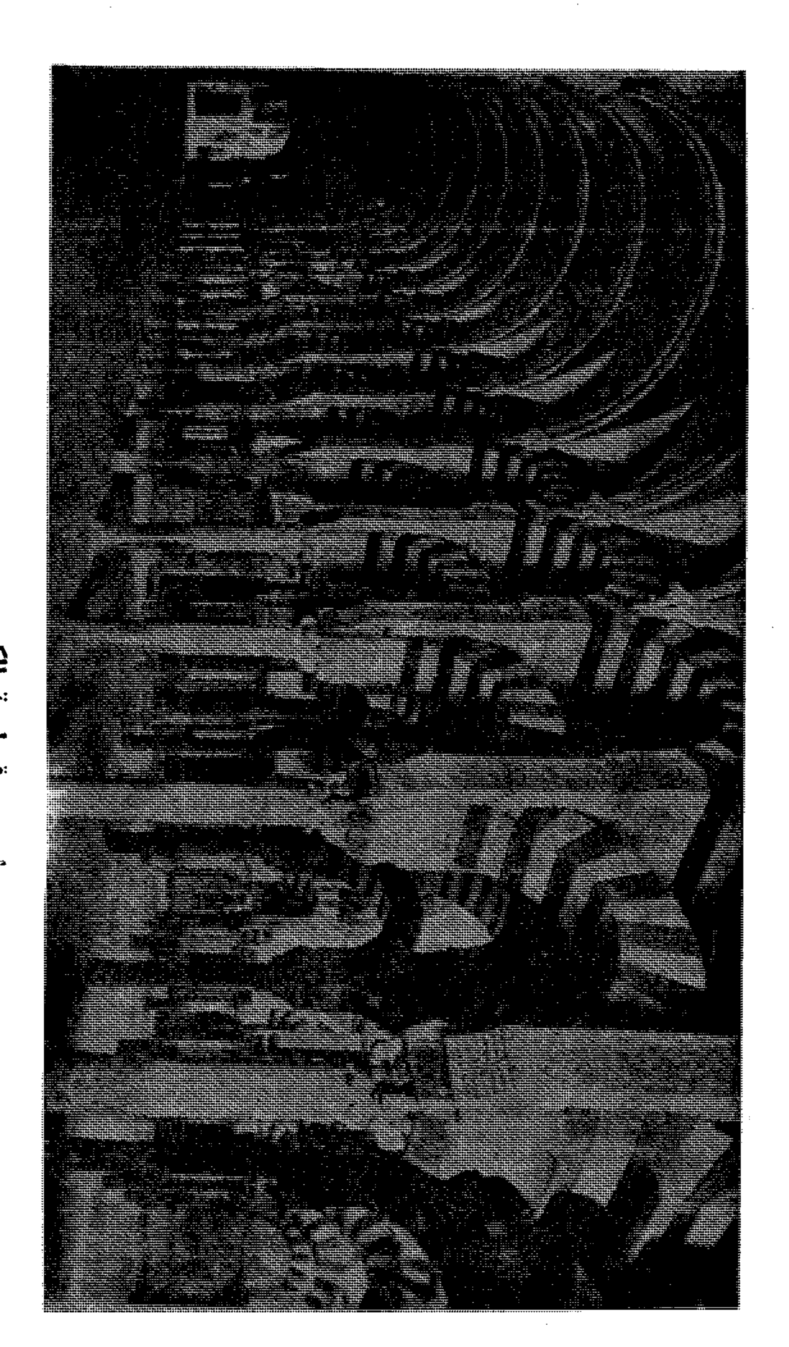
وأنشأ صقر قريش جيشاً منظماً قوامه أكثر من أربعين ألف مقاتل معظمهم من البربر المسلمين . وأبطل اسم الخليفة العباسي على المنابر فى المساجد والدعاء له ، وبالوقت ذاته لم يتخذ لنفسه لقب خليفة بل اكتفى بلقب أمير .

ازدهار قرطبة :

اهتم عبد الرحمن بتطوير امارته وعمرانها ، فشجع العلوم والفنون والزراعة والصناعة . وأصبحت قرطبة عاصمة الأندلس المطلة على نهر الوادي الكبير منارة للعلوم والحضارة الزاهرة التي تجلت فى ازدهار المدينة ومساجدها ومعاهدها وجامعتها وقصورها وحدائقها الغناء .

---

(١) بعد هزيمة يوسف الفهري قرب قرطبة وعقد الصلح سنة ٧٥٦ ميلادية ، عاد وجهز جيشا لاستعادة الاندلس فهزمه جيش عبد الرحمن وقتل .



جامع قرطبة الكبير

وقبل وفاة عبد الرحمن بعامين بدأ ببناء مسجد قرطبة العظيم الذي أنجز فى عهد ابنه هشام • وكان آية رائعة فى هندسته وأعمدته ونقوشه وبهوه الخارجي الفخم • وقد فاخرت قرطبة عواصم العالم طيلة عـدة قرون بجامعها الذي يمثل الأثر الرائع للحضارة الاسلامية التي لعبت دوراً رئيسياً فى تقدم وتطور الأمم والشعوب •

وتوفى الأمير عبد الرحمن الداخل عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) عـن عمر يناهز ٥٨ سنة ودفن بجامع قرطبة • وكانت مدة حكمه ٣٣ سنة •

هشام بن عبد الرحمن الأمير التقي العادل :

بعد وفاة عبد الرحمن تولى ابنه هشام الامارة سنة ١٧٢ هـ • وكان هشام تقياً ، متواضعاً ، يهتم بشؤون رعيته وتميز عهده باشاعة العدل ، والـذود عن الدين ، وتنشيط حـركة التجارة والصناعة والعمران •

وأتم الأمير هشام بناء مسجد قرطبة ، وجدد بناء قنطرة الوادي الكبـير • وامتلأت الأندلس فى عهـده بالمساجد والقصور والمنازل والحدائق ، وتعددت ضواحي قرطبة حتى بلغت سبعاً وعشرين ضاحية • وقد روي ان المسافر يستطيع أن يسير ليلا فى طرقها المرصوفة مسافة عشرة أميال على ضوء المصابيح •

وكان هشام يكرم رجال العلم والفقهاء والأدباء ، ويغدق عليهم العطايا ، ويزور الفقراء فى بيوتهم ويحمل اليهم الألبسة والطعام • فأحبه الشعب على اختلاف طبقاته •

وتوفى عن عمر لا يتجاوز ٣٨ سـنة فى عام ١٨٠ هـ (٧٩٦م) بعد حكم دام سبع سنين وعدة شهور .

الوضع فى عهد الحكم بن هشام :

سلك الحكم بن هشام الذي تولى الامارة سنة ١٨٠ هـ سياسة تختلف عن سياسة أبيه الورع الصالح . فقد أبعد العلماء عن التدخل فى شؤون الدولة ، وحصر عملهم فى اقامة الشعائر الدينية . كما نظم جيشـاً من المرتزقة الزنوج الافريقيين ، فعـاثوا فى المدينة فساداً ، وضاق بهم الشعب ذرعاً . فانتفض العلماء ضد الأمير الحكم ، وقامت حركات تمرد فى الأندلس ، ثم تلتها ثورة بتحريض عمـه عبد الله بن عبد الرحمن وأخيه سليمان ، ولكنها قمعت وأعيـد الأمن والنظام . وبعد حكم دام ٢٦ سنة توفى الحكم بن هشام فى قرطبة عام ٢٠٦ هـ (٨٢٢ م) .

التقدم فى عهد عبد الرحمن الثاني :

اهتم عبـد الرحمن الثاني بن الحكم بنشر العـلم والمعارف فى الأندلس ، وبناء المسـاجد والمعاهد والمستشفيات ، كما أنفق أموالاً ضخمة على تحسين وتجميل قرطبة ، حتى أصبحت تنافس بغداد فى قصورها وعمرانها والنهضة العلمية .

وكان الأمير عبد الرحمن الثاني مولعاً بالشعر ، متضلعاً بعلوم الشريعة والفلسفة . وعلى غرار الخليفة المأمون كان يغدق العطـاء على أهل العلم ، ويعقد فى قصـره الندوات للدراسات والمناقشات الفلسفية وشكل لجنة خاصة لترجمة المصنفات وكتب فلاسفة وعلمـاء اليونان .

وفى عهده الذي دام منذ عام ٢٠٦ــ٢٣٨ هـ ازدهرت الأندلس وسادها الأمن والاستقرار •• وكثير من الاسبان اعتنقوا الاسلام ، ونبغ منهم أدباء ساهموا فى نشر اللغة العربية •

العصر الذهبي فى الأندلس

(عهـد عبد الرحمن الثالث)

بعد وفاة عبد الرحمن الثاني دب الضعف والانقسام والانحطاط فى الدولة الأموية بالأندلس • وقد استمرت هذه الفترة نحو اثنتين وستين سنة تعاقب خلالها على سدة الحكم أمراء ضعاف لم يكونوا على مستوى المسؤولية • وظل الوضع على هذا المنوال حتى تولى الحكم عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) •

وكان عبد الرحمن الثالث رجلاً شجاعاً ، ذكياً ، قديراً ، تمكن من اعادة الهيبة للدولة ووحد البلاد بعد أن أخمد الفتن وقضى على الانقسامات والفوضى •• وفى سنة ٣١٧ هـ أصدر أمراً بأن تكون الخطبة يوم الجمعة فى المساجد باسمه خليفة وأميراً للمؤمنين • والذي شجعه على اتخاذ هذا القرار هو تقلص نفوذ الخلافة العباسية وأضحى الأمر بيد الأتراك ، وبالتالي ظهور الخلافة الفاطمية فى مصر • وبذلك تحولت الامارة فى الأندلس الى خلافة ، وبايع أهل البلاد عبد الرحمن على انه أمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله •

ويعتبر عهد الخليفة عبد الرحمن العصر الذهبي للأندلس • فقد عمها الرخاء والازدهار بفضل ماحققه الخليفة من مشاريع عمرانية

وزراعية وصناعية • هذا بالاضافة الى المساجد والمدارس والمستشفيات التي أنشأها فى جميع أنحاء البلاد •

وفى الشمال الغربي من قرطبة على هضبة من هضاب جبل الشارات المطل على نهر الوادي الكبير أنشأ (قصر الزهراء) الفخم الذي استمر العمل فيه نحو من عشرين سنة حتى أنجز • وجلب له الرخام من قرطاجنة والأعمدة المزدانة بالتماثيل المذهبة من القسطنطينية • وبالاضافة الى المسجد العظيم والقاعات الكبرى كان قصر الزهراء يضم أربعمائة غرفة ومقصورة •

وازدهرت قرطبة وصارت بروعة عمرانها ، وفخامة شوارعها المرصوفة المضاءة بالقناديل ، وحدائقها الغناء لا يضاهيها سوى بغداد والقسطنطينية • وغدت بجامعتها ومعاهدها منارة للعلوم يؤمها الطلاب من جميع أنحاء أوروبا التي كانت فى ذلك العصر تعيش فى ظلام القرون الوسطى •

وقد ازدادت ثروة البلاد ، وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخل خزانتها السنوي فى المرحلة الثانية من عهد عبد الرحمن الناصر سبعة ملايين دينار كان ينفق منها ٣٥ بالمئة على المشاريع العمرانية والمدارس والمستشفيات ، و ٣٠ بالمئة على الجيش الذي بلغ تعداده مائة ألف من العرب والبربر والصقالبة ، و ١٥ بالمئة على الدواوين ، والباقي يدخر •

وخلاصة القول فان مجد العرب فى الأندلس بلغ ذروته فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي دام حكمه خمسين سنة ، من عام ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ (٩١٢ـ٩٦١م) •

خلافة الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

تولى الخلافة بعد وفاة والده سنة ٣٥٠ هـ ، وكان عالماً فاضلاً ، اهتم بنشر العلوم والثقافة العامة . وأنشأ مكتبة أنفق عليها أموالاً كثيرة لشراء الكتب القيمة التي بلغ عددها نحو ٤٠٠ ألف كتاب .

وفى بداية عهد الخليفة الحكم هاجم النورمان السواحل فردوا على أعقابهم ، وتحرك أمراء النصارى فى الشمال ضده فحاربهم وتغلب عليهم ، واحتلت قواته بعض المناطق من بلادهم ، فأسرعوا الى طلب الصلح بالشروط التي يريدها ، فاستجاب لطلبهم .

وقد ازدهرت جامعة قرطبة فى عهد الحكم بن عبد الرحمن ، ووسع نطاق المسجد الكبير وزين سقفه وجدرانه بالفسيفساء . وابتنى الخليفة على نفقته ٢٧ مدرسة جديدة ، وأنشأ مجلساً للعلماء خصص لكل عضو فيه راتباً شهرياً .

وقد توفى الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٦٦ هـ بقرطبة بعد حكم دام ١٦ سنة قضاها فى عمران البلاد ونشر العلوم وتقوية دعائم الدولة .

تضعضع الدولة الأموية فى الأندلس :

بعد وفاة الحكم تولى الخلافة أمراء ضعاف تركوا أمور الدولة فى أيدي حجابهم ووزرائهم ، فاستبد هؤلاء بالحكم وصاروا يمنعون الناس من الاتصال بالخليفة وكان أشهر هؤلاء الحجاب محمد بن عبد الله ابن أبي عامر الملقب بالمنصور . وأدى تسلط الحجاب على ديوان الخليفة نفسه الى اضعاف هيبة الخلافة ، واثارة التذمر والبلبلة .

وحاول بنو حمود (سلالة تتصل بصلة النسب بأدارسة المغرب) اغتصاب الخلافة من الأمويين ، فدخل القائد ابن حمود على الخليفة في قصره وقتله ونصب نفسه بدلاً منه ، وبايعته فئة من أهالي قرطبة ، ثم مالبث أن وقع الشقاق بين بني حمود وفقدوا مركزهم وسلطتهم ، وعاد الأمويون الى الحكم من جديد •

الانقسام ونهاية الخلافة :

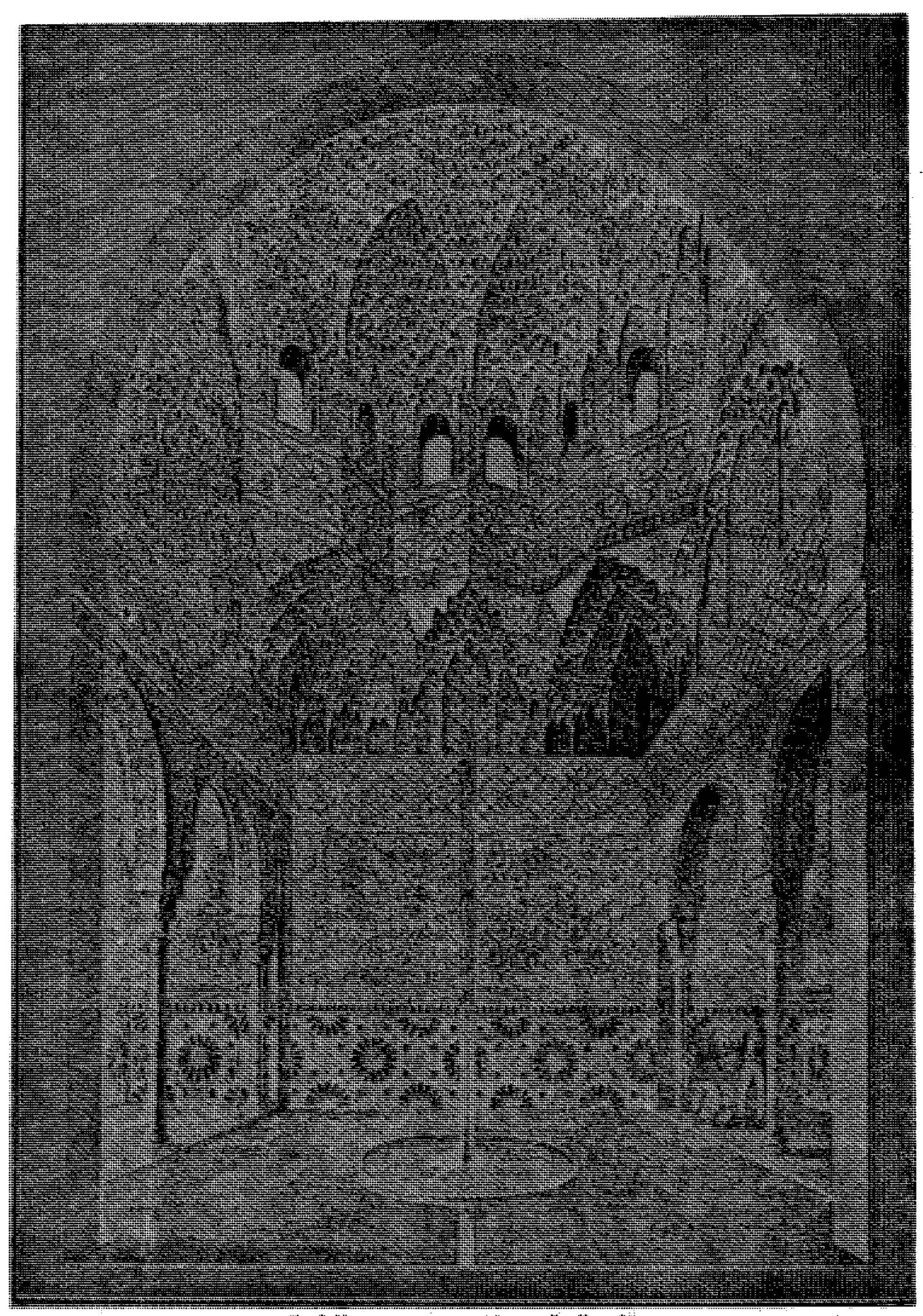
أدى انقسام الأمويين وتشتت كلمتهم الى انقضاض أعدائهم عليهم وضياع الخلافة التي أنهى سلطتها المجلس الذي عقد في قرطبة سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٥م) وتسلم الحكم في الأندلس • وبسقوط الخلافة قامت مجموعة دويلات صغيرة في المدن والمقاطعات يعرف حكامها بملوك الطوائف • ومن أشهرهم :

١ ـ بنو عباد : مؤسس دولتهم في اشبيلية أبو القاسم محمد بن عباد السوري الأصل سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١م) •

٢ ـ ذو النون : أسرة من البربر من قبيلة الهوارة ، دخلت قديماً اسبانيا في عهد الدولة الأموية ، برز منها يحيى المأمون ذو النون وأسس دولة في طليطلة سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧م) •

٣ ـ بنو زير ، أسرة من البربر ، ظهر منها في الأندلس باديس ابن حبوس (الصنهاجي) وأسس دولة في غرناطة سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨م) •

وبتقسيم الأندلس الى دويلات صغيرة تناحر بعضها بعضاً شجع ذلك الامارات المسيحية في الشمال للانقضاض عليها • وعندما شعر



قاعة قصر الحمراء ـ غرناطة

حكام هذه الدويلات بخطر غزو جيوش الامارات الشمالية استنجدوا بدولة الموحدين فى المغرب (مراكش) (1) فأمدتهم بنجدات عسكرية دحرت القوات المعادية سنة ٥٤٠ هـ ٠

ولما زال الخطر عاد أمراء العرب والمسلمين الى التناحر والتنازع على السلطة ، وانتقلت العدوى الى حكام الموحدين فى المغرب فدب الشقاق بينهم وضعف سلطانهم ٠ فاغتنم الفرصة السانحة حكام الامارات المسيحية فى شمال اسبانيا وجهزوا الجيوش لغزو دويلات الجنوب ، فسقطت جميعها باستثناء غرناطة التي ظلت صامدة كالطود ٠٠ وكان سقوط قرطبة سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، واشبيلية سنة ١٢٤٨ م ٠

دولة غرناطة الاسلامية :

لم يقف فى وجه جيوش الشمال المعادية ويصدها بعزم وايمان سوى بني نصر (بني الأحمر) الذين صمدوا فى غرناطة وأسسوا فيها دولة مستقلة سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م) ، كان أول ملوكها محمد بن الأحمر الذي تميز عهده بتقوية دولته وتنمية ثروتها ٠

وقد ازدهرت امارة غرناطة فى عهد ملوك بني الأحمر ، وعمّها الرخاء والاستقرار ٠ ومن أشهر آثارهم الباقية حتى يومنا هذا قصر الحمراء الفخم الذي بناه محمد بن الأحمر وأنجزه ابنه الغالب بالله ٠ أما جامع القصر فقد بناه محمد حفيده ، وكان آية فى روعة هندسته ونقوشه ٠

---

(1) الموحدون ، دولة من البربر أسسها المهدي ابن تومرت ، غلبت المرابطين فى المغرب واستولت على الملك سنة ١٠٥٥ ميلادية .

وقصر الحمراء (١) يقع على هضبة عالية طولها ٨٠٠ متر ، أحيط بسور أنشأ داخله الملك محمد عدة أبراج أهمها برج الحراسة ، وجلب له الماء فى قناة من نهر حدره • وهذا الصرح العظيم تجلت فخامته بروعة بنيانه ، وأبراجه العالية ، وأعمدته الرشيقة ، وزخارف سقوفه وجدران قاعاته • ويتألف من قسمين متكاملين هما قصر قمارش الذي بناه الملك أبو الوليد اسماعيل ووسعه ابنه أبو الحجاج يوسف سنة ١٣٤٨ ميلادية ، وقصر السباع الذي بناه الملك محمد الغني بالله فى المرحلة الأولى من عهده الذي دام سبع وثلاثين سنة : (١٣٥٤ — ١٣٩١م) • ويعتبر قصر السباع من أجمل أقسام الحمراء ، أهم قاعاته هي قاعة الملوك ، ويليها قاعة بني سراج الذين قضى عليهم بنو الأحمر • وتبرز من حول أجنحته الأروقة المحمولة على أعمدة من الرخام عددها ١٢٤ عموداً • وفى وسط الفناء نافورة حوضها من الرخام يحمله أثنا عشر أسدا على شكل دائرة •

وقد ظلت دولة غرناطة الاسلامية قائمة قرنين ونصف القرن • وفى عهد الملك محمد الغني بالله الذي حكم أطول مدة من جميع ملوك بني الأحمر انتدب ابن خلدون المؤرخ والفيلسوف سفيراً لدى بلاط ملك قشتالة (منطقة فى اسبانيا الوسطى) •

خروج العرب من الأندلس :

ان العوامل التي أدت الى خروج العرب من الأندلس هي بالدرجة الأولى انقسامهم على بعضهم وتنازعهم على السلطة ، فشجع ذلك أعداءهم على الانقضاض عليهم والقضاء على سلطتهم بعد حكم

(١) قيل انها سميت بالحمراء نسبة الى القلعة الحمراء التي على أطلالها بنيت ، أو الى احمرار أبراجها ، أو الى الآجر الاحمر الذي استخدم فى بناء أسوارها .

دام حتى زوال ملـوك الطوائف باستثناء بني الأحمـر في غرناطة : (٥٤٢ سنة) .

أما امارة غرناطة فقد سقطت بعد أن تم توحيد مملكة الأرغون (ارجونة) ومملكة قشتالة في دولة واحدة أنهت حكم بني الأحمر سنة ٨٨٧ هـ (١٤٩٢م) . وكان آخر ملوكهم أبو عبد الله بن محمد الذي لم يتمكن من فك الحصار الذي فرضته عليه القوات الاسبانية ، فاضطر الى الاستسلام .

وهكذا خرج العرب [1] من الأندلس وانتهى حكم المسلمين فيها بعد أن حولوها الى بلاد عامرة مزدهرة ونشروا فيها العلوم والمعارف والفنون ، ولا تزال آثارهم حتى الآن قائمة تمثل حضارتهم العظيمة .

(١) في نفس السنة التي خرج فيها العرب من الاندلس اكتشف كولومبس أميركا (سنة ١٤٩٢ ميلادية) .

الفصل السابع

الدولة الطولونية في مصر

فى سنة ٢٥٤ هـ عين الخليفة العباسي أميراً تركياً والياً على مصر يدعى بايكباك (بقبق) الا ان هــذا الوالي بقي فى حاضرة الخلافة وعين نائباً عنه ليقوم بولاية مصر أحمــد بن طولون • وكان بايكباك قد تزوج من أم أحمد بعد أن مات زوجها طولون الذي كان مملوكاً تركياً أهدي إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد من قبل حاكم بخارى • وكان طولون ذكياً ماهراً شجاعاً ، حاز على اعجاب المأمون فأغدق عليه العطايا وولاه المناصب وأخذ يرتقي حتى أصبح رئيساً لحرس الخليفة •

ونشأ أحمد بن طولون عند والده رئيس الحرس نشأة حسنة •

ولما تولى على مصر من قبل بايكباك عمل على انعاشها وتنمية مواردها ، فأحبه شعبها ووضع فيه ثقته ٠

وخدم الحظ أحمد بن طولون بتعيين الخليفة لبرقوق مكان بايكباك الذي قتل ٠ وكان برقوق صهراً لأحمد ، فثبته فى منصبه بمصر ، ومنحه صلاحيات واسعة ، فساعده ذلك على تقوية مركزه والاستمرار بالاصلاحات التي بدأها ٠

وكان أحمد بن طولون كثيراً مايرسل بالهدايا والتحف الى الخليفة العباسي فأحبه وقدره ٠ وحدث أن عامل الخراج المدعو أحمد بن المدبر حاول اقصاء ابن طولون عن مصر ، فدس له عند الخليفة ولفق له شتى الاتهامات غير أن الخليفة لم يستمع الى وشايته بل عمد الى نقله بناء على مشورة ابن طولون الى الشام ٠ وبدوره حاول «الموفق» أخو الخليفة أن ينهى بن طولون فلم يفلح ٠

استقلال أحمد بن طولون بالحكم :

عندما قوي مركز أحمد بن طولون وحاز على ثقة الشعب المصري قام بتكوين جيش وأسطول عظيمين ، أنفق عليهما أمولا ضخمة ٠ وحينما أصبح بمركز القوة امتنع عن دفع الخراج للخليفة الموفق بدعوى ان مايدفعه للخراج سوف يقوم بانفاقه على الجيش فزاد هذا الاجراء من غيظ الخليفة وحقده على ابن طولون غير انه لم يكن فى وضع يمكنه من محاربته واقصائه عن ولاية مصر ٠

ثم مالبث ان استقل أحمد بن طولون بمصر استقلالا داخلياً ، ولم يكتف بذلك ، بل راح يعمل على توسيع ملكه ٠ فجهز جيشاً قوياً

ووجهه الى الشام حيث تمكن من الاستيلاء عليها ، ومنها زحف شمالاً حتى وصل الى تخوم الروم ، وعلى مقربة من طرسوس دارت معركة عنيفة أسفرت عن انتصار جيش بن طولون على قوات الروم .

أهم اصلاحاته وأعماله :

من أهم الانجازات التي تحققت فى عهد أحمد بن طولون الذي دام حكمه نحو واحد وعشرين سنة ونيف هي : انشاء جامع سمي باسمه ، يشبه بمأذنته وتصميمه الهندسي جامع سامراء . وأسس فى شمال مدينة الفسطاس حاضرة أطلق عليها اسم (القطائع) نسبة الى الأرض التي اقتطعها بن طولون الى كبار رجال الدولة وقواد الجيش وقام كل منهم ببناء عمارة فى القطعة التي امتلكها . وأنشأ أيضاً مستشفى كبير لمعالجة الأهالي بالمجان ، وداراً لسك النقود الفضية والدينار الذهبي .

وفى عهده نعمت مصر بالأمن والاستقرار ، وتقدمت الزراعة وراجت التجارة .. وتوفى أحمد بن طولون سنة ٨٨٤ ميلادية عن عمر يناهز الخمسين سنة .

ولاية خمارويه :

تولى خمارويه بن أحمد بن طولون على مصر بعد وفاة أبيه ، وكان شاباً عمره ٢٠ سنة يفتقر الى الخبرة وخاصة شؤون الحرب ، لأنه لم يمارسها إبان حكم أبيه . وفى بداية ولايته هزمته جيوش الخليفة مراراً لقلة خبرته ، وخرجت الشام عن حكمه ، الا انه مالبث أن برع فى فنون الحرب وتمكن من استرداد المدن التي فقدها فى المعارك وأيضاً الشام . وبذلك قوي مركزه ووطد دعائم حكمه .

وصالح خمارويه الخليفة العباسي وزوجه ابنته (قطر الندى) ، فكسب بذلك مودته • وقد أهدى ابنته أثمن الجواهر والحلي والتحف التي كان والده جمعها ، كما أنفق على عرسها أمولا كثيرة •

وكان خمارويه كريماً لدرجة التبذير والاسراف ، فبدد الأموال دون حساب وأفقر خزانة الدولة • ومن هواياته انشاء الحدائق واقتناء الحيوانات البرية التي كانت تجلب لها وتستأنس كالأسود والفهود وغيرها • وفى أواخر عهده أصيب بالأرق فأشار عليه بعض الأطباء بأن ينشىء بركة ويملأوها بالزئبق ويضع سريره فيها وينام ، فنفذ مشورة الأطباء • وقبل وفاته أمر بولاية العهد لابنه أبو العساكر •

زوال حكم الأسرة الطولونية :

لم يكن أبو العساكر بن خمارويه على مستوى المسؤولية ، ففي عهده ساءت الأحوال ، وفسدت الأمور وعمت الفوضى فى البلاد • وبتبذيره للثروة ، وانغماسه فى الترف واللهو أفرغ الخزائن من الأموال وهوى بالدولة الى الحضيض ، ففقدت هيبتها وسيطرتها فى الشام وغيرها من المناطق التي خرجت عن طاعتها •

وأخيراً عزل أبو العساكر وزال حكم الأسرة الطولونية بعد حكم دام فى مصر من سنة ٢٥٤ ــ ٢٩٣ هـ (٨٦٨ ــ ٩٠٥م) ، وعادت مصر الى حظيرة الخلافة العباسية •

الدولة الأخشيدية

بعد زوال الدولة الطولونية ظلت مصر تحت ادارة الخلافة العباسية المباشرة ثلاثين سنة : (٩٠٥ ــ ٩٣٥م) . وخلال هذه الفترة اجتاحتها الفوضى وأثرت على الوضع العام فيها حيث استمر حتى ولي عليها محمد بن طغج الأخشيد من قبل الخليفة العباسي الراضي بالله سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥م) .

وأصل أسرة محمد بن طغج من فرغانة فى بلاد تركستان ، وكان والده ضابطاً كبيراً فى جيش خمارويه الطولوني ويعرف باسم الاخشيد وقد امتاز الوالي محمد بن طغج بالمقدرة وحسن الادارة ، فنظم البلاد وأصلح الأمور حتى عاد لمصر الأمن والاستقرار .

وقام الأخشيد باصلاح الزراعة وتنظيم أقنية الري ، ثم وجه عنايته الى الشؤون العسكرية ، فأنشأ جيشاً قوياً تعداده ٤٠ ألفاً .

ضم بلاد الشام :

بعد أن اطمأن على الوضع فى مصر ووطد حكمه فيها ، سيَّر جيشه الى بلاد الشام ليضمها اليه كما فعل أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية .

وكانت الشام تحت حكم رجل يدعى ابن رائق فاستعد لحرب ابن طغج الاخشيد وجمع جيوشه من جند الشام ، الا انه مني بالهزيمة وانتصر الاخشيد عليه ، ثم عقد معه صلحاً واقتسم واياه بلاد الشام ، فأخذ بن طغج القسم الجنوبي ، وابن رائق القسم الشمالي . وظلت الشام مقسمة حتى وافت المنية بن رائق ، وبعد موته خشي بن طغج ان هو أهملها أن يناصبه الذي يتولاها العداء ، فما كان منه الا أن

استولى على القسم الشمالي من الشام وضمه الى القم الجنوبي دون اراقة دماء •

ضـم الحجاز :

لم يكتف الأخشيد بما حققه من انتصارات ومكاسب بل اغتنم ضعف ولاة الحجاز ، ووجه جيشاً قوياً تمكن من الاستيلاء عليها • وبذلك أصبحت بيده ثلاث ولايات كبرى هي مصر والشام والحجاز •

وحاول سيف الدولة الحمداني أمير حلب انتزاع الشـام من الأخشيد ، ولكن جيشه هزم فى قنسرين ، وتتبعت قوات الأخشيد فلوله حتى دخلت مدينة حلب • ولما اتصف به الأخشيد من سماحة فقد صالح سيف الدولة وتنازل له عن شمال بلاد الشام •

حـكم كافور :

بعد وفاة محمد بن طغج الأخشيد خلفه ابنـاه وكان صغيران فحكما تحت وصاية كافور الذي كان عبداً حبشياً اشتراه الأخشيد وعلمـه وهذبه فصـار يرتقي فى المناصب حتى وصل الى رتبـة قائد عام للجيش ، وأخيراً صار وصياً على عرش مصر واتخذ له لقباً هو (الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي العالي بالله) •

وحارب كافور الحمدانيين فى شمال سوريا وانتصر عليهم • وبذلك تمكن من الاحتفاظ بالشام تحت حكمه • وفى عهده انتعشت أحوال مصر وراجت التجارة • وقد شجع الأدباء والشعراء وأكرمهم ، منهم أبو الطيب المتنبي [١] الذي مدحه فى عـدة مناسبات ، ثم هجاه • وهذه هي بعض الأبيات من القصيدة التي امتدح بها كافور :

(١) المتنبي شاعر مشهور ، ولد فى العراق سنة ٩١٥ م وتوفى سنة ٩٦٥م ، امتدح سيف الدولة الحمداني ، ثم كافور . وكان شجاعا وطموحا .

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا قبل اكتهال اديباً فوق تأديب
يصرف الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب
ولا تجاوزها شمس اذا شرقت الا ومنه لها اذن بتغريب
أنت الحبيب ولكني أعوذ به من أن أكون محباً غير محبوب

وبعد وفاة كافور سنة ٩٦٨ ميلادية تضعضع حكم الدولة الأخشيدية فى مصر ، ثم مالبثت أن قضى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) بعد حكم دام أربع وثلاثين سنة .

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية

مؤسسها :

سميت الدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وقد أسسها أبو عبد الله الشيعي أحد دعاة أئمة الشيعة فى الشمال الافريقي حيث قام بدعوته سنة ٢٨٨ هـ وذلك بعد أن نجح فى موسم الحج باستمالة جماعة من قبيلة كتامة من البربر الى عقيدة الشيعة . ثم صحب هؤلاء بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم . وفى تونس جمع حوله الحاقدين على الأغالبة وانضم اليهم جماعات كثيرة من البربر والعرب

شكل منهم قوة هجم بها على مدينة رقادة عاصمة دولة الأغالبة [1] واحتلها سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩م) ، وأطاح بهـذه الدولة التي أسسها ابراهيم بن الأغلب عندما بعثه هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠م) لتوطيد النظام والأمن فى الشمال الافريقي • وبعد أن قضى أبو عبد الله على الأغالبة الذين دام حكمهم مائة وتسع سنوات استدعى سعيد بن الحسن أحد أئمة الشيعة ، ونادى به خليفة للدولة الفاطمية الجديدة ، ولقب (عبيد الله المهدي) •

توطيد حكم الدولة الفاطمية :

اتخذ عبيد الله المهدي مدينة المهدية فى تونس عاصمة له ، ودانت له كافة القبائل ، وبذلك وطد دعائم الدولة الفاطمية • وقـد حاول فتح مصر ولكنه توفى قبل ان تتحقق أمنيته ، فخلفه ابنه القائم سنة ٩٣٤م ، وفى عهده نظم جيشاً قوياً غزا سواحل ايطاليا ، وكرر محاولة أبيه للاستيلاء على مصر والقضاء عـلى حاكمها محمد بن طغج الأخشيد ففشل ، وتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦م) • وخلفه ابنه المنصور الـذي دام حكمه سبع سنوات نشبت خلالها ثورات داخلية أقمعها ، وتوفى فى مدينة المهدية سنة ٣٤١ هـ

فتـح مصـر :

بعد وفاة المنصور تولى الخلافة المعز لدين الله ، وكان عالماً وشجاعاً عمل على انعاش البلاد ، فأحبه الشعب • وقد جهز جيشاً وسلم قيادته

(١) دولة الاغالبة بسطت سيادتها على طرابلس وبلاد تونس وقسما من الجزائر الحالية . واستولت على جزيرة صقلية وثبتت أقدامهافيها بعد نجاح الحملة العسكريةالبحرية التي نزلت فى الجزيرة سنة ٨٢٧م ، واحتلت قواتهاجنوب ايطاليا سنة ٨٤٦م ووصلت فى زحفها حتى أبواب روما .

الى « جوهر الصقلي » وأرسله لفتح مصر ، فتمكن من الاستيلاء على الاسكندرية دون أن يجـد مقاومة كبيرة فيها ، ثم قصد الفسطاس ففتحها ، وقضى على الدولة الأخشيدية سنة ٣٥٨ هـ • وبعد أن تـم له النصر أراد أن يستميل قلوب الشعب المصري فوزع على الأهالي كميات كبيرة من الحبوب • ثم قام بتأسيس القاهرة حيث بنى فيهـا قصراً فخماً للخليفة المعز لدين الله ، والجامع الأزهر الذي أنجز سنة ٣٦١ هـ •

انتقال الخليفة الفاطمي الى مصر :

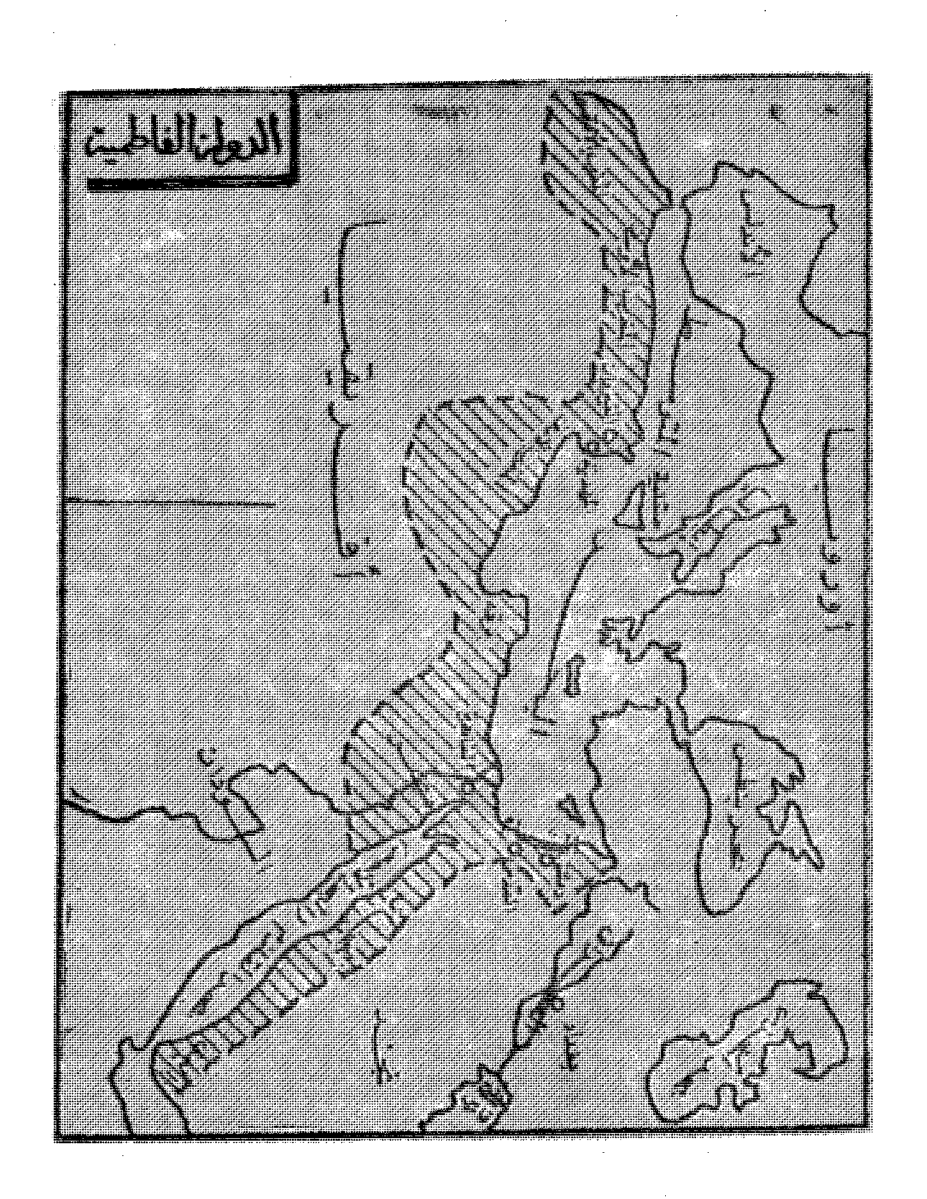
ولما انتهى جوهر الصقلي من بناء المدينة انتقل الخليفة الفاطمي الى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) واتخذها عاصمة له • وقيل انه أحضر رفاة أبيه وأجداده وأمر بدفنهم فى القاهرة العاصمة الجديدة •

وبانتقال المعز لدين الله الى مصر ، وضم بلاد الشام والحجاز الى الدولة الفاطمية ازداد نفوذها وقوي مركزها وصارت تنافس الخلافة العباسية التي كانت تعـاني الضعف بسبب تسلط قادة الترك عـلى الخلفاء فى بغداد •

ومن أهم الأعمال التي أنجزت فى عهد المعز لدين الله هي :

انشاء أسطول حربي يتألف من ستمائة سفينة ، وداراً أطلق عليها اسم (دار الكسوة) لخياطة الملابس للجيش وموظفي الدولة ، وبنى السدود والأقنية لتنظيم الري وزيادة المسـاحة الزراعية ، وشـجع الصناعة ، فساعد ذلك على ازدهار مصر وتنمية مواردها •

واهتم المعز بنشـر المذهب الشيعي • وفى أواخر أيامه هاجمت


الدولة الفاطمية

قوات القرامطة (١) مصر ، وحاصرت القاهرة ، فعمد المعز الى حيلة أنقذ بها العاصمة فدفع الى حليف القرامطة أحد مشائخ بني طي أموالا ضخمة من نقد مزيف فتخلى عن مساعدة المعتدين فاضطروا الى فك الحصار عن القاهرة والرجوع من حيث أتوا •

الدولة الفاطمية فى أوج ازدهارها :

تبوأت الدولة الفاطمية مركز الصدارة وبلغت أوج ازدهارها فى عهد العزيز بالله الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المعتز سنة ٩٧٥م ، وكان عهده عهد رخاء وتقدم وعمران ، فنمت الزراعة والصناعة ، وامتلأت القاهرة بالقصور الفخمة منها قصر الخليفة وقصر الضيافة وقصر منازل العز على النيل الخ ••

وبنى العزيز مسجداً عظيماً أطلق عليه اسم جامع الحاكم نسبة الى الخليفة الحاكم • وفى عهده تطور جامع الأزهر وأصبح جامعة للعلوم الدينية ، يقدم للطلاب الذين يدرسون فيها الملبس والمأكل على نفقة الخليفة •

وكان العزيز الخليفة الفاطمي يعتمد فى رسم السياسة المالية والاقتصادية على وزيره يعقوب بن كلس من أصل يهودي وأسلم ، وعلى وزير آخر اسمه عيسى بن نسطوروس النصراني • وتزوج العزيز من أخت بطريرك الاسكندرية • وكان وفاته فى القاهرة سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) •

---

(١) تنتسب القرامطة الى حمدان بن الاشعث الملقب (بقرمط) الذي تزعم الحركة فىالكوفة سنة ٢٨٧ هـ ، ومنها امتد نشاطها الى بلادالشام ثم الى الخليج العربي حيث دامت سيطرتهم عليه نحو ٨٥ سنة . واشتهر القرامطة بالقسوة والعنف والظلم .

خلافة الحاكم بأمر الله :

تولى أبو العلي المنصور (الحاكم بأمر الله) الخلافة بعد وفاة أبيه العزيز الا انه كان صغير السن فعمل أستاذه المدعو (بيرجوان) وصياً عليه . وكان الـذي يقوم بتصريف شؤون الدولة قائد الجيش ابن عمار ولقب بأمين الدولة . وقد قتل أثناء المنازعات التي نشبت بين الجنود الأتراك والمغاربة فى القاهرة . وبعد موته حل مكانه الوصي بيرجوان .

تصرفاته الشاذة :

لما تسلم الحاكم بأمر الله مقاليد الحكم نقم على أستاذه بيرجوان وأمر بقتله . وقد عـرف بالشذوذ فى تصرفاته وأحكامـه التي كان يصدرها . وهذه بعضها :

١ ـ ادعى الألوهية ، وصار يأمر الناس بالسجود له عندما يذكر اسمه الخطباء على المنابر .

ب ـ أمـر باغلاق الأسواق نهـاراً ، وفتحها ليـلاً فامتثل الناس لأمر الحاكم ولم يعد يعملون فى متاجرهم وحوانيتهم الا فى الليل فيضيئونها ويسهرون حتى الصباح .

ج ـ منع النساء الخروج من منازلهن ، وحرم عمل الأحذية لهن .

د ـ حرم أكل العسل والزيت والملوخية وشرب الخمور ، وأمر باقتلاع كروم العنب حتى لا يصنع الناس منها خمراً ودبساً وزبيباً .

وعندما كثرت مساوىء الحاكم بأمر الله وتفاقم ظلمه كرهه الشعب على اختلاف طبقاته ، وحقد عليه جيشه وأهل بيته وبالأخص أخته (ست الملك) التي اتفقت مع كبير أمراء الجيش المدعو ابن دواس للتخلص منه وانقاذ البلاد من شره . وحسب الخطة المرسومة تتبعه بعض الجنود وقتلوه بينما كان يتجول ليلاً فى جبل المقطم قرب القاهرة ، وذلك سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠م) .

وكان الحاكم بأمر الله مولعاً بدراسة النجوم ، فأنشأ مرصداً فى سفح جبل المقطم حيث كان يمضى الليالي فى رصد الأجرام . وأنشأ أيضاً داراً للعلماء أطلق عليها اسم (دار الحكمة) لعقد الندوات العلمية ونشر المذهب الشيعي . وكانت مدة خلافته ٢٥ سنة منها سبع سنوات تحت وصاية أستاذه بيرجوان . ولما قتل كان عمره ٣٧ سنة .

أبو الحسن يتولى الخلافة :

بعد وفاة الحاكم بأمر الله أرسلت أخته ست الملك الى ابنه أبي الحسن علي تستدعيه من دمشق ، فحضر وبايعه الأمراء والوزراء وكبار القوم ، ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله . وكانت السلطة الفعلية بيد ست الملك التي ظلت قابضة على زمام الأمر أربع سنوات أعادت خلالها للدولة هيبتها وقوتها ، وأحسنت سياسة الشعب فأحبها واحترمها . وبعد وفاتها سنة ٤١٥ هـ ظل ابن أخيها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله يحكم حتى توفى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) ، وكان عمره ٣٣ سنة .

حكم المستنصر بالله :

لما توفى الخليفة الظاهر بايع قواد الجيش ورجال الدولة لولده أبي تميم الملقب بالمستنصر ، وكان عمره لايتجاوز سبع سنوات ، فتسلم الوزراء مهام السلطة ودب بينهم الشقاق والنزاع على الحكم .

ولما شب المستنصروتسلم مقاليد السلطة كانت الفوضى مستفحلة ، وازدادت الخطورة بتعرض البلاد الى قحط استمر عدة سنوات ، عرفت فترتها باسم (الشدة العظمى) حيث عم الخراب والمجاعة والضائقة المالية . فاستدعا الخليفة المستنصر بدر الجمالي وعينه وزيراً وخوله صلاحيات واسعة لانقاذ البلاد . وقد اتصف بالمقدرة والحزم والاخلاص للخليفة الفاطمي ، فطهر الجيش من عناصر الشغب والفتن ، وأصلح الأمور . ولحماية القاهرة العاصمة الفاطمية فقد بنى سوراً حولها تعلوه أبراج المراقبة ، لاتزال بعض آثاره باقية الى يومنا هذا .

وحكم المستنصر بالله أطول مدة عرفها التاريخ الاسلامي ، فقد بويع بالخلافة سنة ٤٢٧ هـ ودام حكمه حتى توفى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) . وفى نفس السنة توفى وزيره بدر الجمالي .

سقوط الدولة الفاطمية :

بعد المستنصر بدأ عهد جديد تميز بضعف الخلفاء الفاطميين الذين تعاقبوا على سدة الحكم ، وعجزهم عن اصلاح الأمور ، فعهدوا الى وزراء بتصريف شؤون الدولة فاستأثروا بالسلطة خلال المرحلة الأخيرة من تاريخ حكم الفاطميين ، وعرفت هذه المرحلة بعصر الوزراء

العظام • وقد أدى تنازعهم وصراعهم الى تقلص نفوذ الدولة الفاطمية ، وفقدان ممتلكاتها فى الشمال الافريقي وجزيرة صقلية • واستمر الانقسام يعصف بها حتى تلاشت قواها وسقطت •

وخلال المرحلة التي امتدت منذ وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ حتى زوال الدولة الفاطمية توالى على الحكم ست خلفاء هم : أحمد المستعلي بالله ابن المنتصر : ٤٨٧ـ٤٩٥ هـ (١٠٩٤ـ١١٠١م) • على الآمر بأحكام الله ابن المستعلي : ٤٩٥ـ٥٢٤ هـ (١١٠١ـ١١٣٠م) ، الميمون الحافظ لدين الله ابن الأمير أبي القاسم : ٥٢٤ـ٥٤٤ هـ (١١٣٠ـ١١٤٩م) • اسماعيل الظافر بأمر الله ابن الميمون : ٥٤٤ـ٥٤٩هـ (١١٤٩ـ١١٥٤م) • عيسى الفائز بنصر الله ابن اسماعيل : ٥٤٩ـ٥٥٥ هـ (١١٥٤ـ١١٦٠م) • أبو محمد عبد الله العاضد لدين الله : ٥٥٥ـ٥٦٧هـ (١١٦٠ـ١١٧١م) •

وفى عهد الخليفة العاضد قامت حركة تنازع على السلطة بين وزيرين هما ضرغام بن سوار ، وشاور بن مجير الدين أبو شجاع ، فالأول استنجد بالصليبيين الذين كانوا ثبتوا أقدامهم فى فلسطين ، والثاني خرج الى الشام ليستنجد بالسلطان نور الدين محمود زنكي ملك الشام الذي رحب به وأرسل معه جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، فدخل مصر وتغلب على ضرغام بن ساور وقتله ، ثم ثبت شاور فى الوزارة • كان ذلك عام ٥٥٩ هـ •

وفى عام ٥٦٢ هـ دخلت جحافل من الصليبيين مصر ، فعاد اليها

أسد الدين شيركوه على رأس جيش وبمعيته ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، فطرد الصليبيين ، وقتل شاور الذي نكث بعهده لنور الدين محمود ، وتحالف مع أعدائه الصليبيين • وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه أسد الدين ولاه العاضد الخليفة الفاطمي الوزارة ولقبه الملك المنصور • ولم يمهله الأجل طويلاً فمات بعد ثلاثة أشهر سنة ٥٦٤ هـ ، فعهد العاضد الى صلاح الدين بالوزارة ولقبه الملك الناصر • وفى سنة ٥٦٧ هـ توفى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأعلن صلاح الدين زوالها دون أية معارضة أو مقاومة ، وأمر باقامة الخطبة للخليفة العباسي فى مصر بعد انقطاع دام قرنين ونيف •

ومن أهم مميزات الدولة الفاطمية وأعمالها انها حافظت على الكيان العربي فى المناطق التي كانت تحت سيطرتها ، مثال ذلك الشمال الافريقي • وقد شجعت العلوم والفنون ، واهتمت بالزراعة والصناعة وعمران البلاد ، كما سمحت للنصارى واليهود باقامة شعائرهم الدينية ، وعينت البعض منهم فى مناصب كبرى وبالأخص فى عهد الخليفة المعز وعهد ابنه العزيز •

وتطور فن العمارة فى عصر الفاطميين الذين اهتموا ببناء المساجد والقصور الفخمة المزخرفة بالنقوش البديعة • ومن أشهر انجازاتهم التي لا تزال باقية الى يومنا هذا ، الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الجيوش ، وسور القاهرة ، والقاهرة التي بنيت فى عهد الخليفة المعز لدين الله •

الفصل التاسع

الدولة الحمدانية

استقل حمدان بن حمدون أحد كبار شيوخ قبيلة تغلب العربية (١) بمنطقة الموصل وذلك بعد أن تسلط قادة الترك على الخلافة العباسية وأقصوا العناصر العربية عن القيادة .

واتخذ الحمدانيون مدينة الموصل عاصمة لدولتهم العربية سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) حيث انضمت تحت لوائها القبائل الضاربة فى وادي الفرات ، وأطراف بادية الشام . ومن أشهر قادتها الذين لعبوا دوراً

---

(١) تغلب من قبائل العرب الكبرى ، أصلها من اليمن ، انتقلت الى الحجاز ونجد ، ثم الى بلاد الشام فالى مابين النهرين . نبغ منها شعراء ، وفرسان أبطال . اشتبكت مع قبيلة بكر وائل فى حرب طويلة تعرف باسم حرب البسوس .

كبيراً فى مقاومة نفوذ الأتراك فى العراق الحسن وعلي ولدا عبد الله بن حمــدان •

محاولة انقاذ الخليفة العباسي :

جهز الحسن بن عبد الله الحمداني جيشاً من العرب وسار بــه ومعه أخوه الى بغداد لاقصاء نفوذ الترك وانقــاذ الخليفة العباسي المتقي بالله من تسلطهم ، ودخل الحسن العاصمة حيث رحب به الخليفة ، ومنحه رتبة أمير الأمراء ، وهي الرتبة التي تمنح للذي بيده السلطة • كما منح أخيه لقب (سيف الدولة) • وبذلك تمكن الحمدانيون من انتزاع السلطة سنة ٣٣٠ هـ من الترك الذين كانوا قوادهم قبل دخول الجيش العربي بغداد فى نزاع على مركز السلطة •

ولم تمض السنة على اقصاء الترك عن مركز السلطة حتى وحدوا صفوفهم بقيادة أحد أمرائهم المدعو (توزون) الذي اشتهر بالقسوة والعنف • وقد تمكن من اخراج الحمدانيين من بغــداد ، فعادوا الى الموصل سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢م) •

أما مصير الخليفة العباسي المتقي بالله فقد خلعه توزون بعد أن سمل عينيه ، وعين خليفة بدلاً منه المستكفي بالله ــ ســنة ٩٤٤م ،

الحمدانيون يتخذون حلب عاصمة لهم :

نقل سيف الدولة العاصمة من الموصل الى مدينة حلب شــمال الشــام سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) وذلك بعد أن استتب له الأمر وقضى على نفوذ الاخشيد فى تلك المنطقة ذات المركز الهام ، وكان الأخشيد آنذاك يحكم مصر وبلاد الشام والحجاز •

وعاد سيف الدولة وهاجم الأخشيد فى شمال الشام ، ولكنه خسر المعركة الحاسمة فى قنسرين ، وانتهت الحرب بينهما بصلح ينص على بقاء القسم الشمالي من بلاد الشام تحت حكم سيف الدولة .

الحروب مع البيزنطيين :

كان سيف الدولة شجاعاً ، رزيناً وكريماً يحبه شعبه وجيشه الذي قام بصد غارات البيزنطيين على الجزيرة وشمال الشام وأنزل بهم الهزائم بقيادة سيف الدولة نفسه . وقد حاول الامبراطور البيزنطي (نقفور فوقاس) السيطرة على حلب والاستيلاء على المناطق المعروفة باسم العواصم والثغور المتاخمة لبيزنطية ، فصدت قوات نقفور وطردها سيف الدولة من المناطق التي تسللت اليها ، واستمر يزحف بجيشه حتى دخل حدود بيزنطية واستولى على مدينة مرعش وعدة حصون .

لقد قام الحمدانيون بدور بطولي فى الدفاع عن المناطق الاسلامية وحمايتها من غارات البيزنطيين الذين حاولوا فى عهد الامبراطور شميشق الاستيلاء على بيت المقدس ، فقاومهم الحمدانيون وهاجموا مؤخرة جيوشهم الزاحفة عبر الشام ، وأرغموا بفضل مقاومة الحمدانيين على الانسحاب . وبذلك فشلت بيزنطية باستعادة نفوذها على بلاد الشام وفلسطين التي طردت منها فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٥ــ١٦ هـ (٦٣٦ــ٦٣٧م) .

ازدهار العلوم والآداب :

وفى عهد سيف الدولة ازدهرت العلوم والآداب . وعلى غرار هارون الرشيد وابنه المأمون كانت تعقد فى قصره بحلب الندوات

للأدباء والشعراء • وكان يجزل لهم العطاء ، ويشجع نشر العلوم والفنون • ومن الذين برزوا فى عهده [1] : أبو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الأغاني الشهير ، والمتنبي الشاعر العظيم ، والفارابي الفيلسوف صاحب المؤلفات الفلسفية والعلمية والاجتماعية ، وابن نباتة الخطيب المشهور ، وأبو فراس الحمداني الشاعر الفذ والفارس الشجاع •

نهاية الدولة الحمدانية :

بعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ (١٩٦٧م) انتاب الدولة الحمدانية الضعف الذي ظل يلازمها حتى زالت فى عهد أبي المعالي شريف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣م) وقبله توالى على الحكم ثلاث حكام هم : سعد الدولة الذي خلف سيف الدولة سنة ٣٥٦ ، حتى ٣٨١ هـ ، ثم سعيد الدولة حتى سنة ٣٩٢ هـ ، وخلفه أبو الحسن علي حتى سنة ٣٩٤ هـ •

---

(١) أبو الفرج الاصبهاني : هو علي بن الحسين ، ولد فى اصفهان سنة ٨٩٧ م وتوفى سنة ٩٦٦م .

المتنبي : (أبو الطيب) ولد فى محلة كندة بالكوفة سنة ٩١٥م وتوفى سنة ٩٦٥م .

الفارابي : (أبو النصر) ولد فى فاراب بتركستان سنة ٨٧٣ م وتوفى فى دمشق سنة ٩٥٠م .

ابن نباته : ولد سنة ٩٤٦م وتوفى سنة ٩٨٤م .

الـدولة البويهية

مؤسسـها :

أبو شجاع بويه من أسرة بني بويه الفارسية التي استقرت قديماً فى اقليم الديلم ، جنوب بحر قزوين • واتتهز أبو شجاع فرصة ضعف الخلافة العباسية فى بغداد ، وتنازع ولاة الخليفة الراضي فى فارس فاستولى على شيراز • ومنها امتدت حركة بنو بويـه : (أولاد أبو شجاع : علي وحسن وأحمد) الى مناطق أخرى وبسطوا سلطانهم عليها • ثم قاموا بتوطيد دعائم دولتهم فى جنـوب فارس وجعلوا عاصمتها شيراز ، وأنشأوا جيشاً قوياً لتوسيع ملكهم •

تسلطهم على الخلافة العباسية :

وفى أواخر سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) سار أحمـد بن أبي شجاع بويه على رأس قوة كبيرة الى بغداد ، فدخلها ورحب به الخليفـة العباسي المستكفي بالله ومنحه لقب (معز الدولة) ، وأنعم على أخيه علي بلقب (عماد الدولة) ، وأخيه حسن لقب (ركن الدولة) •

وهيمن أحمد بويه على السلطة فى بغداد ، وعزل الخليفة المستكفي الذي أحسن استقباله وأنعم عليه وعلى اخوته بأرفع الألقاب • وعين بدلاً منه الخليفة المطيع لله الذي غدا ألعوبة بيده • كما أمر أن يذكر اسمه مع الخليفة على المنابر فى خطبة الجمعة •

بنو بويه فى أوج القوة والعظمة :

أصبح بنو بويه هم الحكام فى بغداد ، وقويت سلطتهم فى العراق وفارس فى عهد زعيمهم عضد الدولة الذي نقش اسمه على العملة التي تسك فى العاصمة العباسية ، وتزوج من ابنة الخليفة المطيع وزوج ابنته للخليفة . وكان وراء هذا الزواج فكرة تكمن فى مخيلة عضد الدولة قوامها تحويل الخلافة عن طريق الوراثة بالتزاوج الى بني بويه ولكن حلمه لم يتحقق .

وقام عضد الدولة بأعمال عمرانية عظيمة فى كل من بغداد وشيراز التي بقيت عاصمة للدولة البويهية ، ومن أهمها انشاء (البيمارستان العضدي) فى بغداد الذي كان من أشهر المستشفيات فى القرن الرابع الهجري — العاشر الميلادي .

وكان عضد الدولة يكرم العلماء والأدباء ويعقد معهم الندوات فى قصره ويشجعهم على البحوث والتأليف . وتوفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣م) .

نهاية الدولة البويهية :

عاشت الدولة البويهية التي كان حكامها من الشيعة الفرس بعد وفاة عضد الدولة نحو ٧٢ سنة . ففي الفترة الأولى حافظت على مركزها ونفوذها فى فارس والعراق ، قام خلالها ولدا عضد الدولة : (شرف الدولة وبهاء الدولة) بأعمال هامة منها تأسيس مجمع علمي فى بغداد وداراً للكتب سنة ٩٩٠م بمساعدة سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة ، احتوت على عشرة آلاف كتاب .

أما المرحلة الثانية فقد تميزت بتسرب الضعف الى الدولة البويهية ونشوب الخلاف بين حكامها • وفى بدايتها عزل بهـاء الدولة الخليفة العباسي الطائع سنة ٣٨١ هـ (٩٩١م) وعين الخليفة القادر الـذي دامت خلافته حتى سنة ١٠٣١م • وفى أواخر أيامه فرض على البويهيين احترامه واستعاد للخلافة هيبتها •

وقد استمر الضعف يلازم الدولة البويهية حتى انهارت على يد طغرل بك زعيم السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) •

oooooooooooooooooooo

الفصل العاشر

الدولة الايوبية

مؤسسها صلاح الدين :

هو القائد البطل الذي قام بدور خالد فى التاريخ تمثل بتوحيد الشرق الاسلامي والقضاء على جحافل الصليبيين فى معركة حطين الحاسمة التي غيرت مجرى التاريخ فى القرن السادس الهجري ـ الثاني عشر الميلادي ٠

وينتمي صلاح الدين الى أسرة كردية عريقة من اذربيجان ، خرجت من بلدتها (درين) واستقرت فى العراق ٠ وكان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين فى عهد الخليفة العباسي المسترشد بالله حاكماً

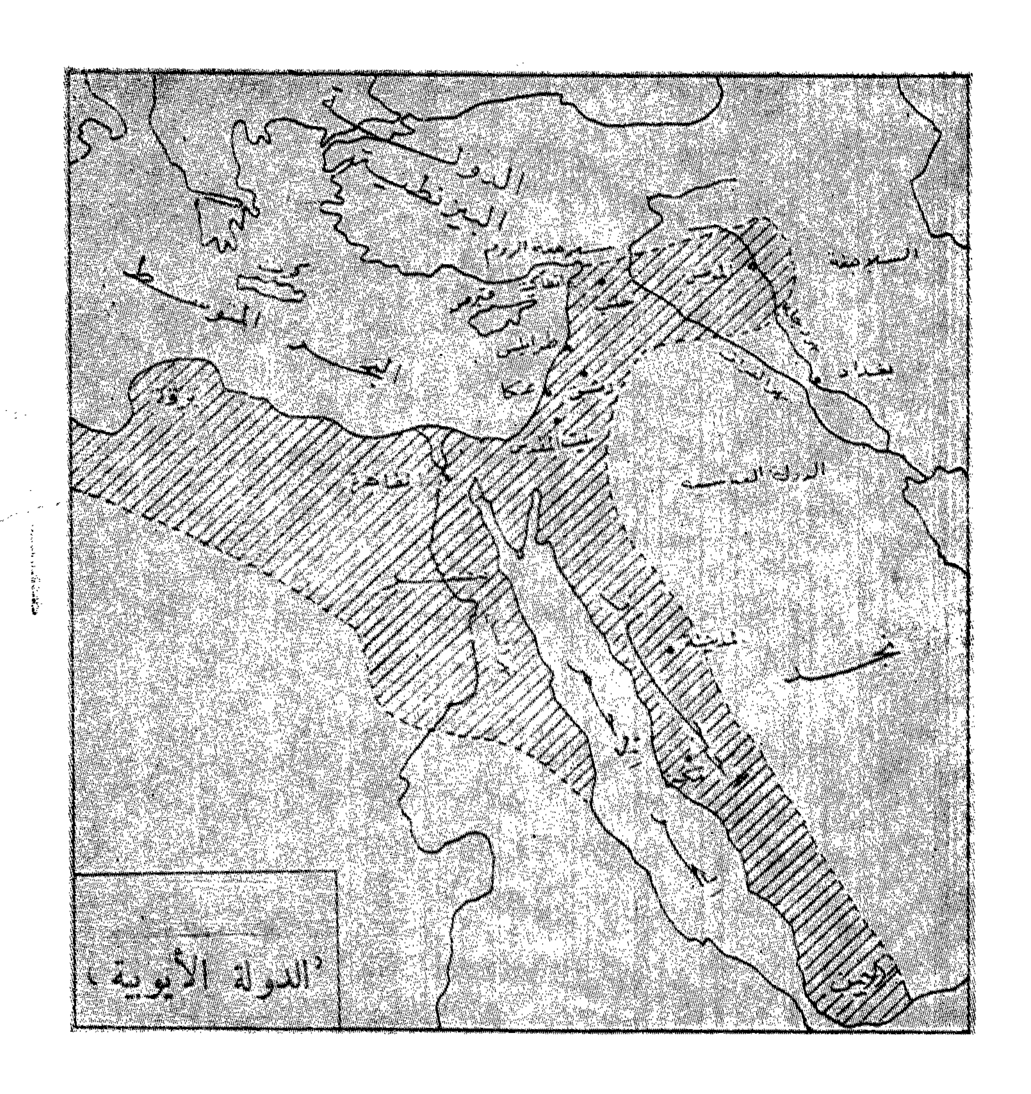
لمدينة تكريت على شاطىء دجلة شمالي سامراء ، وفيها ولد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨م) • وفى نفس السنة التي ولد فيها وقعت اصطدامات دامية بين الخليفة العباسي الراشد بالله والسلطان مسعود السلجوقي انتهت بفرار الخليفة الى اصفهان حيث قتله رجل من خراسان • وعلى اثر ذلك رحل نجم الدين أيوب عن تكريت مع عائلته لعند صديقه عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية فى الموصل وحلب حيث عمل فى خدمته وشقيقه أسد الدين شيركوه ورقيا الى أرفع المناصب فى الجيش •

ونشأ صلاح الدين نشأة طيبة ، ودرس الفقه والأدب دراسة عميقة ، وتدرب على الفنون الحربية ، وترعرع فى حلب ، ثم فى بعلبك المدينة الشهيرة بآثارها الضخمة فى البقاع الشمالي (بلبنان الحالي) حيث كان أبوه نجم الدين حاكما على القلعة والمدينة •

وبعد أن فتح نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق سنة ٥٤٩ هـ استقر نجم الدين أيوب مع أسرته فيها ، وتسلم صلاح الدين منصب آمر الشرطة الذي كان يقوم به أخوه توران شاه • ثم ترقى حتى أصبح من كبار قواد جيش نور الدين ملك الشام •

توطيد الدولة الأيوبية :

اشترك صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه فى الحملات العسكرية التي أرسلها نور الدين زنكي الى مصر لطرد الصليبيين الذين كانوا بدأوا يتغلغلون فيها • وفى تلك المعارك التي تكللت بالانتصار ظهرت مواهب ومقدرة صلاح الدين القائد الفذ الذي


الدولة الأيوبية
بغداد

سجل فى مصر الانتصار الأول من سلسلة انتصاراته على الصليبيين •

وبعد وفاة عمه أسد الدين فى القاهرة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) أسند اليه الخليفة الفاطمي العاضد الوزارة ولقبه الملك الناصر • فأحبه الشعب والتف حوله ، وأعاد لمصر الأمن والاستقرار بعد أن قضى على المؤامرات الداخلية التي كانت تدبرها جماعة من أنصار الدولة الفاطمية التي دخلت فى دور الانهيار •

وفى سنة ٥٦٧ (١١٧١م) توفى الخليفة الفاطمي ، وبوفاته طويت آخر صفحة من حكم الفاطميين الذين كان مضى على قيام دولتهم ٢٦٢ سنة كانت بدايتها فى تونس بعد أن قضت على دولة الأغالبة سنة ٩٠٩م وفى مصر بعد أن أطاحت بالدولة الاخشيدية سنة ٩٦٩م •

وقام صلاح الدين بسلسلة من الاصلاحات فى مصر ، فحسن أحوالها ، وقضى على المفاسد ، وحول الدعاء فى خطبة الجمعة الى الخليفة العباسي المستضيء ، وولى القضاء للفقيه صدر الدين عبدالملك ابن درباس الشافعي ، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية ، كما بنى قلعة وسوراً لحماية القاهرة من غارات الأعداء ورمم أسوار الاسكندرية •

وهكذا وطد صلاح الدين الأيوبي دعائم دولته فى مصر ، ثم انطلق الى توحيد الشرق الاسلامي لانقاذه من خطر الحملات الصليبية التي توطدت أقدامها فى سواحل بلاد الشام وفلسطين • فسار الى دمشق بجيش بعد أن توفى الملك نور الدين زنكي [1] سنة ١١٧٤ م

---

(١) نور الدين محمود زنكي لقب بالملك العادل ، كان شهما شجاعا كريما ، محبا لعمل الخير ، فتح دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، وبنى فيها المدارس والمساجد ومستشفى ، رتب للايتام والفقراء نفقة وكسوة ، حارب الصليبيين وانتصر فى عدة معارك .

واستولى عليها وعلى كثير من بلاد الشام سنة ١١٧٥م ، وفتح أخوه توران شاه بلاد اليمن .

وفي المرحلة التالية ضم حلب والجزيرة والموصل التي كانت لاتزال تحت سيطرة ابن نور الدين زنكي الملقب بالملك الصالح الذي توفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١م) وابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل . وبذلك أعاد صلاح الدين توحيد الأقطار الاسلامية لمواجهة الصليبيين والحفاظ على كيان الأمة الاسلامية .

حروبه مع الصليبيين :

قام صلاح الدين الأيوبي بعد أن وحد الأقطار الاسلامية بشن حرب لتحرير المناطق والمدن التي كان الصليبيون استولوا عليها وأسسوا فيها امارات مضى على قيامها ٨٥ سنة بدأت باستيلائهم على مدينة انطاكية وطرسوس والرها بأعلى الفرات سنة ١٠٩٨م ، وبيت المقدس سنة ١٠٩٩م ، وطرابلس وما جاورها سنة ١١٠٩م الخ ..

أجل قبل أن يوحد صلاح الدين الشرق الاسلامي كان الصليبيون يسيطرون على مناطق هامة . وقد عجزت الخلافة العباسية التي انتابها الضعف ان تقاوم الحملات العسكرية . وكذلك الدولة الفاطمية التي دبت اليها الفوضى والصراع بين الوزراء على الانفراد بالسلطنة بعد وفاة المستنصر جعلها غير قادرة على الوقوف في وجه ذلك الغزو الخطير .

(أما الأسباب التي دعت أوروبا للقيام بحملات صليبية ، ودور كل حملة من هذه الحملات العسكرية فسنأتي على شرحها بالتفصيل في فصل لاحق) .

بعض المعارك الحربية :

سبق موقعة حطين المشهورة فى التاريخ التي انتصر فيها صلاح الدين وقضى قضاءً مبرماً على القوات الصليبية ، نشوب عدة معارك كان أهمها معركة مرج عيون (بلدة فى لبنان حالياً) سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) هزمت فيها قوات الفرنج وأسر مئات من فرسانهم وبعض قوادهم •

وفى نفس السنة هاجم السلطان صلاح الـدين حصن الأحزان الذي كان الفرنج بنوه قرب مدينة صفد (فى الجليل الأعلى بفلسطين) واستولى على الأسلحة التي فيه ، بعد حصار دام أسبوعين ، وأسر ٧٠٠ من جنود وفرسان الصليبيين •

وفى سـنة ٥٧٨ هـ (١١٨٣م) وجـه الأمـير (ريجنالد دو شاتيون) حاكـم حصن الكرك جنوب شـرقي الأردن حملة بحرية للاستيلاء على الحجاز ، فأسرع العادل شقيق صلاح الدين ونائبه على مصر وأرسل على الفور أسطولا بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ ، اشتبك مع الحمـلة الصليبية فى معركة دارت رحاها فى البحر الأحمر شمال (ينبع) أسفرت عن هزيـمة الصليبيين وأسر منهم بالاضافة الى عدد كبير من الجنود والبحارة البعض من قوادهم وأمرائهم • وبذلك قضى على مغامرة ريجنالد ومخططه الخطير • وكان هذا المغامر مـن أشد أمراء وحـكام الصليبيين تعصباً ، هاجم مراراً قـوافل الحجاج المسلمين وسلبها ناقضاً بذلك شروط العهود والمحالفة التي تنص على عدم التعرض للقوافل الآمنة •

وهناك معـارك أخرى جرت حوادثها فى الأعـوام الثلاثة التي سبقت معركة حطين كان النصر فيها للمسلمين فى مناطق مختلفة • وكانت هذه تعتبر مقدمة للمعركة الكبرى مع الصليبيين •

موقعة حطين الحاسمة

فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) زحف السلطان صلاح الدين على رأس جيش سار به من دمشق واتجه الى حصن الكرك واستولى عليه بعـد معركة ضارية • ثم تابع زحفـه الى طبرية فحاصرها ستة أيام واحتلهـا •

وعلى مقربة من طبرية دارت رحى معركة حطين فى شهر ربيـع الثاني (٥٨٣ هـ) تموز ـ يوليو (١١٨٧م) بـين جيش المسلمين والجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمراء صور وعكا والناصرة والكرك ، وكان عددها نحو ٢٠ ألفاً من الفرسان و ١٣ ألف مقاتل من كتائب المعسكرات والحصون و ٧ آلاف مقاتل من كتائب المساندة أما قوات صلاح الدين فكان عددها ١٢ ألفاً بالاضافة الى بعض كتائب من المتطوعين •

وفى صبيحة يوم الجمعة بدأت المعركة والتحمت الجيوش فىقتال عنيف • وكانت معركة حاسمة انتصر فيها السلطان صلاح الدين وأنزل بالفرنج هزيمة ساحقة • وقد وقع من الأسرى فى أيـدي المسلمين ملك القدس (غي دو لوزينان) والأمير (ريجنالد شاتيون) حاكم حصن الكرك ، وغيرهما من الأمراء ومعظم كبار قواد كتائب الجيوش ، و ١٤ ألف جندي • وبلغ عدد قتلاهم نحو ٩ آلاف ، كما قضى على كثير منهم العطش والحر والنيران التي اشتعلت فى الحشائش الجافة التي قذفت بالنفط فتأجج اللهب تحت سنابك خيولهم وحول معسكرهم وأهلك مجموعات منهم ،

وأحسن صلاح الدين السلطان النبيل معاملة أسرى الصليبيين وأطلق سراح غي دو لوزينان ملك القدس بعد أن أخذ عليه تعهد بأن لا يتعرض للمسلمين بأذى ولا يحرض على قتالهم • أما رجينالد حاكم حصن الكرك الذي نقض مراراً شروط العهد واعتدى على قوافل المسلمين فقد ضرب عنقه • وكان صلاح الدين قد أقسم اليمين أن يقتل هذا الغدار اذا وقع بيده ، فبر بقسمه وقتله ، كما ضرب عنق فرسانه الذين سلبوا ونكلوا بالناس الآمنين •

استرداد بيت المقدس :

بعد ذلك النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين وجيشه فى معركة حطين التي كانت بداية النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية اتجه الى الساحل حيث استولى على عكا وصيدا وبيروت ويافا ، ونابلس والرملة ، ثم فتح بيت المقدس بعدأن حاصر المدينة منجميع الجهات وشدد عليها الحصار حتى سلمت فى شهر رجب ٥٨٣ هـ (تشرين أول ــ أكتوبر ١١٨٧م) • ودخل السلطان العادل الكريم النفس المدينة المقدسة وأعطى الأمان لأسر الفرنج البالغ عدد أفرادها رجالا ونساءً وأطفالا نحو ١٧ ألف نسمة ، وعفا عن الأسرى • وأمر بتنظيف المسجد الأقصى وغسل الصخرة بالماء الطاهر وماء الورد ، ونصب المنبر الى جانب المحراب ، وأقيمت الصلاة • وهكذا أعيد الى المسجد الأقصى حرمته وهيبته ، وانطلق فى أجواء بيت المقدس صوت المؤذن يردد ألله أكبر •• الله أكبر •• بعد انقطاع دام ٨٨ سنة كانت بدايتها سنة ١٠٩٩ ميلادية (٤٩٢ هـ) تاريخ استيلاء الصليبيين على القدس •

وبذلك تقوضت مملكة الفرنج الصليبيين فى الشرق ولم يبق فى

حوزتهم إلا صور وطرابلس وانطاكية وبعض القلاع علـى السواحل وما جاورها من المدن الصغيرة .

حملة ملوك أوروبا العسكرية :

أحدث انهيار المملكة اللاتينية واسترداد المسلمين لبيت المقدس هزة عنيفة فى أوروبا . فقام ملوكها بتجهيز حملة عسكرية لاستعادة المناطق التي خسرها الفرنج فى الشرق وبالأخص القدس . وكانت هذه الحملة من أكبر الحملات الصليبية ، فقوادها ثلاثة ملوك هم : فريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، فيليب أوغست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا .

وفى الطريق غرق الامبراطور فريدريك وهو يعبر أحد أنهار كيليكية (فى تركيا حالياً) ، فتشتت جيشه ورجع القسم الأكبر من جنوده وقواده الى بلادهم ، ولم يصل منه الى سواحل بلاد الشام سوى خمسة آلاف .

واختار الفرنج عكا لتكون قاعدة ينطلقون منها لاسترداد القدس والمدن الأخرى التي فقدوها . وهاجمت قواتهم المدينة من البحر والبر بأعداد كبيرة مؤلفة من جيش فيليب أوغست ملك فرنسا ، وجيش أمير صور ، والألمان الذين كانوا وصلوا الى الساحل . وعززت هذه القوات بجيش ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا الذي وصل فى ابان حصار مدينة عكا التي ظلت صامدة وصلاح الدين يدافع عنها ببسالة منقطعة النظير مدة عامين : ٥٨٥ـ٥٨٧ هـ (١١٨٩ـ١١٩١م) ولولا وصول النجدات للافرنج تلو النجدات عن طريق البحر ومساندة أسطولهم البحري لما تمكنوا من الاستيلاء على المدينة التي دخلوها على اطلال من الأنقاض .

وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين ريتشارد ملك انكلترا وزميله ملك فرنسا أوغست فأبحر هذا عائداً الى بـلاده ، وظل ريتشارد يحارب لتحقيق الهدف وهو استعادة بيت المقدس • ولكنه لم يتمكن رغم الانتصارات المحدودة التي حققها فى الساحل •

صـلح الرملة :

أدرك ريتشارد قلب الأسد ان التغلب على السلطان صلاح الدين حرباً لايمكن تحقيقه ، فأوفد اليه مندوبين للتفاوض • واقترح ريتشارد ملك انكلترا زواج أخته الأميرة (جوانا) بالعادل أخى صلاح الدين على أن تكون القدس والمدن الساحلية له ، فرفض صلاح الدين ، وانتقل الى القدس حيث قام بتحصين المدينة • وعاد ريتشارد مـن جديد وأرسل مندوبين لاجراء مفاوضات انتهت بعقد صلح فى بـلدة الرملة سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ينص على أن يسمح للحجاج الفرنج بزيارة بيت المقدس ، وأن تكون المنطقة الساحلية من صور الى يافا بيد الفرنج • وبعد توقيع الاتفـاق عاد ريتشارد ملك بريطانيا الى بـلاده •

وفاة صلاح الدين :

عاد صلاح الدين الى دمشق بعد أن نظم الأمور فى بيت المقدس وولى عليه عز الدين جورد بك ، وعين للقضاء بهاء الدين بن يوسف الشافعي • وفى دمشق أصيب بالحمى فمات وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ـ سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) ، ودفن بجوار الجامع الأموي •

وكان صلاح الدين رجلاً عادلا ، وانساناً عظيماً ، وبطلاً مجاهداً ،

حمل راية وحدة الشرق الاسلامي فحقق للشرق النصر العظيم •

استمرار الدولة الأيوبية :

بعد وفاة صلاح الدين استمرت دولته قائمة ، ولكن ليس كما كانت فى عهده • وفى هذه المرحلة التي دامت حتى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) توالى على الحكم من البيت الأيوبي عدة ملوك كان من أبرزهم وأعظمهم شأناً هم :

١ ـ الملك العادل سيف الدين :

هو الذي تمكن بعد وفاة أخيه صلاح الدين أن يقضي على الفتن والمنازعات التي دبت فى البيت الأيوبي ، ويبسط سلطته على بلاد الشام ومصر واليمن • وقد وجه اهتمامه لمقاومة مطامع الفرنج الصليبيين والحفاظ على سيادة الدولة ومركزها • ودام حكمه حتى توفى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) •

٢ ـ الملك الكامل :

خلف أباه العادل ، قاوم الحملة الصليبية التي هاجمت مصر سنة ١٢١٩م بقيادة (جان دو بارين) واندريه الثاني ملك هنغاريا • وحاول بعد أن استولت القوات الغازية على دمياط التوصل الى اقناع بارين وزميله بوقف الحرب والجلاء عن مصر ، فعرض عليهما شروطاً سخية من ضمنها مئات الآلاف من الدنانير ولكنهما رفضا • وعندئذ أمر بقطع الجسور وتعويم الأرض بالمياه فأحاطت بقوات الفرنج ومعسكراتهم ، فاضطروا الى اخلاء المنطقة ، والاقلاع عن مغامرتهم التي كلفتهم أرواحاً وأموالاً ، وأبحروا راجعين الى بلادهم سنة ١٢٢١م

وفى سنة ١٢٢٨م تعرض الشرق الى حملة عسكرية جديدة بقيادة فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا • وكان هدفه الاستيلاء على مصر والمناطق التي كان صلاح الدين طـرد منها الصليبيين بما فيها بيت المقدس • فدخل معه الملك الكامل فى مفاوضات انتهت بتوقيع اتفاقية نصت على تسليم القدس للامبراطور فريدريك • فأثار ذلك موجة سخط فى جميع البلاد الاسلامية •

٣ ـ الملك الصالح أيوب :

هو الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين بعد أن كان امبراطور ألمانيا استولى عليها فى عهد الملك الكامل • ولما شاع خبر استرداد المسلمين للقدس فى أوروبا جهز ملك فرنسا لويس التاسع حملة عسكرية واتجه الى مصر ، فاستولى على مدينة دمياط سنة ١٢٤٩ م ، ومنهـا زحف على المنصورة واحتلها •

وبعد احتلال قوات الملك لويس المنصورة توفى الملك الصالح أيـوب ، فأخفت زوجته شجرة الـدر نبـأ وفاته حتى يحضر ابنـه تـوران شاه الـذي كان غائباً عن مصـر • ولما حضـر توجه فوراً الى المنصورة عـلى رأس قوة من الفرسان واشتبك مـع الصليبيين فى قتـال عنيف • وقد انهـارت مقـاومة جيشـ الملك لويـس ولم يعد يتمكن من الخروج من المنطقة التي طافت بمياه النيل الذي كان فى أعلى ارتفاعه ، فغرق الكثير من جنوده وضباطه • ووقع ملك فرنسا فى الأسر واقتيد الى دار لقمان فى المنصورة حيث ظل والنبلاء الذين كانوا معه حتى دفع الجزية ، (الفدية) ثم أطلق سراحهم جميعاً •

نهاية الدولة الأيوبية :

كانت نهاية هذه الدولة التي أسسها صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) فى انتزاع الملك من توران شاه ابن الملك الصالح أيوب وقتله فى القاهرة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) • وكان مقتله على يد نفر من زعماء المماليك بالاتفاق مع شجرة الدر زوجة الملك الصالح •

وقد قامت الدولة الأيوبية بأعمال جليلة تمثلت فى الدفاع عـن الاســلام ، والوقوف بوجه الحمـلات الصليبية واسـترداد بيت المقدس والمناطق الأخرى التي كان الفرنج استولوا عليها قبل ان يتصدر صلاح الدين قيادة الشرق الاسلامي •

وفى عهد الأيوبيين ازدهرت الزراعة وراجت التجارة ، وانتشرت المدارس فى مصر وبلاد الشام • وقد نبغ فى عصرهم طائفة من الأدباء ورجال القضاء •

دولة المماليك

قامت دولة المماليك فى مصر بعد مقتل توران شاه . والمماليك أرقاء جلبهم ملوك الأيوبيين من بلاد القوقاس وتركستان . وقاموا بتعليمهم اللغة العربية ، وثقفوهم ، ودربوهم على فنون الحرب . وخرج منهم رجال قبضوا على مقاليد الحكم وأسسوا دولة دام حكمها أكثر من قرنين ونصف القرن .

وأقام المماليك فى بداية حكمهم بمصر (شجرة الدر) ملكة عليهم . وكانت هذه مملوكة الأصل فى قصر الملك الصالح أيوب ، فتزوجها وولدت له أبناً دعي خليل . وهي التي اتفقت مع بعض قواد فرسان المماليك على قتل ابن زوجها توران شاه الذي اختلفت معه .

واختاروا المماليك (عز الدين ايبك التركماني) ليقوم بمساعدة الملكة شجرة الدر فى ادارة الدولة . وقد تزوج ايبك من الملكة وتنازلت له عن السلطة ، ولقب بالملك المعز . وكانت نهاية شجرة الدر القتل على يد المماليك وسبب ذلك قتلها لزوجها ايبك الذي كان مضى على تسلمه السلطة سبع سنوات .

سلالة المماليك :

يقسم المماليك الى قسمين هما :

١ ـ المماليك البحريون : هم الذين اشتراهم الملك الصالح وأسكنهم جزيرة الروضة على النيل . ومن مشاهير دولتهم : ايبك ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، والأشرف خليل . واستمرت دولتهم من عام ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م .

٢ ـ المماليك البرجيون : هم الذين أقامهم السلطان قلاوون فى أبراج قلعة القاهرة . وكان أول سلطان منهم الظاهر برقوق ،

وآخرهم قانوصه الغوري ، وحكمت دولتهم الى عام ١٥١٧م ، تاريخ استيلاء الأتراك العثمانيون على مصر .

القضاء على معاقل الصليبيين

(بقيادة الظاهر بيبرس وقلاوون)

اتبع المماليك السياسة التي سار عليها سلاطين الدولة الأيوبية قوامها الجهاد ضد الفرنج الصليبيين . وقد قام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي تولى الحكم سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) بحملات عسكرية قادها بنفسه ، وانتزع من يد الفرنج بعد سلسلة من المعارك حصن الكرك الشهير سنة ٦٦٠ هـ ، والقيسارية وبعض القلاع سنة ٦٦٣ هـ . وفى سنة ٦٦٦ هـ استولى على يافا وقلعة الشقيف ، ثم على انطاكية وقلاعها فى نفس السنة وبالتحديد فى شهر رمضان . وفى سنة ٦٦٩ هـ استولى على صافيتا والمجدل وحصن الأكراد .

وعندما توفى الظاهر بيبرس فى دمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧م) كانت معظم المدن والقلاع سقطت ولم يبق فى أيدي الصليبيين من المدن الهامة سوى عكا وطرابلس وبعض القلاع على الساحل وفى حماة . وكان بيبرس رجلا شجاعاً وقائداً عظيماً اتصف بالشهامة وبعد النظر ، وحبه للخير . وقد أصلح الموانىء وحفر الأقنية ، وأنشأ عدة مدارس ومساجد فى الشام ومصر . وهو الذي انتصر على التتر المغول فى غزة وزحف مع السلطان المظفر قطز الى عين جالوت حيث أنزل بالمغول هزيمة فادحة (سنأتي على ذكر الغزو المغولي بالتفصيل فيما بعد) .

وعلى غرار ماقام به بيبرس فقد استمر السلطان المنصور قلاوون الذي تسلم الحكم سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩م) يحارب الصليبيين بشجاعة وحماس . فاستولى على حصن المرقب جنوب شرقي بانياس سنة ٦٨٤ هـ وتلاه سقوط مدينة طرابلس بعد حصار دام شهراً سنة ٦٨٨ هـ .

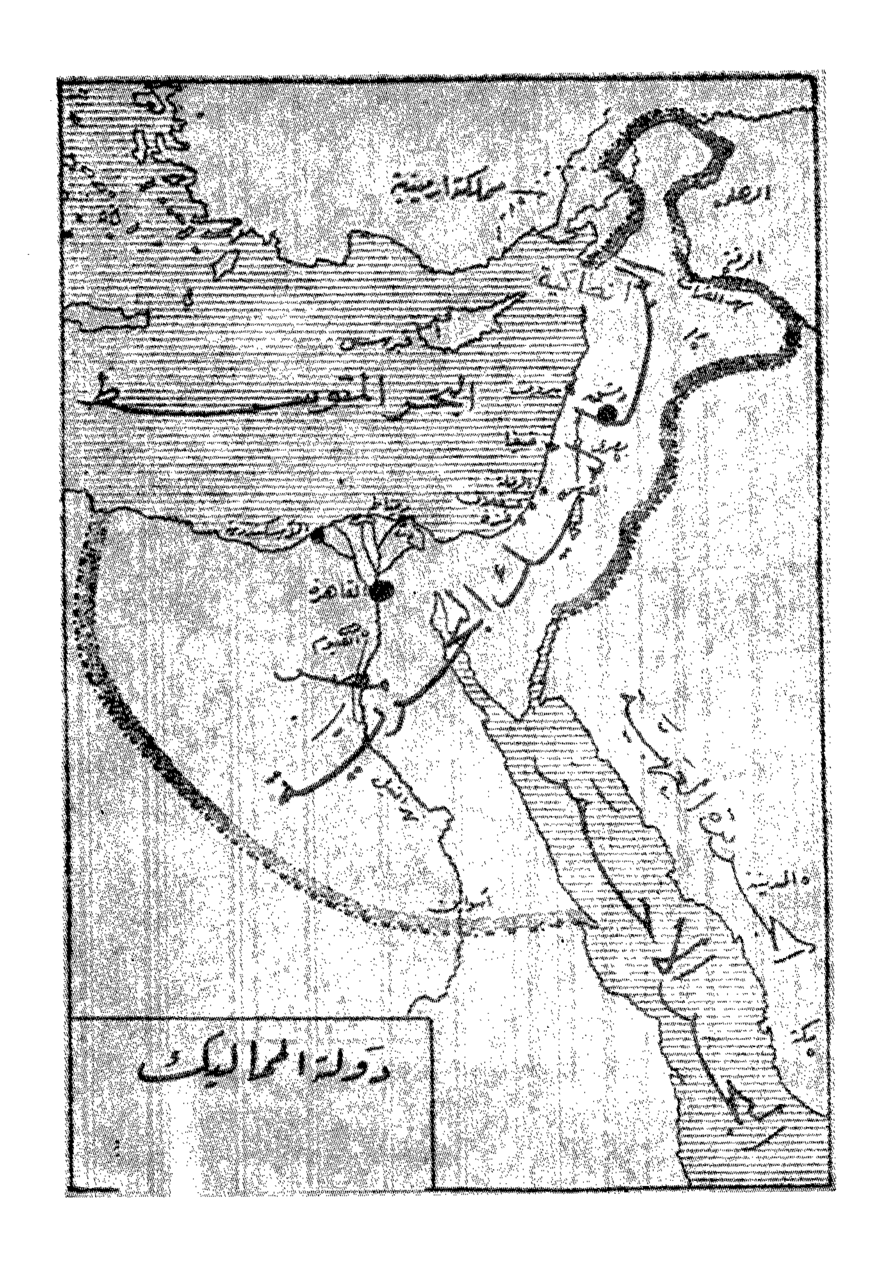
وبسقوط طرابلس التي كان الصليبيون استولوا عليها سنة ١١٠٩ ميلادية لم يبق بيدهم سوى مدينة عكة المحصنة • فقام السلطان الأشرف خليل الذي تولى الحكم بعد وفاة والده المنصور قلاوون سنة ٦٨٩ هـ (١١٩٠م) باعداد جيش زوده بآلات الحصار وزحف به الى عكا وشدد الحصار عليها حتى سقطت • كان ذلك سنة ٦٩٠ هـ (١١٩١م) •

وهكذا تهاوت القلاع والحصون واستعاد المسلمون جميع المدن ، وطهرت البلاد من بقايا الفرنج الصليبيين ، وطويت آخر صفحة من وجودهم فى الشرق •

البلاد الاسلامية فى عهد المماليك :

أفلح المماليك فى تحرير المناطق التي كانت لاتزال بيد الصليبيين بعد سلسلة من المعارك انتصروا فيها على الفرنج وأجلوهم عن الشرق • كما تصدوا لغزو المغول الخطير الذي اجتاح فارس والعراق وبلاد الشام وهزموهم شر هزيمة فى عين جالوت قرب بيسان وطردوهم من بلاد الشام •

وفى عهد دولة المماليك ازدهرت البلاد المصرية وازدادت ثروتها الاقتصادية • وقد اعتنى سلاطينها بالزراعة والصناعة والعلوم والعمران فأنشأوا المباني الكثيرة والقصور فى القاهرة والاسكندرية ، وشيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات ، نخص بالذكر منها المستشفى المنصوري الذي أقيم فيه بالاضافة الى الأجنحة الخاصة لمعالجة الأمراض مدرسة للطب استقدم لها أساتذة من مشاهير الأطباء فى ذلك العصر •


البحر المتوسط
القاهرة
دولة المماليك

وبالاضافة الى ما قاموا به من أعمال جليلة فقد حاول السلطان الظاهر بيبرس احياء الخلافة العباسية ، فاستدعى أحد أبناء البيت العباسي الذي كان نجا من مذبحة هولاكو واسمه أبو القاسم الى مصر ، وبايعه الناس ولقب بالمستنصر • ثم ارسل بيبرس مع الخليفة قوة عسكرية ترافقه الى بغداد لاستردادها • وقبل وصوله الى العاصمة العباسية هاجمه المغول وقتلوه •

أما فى عهد سلاطين دولة المماليك البرجية التي خلفت دولة المماليك البحرية عام ١٣٩٠م واستمرت حتى انهارت على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧م فقد نشطت الحركة التجارية وأثرى المماليك ثراءً كبيراً وغاصوا بالترف • ولزيادة دخلهم فقد فرضوا الضرائب الباهظة على الأهالي وخاصة التجارة •

وفى المرحلة الأخيرة من حكمهم ساءت الأحوال فى مصر والشام ، وفقدت الدولة مورداً كبيراً كانت تعتمد عليه بسبب تحول طريق التجارة القديم الى الطريق البحري الجديد الذي اكتشفه سنة ١٤٩٧م الملاح البرتغالي فاسكودوغاما [١] حول رجاء الصالح • وبهذا التحول انتقلت الحركة التجارية من الموانىء المصرية والسورية ، فأفقد ذلك المماليك أهم مواردهم المالية ، وانهار الوضع الاقتصادي فى البلاد ، ودخلت الدولة فى دور الضعف والانحطاط ، ثم الانهيار •

(١) ان الذي ساعد فاسكو دوغاما للوصول الى الهند وقاد سفنه اليها عبر المحيط الهندي هو البحار العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد من مواليد جلفار (رأس الخيمة)

الفصل الحادي عشر

البواعث على الحروب الصليبية
وأثرها في الغرب والشرق

تناولنا فى الفصل العاشر الحروب التي دارت رحاها بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين ، واسترداده لبيت المقدس والمدن الساحلية بعد موقعة حطين التي هزمت فيها جيوش الفرنج هزيمة ساحقة وأدت الى انهيار المملكة اللاتينية . وفى نهاية تلك الفترة التي دامت خمس سنوات لم يبق بيد الصليبيين سوى الساحل الضيق الممتد من صور الى يافا ، ومدينة طرابلس وانطاكية وبعض الحصون والقرى . وهذه بدورها سقطت جميعها فى أيدي المسلمين الواحدة تلو الأخرى

خلال المرحلة الأولى من حكم المماليك الذين تولوا مقاليد الأمور في مصر بعد مقتل توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية • وكانت نهاية الصليبيين في الشرق سنة ١٢٩١ م •

أما الأسباب التي دعت أوروبا لارسال حملات صليبية الى الشرق الاسلامي ، وتتائج تلك الحروب وأثرها في الغرب والشرق فهي استناداً على أوثق المصادر كما يلي :

بيزنطية تستنجد بالبابا لصد تيار السلاجقة :

عندما اكتسح السلاجقة آسيا الصغرى وشعر امبراطور بيزنطية ديوجين بالخطر الذي يهددكيان امبراطوريته استنجد بالبابا غريغوريوس السابع فكتب له يقول مدعياً ان السلاجقة يعاملون الحجاج المسيحيين معاملة سيئة ، والطريق الى القدس براً أصبح عبوره خطراً على الحجاج الوافدين من أوروبا • ورأى البابا في دعوة الامبراطور البيزنطي فرصة سانحة لاعادة ضم الكنيسة الشرقية الارثوذكسية الى روما • وكان قد مضى على انفصالها عن سلطان البابوية ١٩ سنة ، يعود تاريخه الى عهد ميخائيل كارولاريوس بطريرك القسطنطينية عام ١٠٥٠ ميلادية • وأراد البابا غريغوريوس القيام باعداد حملة من دول أوروبا للمساهمة مع بيزنطية في صد تيار السلاجقة واجلاء قواتهم عن آسيا الصغرى ، ولكن الخلاف الذي نشب بين البابا وهنري الرابع امبراطور ألمانيا حول السلطة الزمنية وتدخلها في شؤون السلطة الروحية حال دون تحقيق ماكان يهدف اليه البابا غريغوريوس •

وفي تلك الحقبة كان السلاجقة يشكلون قوة عسكرية هائلة

ودولة شاسعة الأطراف • وهم ينتسبون الى (سلجوق) أحد زعماء قبائل الترك فى بلاد تركستان • وفى بادىء الأمر استقروا فى بخارى ، ثم انطلقوا الى الأقاليم المجاورة لبسط سيادتهم عليها ، فاستولى طغرل بك السلجوقي على بلاد خراسان سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧م) وتمركز فيها حيث بدأ يعد قواته للقضاء على دولة بني بويه التي كانت بسطت نفوذها فى فارس والعراق منذ عام ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) وقد ساعد طغرل بك النزاع الذي كان قائماً بين أبناء أسرة بني بويه على السلطة ، فزحف على فارس والعراق ودخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) • وبذلك قضى على الدولة البويهية ، وهيمن على الخلافة العباسية التي كانت فى دور الضعف • وتربع السلاجقة على سدة السلطة ، ونمت دولتهم واتسعت فى عهد (الب ارسلان) الذي استولى على حلب والحجاز ودخل بلاد الروم وهزم امبراطور بيزنطية رومانوس ديوجين فى وقعة (ملازجرد) بارمينيا سنة ١٠٧١م وانتزع منه مناطق هامة فى آسيا الصغرى •

الدعوة الى حرب صليبية :

عادت بيزنطية تستغيث ، فوجه الامبراطور الكسيوس كومنينوس نداءً الى البابا أوربان الثاني يطلب فيه النجدة للوقوف بوجه السلاجقة الذين كانوا وصلوا فى زحفهم الى شواطىء بحر مرمرة ، ودعم هذا النداء بترويج اشاعة فى أوروبا تقول ان الحجاج المسيحيين يلقون اضطهاداً من السلاجقة • فتحمس البابا أوربان الثاني وألقى خطبة فى ٢٦ تشرين الثاني ــ نوفمبر عام ١٠٩٥م بمدينة كليرمون فيران الفرنسية دعا فيها ملوك أوروبا وشعوبها الى انتزاع الأرض المقدسة بفلسطين من أيدى المسلمين •

وهكذا استجاب البابا لنداء امبراطور بيزنطية وقام يحث ملوك أوروبا ويدعوهم الى ارسال حملة صليبية الى الشرق آملا بذلك استعادة سلطة البابوية على كنيسة القسطنطينية وضمها الى روما ، واعلاء نفوذها وسلطانها •

الأهداف والمطامع :

رأى ملوك أوروبا والنبلاء وأصحاب الاقطاعات فى تحقيق دعوة البابا فرصة سانحة لجني المكاسب وجمع الثروات من الشرق ، وتأسيس فيه امارات لهم وبالوقت ذاته للتخلص من الأزمة الاقتصادية التي كانت تعانيها بلادهم ، سببها الحروب الداخلية •

تلك هي الدوافع التي هيمنت على أولئك الذين قادوا الحملات الصليبية ، والذين أسهموا فيها كتجار امارات البندقية وجنوى وبيزا الايطالية للسيطرة على حركة التجارة فى الشرق • علماً بأن هذه الامارات قدمت السفن لنقل الجيوش الصليبية التي كانت تحشد فى الموانىء • أما العامل الديني الذي ألهب شعاره عاطفة الجماهير وحماسها فى أوروبا فقد اتخذه أصحاب المصالح ستاراً لتحقيق المطامع الدنيوية فى مختلف صورها •

مراحل الحملات الصليبية :

فى المرحلة الأولى تجمعت الحشود الهائلة من الفرنج فى مدينة القسطنطينية سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) ، معظمهم من الفرنسيين الذين كان يطلق عليهم اسم فرانك أي الفرنجة ، ومن النورمنديين • واسم فرنجة أطلق فيما بعد على الأوروبيين جميعاً • وكان هؤلاء يحملون على صدورهم اشارة الصليب فعرفوا باسم الصليبيين •

الحمـلة الأولى :

كانت الحملة الصليبية الأولى تتألف من أربعة جيوش اقطاعية بقيادة امراء من عدة مقاطعات هم :

الأمراء	الجيش
بودوان دوهانو غود فروى دوبويون	جيش اللورين والألمان
الكونت دو فيرماندوى الدوق دو نورماندي	جيش الشمال الفرنسي
الكونت ريموند دو تولوز أدعار دومونتى	جيش الجنوب الفرنسي
تانكريد دوهوتفيل بوهيموند دوتارانت	جيش النورمان الايطالي

وقـد قـدم الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس الى الجيوش الصليبية المؤن والعتاد . وتعهد له القواد الأمراء بأن يسلموه المناطق التي يستولوا عليها فى آسيا الصغرى التابعة للسلاجقة .

وعندما تحرك الصليبيون وزحفوا عـلى بلاد الشام وفلسطين لم تكن هناك جبهة اسلامية موحـدة فى الشرق الـذي كان يعاني عهدئذ التفكك والانقسام . ففي العراق كان أمراء السلاجقة يتنازعون على الملك . وفى بلاد الشام التي استقل فيها الأتابكة لما أصاب الدولة السلجوقية التفكك لم يـكن بين حكامها والسلاجقة رابطة تعـاون ووفاق . وفى مصر كانت الـدولة الفاطمية فى دور الضعف الشديد والتنازع بين القواد على السلطة .

وعبرت الجيوش الصليبية الأناضول واستولت على المدن والقرى التي فى طريقها الى بلاد الشام • وحاول الأمير السلوجي قليج ارسلان التصدي لها ولكنه لم يتمكن لكثرة أعدادها التي لاتقارن بجيشه المحدود العدد والعتاد • ثم تابعت سيرها وتقدمت بعض الفيالق باتجاه الرها واحتلتها سنة ١٠٩٨م بينما حاصر جيش النورمان انطاكية التي صمدت عدة أشهر بفضل مناعة حصونها واستبسال أميرها رضوان السلجوقي • والذي ساعد الصليبيين على اقتحامها هو خيانة أحد الأرمن من حراس الأبراج ، وعدم وصول أية نجدات من أمراء السلاجقة • وكان سقوط انطاكية وطرسوس وما جاورهما منحصون سنة ١٠٩٨م

ثم واصلوا زحفهم حتى القدس فحاصروها وشددوا عليها الحصار شهراً ونيفاً • وفى شهر تموز سنة ١٠٩٩م دخلوا المدينة وانقضوا على سكانها قتلا وتنكيلا دون تميز حتى امتلأت الأزقة والشوارع بجثث القتلى •

وكانت نتيجة هذه الحملة الصليبية الأولى توطيد أقدام الفرنج فى الشرق وقيام مملكة بيت المقدس ، وامارة الرها ، وامارة انطاكية ، ثم امارة طرابلس التي استولوا عليها سنة ١١٠٩م • وفى المرحلة الأولى اختاروا غود فروى دوبويون حاكماً وحامياً للقدس ولكنه توفى بعد سنة ، فنادوا بأخيه (بولدوين) أمير الرها ملكاً عام ١١٠٠م • وبذلك أصبحت القدس مملكة تشمل رعايتها الامارات اللاتينية الأخرى التي كان يتولى مقاليد الأمور فيها أمراء كل منهم مستقل بادارة امارته • وقد تولى امارة انطاكية الأمير بوهيموند ،

وامارة طرابلس الأمير دوتولوز ابن الأمير ريموند الذي كان أحد قواد الحملة الصليبية وتوفى قبل احتلال الصليبيين لمدينة طرابلس .

وقد أسهمت أساطيل امارات ايطاليا البحرية فى استيلاء الفرنج على موانىء بلاد الشام الواقعة على البحر المتوسط فساعد ذلك بولدوين ملك القدس على توسيع مملكته وتأمين المواصلات مع أوروبا ، والسيطرة على حركة التجارة بالاشتراك مع جنوى والبندقية . وقد حاول بولدوين بعد أن أصبح فى مركز القوة الاستيلاء على مصر ولكنه فشل .

الحملة الثانية :

فى أعقاب استرداد المسلمين للرها على يد عماد الدين زنكي أمير الموصل الذي قام بمهاجمة الامارة الصليبية واجلاء الفرنج عنها سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٤م) ، تحركت أوروبا لنجدة وحماية الامارات الصليبية فى الشرق ، فقامت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧م بقيادة كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، واتجهت الى الشام وحاصرت دمشق ، ولكنها فشلت فى اقتحامها بفضل استبسال حماتها والنجدات التي ارسلها نور الدين زنكي من حلب . وبذلك سجل الجهاد الاسلامي الانتصار الثاني أمام أبواب دمشق بعد الانتصار الأول فى الرها .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية وتقهقرت أمام صمود المسلمين وقوتهم المستمدة من الايمان واليقظة الاسلامية . وعاد الامبراطور كونراد الى ألمانيا وتبعه صديقه ملك فرنسا لويس السابع يحمل كل منهما أذيال الخيبة .

الحمـلة الثالثة :

كانت أقوى الحملات الصليبية من حيث التنظيم وعدد الجنود المـدربة ووفرة العتاد • وقـد اشترك فيها أعظـم ملوك أوروبا : (ريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا ، وفيليب أوغست ملك فرنسا ، وفريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا) • وهذا الأخير غرق وهو يعبر نهراً فى كيليـكية •

وهذه الحملة اتجهت الى الشرق فى أعقاب هزيمة الصليبيين فى موقعة حطين واسترداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس سـنة ١١٨٧م • ولم يستطع ملوك أوروبا انتزاع القدس من صلاح الدين ، واضطروا فى النهاية الى عقد صلح معه بعد حرب استمرت من عام ١١٨٩م الى عـام ١١٩٢م • « أتينا على ذكرها مفصـلا فى الفصـل العاشر ــ الـدولة الأيوبية وحروب صلاح الدين مـع الصليبيين والانتصارات العظيمة التي حققها • »

الحمـلة الرابعة والخامسة :

وفى أعقاب الحملة الثالثة أعد الأمير بونيفاس دومونفيرا الايطالي وصديقه الأمير بودوان دوفلاندر الفرنسي حملة صليبية للتوجه الى فلسطين ، فوصلت القسطنطينية سنة ١٢٠٣ حيث أعادت الى العرش اسحق الثاني امبراطور بيزنطية الذي كان خلع • وقبل أن تواصل الحملة الصليبية طريقها الى الشرق قامت حركة فى القسطنطينية ضد الامبراطور اسحق انتهت بخلعه وتنصيب الأمير بودوان قائد الحملة على العرش ولقب امبراطور المملكة اللاتينية فى الشرق • أما صديقه الأمير بونيفاس فأنشأ امارة فى سالونيك واستقر فيهـا • وبذلك

اكتفى بما حصل عليه كل من قائدي الحملة الصليبية الرابعة وتوقفت الحملة عن مواصلة سيرها الى الشرق •

ثم قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيـادة جان بارين واندريه الثاني ملك هنغاريا ونزلت فى مصر من البحر سنة ١٢١٩م ، ولكنها فشلت فى تحقيق أهدافها وجلت عن البلاد سنة ١٢٢١م (أتينا على ذكرها فى الفصل العاشر ــ دولة المماليك ــ عهد الملك الكامل) •

الحمـلة السادسة والسابعة :

وفى سـنة ١٢٢٨م قاد فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا حمـلة صليبية ، استطاع بعد مفاوضات من توقيع اتفاقية مع الملك الكامل تسلم بمقتضاها بيت المقدس • وبعد وفاة الكامل استرد ابنه الملك الصالح أيوب القدس من الصليبيين • (أتينا على ذكره فى الفصل العاشر ــ دولة المماليك ــ عهد الملك الكامل وابنه الملك الصالح أيـوب) •

وقامت الحمـلة الصليبية السابعة قادها بحراً الى مصر لويس التاسع ملك فرنسـا سنة ١٢٤٨ ، كان مصـيرها الهزيمـة الساحقة ووقوع الملك فى الأسر بمدينـة المنصورة سـنة ١٢٤٩م ، ثم أطلق سراحه • (أتينا على ذكره فى الفصل العاشر ــ دولة المماليك ــ عهد الملك الصالح أيوب) •

وهناك حملة صليبية ثامنة أعدها لويس التاسع ملك فرنسـا بعد أن كان مضى على حملته السابعة ٢٢ سنة وسار بها الى تونس سنة ١٢٧٠م وحاصر قرطجنة ولكنه فشـل ، وتوفى على اثر اصابته بمرض الطاعون الذي تفشى فى جيشه وقضى على قسم كبير منه •

اثر الحروب الصليبية فى الغرب والشرق :

عنـدما قامت أوروبا بحملاتها الصليبية كانت متأخرة علميـاً واجتماعياً واقتصادياً • فساعدها الاتصال المباشر بالشرق الاسلامي الغني بتراثه الحضاري وثرواته الاقتصادية والعلوم والفنون عـلى التطور والتقدم •

أجل ان الحروب الصليبية تركت أثراً بالغ الأهمية فى أوروبا تمثل فى الفوائد والمكاسب التي جنتها من الشرق خلال قرنين السادس والسابع هجري ــ الثاني عشر والثالث عشر ميلادي • وفيما يـلي خلاصة ما اقتبسه الفرنج ونقلوه الى بلادهم :

١ ــ نقلوا الكتب العربيـة فى الطب والفلك والهندسة وقام بترجمتها العلماء فى أوروبا •

٢ ــ تعلموا طريقة التداوي والمعالجة فى المصحات والمستشفيات (البيمارستانات) ، فبدأوا فى القرن الثاني عشر ميلادي بانشاء دور المصحات والمستشفيات فى أوروبا •

٣ ــ نقلوا عدة أنواع من نباتات الشرق وعمموا زراعتها فى بلادهم مثـل الأرز والسمسم والـذرة وقصب السـكر والبطيخ والمشمش والليمون •• الخ •

٤ ــ اقتبسوا وتعلموا استخدام الحمام الزاجل لنقل المعلومات الحربية ، وفن الحصار وصناعة القذائف المحرقة والقوس •

٥ ــ اكتسب الصليبيون الأذواق الشرقية خاصة أدوات الزينة والروائح العطرية ، واستعمال التوابل فى أنواع الطعام ، واستخدام السكر لصنع الحلويات • وارتدى الرجال الملابس الشرقية الملائمة لطبيعة البلاد ، والنساء الأزياء العربية المزركشة •

٦ ـ ازدهرت الحركة التجارية ، وفاضت أسواق أوروبا بخيرات الشرق ومنتجاته كالمنسوجات والسجاد والزجاج والأواني .. الخ .

أما بالنسبة للشرق الاسلامي المزدهر فلم يستفد من أوروبا المتأخرة فى تلك العصور شيئاً . بدليل لم يكن عندها من العلوم والفلسفة والفنون والابتكارات والصناعات لينقلها أبناء الشرق الذي أمد عالم الغرب باتناجه الحضاري العلمي والثقافى أيام كان غائصاً فى ظلام القرون الوسطى .

وخلاصة القول ان الأثر الذي أحدثته الحروب الصليبية فى الشرق تمثل فى وثبة التضامن الاسلامي لمجابهة جحافل أوروبا ومقاومة خطرها . وبفضل هذا التضامن الذي اتخذ شعاره الجهاد فى سبيل الله ونصرة الاسلام تحقق النصر العظيم وتحررت البلاد من الفرنج الصليبيين .

الفصل الثاني عشر

الغزو المغولي

أصـل المغول وموطنهم :

المغول هـم من أواسط آسـيا ، موطنهم منغوليا ، يشكلون مجموعات كبيرة من القبائل عرفت بالقسوة والشراسة وعدم الاستقرار . وظلت تعيش قروناً طويلة متنقلة فى مناطق شاسعة تمتد من منشوريا حتى تخوم تركستان . وكانت ترهب جيرانهـا بغاراتها العنيفة التي تشنها عليهم بقصد النهب والسلب والبطش .

وفى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي قام (تيموجين) أحـد زعماء قبائل المغول بتوحيد جميع هذه القبائل تحت سلطانه ، وسمي

(جينكيز خان) أي الحاكم الأعظم • واتخذ مدينة (قرة قورم) الواقعة على نهر ارخون بمنغوليا عاصمة لدولته التي أقامها على أساس نظم عسكرية سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م) •

اجتياح الصين :

بعد أن أنشأ جيشاً قوياً انقض جينكيز خان على جارته الصين التي كان حكامها قد أقاموا لحمايتها من الغارات الخارجية حصوناً فى المنطقة الشمالية المتاخمة لمنغوليا ، ولكنها لم تصمد أمام هجوم جحافل جنكيز خان ، فتهاوت وسقطت المناطق الشمالية فى أيدي المغول ، ودخل جينكيز خان بكين على أشلاء من القتلى والدمار • وكانت تحكم الصين آنذاك أسرة (سونغ) التي حققت وحدة هذه البلاد الشاسعة سنة ٩٦٠م بعد أن كانت مجزأة الى عدة أجزاء ومقاطعات كل منها خاضعة لحكم أسرة مستقلة •

وهكذا تمكن المغول من الاستيلاء على شمال الصين والأجزاء الشرقية فى المرحلة الأولى من غزوهم لها الذي بدأ سنة ١٢١٢م • ثم امتد نفوذهم الى أجزاء أخرى ، وفى النهاية سيطروا على بلاد الصين •

هجوم المغول على البلاد الاسلامية

لم يكد ينتهي جنكيز خان من اخضاع القسم الأكبر من بـلاد الصين حتى تحول لغزو البـلاد الاسلامية • فبدأ بدولة الخوارزم فى تركستان التي كانت استقلت عن الخلافة العباسية وبسطت سيادتها على بلاد ماوراء النهر • وأصل حكامها من اقليم خوارزم الواقـع على نهر أمود اريا (جيحون) ، ومن أشهرهم السلطان علاء الدين خوارزم شاه الرجل القوي الذي اتسعت فى عهده الدولة الخوارزمية وقوي مركزها ونفوذها •

واتخذ جنكيز خان حادث القاء القبض على بعض تجار مـن المغول وقتلهم فى خراسان ذريعة لاجتياح بلاد ماوراء النهر ، وأرسل يهدد السلطان علاء الـدين خوارزم يأمره بالخضوع والاستسلام • فرفض وأعد قواته لمواجهة المغول •

الدمار والمذابح فى تركستان وخراسان :

لم يتمكن جيش الخوارزم من الصمود طويلاً أمام قوات المغول الزاحفة حتى انهار وهلك معظمه ، وفر السلطان علاء الدين الى بلاد قزوين • واندفع جنكيز خان بجيوشه الى مدينـة بخارى الزاهرة فاقتحمها وقتل أهلها ثم قام بحرق الجوامع والمدارس والمنازل • ومنها واصل سيره الى مدينة سمرقند والمدن الأخرى فأعمل المذابح الوحشية فى سكانها ودمرها •

وما كاد يمر عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) حتى سقطت بلاد تركستان فى قبضة جنكيز خان • وتلتها خراسان وأذربيجان وبعض مدن فارس

سنة ٦١٨ ـ ٦١٩ هـ حيث عمها الدمار والنهب والمذابح الرهيبة •

ذلك مافعله المغول فى اجتياحهم لهذه البلاد الاسلامية بقيادة ملكهم جنكيز خان الذي توفي بعد عودته الى عاصمته قرة قورم بمنغوليا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وخلفه ابنه تولي •

زحف المغول على العراق والشام :

بعد أن توطد حكم المغول فى البلاد التي اكتسحوها وقضوا على العمران والحضارة فيها جددوا غاراتهم على البلاد الاسلامية بقيادة (هولاكو) بن تولي بن جنكيز خان • وكان فى عنفه وبطشه كجده الذي لم يدخل بلدا الا وخربها ، وعلى منواله سار غازياً سفاحاً بجيش جرار الى فارس والعراق والشام • واجتاح بلاد فارس ، ونهب وأحرق المدن والقرى التي مرت فيها جحافله وهي فى طريقها الى بغداد • ولما وصل الى همدان أرسل خطاباً الى الخليفة المستعصم بالله يدعوه الى التسليم ، فأبى وأمر قواده بالاستعداد للحرب • وكان وزير الخليفة ، مؤيد الدين محمد بن العلقمي يعمل فى الخفاء ضد الخليفة ، وتبين فيما بعد بأنه كان على اتصال بالمغول (١) •

سقوط بغداد :

حاصر هولاكو بغداد فى شهر محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) بجيشه البالغ عدده نحو ٢٠٠ ألف مقاتل ، وظل يدك أسوارها بالمنيق

---

(١) أكد بعض المؤرخين منهم عماد الدين ابن عمر بن كثير القرشي فى (الجزء الثاني عشر من كتابه البداية والنهاية) ان الوزير محمد بن العلقمي عمل على تصفية جيش الخليفة العباسي حيث ظل يسرح ضباطه وجنوده حتى أفقده قوته ، ثم كاتب المغول وسهل لهم اجتياح البلاد .

من الناحية الغربية والشرقية حتى انهار بعض أجزاء منها • وعندئذ أوفد الخليفة بالاتفاق مع أعيان المدينة وزيـره ابن العلقمي ليطلب الصلح من هولاكو وتسليم بغـداد له على شرط أن يؤمن للخليفة والسكان على أرواحهم وأملاكهم وأموالهم • فوافق القائد المغولي ولكن كان ذلك خدعة • فبعد أن دخل المدينة قتـل الخليفة وولديه أحمد وعبد الرحمن • ثم نهبها وأباحها لجنده فخربوها وظلوا يقتلون أهلها أياماً وليالي ، ويستبيحون كل شيء •• ومن بين الذين قتلوا فى تلك المذابح الرهيبة الأمراء والعلماء ورجال الدولة والأئمة وخطباء المساجد وحملة القرآن • ولم ينج من كبـار القوم وأعيان المدينة إلا البعض الـذين التجأوا الى دار الوزير ابن العلقمي المرضي عنه من هولاكو •

وباستيلاء المغول على العراق وقتلهم للخليفة المستعصم بالله زالت الخلافة العباسية بعد حكم دام خمسة قرون وربع القرن كان بدايتـه سنة ١٣٢ هـ وآخره سنة ٦٥٦ هـ (٧٥٠ـ١٢٥٨م) • وكان الخليفة المستعصم هو السابع والثلاثون من خلفاء بني العباس وآخرهم •

سقوط حلب ودمشق :

تحول هولاكو بعد أن سيطر على فارس والعراق لغزو بـلاد الشام والأقاليم الأخرى التي كانت تحت حكم دولة المماليك • وأرسل ابنه اشموط على رأس جيش ليمهد له الطريق ، فاستولى سنة ٦٥٧ هـ على بلاد الجزيرة ونهبها وخرب مدنها وقراها ، ثـم اندفع فى اتجاه حلب حتى وصل الى موقع قريب منها ، فتوقف حتى وصل هولاكو •

وفى شهر صفر سنة ٦٥٨ هـ أطبق المغول على حلب وحاصروها عدة أيام ، ثم أعطى هولاكو الأمان لأهلها ولكنه غدر بهم بعد أن فتحوا له أبواب المدينة وقتل كثيراً منهم ونهب أموالهم .

ومن حلب أرسل هولاكو جيشاً الى دمشق بقيادة أحد كبار قواده واسمه كتبغا ، فاحتلها فى أواخر شهر صفر الذي تم فى العاشر منه سقوط حلب . ودمر المغول القلعة وخربوا بعض القصور والمساجد ، ونهبوا ، وقتلوا النقيب جمال الدين ابن الصيرفى الحلبي ومعه جماعة من وجهاء المسلمين .

وحاول هولاكو ارهاب المظفر سيف الدين قطز سلطان دولة المماليك فى مصر ، فبعث له من حلب رسالة تهديد ، ويطلب منه التسليم والطاعة .. فاغتاظ السلطان قطز غضبا وعزم على مجابهة المغول وقتالهم . وفى تلك الأثناء بلغ هولاكو موت أخيه الخاقان الأكبر فعاد الى فارس وأناب عنه فى بلاد الشام القائد المغولي كتبغا . وبعد ذلك بخمس سنوات توفى هولاكو عام ١٢٦٥ م .

هزيمة المغول فى عـــين جالوت

كان هدف المغول بعد أن استولوا على بلاد الشام الزحف الى مصر البلد الاسلامي الذي سبق وقاوم ببسالة حملات الفرنج الصليبيين الخامسة والسابعة وهزمها وانتصر عليها فى عهد الدولة الأيوبية (أتينا على ذكرها فى الفصل العاشر) .

وقام السلطان المظفر قطز باعداد الجيوش لقتال المغول الـذين كانوا توغلوا فى زحفهم حتى وصـلوا الى ساحل غـزة . وانطلقت القوات الاسلامية لملاقاة العدو السفاك الجبار ، وكان من بينها الكتائب التي انسحبت من الشام أمام هجوم المغول وجاءت الى مصر . وعلى بعد خمسين كيلو متراً من غزة اشتبكت طلائع من الجيوش الاسلامية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري بالمغول الذين كانوا تمركزوا فى تلك المنطقة وسجلت الانتصار الأول على الغزاة ، ثم واصل بيبرس تقدمه وفقاً للخطة المرسومة . وبالوقت ذاته كانت تزحف القوات الاسلامية الرئيسية بقيـادة السلطان المظفر سيف الـدين قطز . عبر فلسطين الى الشام وعند (عين جالوت) على مقربة من مدينة بيسان بفلسطين دارت رحى المعركة الكبرى فى شهر رمضان المبارك سـنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) هزمت فيها قوات المغول شر هزيمة وقتل أميرهم كتبغا . واستمر الجيش الاسلامي يطارد الفلول الهاربة حتى وصلوا دمشق فاستردها فى ٢٧ رمضان ، ومنها واصل الأمير بيبرس سيره الى حلب وطرد منها المغول . وبذلك تحررت بلاد الشام من الغزاة المدمرين ، وعادت اليها الحياة الطبيعية والأمـن والاستقرار . وتلى ذلك فترة امتازت بالنمو والازدهار وتنظيم دوائر العدل برئاسة قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الذي أوفده السلطان قلاوون .

توقف الزحف المغولي وتحرير الشام :

تعتبر معركة عين جالوت من الوقائع التاريخية الحاسمة • فقد هزم فيها المغول الغزاة لأول مرة منذ ظهور جنكيز خان واجتياحه للصين وتركستان وخراسان ، واكتساح حفيده هولاكو فارس والعراق وسوريا • ذلك لأن النصر العظيم الذي حققه الجيش الاسلامي فى موقعة عين جالوت قد أوقف الزحف المغولي الكاسح ، وأنقذ الحضارة الاسلامية ، وحمى أقطار البحر المتوسط من دمار المغول الرهيب •• تلك كانت نتائج هذه المعركة الفاصلة التي غيرت وجه التاريخ ، ومحت من أذهان الشعوب الأسطورة القائلة : ان المغول لا يغلبون ••

ظهور تيمورلنك واجتياحه لبلدان آسيا

بعد مائة وعشرين سنة مضت على اندحار المغول وطردهم من بلاد الشام ظهر تيمور لنك الملك المغولي الذي قام بسلسلة حملات متواصلة لاعادة تثبيت دعائم الامبراطورية التي أسسها جنكيز خان على أنقاض الممالك التي اجتاحها •

واتخذ تيمورلنك مدينة سمرقند عاصمة له • وأخذ يعد جيوشاً جرارة لاكتساح بلدان آسيا • وكانت وقتذاك آسيا الصغرى وشمال البلقان تحت حكم الدولة العثمانية التي أسسها عثمان ابن ارطغرل • (سنأتي على ذكرها مفصلا فيما بعد) •

وبدأ تيمورلنك هجومه سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠م) على فارس وخراسان وأذربيجان واحتلها بعد سلسلة من الغارات العنيفة المتواصلة ثم اتجه الى العراق سنة ١٣٩٣م وأعمل فى مدنها وخاصة بغداد وتكريت النهب والتقتيل •

وفى سنة ١٣٩٥م زحف تيمور لنك بجيش جرار شمالا عبر (سهوب القرغيز والأورال) حتى وصل الى موسكو واحتلها وأقام فيها أربعة عشر شهراً • وقبل أن يتركها ويعود الى سمرقند حمل معه الأموال والأشياء الثمينة وخلافها •

ثم اتجه فى سنة ١٣٩٨ م الى الهند وغزا المناطق الشمالية ودخل دلهي بعد حصار وقتال عنيف • وقد انتقم من أهلها وقتل منهم أعداداً هائلة وخرب المدينة •

وجاء دور بلاد الشام التي كانت لا تزال تحت حكم دولة المماليك ، فهاجمها بقوات كبيرة سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) ودخل حلب ونهبها وأباحها لجنده • ومنها واصل زحفه السريع الخاطف الى دمشق فقاومته شهراً ونيفاً ، وأخيراً استسلمت ودخلها ، وأحرق قصورها والجامع الأموي ونهبها وسلبها •

وتحول تيمور لنك الى آسيا الصغرى ، واشتبك مع القوات العثمانية فى معركة عنيفة قرب أنقره وقضى على معظمها وأخذ السلطان بايزيد العثماني أسيراً فى تموز ــ يوليو سنة ١٤٠٢م ، ثم سار الى مدينة بورصة العاصمة ونهبها وخربها ، وأيضاً مدينة ازمير وغيرها من المدن العثمانية •

وعاد تيمور لنك الى سمرقند ومعه السلطان العثماني بايزيد أسيراً فى قفص من حديد • وبعد عامين زحف على الصين ولكنه توفى قبل أن يصل الى المنطقة الشمالية • وبذلك أخمدت نيران موجة الغزو المغولي الثالثة بموت تيمور لنك سنة ١٤٠٥ م •

الفصل الثالث عشر

الدولة العثمانية

منشأ الأتراك وقيام دولتهم :

ينتسب الأتراك العثمانيون الى احدى قبائل الغز التركية من القيرغيز فى بلاد تركستان . وعندما اجتاح المغول تركستان لجأت هذه القبيلة التركية الى جنوب القوقاس حيث تكثر المراعي الخصبة فى سهول وهضاب ارمينيا . وبعد أن استقرت فيها فترة من الزمن توفى أثناءها زعيمها سليمان وتسلم قيادتها ابنه (ارطغرل) نزحت الى شمال بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) التي كانت آنذاك تحت حكم السلطان السلجوقي علاء الدين الثاني . وقد اشترك ارطغرل فى صد غارات

الأعداء على الأناضول ، فكافأه السلطان علاء الدين باقطاعه منطقة (اسكي شهر) المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية •

وفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨م) توفى ارطغرل وخلفه ابنه (عثمان) الذي تنتسب اليه الدولة العثمانية التي قامت بجهوده وجهود الذين خلفوه من سلالة بني عثمان •

وكان عثمان بن ارطغرل شاباً شجاعاً وطموحاً ، فقام بحركة توسعية استهلها فى استيلائه على جزء كبير من منطقة بيثينا البيزنطية الواقعة على البحر الاسود • ثم واصل غاراته على المدن البيزنطية المجاورة لامارته وتمكن من فتح بعضها وضمها الى ملكه •

وخلف عثمان بعد وفاته ابنه (أورخان) سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦م) فحذا حذو أبيه فى التوسع وتقوية امارته التي ازدهرت فى عهده ووطدت مركزها فى آسيا الصغرى •

التحول من امارة الى دولة :

أصبحت الامارة العثمانية بعد أن اتسعت أملاكها دولة اتخذت فى المرحلة الأولى من تأسيسها مدينة بورصة (بروسه) عاصمة لها •• ووجه السلطان أورخان الرجل القدير اهتمامه الى التنظيم الداخلي وتقوية الجيش لمتابعة فتوحاته • فأنشأ عدة فيالق عسكرية أطلق عليها اسم ياني شريه أي الجنود الجدد • ثم تابع توسعة مملكته فى المناطق البيزنطية الأوروبية ، فاستولى على شبه جزيرة غاليبولي ، وعلى مدينة درنة الهامة •

وعندما توفى أورخان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩م) كانت الدولة العثمانية الفتية فى مركز قوي ساعد مراد الأول الذي خلف والده على

الاستمرار فى الفتوحات • وكان السلطان مـراد شـجاعاً وماهراً فى فنون الحرب • فنقل عاصمة الدولة الى ادرنة سنة ١٣٦٢م ، ومنها بدأ فى حملات مركزة للامتداد عبر البلقان ، فاستولى على سالونيك والمنطقة المجاورة لها •

العثمانيون يهزمون حكام البلقان :

خشيت دول البلقان من وجود الدولة العثمانية ونمو قوتها ، فتحالفت ضدها لتقضي عليها • وبقيادة ملك صربيا جهزت الجيوش المتحالفة من الصربيين والبلغاريين والمجريين ، وسارت لقتال العثمانيين وتصفية دولتهم • وفى كسوفا (قوصوى) دارت المعركة بين الجيش العثماني بقيادة مراد الأول والجيوش البلقانية بقيادة ملك صربيا سنة ١٣٨٩م ، قتل فيها السلطان مراد ، وتولى ابنه بايزيد القيادة ، وظل يواصل المعركة حتى انتهت بدحر القوات البلقانية وأسر ملك صربيا وقتله • وبهذا الانتصار قوي مركز الدولة العثمانية وتوطدت أقدامها فى البلقان •

هجوم المغول ونتائجه :

لم تنج الدولة العثمانية من غارات تيمور لنك المدمرة • فقـد هاجمها سنة ١٤٠٢م ، وقضى على معظم الجيش العثماني عنـد أنقره وأسـر السلطان بايزيد ، ونهب وخرب ممتلكات العثمانيين فى آسيا الصـغرى •

وبعد تلك الكارثة قام السلطان محمد الأول بن بايزيد باعادة بناء الدولة • ولما خلفه ابنه مراد الثاني سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١م) استمر فى سياسة الاصلاح والتنظيم حتى أعاد لها قوتها ومركزها • كمـا شيد فى كافة الأقاليم المساجد والمدارس والمصحات •

ثم تحول السلطان مراد الثاني لمجابهة حلف الدول المسيحية المؤلف من دول البلقان والامارات الأوروبية • وقد انتصر على جيوشها وهزمها هزيمة ساحقة •

فتح القسطنطينية :

بلغت الدولة العثمانية الأوج فى التنظيم والقوة فى عهد السلطان محمد الثاني الذي خلف أباه مراد الثاني سنة ٨٥٤ هـ (١٤٥١م) • ولم يعد يفصل أملاكها فى أوروبا عن أملاكها فى آسيا الصغرى إلا القسطنطينية التي كانت لا تزال تابعة للدولة البيزنطية •

وقرر السلطان العثماني الاستيلاء على القسطنطينية وجعلها عاصمة للدولة العثمانية • وكانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً حماها من الغارات التي تعرضت لها فى السابق • ولم تكن الدولة البيزنطية وقتذاك قوية قادرة على مجابهة العثمانيين • فاستنجد الامبراطور قسطنطين الحادي عشر بالبابا وطلب منه ارسال حملة عسكرية للدفاع عن القسطنطينية • ومقابل ذلك وافق الامبراطور البيزنطي رغم معارضة شعبه على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية مع الكنيسة اللاتينية البابوية •

وهاجم السلطان محمد الثاني القسطنطينية وظل يدك أسوارها وحصونها دون توقف • وعجز قسطنطين عن صد الهجوم ، ولم تصله النجدات من البابا سوى كتيبة من الجنود وبعض سفن حربية جاءت من جنوى والبندقية • وأخيراً سقطت القسطنطينية وقتل الامبراطور البيزنطي سنة ١٤٥٣م • ودخل محمد الثاني المدينة دخول الأبطال ولقب باسم (محمد الفاتح) •

فتح العثمانيين للبلاد العربية

عندما أخذت أنظار العثمانيين تتجه الى البلاد العربية كانت هناك الدولة الصفوية تحكم فارس والعراق ودولة المماليك فى مصر وبلاد الشام والحجاز • مع العلم ان الدولة الصفوية ظهرت فى أواخر القرن الخامس عشر ميلادي بايران وضمت اليها العراق بعد أن استولى الشاه اسماعيل الصفوي (١) على بغداد سنة ١٥٠٨م ، وعمل على نشر المذهب الشيعي فى بلاد الرافدين •

لم يكن بين الصفويين والعثمانيين أي انسجام • وقد أدى النزاع الذي حصل بينهما بسبب لجوء بعض المعارضين لحكم السلطان سليم الأول العثماني الى ايران واكرامهم وتشجيع الشاه اسماعيل الصفوي لهؤلاء الى نشوب حرب بين الدولتين •

واتجه السلطان سليم على رأس جيش كبير الى ايران سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤م) ، وبالقرب من مدينة تبريز فى سهل (تشالديران) اشتبك مع قوات اسماعيل الصفوي فهزمها وشتتها • وكان من ثمار هذا النصر الذي أحرزه السلطان العثماني انتزاعه من الصفويين كردستان وديار بكر وضمها الى الدولة العثمانية •

فتح الشام ومصر :

كانت العلاقات حسنة بين المماليك حكام مصر والشام وبين الأتراك العثمانيين • ولقد أقام المماليك فى مصر الاحتفالات والزينات عندما علموا أن العثمانيين فتحوا القسطنطينية وذلك تضامنا معهم ،

---

(١) اسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية فى ايران ، توفى بمدينة اردبيل سنة ١٥٢٤م وكان آخر ملوك السلالة الصفوية الشاه طهماسب الثاني الذي خلع سنة ١٧٣٢م •

كما أرسلوا للسلطان محمد الفاتح بتهانيهم • الا أن تلك المودة لم تدم طويلا بسبب عدة حوادث وقعت فعكرت صفو العلاقات بينهما • ومن تلك الحوادث أن الأمير (جم) خاصم أخاه بايزيد الثاني على العرش ففشل وهرب الى مصر فرحب به السلطان قايتباي وأكرم وفادته ، فظن بايزيد أن تلك المعاملة من قبـل سلطان المماليك لأخيه تشجيعاً له على التمرد والعصيان • فما كان من السلطان العثماني الا أن أعلن الحرب على المماليك التي دارت رحاها بالقرب من حلب •

وفى عهد سليم الأول ازدادت العلاقات سـوء بـين العثمانيين والمماليك • فقداتهم السلطان العثماني قانصوه الغوري سلطان المماليك بأنه عـلى اتصـال بالشاه اسـماعيل الصفوي ، وعمل عـلى ايواء أعداء الدولة العثمانية • وتتيجة لذلك استولى السلطان سليم وهو عائد من حملته العسكرية على الصفويين بايران على المنطقة الواقعة تحت سيادة الماليك والممتدة من جبال طوروس فى الشمال الغربي من بلاد الشام الى مدينة مالطة بآسيا الصغرى •

وحاول الغوري بعد أن وصل الى حلب على رأس جيش مـن مصر حل النزاع سلمياً مع السلطان سليم الأول ، فأرسل اليه بعثـة للتفاوض معه ، ولكنه رفض وقال : على الغوري أن يلاقينا عند مرج دابق • وهذا يعني الحرب ••

وفى الموقع الذي أشار اليه السلطان سليم (مرج دابق) دارت رحى المعركة فى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) بين جيش الماليك والجيش العثماني انتهت بهزيمة الماليك وقتل السلطان الغوري أثناء المعركة اذ وقع عن ظهر جواده ومات تحت سنابك الخيل •

وكان الجيش العثماني متفوقاً بأسلحته الجديدة من المدافع والبنادق على أسلحة المماليك الذين أظهروا فى بداية المعركة بسالة وقوة ، ولكن مالبث أن وهن عزمهم بسبب انسحاب بعض قوادهم مع جنودهم وانضموا الى العثمانيين •

وبذلك انتهى حكم المماليك فى بلاد الشام واستولى عليها السلطان سليم • ثم واصل زحفه على مصر التي تولى السلطة فيها (طومان باي) أحد أقارب الغوري • وعند الريدانية (ضاحية من ضواحي القاهرة) دارت معركة عنيفة سنة ١٥١٧م كان النصر فيها للجيش العثماني وفرار طومان باي الذي لم يلبث أن وقع فى قبضة العثمانيين وأعدم • وقضى بذلك السلطان سليم على المماليك ، ودخلت مصر فى حوزته •

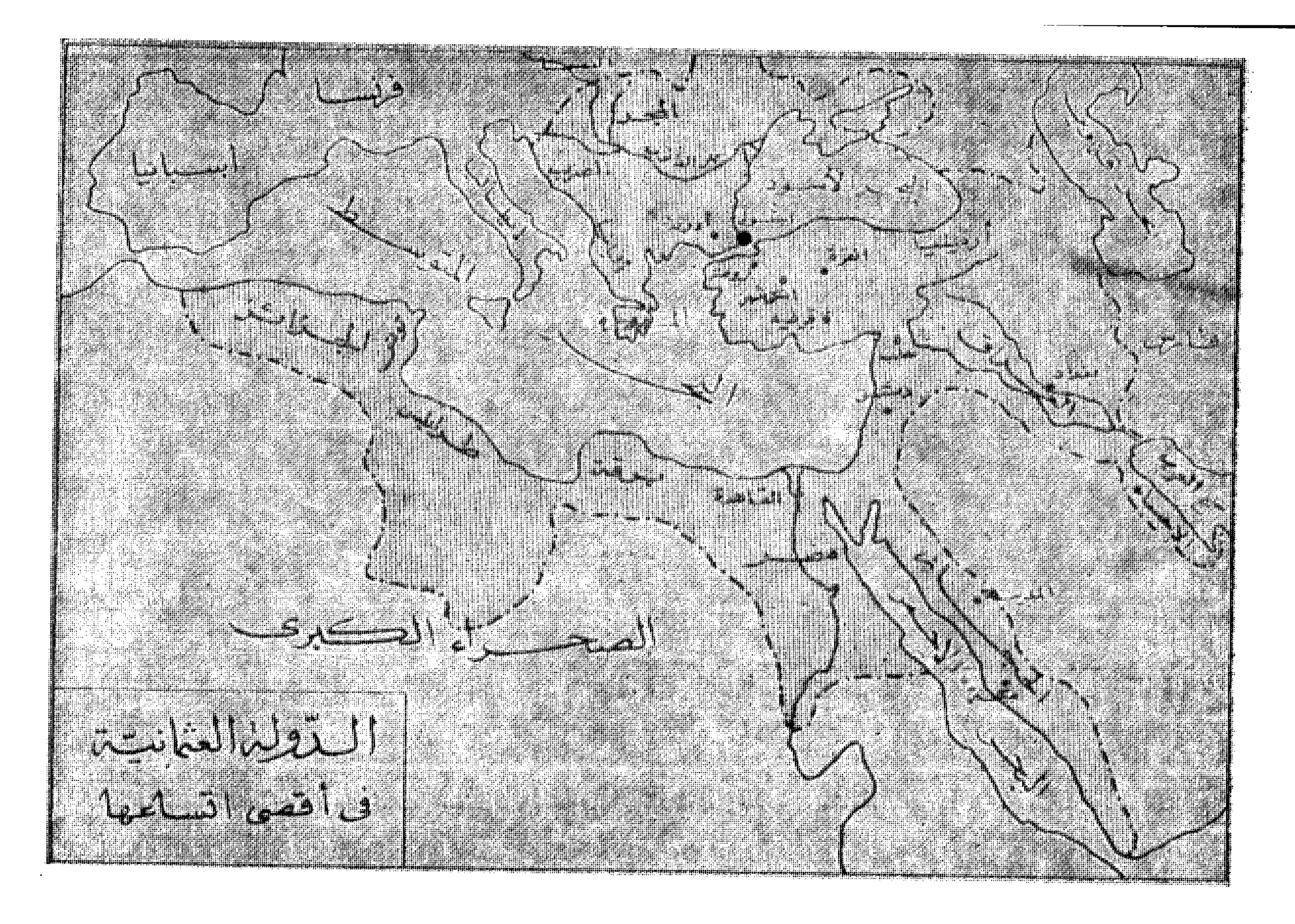
السيطرة على الحجاز واليمن :

كانت الحجاز خاضعة لحكم المماليك ، وكان كل سلطان منهم يلقب نفسه (خادم الحرمين) • ولما استولى السلطان سليم على مصر وقضى على المماليك صار هو الوارث لهذا اللقب • وقبل أن يبرح القاهرة أرسل اليه شريف مكة بركات مفاتيح الحرمين الشريفين معبراً بذلك الولاء للدولة العثمانية • وبذلك دخلت الحجاز فى حوزة العثمانيين وبقي شريف مكة محتفظاً بمنصبه •

واستمر العثمانيون فى فتوحاتهم ، فأرسل السلطان سليمان الأول المعروف باسم سليمان القانوني (١) حملة بحرية الى عدن وسواحل

---

(١) السلطان سليمان الاول (١٥٢٠-١٥٦٦م) لقبه الاتراك بالقانوني والفرنج بالعظيم . بلغت فى عهده الدولة العثمانية الاوج ، وبسطت سيادتها على أكثر من نصف بلاد هنغاريا بالاضافة الى بلاد العرب . وبيده نسخ القرآن الكريم عدة مرات ، ودون القوانين والشرائع ، وأشاع العدل ، وشجع العلوم ، وأنشأ المساجد والمدارس .



الدولة العثمانية
فى أقصى اتساعها
الصحراء الكبرى
فرنسا
إسبانيا

اليمن فى الوقت الذي كانت فيه الأساطيل البرتغالية تهاجمها منطلقة من قواعدها فى مسقط والخليج العربي الذي وقع تحت سيطرة البرتغال • وتمكنت الحملة العثمانية من الاستيلاء على عدن سنة ١٥٣٨م ، وتلتها حملات أخرى استولت على سواحل اليمن ثم صنعاء سنة ١٥٥١ م • وفى تلك المرحلة قام العثمانيون بعدة حملات ضد البرتغاليين ولكنهم لم يوفقوا فى اجلائهم عن الخليج العربي الذي كانوا تمركزوا فيه منذ عام ١٥٠٦ م وكانت البرتغال وقتذاك دولة بحرية كبرى تملك مستعمرات فى الهنـد وجنوب افريقيا •

الاستيلاء على المغرب العربي :

وبدورها بلاد المغرب دخلت فى حوزة الدولة العثمانية ماعدا مراكش وكانت هذه البلاد مؤلفة من ثلاث دويلات هي تونس والجزائر والمغرب قامت على أنقاض دولة الموحدين التي زالت سنة ١٩٦١م بعد حكم دام قرنين • والذي ساعد عـلى توطيد أقـدام العثمانيين فى المغرب العربي هي الأحداث الداخلية والصراع الذي نشب بـين خير الدين بربروسا ومراكش ، فطلب المعونة من السلطان العثماني مقابل ضـم بلاد المغرب الى الدولة العثمانية ، فاستجاب لطلبه ، وانضمت الجزائر سنة ١٥١٩م ثم ليبيا سنة ١٥٥١م ، وتم فتح تونس على يد القائد التركي سنان باشا ١٥٧٤م •

فتـح العراق :

أما العراق الذي كان الصفويون استولوا عليه سنة ١٥٠٨م فقد عزم السلطان سليمان العثماني على انتزاعه منهم • فجهز جيشاً وقاده بنفسه حتى وصل الى بغداد واستولى عليها سنة ١٥٣٤م • ثم اخضع الأجزاء الأخـرى من العراق بعـد معارك انتهت بهزيـمـة الصفويين (الايرانيين) •

وهكذا دخلت البلاد العربية فى حوزة العثمانيين وأصبحت ولايات عثمانية منذ القرن العاشر هجري ، السادس عشر ميلادي الذي بلغت فيه هـذه الدولة الاسلامية الكبرى أوج مجدها واتساعها • فقد بسطت سيادتها على البلقان والقوقاس والقرم وآسيا الصغرى وأقطار الشرق العربي والشمال الافريقي •

نظـام الحكم العثماني

فى عهـد السلطان سليمان الأول نظمت الامبراطورية العثمانية على أساس حكم مركزي وادارة الولايات • وبموجب هـذا التنظيم وضعت القواعد الأساسية للحكم الذي كان مطبقاً كما يـلي :

الحكومة المركزية :

كان السلطان مـن الأسرة العثمانية هو رئيس الدولة وصاحب الكلمة العليـا ، والسلطة المطلقة • وكان يلقب بخليفة المسـلمين ، ويساعده فى ادارة الحكومة مجلس وزراء يرأسـه الصدر الأعظـم (رئيس الوزراء) ، والديوان السلطاني المكون من الوزراء وكبـار موظفي الادارة المركزية المدنيـين والعسكريين ، والقضاء (لتطبيق الشريعة الاسلامية وأحكامها) يتولى أمرها شيخ الاسلام والقضاة • وشيخ الاسلام هو الذي يصدر الفتاوي والمرجع الأعلى فى كل مايتعلق بأمور القضاء •

وكان الجيش هو الجهاز الهام فى الدولة ، يتألف من الفيالق البرية والأساطيل البحرية • وكان من أشهر فرق الجيش العثماني (يني شريه) أي الجنود الجدد أو الجيش الجديد ويليه (السياهي) المؤلف مـن الفرسان •

ادارة الولايات :

قسم العثمانيون امبراطوريتهم الشاسعة الى ولايات لكل منها جهازها الخاص من الموظفين لادارة شؤونها • وكان الوالي (الباشا) يعين من قبل السلطان ، وتتركز في يده السلطات المدنية والعسكرية • وهو الذي يتولى جمع الضرائب والأموال المقررة وارسالها الى الاستانة (القسطنطينية) ، ويعاونه في أعمال ادارة الولاية (الديوان) المؤلف من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين •

أما القضاء فكان يتولاه قاضي القضاة يعرف باسم (قاضي العسكر) ، ومن صلاحياته تعيين قضاة نواباً له في الأقاليم ، والاشراف على شؤون الأوقاف ، وتطبيق نصوص الشريعة الاسلامية •

وقسمت الولاية ادارياً الى سناجق عين على كل منها حاكم سمي بالسنجق ، مهمته الاشراف على شؤون الأقاليم ، والحفاظ على الأمن ، وجمع الضرائب • وكانت مناصب السناجق يختار لها شخصيات كبيرة من أهل الولاية ، يساعدهم في أعمالهم موظفون عرفوا باسم الكشاف •

وكان في كل ولاية حامية عسكرية لمساعدة الباشا في الحفاظ على النظام والأمن • وقد ارتكب رجال بعض تلك الحاميات الأعمال المشينة مثل ابتزاز الأموال من الشعب •

الدولة العثمانية فى دور الانحدار

لقد أسس الأتراك العثمانيون امبراطورية شاسعة مترامية الأطراف امتدت حدودها من تخوم فيينا غرباً حتى جبال القوقاس شرقاً ، ومن ضفاف البوسفور حتى شواطىء البحر الأحمر ، ومن الشام حتى مصر ومنها حتى الجزائر •

وعاشت الامبراطورية العثمانية أكثر من خمسة قرون ونصف القرن ، وبالتحديد منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى مطلع القرن العشرين • وقد بلغت أوج مجدها واتساعها فى القرن السادس عشر ميلاي ، وحافظت على قوتها وهيبتها حتى أواخر القرن السابع عشر ثم بدأ الضعف يدب فيها لعدة أسباب أهمها : ١ — تتابع على الحكم بعد السلطان سليمان القانوني الذي اتصف بالمقدرة والعدل بعض سلاطين ضعاف انغمسوا فى الترف والملذات • ٢ — تدخل رجال الحاشية فى شؤون الحكم • ٣ — انتشرت الرشوة وفسدت أجهزة الدولة • يضاف الى ذلك امتداد الضعف الى الجيش وانهزامه فى عدة معارك حربية كانت نتائجها وخيمة على الدولة العثمانية اذ أدت الى ضياع أملاكها فى جنوب شرقي أوروبا • ففي سنة ١٦٨٧م فقدت هنغاريا ، وفى سنة ١٧١٨م فقدت بلغراد ودلماسيه وألبانيا ، وفى سنة ١٨٢٠م فقدت اليونان ، وفى سنة ١٨٥٦م فقدت رومانيا ، وفى سنة ١٨٧٨م فقدت صربيه وبلغاريا •• الخ تلك البلدان التي فقدتها الدولة العثمانية كانت تعتبر جزءا هاماً من امبراطوريتها •

وقد حاول بعض السلاطين القيام باصلاحات بعد أن أدركوا خطر التأخر الاجتماعي والاقتصادي والثقافى فى الولايات التابعة للدولة العثمانية ولكنهم اصطدموا بمعارضة فئة من كبار رجال الدولة

وضباط الجيش ، وظلت السياسة القديمة سائدة • وكان هؤلاء يعتقدون ان وصد الأبواب بوجه التطور وبقاء الولايات بمعزل عن التيارات الفكرية والعلمية الحديثة يجنبها أطماع الدول الأوروبية فيها وتبقى للعثمانيين • ولكن هذه السياسة لم تبعد أطماع بعض هذه الدول مثل روسيا وفرنسا وانكلترا التي تحركت لما انتاب الدولة العثمانية الضعف ودخلت فى دور الانحدار ، وأخذت تتدخل بشؤونها وتنتزع منها الغنائم والامتيازات السياسية والاقتصادية •

الوضع فى البلاد العربية :

بصورة عامة كانت البلاد العربية تعاني التأخر فى شتى الميادين ، تعيش فى عزلة بعيدة عن النهضات التي قامت فى أوروبا • واستمرت تلك المرحلة الطويلة حتى أواخر القرن الثامن عشر الذي تميز بتضعضع الدولة العثمانية ، وعجزها عن مقاومة أطماع دول أوروبا التي أخذت تمتد الى العالم العربي فى الوقت الذي أصبح نتيجة تدهور النظم العثمانية وضعف الدولة مسرحاً للفوضى والقلاقل والمنازعات والحركات الانفصالية •

الحركات القومية فى العالم العربي :

أدى سوء ادارة الحكم العثماني واختلاله ، وتضعضع الأحوال فى البلاد العربية الى قيام حركات ذات طابع انفصالي كان أبرزها هي :

أولاً — فى مصر ظهرت حركة قام بها علي بك الكبير أحد المماليك سنة ١٧٦٩ استهدف بها الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية • فطرد الوالي التركي ، وأبطل ارسال الجزية الى الاستانة ، واستولى على الحجاز والشام • وأخيراً هزمته القوات العثمانية بقيادة محمد بك

أبو الذهب الذي كان من كبار مساعديه ثم انقلب عليه . ومات علي بك وانهارت حركته سنة ١٧٧٣م .

ثانياً ــ فى فلسطين تمكن الشيخ ظاهر العمر زعيم قبائل صفد من الاستيلاء على عكا ، ومنها انطلق بحركته فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، فاستولى على طبرية وصيدا وحيفا . وحاولت الدولة العثمانية عن طريق البحر ضرب قواعده والقضاء على حركته ولكنها أخفقت فى المرة الأولى ، ثم جددت حملتها فى سنة ١٧٧٥ واستولت على عكا . أما الشيخ ظاهر فقد اغتاله أحد أعدائه ، وبموته انتهت حركته القومية .

ثالثاً ــ فى لبنان قامت حركة الأمير فخر الدين المعني الثاني المعروف باسم الكبير . وكان يهدف الاستقلال بلبنان ، فتمكن من بسط سلطته على البلاد وفصلها عن الدولة العثمانية . وأقام الأمير فخر الدين علاقات مع بعض دول أوروبا ، وقوي مركزه ، وأصبح بنظر العثمانيين يشكل خطراً على نفوذهم وهيبتهم ، فأرسلوا جيشاً الى لبنان تمكن من الاستيلاء عليه ، وأخذ الأمير أسيراً سنة ١٦٣٥م ، وأرسل مع أولاده الى استنبول وأعدم .

وبدوره قام الأمير بشير الشهابي الكبير بحركة تميزت بتوطيد علاقاته بمحمد علي حاكم مصر واسهامه معه فى حروبه ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام التي انتهت بتدخل بريطانيا وانسحاب قوات محمد علي سنة ١٨٤١ ، وبذلك انتهى حكم الأمير بشير الشهابي فى لبنان ، ونفي الى استنبول حيث توفى سنة ١٨٥٠ .

رابعاً ــ فى اليمن ، استمرت المقاومة ضد العثمانيين بقيادة الأئمة الزيديين ، وظلت الثورات مشتعلة حتى اضطر الأتراك الى

الاعتراف بسلطة الامام • ثم تجددت الثورة فى عام ١٨٧٢ واستمرت حتى منحت اليمن استقلالها الذاتي سنة ١٩١١ •

خامساً — فى المغرب العربي ، قامت حركات فى تونس وليبيا والجزائر أدت الى تقلص نفوذ الدولة العثمانية •

رواد الدعوة الى الاصلاح

كان أبرز حركة اصلاحية ظهرت فى ذلك العصر هي حركة المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب (سنأتي فيما بعد على شرح هذه الحركة الاصلاحية الدينية الكبرى فى نجد وأثرها فى العالم الاسلامي) •

ومن رواد الاصلاح الذين قاوموا الانحراف والنظم الفاسدة ، وطالبوا السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى الحكم سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٩٠٩ باصلاح شامل ووضع دستور للبلاد على أساس ديمقراطي نذكر :

مدحت باشا :

ولد فى استنبول ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢م) ، كان أبوه حافظ محمد أشرف قاضياً وعالماً دينيا ، فأنشأ ابنه مدحت نشأة عالية • وتعلم فى جامع الفاتح حيث كانت تعقد حلقات الدروس الدينية ، والنحو والبلاغة والمنطق والحكمة • وبالاضافة الى اللغة التركية والعربية كان يتقن الفارسية والفرنسية •

وكان مدحت باشا رائد حركة الاصلاح فى تركيا • وهو الذي قال : لا حياة للدولة العثمانية الا بنشر العدل ، والقضاء على الجهل والاستبداد ، والأخذ بالنظم الديمقراطية الصحيحة السليمة لتعم المساواة

بين العناصر المختلفة ويضمن لها الحرية •

واصطدم مدحت باشا بالسلطان عبد العزيز وحاشيته عندما تقدم بمشروعه الاصلاحي على أساس وضع دستور للبلاد • وتحت ضغط الأحداث وخطورتها عين مدحت رئيسا للوزراء (الصدر الأعظم) • وما كاد يبدأ بالاصلاحات الداخلية حتى اصطدم من جديد مع السلطان عبد العزيز ، وأقصي عن الوزارة •

وبعد أن تولى السلطان عبد الحميد مكان عبد العزيز الذي خلع سنة ١٨٧٦ ، تسلم مدحت باشا منصب الصدر الأعظم وقام بحركته الاصلاحية ، فوضع دستوراً اشتمل على ١١٩ مادة ، ينص على قيام مجلسين الأول ينتخب من أهالي البلاد ويسمى بمجلس المبعوثان ، والثاني مجلس الأعيان تعين الدولة أعضاءه • ويتضمن الدستور المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية أمام القانون ، ويبيح حرية الصحافة ، ويجعل التعليم اجبارياً ، ويمنع مصادرة أموال الناس • كما يحد من سلطة السلطان المطلقة •• الخ وقد وافق السلطان عبد الحميد على الدستور وأعلن فى محفل عام بالاستانة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦م) • ثم مالبث عبد الحميد الذي كان يؤمن بالحكم المطلق أن عطل الدستور وألقى القبض على الشخصيات المؤيدة لحركة الاصلاح التي يتزعمها مدحت باشا ، ونفي مدحت خارج البلاد • وظل الدستور معطلا مدة ثلاثين سنة حتى قامت حركة جماعة الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ وأرغم السلطان عبد الحميد الى اعادة الدستور للبلاد • ثم خلع سنة ١٩٠٩ وتولى الحكم السلطان محمد رشاد الخامس •

جمال الدين الأفغاني :

ولد سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩م) فى أسعد باد (افغانستان) درس

على العالم الشهير باد شاه علوم الدين والأدب والتاريخ والفلسفة . طاف الأقطار الاسلامية ودرس أحوالها . وفى القاهرة مكث سنة واحدة فى زيارته الأولى لها ، ثم رحل الى الأستانة سنة ١٨٧٠ حيث رحبت به الحكومة وعينته عضوا فى مجلس المعارف . وحاول اصلاح مناهج التعليم ولكن بعض أعضاء المجلس لم يوافقوا على مقترحاته ، فترك الأستانة ورجع الى القاهرة سنة ١٨٧١ حيث التفت حوله طائفة من المعجبين بنظرياته الفلسفية وحكمته . وكان فى بيته يلقي دروسه وآرائه على زواره من رجال الفكر .

وكان جمال الدين الأفغاني يدعو الى التمسك بالاسلام ، والقضاء على البدع ، واصلاح المسلمين اجتماعياً وسياسياً ، وتحرير الشرق من السيطرة الأجنبية .

وأخيراً نفي من مصر فى عهد الخديوي اسماعيل سنة ١٧٨٩ ، ونفي أيضاً رفيقه فى الجهاد الشيخ محمد عبده . وفى باريس أصدر هو ورفيقه مجلة العروة الوثقى . وكان بالوقت ذاته يحاضر عن الاسلام ويدافع عن الشرق . ثم عاد من جديد الى الأستانة سنة ١٨٩٢ بناءً على دعوة السلطان عبد الحميد ليعمل على توثيق العلاقات بين المسلمين وكانت الفكرة تهدف الى قيام جامعة اسلامية تضم المسلمين فى كافة أقطارهم لتقف حاجزا بوجه مطامع الغرب فى العالم الاسلامي .

وكانت وفاة جمال الدين الأفغاني العلامة المصلح سنة ١٨٩٧ عن عمر يناهز ٥٨ سنة .

الشيخ محمد عبده :

ولد سنة ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) فى قرية نصر (مصر) وترعرع فى الريف ، ودرس فى الأزهر ، ثم أصبح من كبار أساتذته فى علوم

التوحيد والمنطق والأخلاق • وفى دار العلوم التي عين فيها مدرساً للتاريخ اهتـم خصيصاً بشـرح مقدمة ابن خلدون وفلسفته التي اتخذها قاعدة لمحاضراته عن علم الاجتماع •

وقام الشيخ محمد عبده بنشر سلسلة مـن المقالات فى جريدة الأهرام عن الاصلاح الاجتماعي كان لها أثرها الكبير فى مصر وبالأخص فى أوساط المفكرين والمثقفين • ولما قدم جمال الدين الأفغاني الى مصر لازمه محمد عبده ووجد فى فلسفته وآرائه الهدف السامي للاصلاح الخلقي والاجتماعي الذي عليه تتوقف نهضة الشرق الاسلامي •

وتولى الشيخ محمد عبده رئاسة تحرير جريدة (الوقائع المصرية) فجعل منها منبراً للتوجيه والدعوة الى الاصلاح • وظل ثمانيـة عشر شهراً يعمل دون انقطاع حتى نفي الى بيروت على اثر قيـام الثورة العرابية فى مصر وسافر الى باريس حيث اشترك مع صديقه جمال الدين الأفغاني فى تأسيس جريدة العروة الوثقى وتحريرها • ثم عاد الى بيروت سنة ١٨٨٥م ومنها رجع الى مصر بعد أن صدر العفو عنه حيث استأنف جهـاده • فعين قاضياً ، ثم مفتياً للديار المصرية •

وكانت رسالة الشيخ محمد عبـده سامية فى جوهرها وأهدافها المتمثلة فى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي والتربوي ، والحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية ، وتطوير نظم الحكم ، والاعتماد فى النضج السياسي على التربية الاسلامية السليمة النقية • وتوفى محمد عبـده الفيلسوف الاسلامي المصلح فى الاسكندرية سنة ١٩٠٥ م

عبد الرحمن الكواكبي :

ولد فى حلب (سوريا) سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩م) من أسـرة عريقة ، درس فى المدرسة الكواكبية التي كانت فى منهجها كالمدرسة

الأزهرية • ولما أتم دراسته انكب على العمل وأخذ يحارب الفساد ويدعو الى الاصلاح • وقام برحلات فى الأقطار الاسلامية درس أحوالها الاجتماعية والاقتصادية ، وفى ضوء ماشاهده ودرسه درساً عميقاً نشر مجموعات كبيرة من المقالات فى الصحف والمجلات انتقد فيها نظم الحكم العثماني ودعا الى اصلاح البلاد •

وكان الكواكبي مفكراً وداعياً نزيهاً للاصلاح فى الشرق الاسلامي • وقد تعرض كغيره من رواد الاصلاح فى عهد عبد الحميد للملاحقة والنفي • ومن أشهر مؤلفاته : (كتاب الاستبداد ، وكتاب أم القرى) • وتوفى عبد الرحمن الكواكبي فى مصر سنة ١٩٠٢ •

مطامع أوروبا وزوال الدولة العثمانية

دخلت الدولة العثمانية كما ذكرنا فى دور الانحدار منذ أواخر القرن الثامن عشر الذي تميز بتحرك أوروبا وامتداد مطامعها الى الشرق والمغرب العربي • ففي سنة ١٧٨٩ قاد نابليون بونابرت حملة عسكرية نزلت فى مصر ، كانت تهدف بالاضافة الى الاستيلاء عليها السيطرة على طريق الهند • وأرسلت بريطانيا أسطولها بقيادة الأميرال نلسون لاحباط خطة نابليون الذي اضطر الى العودة لفرنسا بعد أن تحطم أسطوله فى أبوقير سنة ١٧٩٨ ، واجلاء قواته عن مصر سنة ١٨٠١ ، وفى أعقاب خروج الفرنسيين تولى محمد علي الحكم فى مصر •

وفى سنة ١٨٣٠ استولت فرنسا على الجزائر ثم على تونس سنة ١٨٨١ ، وبدورها ايطاليا استولت على ارتيريا وجزء من الصومال سنة ١٨٩٥ ، وبعد أن تم فتح قناة السويس سنة ١٨٦٨ أخذت بريطانيا تتدخل بشؤون مصر ، وتحول ذلك الى احتلال سنة ١٨٨٢ ، ثم استولت على السودان • وفى عام ١٨٠٠ احتلت مسقط وساحل عمان ، ثم بسطت

نفوذها على الخليج العربي سنة ١٨٢٠ ، وسيطرت فرنسا على مراكش سنة ١٩١٢ ، وبعدها بسنة واحدة احتلت ايطاليا ليبيا •

وهكذا وقعت جميع الأقطار العربية فى قبضة بريطانيا وفرنسا وايطاليا ولم يعد للدولة العثمانية أي نفوذ فيها • وهي بدورها انهارت فى أواخر الحرب العالمية الأولى التي انتهت سنة ١٩١٨ بانتصار الحلفاء وتقسيم الشرق العربي الى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا ، فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، والعراق والأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني • وبذلك انتهت الدولة العثمانية بعد حكم استمر فى العالم العربي أربعمائة سنة •

فلسطين والصهيونية :

منذ أواخر القرن التاسع عشر أخذت الحركة الصهيونية تعمل على تحقيق أطماعها المتمثلة بقيام دولة يهودية فى فلسطين العربية • وفى سنة ١٨٩٧ عقد المؤتمر الصهيوني بزعامة هرتزل فى مدينة بال (سويسرا) ووضع الخطة لتحقيق انشاء وطن قومي يهودي فى فلسطين • وحاول الصهاينة اقناع السلطان العثماني بالسماح لهم بالهجرة الى هذا القطر العربي العميق الجذور بعروبته واسلاميته ، فرفض وأصدر قانوناً بمنع الهجرة اليهودية واقامة مستعمرات لليهود فى فلسطين •

وبعد زوال الدولة العثمانية ، فتحت أبواب فلسطين للهجرة اليهودية فى عهد الانتداب البريطاني الذي توطد سنة ١٩٢٠ وفقاً لقرارات مؤتمر الصلح (بسان ريمو) حيث تم فيه تقسيم مناطق النفوذ فى الشرق بين فرنسا وبريطانيا •

وخلال مرحلة الانتداب البريطاني ازدادت الهجرة اليهودية ،

واستطاعت الحركة الصهيونية عن طريق المؤامرات والخداع أن تقيم دولة فى فلسطين سنة ١٩٤٨ بمساعدة دول الكتلتين الغربية والشرقية ، وتشريد أكثر من مليون عربي عن أرضهم وديارهم •

ولم تقف مطامع الصهيونية على سلب أكثر من ٧٧ بالمئة من أراضي فلسطين سنة ١٩٤٨ بل توسعت واستولت فى عدوانها الغاشم سنة ١٩٦٧ على فلسطين بكاملها ، هذا بالاضافة الى احتلالها لمرتفعات الجولان السورية وصحراء سيناء والضفة الشرقية لقناة السويس •
تلك هي مطامع الصهيونية فى الشرق العربي وخطرها على هذا الشرق الذي قاوم الغزاة فى مختلف العصور وانتصر عليها بفضل وحدته تحت لواء الاسلام •

الفصل الرابع عشر

حركة الاصلاح الكبرى في نجد

ظهر فى شبه جزيرة العرب فى أوائل القرن الثامن عشر عالم من علماء الدين هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولد فى عام ١١١٥ هـ (١٧٠٣م) ببلدة العيينة ، ونشأ نشأة صالحة اذ كان أبوه عالماً جليلاً وقاضياً فدرس عليه الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل .

وقد زار الكثير من البلدان حيث كان يتابع أحوال المسلمين فحز فى نفسه ماسمعه وما رآه من بوادر الانحلال وعلامات الانهيار بعد أن ظهرت فى ذلك الوقت البدع التي تتنافى مع تعاليم الاسلام .

وأخذ محمد بن عبد الوهاب يدعو الى نبذ هذه البدع ، وكان

يؤكد للناس أنه لا يرشدهم الى مذهب جديد فى الاسلام بل يدعو (الى الله وحده لاشريك له والى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم) ، ولكي يضمن نجاح حركته الاصلاحية رأى من الضروري ان يعتمد على سند سياسي ، واستطاع أن يكسب ود الأمير « محمد بن سعود » أمير الدرعية الذي رحب به بعد أن فهم دعوته واعتنق فكرته وأخذ ينشر مبادىء هذه الدعوة الاصلاحية بين قبائل العرب . وخلال سنوات قلائل انتشرت مع الحكم السعودي فى شبه الجزيرة العربية .

اتساع حركة الاصلاح :

بعد أن توفى الأمير محمد سنة ١١٧٩ هـ — ١٧٦٥ م خلفه ابنه عبد العزيز . وكان متديناً متحمساً للدعوة . وقد تخطى حدود نجد وهاجم الأحساء واستولى عليها وانطلق لنشر الدعوة فى امارات الخليج العربي ، ثم أخذت قواته تغير على حدود العراق حتى وصلت الى كربلاء فذعر السلطان العثماني وطلب من ولاته فى العراق القضاء على هذه الحركة ولكنهم أخفقوا .

وفى عام ١٨٠٣م أغتيل الأمير عبد العزيز فخلفه ابنه الأمير سعود الذي لقب بسعود الكبير . وفى عهده بلغت الدلة «السعودية» أقصى اتساعها . واستطاع ان يفتح الحجاز وفر الشريف غالب بن مساعد أمير مكة « الى جدة » وقد أبقاه الأمير سعود فى منصبه بعد أن تعهد بأن يسير نظام الحكم فى الحجاز وفقاً للدعوة الاصلاحية الجديدة التي انتشرت فى شبه الحزيرة وبعض البلدان المجاورة .

جدد السعوديون حملاتهم على العراق وهاجموا النجف والزبير ثم أرسلت الحملات الى الشام ووصلت الى جنوب حوران فأمر السلطان العثماني والي دمشق أن يقضي على الحركة ولكنه عجز عن ذلك

وقد وجه سعود الكبير ضربة قوية الى السلطان العثماني عندما أمر الحجيج المصري والشامي بالعوة لأنهما لم يمتثلا الى الأحكام الشرعية بمنع الطبل والزمر أثناء الحج بينما سمح للحجيج من بقية البلاد الاسلامية الأخرى •

وطلب السلطان العثماني من محمد علي والي مصر أن يقضى على حركة الاصلاح الناشئة فقبل محمد علي هذه المهمة لارضاء السلطان من ناحية ولتحقيق أطماعه التوسعية من ناحية أخرى • وأرسل الحملات الحربية الى شبه الجزيرة (١٨١١ ـ ١٨١٨م) فاسترد الحجاز ثم أتم ابراهيم باشا فتح الدرعية فى سبتمبر عام ١٨١٨م بعد أن هدمها وأرسل الأمير عبد الله بن سعود الذي خلف أباه سعود الكبير الى القسطنطينية حيث أعدم هناك عام ١٢٣٣ هـ ١٨١٧م •

ولا يعني هذا ان الدولة العثمانية نجحت فى القضاء على الحركة الاصلاحية ، فبمجرد أن سحب محمد علي جيوشه من شبه الجزيرة عام ١٨٤٠م عاد السعوديون الى توطيد حكمهم والعمل على نشر الدعوة الاصلاحية الدينية •

آثار حركة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية :

١) ظلت الحركة مصدرا لجميع الحركات الاصلاحية التي ظهرت فى العالم الاسلامي خلال العصر الحديث •

٢) نجحت الحركة فى القضاء على البدع والضلالات التي تفشت بين المسلمين وكادت تؤدي بالأمة الاسلامية الى الانهيار •

٣) لقيت الدعوة صدى طيباً فى الأقطار الاسلامية وعمت آثارها مصر والشام والعراق وايران والهند •

٤) أثبتت الحركة قدرتها على أن تكون أساسا صالحاً قوياً لبناء دولة اسلامية كبرى •

٥) أحدثت المناظرات والمناقشات التي كانت تدور فى مجالس العلماء نوعاً من اليقظة الفكرية ، كان الشرق العربي الاسلامي فى مسيس الحاجة إليها بعد الجمود الفكري الذي هيمن عليه قروناً طويلة •

٦) ساد حكم الشريعة الاسلامية فى شبه الجزيرة العربية فساد الأمن والنظام فيها •

الدولة السعودية الثانية

ساد نجد الاضطراب واختل الأمن والنظام حتى تمكن الأمير (فيصل بن تركي) الذي كان منفياً فى مصر من الفرار والعودة الى امارته ، وماكاد يصل اليها حتى التف حوله الشعب وتمكن من استرداد نجد عام ١٨٤٣م ثم أخذ يبسط نفوذه فى معظم شبه الجزيرة ، فامتد ملكه الى الأحساء والقطيف وعسير ودانت له بعض امارات الخليج ونعمت البلاد طول فترة حكمه التي دامت ٢٢ عاماً بالأمن والطمأنينة •

وعندما توفى فيصل بن تركي عام ١٨٦٥م وقعت البلاد فى فوضى مرة أخرى واشتد النزاع بين ولديه عبد الله وسعود • وقد اتهز الأتراك الفرصة السانحة واحتلوا منطقة الأحساء وضموها الى ممتلكات السلطان العثماني •

وعندما توفى سعود بن فيصل عام ١٨٧٤م وبويع أخوه عبد الرحمن أميراً على الرياض تجدد الشقاق بين الأمراء وعندئذ

استغل محمـد بن عبد الله الرشيد أمير حائل الفرصة لينتزع من آل سعود الملك ويؤسس دولـة لآل الرشـيد • وكانت تركيا تؤيـده وتشد أزره ، فدخل ابن الرشيد الرياض وتمكن من بسـط سلطانه على نجـد •

الـدولة السعودية الثالثـة

عز على الأمير عبد الرحمن بن فيصل آل سعود أن يعيشـ فى بلده تحت رحمة آل الرشيد الذين كانوا من قبل أتباعاً لآل سعود ، فرحل مع أفراد أسرته الى الربع الخالي حيث قضى فترة لدى بني مرة ثم انتقل الى قطر ومنها الى الكويت حيث نزل ضيفاً كريماً لـدى الشيخ مبارك الصباح مع أفراد أسرته عام ١٣٠٩ هـ ـ ١٨٩١م •

عبد العزيز يوطد ملك آل سعود :

فى الكويت التي وصلها عبد العزيز مع والده عبد الرحمن وهو فى الثانية عشر مـن عمره قضى فترة شـبابه • وكانت فترة عصيبة بالنسبة لـه اذ درس التيارات السياسية المختلفة التي كانت تلعب دورها فى المنطقة ، وأخذ يستعرض المحن التي تعرضت لها أسرته • ولم ينس قط ما رآه من أحداث فى بلاده وهو صغير • وأخيراً عقد العزم على استرداد ملك آبائه وأجداده •

الاستيلاء على الرياض :

سئم عبد العزيز الحياة الراكدة فى الكويت ، وصمم عـلى أن يسترد ملك آل سعود أو يموت دونه ، ومن أجل ذلك قام بمخاطرات جريئة اذ أخرج فى عـدد قليل من رجاله لا يتعدون الأربعين مـن

الكويت فى أواخر عام ١٩٠١م قاصداً الرياض ، وعندما اقترب من المدينة أعد خطة الهجوم ، وفى يناير عام ١٩٠٢م تسلل ليلاً مع عشرة رجال من بينهم ابن عمه عبد الله بن جلوي وترك الثلاثين الباقين خارج الأسوار ، وتمكن من قتل أمير الرياض ويسمى (عجلان) نائب ابن الرشيد ، وكان ذلك مفاجأة لأهل الرياض الذين أسرعوا لمبايعة الأمير عبد العزيز ، وبذلك حقق أول انتصار كان بداية الكفاح لاعادة تأسيس الدولة السعودية • وأخذ يسترد نجد ، منطقة بعد أخرى ، وهزم الحملة العسكرية التي أرسلتها الدولة العثمانية من العراق لنصرة الرشيد عام ١٩٠٤م ، ثم جهز عبد العزيز جيشاً من أعوانه سماه جيش (الاخوان) وهزم قوات الرشيد هزيمة ساحقة فى الدلم واستولى على الأفلاج والحوطة ووادي الدواسر ثم اتجه الى المناطق الشمالية واحتل القصيم • وبذلك أصبح عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود سيد بلاد نجد •

ضم الأحساء والقطيف :

كان عبد العزيز يعتبر الأحساء جزءً لا يتجزأ من الدولة السعودية لأنها كانت المنفذ الوحيد لدولته على الخليج العربي • وفى عام ١٩١٣م قبيل قيام الحرب العالمية الأولى انقض بجيش مكون من ستمائة رجل على اقليم الأحساء (الحسا) وفاجأ الحامية التركية فقاوم الجنود الأتراك وعندما تأكدوا من عدم جدوى مقاومتهم آثروا الانسحاب ، ثم أرسل سرية من رجاله الى القطيف فاحتلوها دون مقاومة •

فتح حايل (حائل) :

بعد أن انسحب العثمانيون من العالم العربي اثر انتهاء الحرب العالمية الأولى انتهز عبد العزيز الفرصة لفتح حائل فحاصرها

ثلاثة أشهر حتى استسلم ابن الرشيد فى نوفمبر عام ١٩٢١م فعفا عنه واصطحبه الى الرياض معززاً مكرماً • وكان من آثار هـذا الموقف الكريم لعبد العزيز أن أخلص له آل الرشيد •

فتح الحجـاز :

بعد أن سيطر عبدالعزيز آل سعود علىمعظم شبه الجزيرة لم يبق أمامه الا الحجاز التي تمركز فيها الشريف حسين عندما خذله الانكليز وخيبوا آماله فى مشروع الدولة العربية الكبرى •

ولما كانت الحجاز تضم الأماكن الاسلامية المقدسة (مكة والمدينة) التي هي قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لم يغب هذا عـن بال عبد العزيز ابن سعود • وأدرك انه لا بد من ضـم الحجاز اليه حتى يستتب له الأمر وتتوحد الجزيرة العربية •

بدأ النزاع بين الطرفين على تحديد الحدود بين نجد والحجاز ثـم نشأ نزاع آخر عنـدما رفض الحسين الاذن للحجاج الوهابيين بالحج ، وفى مايو عام ١٩١٧م احتلت قوات الشريف حسين بقيادة ابنه عبد الله (تربة) « بلدة تبعد ٩٠ ميلا من الطائف » ولكن عبد العزيز آل سعود هزمهم عام ١٩١٩م ثم عاد الى نجد بعد أن حذرته الحكومة البريطانية من التقدم فى الحجاز •

وفى عام ١٩٢٣م اختمرت فكرة فتح الحجاز ، فسار عبد العزيز آل سعود واحتـل الطائف عام ١٩٢٤ ثم دخل مكة وحاصر جـدة واستولى عليهـا ، ثم على المدينـة ، وانهارت مقاومة الهاشميين • وبذلك سيطر السعوديون على بـلاد الحجاز عام ١٩٢٥م وبويـع عبد العزيز آل سعود ملكاً ، وأصبح لقبه الجديد (ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها) •

ضم منطقة عسير :

كانت عسير أمارة يحكمها الأدارسة وهم من أصل مغربي ينتسبون للشيخ أحمد الادريسي الذي قدم من المغرب وبسط سلطانه الروحي على هذه المنطقة الواقعة جنوب الحجاز ، وكانت موضع تنافس بين الحجاز واليمن • وقد انتهز الامام يحى امام اليمن فرصة القتال بين الأمير عبد العزيز والشريف حسين واحتل عسير فاستنجد أميرها الادريسي بعبد العزيز الذي سارع لنجدته ودخل فى حرب مع الامام يحى واسترد عسير ووضعها تحت حمايته عام ١٩٢٦م ، ثم ضمت نهائياً الى ملكه •

المملكة العربية السعودية :

أصبح أسم الدولة السعودية هو (المملكة العربية السعودية) وقد صدر مرسوم ملكي بذلك فى سبتمبر عام ١٩٣٢م ، وتهيأت بذلك الجزيرة العربية لاستقبال العهد الجديد الذي بدأه الملك عبدالعزيز •

النهضة فى عهد الملك عبد العزيز :

قاوم الملك عبد العزيز بنهضة كبيرة واصلاحات عظيمة • وقد بنى دعائم ملكه على أساس سليم فى الداخل والخارج ، فعمل على تقوية مركزه الدولي بعقد معاهدات مع الدول وتوثيق الروابط مع البلاد العربية والاسلامية •

أما فى الداخل فقد وطد دعائم الأمن فى البلاد بتطبيق أحكام القرآن والشريعة الاسلامية ، وقضى على خلافات القبائل ، وأصبح الحج الى الحرمين مأموناً ، وأنشأ القرى التي ساعدت على استقرار البدو ، وأقام المدارس والمستشفيات •

وهكذا استطاع الملك عبد العزيز آل سعود بفضل ايمانه العميق

وحكمته وسياسته أن يعيد بناء الدولة السعودية الكبيرة على مبادىء الشريعة السمحاء مع الأخذ بأسباب النهضة الحديثة •

وفى ربيع الثاني عام ١٣٧٣ هجرية الموافق ٩ نوفمبر ١٩٥٣ ميلادية توفى هذا الملك العظيم الذي يعتبر بحق (مجدد مجد العرب وباني دولتهم) وخلفه ابنه سعود الذي كان ولياً للعهد • وقد أصيب الملك سعود فى عام ١٩٦٤م بمرض شديد أضعفه وأقعده عن القيام بأعباء الحكم •

الملك فيصل بن عبد العزيز :

وفى شهر رجب عام ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤م بويع ولي العهد الأمير فيصل بن عبد العزيز ملكاً على المملكة العربية السعودية • وهو الابن الثاني للملك الراحل عبد العزيز مؤسس المملكة ، وسبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الديني الكبير من جهة والدته ابنة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ من كبار علماء نجد • ويتمتع الملك فيصل بمناقب وفضائل جعلت مواهبه الفذة وسياسته البناءة رائداً حكيماً تنعقد عليه آمال العرب والمسلمين • وفى عهده تضاعفت النهضة الاصلاحية فى المملكة وقطعت شوطاً بعيداً فى شتى الميادين •

انتشار الاسلام في العالم

دخل الاسلام آسيا وافريقيا وجنوب شرقي أوروبا وجزر البحر المتوسط فى عصور مختلفة متصلة المراحل كان أهمها مرحلة الفتوح التي تمثلت بانضواء تحت لواء الرسالة الاسلامية كتلة من الشعوب والأمم المختلفة الأجناس والقوميات وانصهارها فى المجتمع الاسلامي الكبـــير ٠

لقد جاء الاسلام دين الهدى والحق للناس كافة ٠ جاء برسالة تجمع الشعوب فى أمة واحدة لا تعرف شعوبية ولا اقليمية ، رابطتها العقيدة الدينية والأخوة والتعاون الصادق والحب والسلام ٠

والاسلام دين السلام والعلم والتقدم ٠ وهو فى تشريعه يعتبر نظاماً عالمياً أوجب حماية القيم الروحية والأخلاقيـــة ، والخصائص الفـــردية والجماعية ، والوحدة بين أبناء الأمة فى الحقوق والواجبات والتضامن فى المسؤوليات ، واقامة العدل والمساواة بين الناس بغير تفرقة بـــين الأنساب والأجناس والألوان ٠ كما حث على الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الحق ، ونصـــرة المظلوم ٠ تلك هي المبادىء التي قامت عليها الدعوة الاسلامية الخالدة ٠

العالم الاسلامي فى العصر الحاضر :

يشـكل المسلمون فى العصر الحاضر كتـــلة بشرية هائلة يبـــلغ تعدادها ٦٢٠ مليون نسمة يقطن معظمها قارة آسيا وافريقيا ٠ ويشغل

العالم الاسلامي مساحات شاسعة مترامية الأطراف تمتد من المحيط الهادي شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً .

وهذا العالم الاسلامي الكبير يشكل قوة بشرية ، وقوة اقتصادية وقوة سياسية لها وزنها فى الثقل الدولي . هذا بالاضافة الى خصائصه الجغرافية ومواقعه الاستراتيجية الهامة ، مع العلم انه من أغنى بقاع العالم من حيث سعة المساحات الزراعية والثروة البترولية .

ويتألف العالم الاسلامي حالياً من مجموعة دول عربية وأسيوية وافريقية ، منها ١٤ دولة فى قارة آسيا ، و ١٩ دولة فى قارة افريقيا معظم سكانها من المسلمين .

وحسب الاحصاءات التي اعتمدنا فى جمعها على أوثق المصادر يقدر عدد المسلمين ونسبتهم فى كل بلد من بلدان العالم كما هو مبين فى الجدول التالي :

المسلمون فى آسيا :

يقدر عدد المسلمين فى آسيا نحو ٤٦٣ مليون نسمة موزعة كما يلي :

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
جمهورية الباكستان	١٠٧	٩١ بالمئة
جمهورية أندونيسيا	١٠٢	٨٥ »
جمهورية تركيا	٣٣	٩٦ »
مملكة ايران	٢٣	٩٧ »
مملكة افغانستان	١٥	٩٩ »
المملكة العربية السعودية	٨	١٠٠ »
جمهورية العراق	٧ ١/٢	٩٥ »

البلـــد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
الجمهورية العربية السورية	٥ ١/٢	٨٨ بالمئـة
اليمـــن	٥	١٠٠ »
كشـــمير	٤ ١/٢	٨٥ »
المملكة الأردنية الهاشمية	٢	٩٢ »
جمهورية لبنــان	٢ ١/٤	٥٠ »
مالـــيزيا	٦	٥٨ »
الجنوب العربي	١ ١/٤	١٠٠ »
مسقط وعمان (٨٠٠ ألف)		١٠٠ »
الـــكويت (٤٥٠ ألف)		٩٥ »
امارات الخليج (٦٠٠ ألف)		٩٧ »
فلسطين (الفلسطينيون)	١ ١/٢	٩٠ »

في الاتحاد السوفياتي :

تركستان
أوزبكستان
تركمانستان
قيرغيزيا
اذربايجان
داغستان
كاوســتان

} ٣٤ مليون مسلم

في الصـــين ٥٤ » »

في الهنـــد ٥٨ » »

في الأقطار الأخرى الآسيوية ٢٥ » »

المسلمون فى افريقيا :

يقدر عددهم ١٤٧ مليون نسمة موزعة كما يلي :

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
نيجيريا	٤٦	٧٣ بالمئة
مصر (الجمهورية العربية المتحدة)	٣٠	٩٠ »
جمهورية السودان	١٣ ١/٢	٨٤ »
المملكة المغربية	١٣	٩٥ »
الجمهورية الجزائرية	١٢	٩٣ »
الجمهورية التونسية	٤ ١/٢	٩٥ »
الجمهورية الليبية	١ ١/٢	٩٠ »
جمهورية موريتانيا	١	٩٩ »
جمهورية السنغال	٣ ١/٢	٨٠ »
جمهورية مالي	٤ ١/٢	٩٠ »
جمهورية غينيا	٣ ١/٢	٨٥ »
جمهورية تشاد	٣ ١/٤	٨٣ »
جمهورية النيجر	٣	٨٠ »
جمهورية الصومال	٢ ١/٢	٩٥ »
جمهورية افريقيا الوسطى	١ ١/٢	٥٢ »
الحبشه	٢١	٦٢ »
ارتيريا	٢	٦٧ »
جمهورية تنزانيا	١٠	٥٠ بالمئة
جمهورية الكمرون	٥	٦٠ »
جمهورية توغو	١ ١/٢	٥٣ »

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
جمهورية فولتا العليا	٤ ١/٢	٤٩ بالمئة
جمهورية داهومي	٢ ١/٢	٥٣ »
سيراليون	٢ ١/٢	٥٠ »
جمهورية ساحل العاج	٣ ١/٢	٤٨ »
البلدان الافريقية الأخرى :	٩٢	١٥ »

المسلمون فى أوروبا :

هناك دولة ألبانيا تعتبر اسلامية لأن معظم سكانها من المسلمين • ويقدر عددهم مليون ونصف المليون أي بنسبة ٨١ بالمئة من مجموع السكان •

وفى جزيرة القرم يوجد مليون ونيف من المسلمين ، وفى يوغسلافيا مليون بالمنطقة الجنوبية • وهناك أيضاً مجموعات من الجاليات الاسلامية منتشرة فى أوروبا الغربية معظمها من أبناء المغرب العربي وايران •

المسلمون فى أميركا :

وفى قارة أميركا توجد مجموعات كبيرة من الجاليات الاسلامية موزعة فى مختلف أقطارها وبالأخص فى المدن الكبرى • والبعض من هذه الجاليات من أصل عربي معظمها يقيم فى أميركا اللاتينية (الجنوبية) وبعض مدن أميركا الشمالية •

المــــراجع

تاريخ الأمم والملوك .... الطبــري

الكامل فى التاريخ .... ابن الأثير

البداية والنهاية فى التاريخ .... عماد الدين بن كثير القرشي

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .... ابن خلكان

مالك الأبصار فى ممالك الأمصار .... ابن فضل الله العمري

معجم البلدان ومعجم الأدباء .... ياقوت الحموي

مروج الذهب ومعادن الجوهر .... المســعودي

لســان العــرب .... ابن منظور

الآداب السلطانية .... محمد ابن الطقطقي

مفرج الكروب فى أخبار بني أيوب .... ابن واصل

خطط الشام ، فلاسفة الاسلام .... محمد كرد علي

زعماء الاصلاح الاسلامي .... أحمــد أمين

جزيرة العــرب .... حافظ وهبــه

تاريخ العرب والاسلام .... عبد اللطيف الطيباوي

دائرة المعارف الاسلامية (٤ مجلدات)......... وضعها كبار المستشرقين

دائرة المعارف .... بطرس البستاني وسليم البســتاني ....

تاريخ العالم (مجلدان) .... (لاروس) باشراف البرفسور دونان ....

الاســلام وعدالته .... أنيل راندس

تاريخ الوهابية منذ نشأتها .... كورانتريز

تاريخ الحضارة الاسلامية .... أندريه بروديل

تاريخ الشرق الاسلامي .... أحمــد علي خان

تصـــويب

وقعت فيهذاالكتاب بعضأخطاء مطبعية ونود هنا لفت نظر القارىء الكريم لتصحيحها كما هي مشروحة أدناه :

الخطــأ	الصواب	السطر	الصفحة
فحمى	فمحى	٢٢	١١
نشأوا على الخلق	نشأوا علىهذا الخلق	٩	١٧
الغـــير	غـــير	١٧	١٧
من المعتدى	للمعتدي	٢١	١٧
دماءا	دمـــاء	٦	١٨
لعـــرب	العرب	٦	١٩
مفخر	فخـــر	٨	١٩
يـــوم	يـــوما	١٠	٢٤
انفض	أنقض	١	٤٤
اليموم	اليوم	١٦	٥٦
الشريقة	الشرقية	١٥	٧٤
فقـــراء	قفـــرا	٢	٨٢
والتقا	والتقيا	١١	٩٠
أبـــاه	أبـــوه	٩	٩٤
وأدنت	ودانت	٣	١٠٤
٧٠٥	٧٥٠	٦	١١٢
لتسكن	ليستكين	١٦	١٢١
ونزعاته	ونزغاته	١٧	١٢١
محمـــد	لمحمـــد	٢٤	١٢٧
يحى	يحيى	٢٠	١٣٠

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
فيه	فيها	٩	١٥٢
ثلاث	ثلاثة	٢	١٥٤
هو	هي		١٥٩
أحكام	بأحكام	٢١	١٦١
قائمة قرنين	قائمة مدة قرنين	١٤	١٧٤
أمولا	أموالا	١٥	١٧٧
أمولا	أموالا	٣	١٧٩
ويملاؤها	ويملأها	٨	١٧٩
يعد	يعودوا	١٥	١٨٨
ولم تمضي	ولم تمض	١١	١٩٤
قانوصه	قانصوه	١	٢١٤
تاولنا	تناولنا	٤	٢١٨
الايوى	الأيوبي	٥	٢١٨
السلوجي	السلجوقي	٢	٢٢٣
بالمنيق	بالمنجنيق	١٨	٢٣٢

الفهـــــرس

« أ »

صفحة

صفحة

الفصل الرابع

صفحة



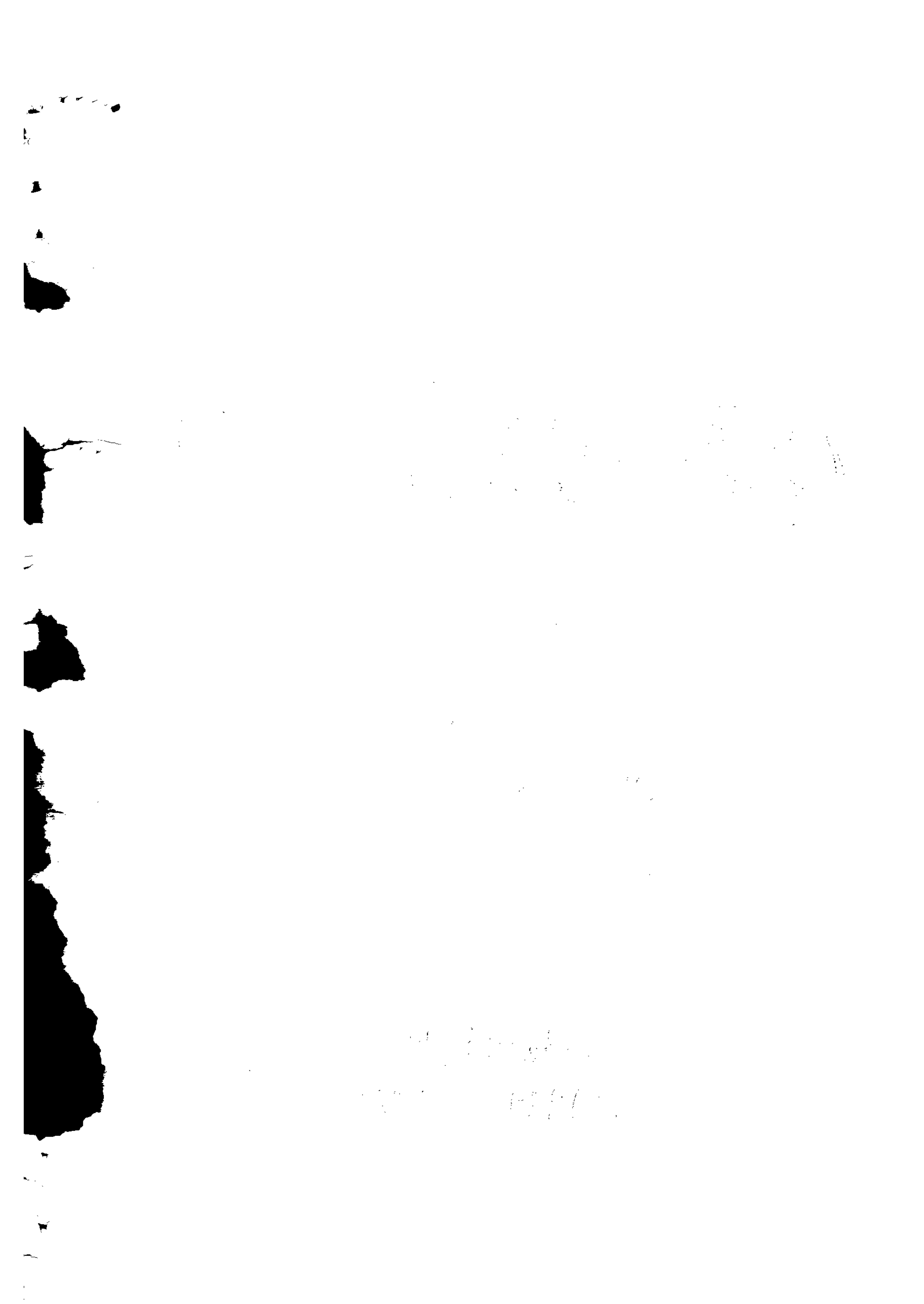
طبع بمطـابع
شركة المدينة للطباعة والنشر
جـدة ـ المملكة العربية السعودية

التاريخ الاسلامي

تأليـف

الدكتور ابراهيم الشريقي
عضو المجامع العلمية الدولية

الطبعة الاولى
١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م

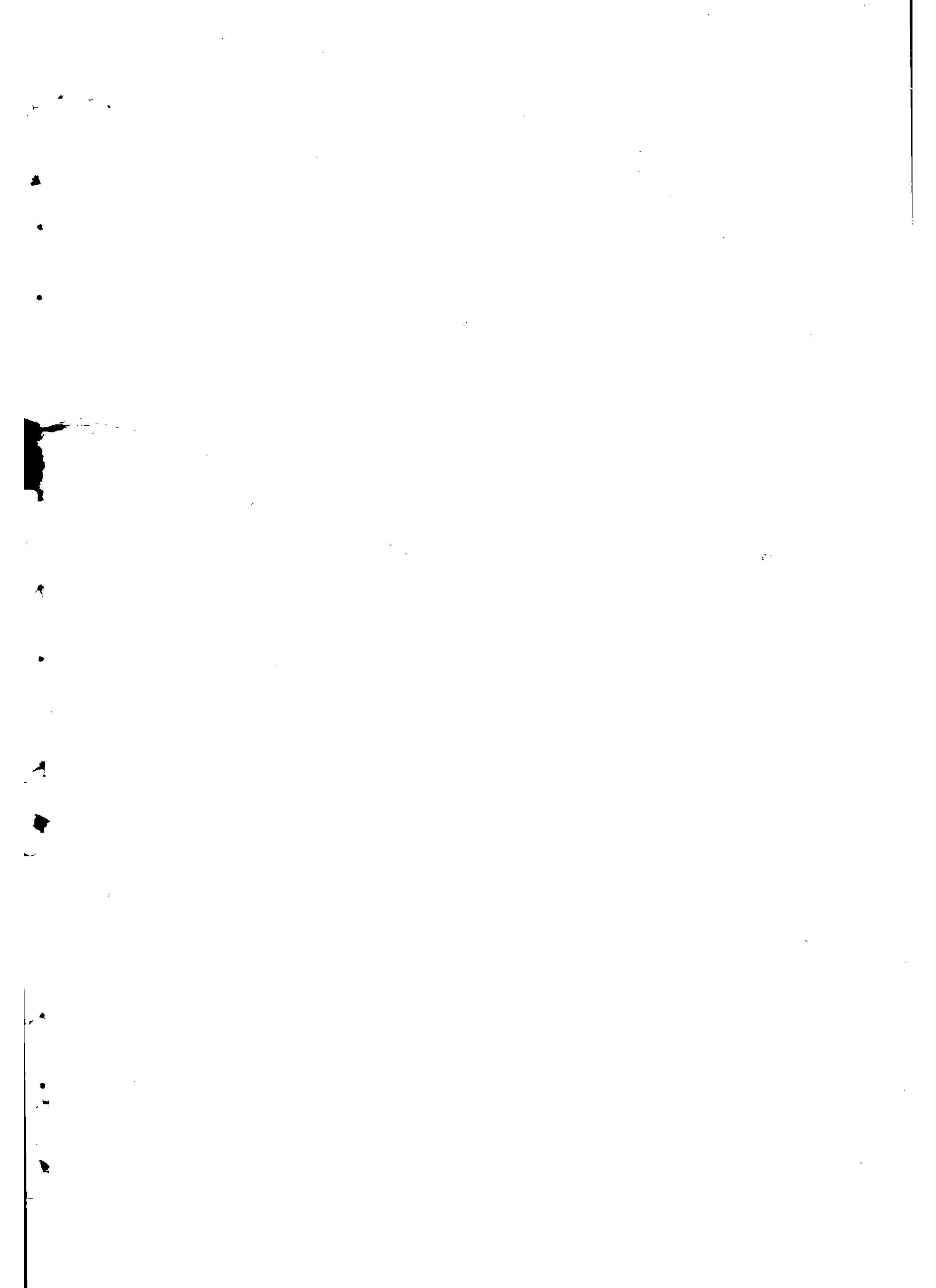


كلمة ثناء وتقدير

لقد كان لتشجيع صاحب المعالي الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي الفضل الكبير فى اخراج هذا الكتاب من سلسلة المعارف والعلوم التي نعدها للجيل الجديد في الوطن العربي والأقطار الاسلامية على أسس علمية شعارها النهج السليم المستمد من الروح الاسلامية مصدر الشعاع وينبوع الحضارة .

فالى معاليه أقدم وافر الشكر المقرون بالاحترام والتقدير . والله نسأل أن يوفقنا الى الخير والسداد .

المؤلف



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تستند كل أمة من الأمم الحية على مقومات روحية وثقافية وعلمية وتاريخية تشكل أسس كيانها .

ومن نظرة على تاريخ العرب نجد أن الاسلام هو مصدر مقومات الأمة العربية ووجودها كأمة نشأت وسادت وارتفعت الى قمة المجد .

لقد ظهر الاسلام فى مطلع القرن السابع الميلادي فى جزيرة العرب مهد الجنس العربي فقضى على الوثنية وحطم أصنامها وحرر العرب من جحيمها ومن النزعة العصبية القبلية ، فتفتحت عقولهم الى النور وتحولوا الى عبادة الله وحده لاشريك له .

أجل ان الاسلام هو الذي أوجد للعرب كيانا ووحدهم فى مجتمع يسوده الشعور بالتضامن والتسامح والاخاء والعدالة ، بعد أن كانوا مجموعة من القبائل متحاربة تتخبط فى ظلام الجاهلية وخرافاتها ووثنيتها .

نذكر جميعا بفخار انه فى مهد العروبة ظهرت قبل أربعة عشر قرنا دعوة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فكانت دعوة هداية

للناس كافة ، وايمانا بالخالق العظيم رب العالمين ، وتوحيد الشعوب فى أمة واحدة لا تعرف شعوبية ولا اقليمية .

ولا ننسى ان الاسلام تفرد بخصائص تميز بهاعن سائر الأديان الأخرى فكما نظم علاقة الانسان بربه ، نظم علاقة الانسان بأخيه الانسان ، وعلاقة الأفراد فيما بينهم وعلاقاتهم بالدولة . وهو فى دعوته وتشريعه يعتبر نظاما عالميا أوجب حماية الخصائص الفردية والجماعية والقيم الروحية والأخلاقية ، والوحدة بين أبناء الأمة فى الحقوق والواجبات والتضامن فى المسئوليات ، واقامة العدل والمساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب والأجناس والالوان . وحسبنا على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) .. كما حث على الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونصرة المظلوم .

تلك هي المبادىء التي قامت عليها الدعوة الاسلامية ، وتحت لوائها انضوت الشعوب من مختلف الأجناس والقوميات وانصهرت فى المجتمع الاسلامي الكبير .

وتمثلت المرحلة الأولى من التاريخ الاسلامي بانتشار الدعوة فى أرجاء الجزيرة العربية وقيام أول دولة فى المدينة المنورة فى عهد الرسول. وفى المرحلة الثانية حملت الرسالة الاسلامية الى خارج الجزيرة حيث تم فى عهد الخلفاء الراشدين فتح العراق وبلاد الشام وفارس ومصر . وفى المرحلة الثالثة شملت الفتوحات فى عهد الأمويين الذين اتخذوا دمشق عاصمة للخلافة : تركستان وبلاد المغول والسند والشمال الافريقي والأندلس . وفى هذه المرحلة التي دامت زهاء قرن من الزمن امتدت الدولة الاسلامية من حدود الصين شرقا الى المحيط الأطلسي غربا .

وبدأت المرحلة الرابعة بقيام الدولة العباسية التي بلغت فى عهد الخليفة هارون الرشيد أقصى اتساعها ، وأعلى درجة من القوة والثروة العلمية والثقافية . ودام حكمها خمسة قرون وربع القرن . وفى أواخر عهدها انتابها الضعف وازدادت الحركات الانفصالية فى بعض الأقاليم

وبرز نفوذ الأتراك الى الوجود وأخذ يمتد حتى تمت السيطرة للدولة العثمانية على العالم العربي فى القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) .

وخلال هذه المراحل تعرضت الأقطار الاسلامية الىغزوات خارجية انقضت عليها من الغرب ومن الشرق . وكان أعنفها وأخطرها هي الحملات الصليبية وغزو المغول الرهيب . وقد قاوم المسلمون الغزاة ، وبفضل وحدتهم وايمانهم بعقيدتهم انتصروا على المعتدين وطردوهم من ديارهم وأرضهم .

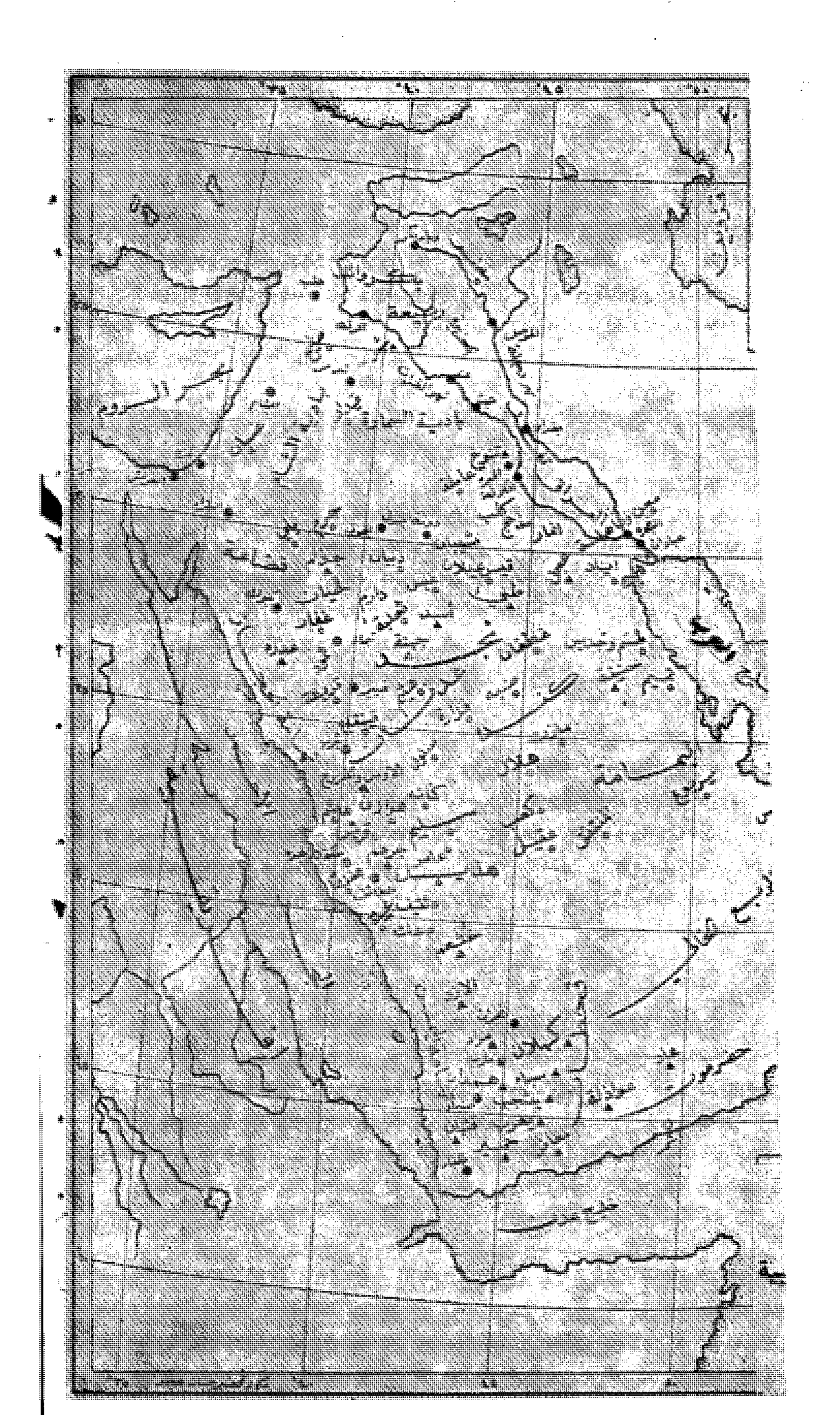
والذي ينبغي ادراكه هو ان المسلمين لم يدخلوا البلاد التي فتحوها كغزاة بل كجنود لنشر رسالة الاسلام الخالدة وحضارته التي لعبت دورا كبيرا فى نهضة الأمم والشعوب وفى مقدمتها شعوب أوروبا التي كانت قبل دخول الحضارة الاسلامية اليها عن طريق مراكزها فى الأندلس وصقلية تعيش فى ظلام العصور الوسطى .

وخلاصة القول ان التاريخ الاسلامي يشكل مرآة ومدرسة ، ففيه الكثير من البطولات والأمجاد والمآثر التي نفخر بها ونعتز بتراثها ومعالمها التي تعبر بصورها الناطقة عن عظمة الحضارة الاسلامية .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم ، آملين بأن نكون قد وفقنا فى اخراج هذا الكتاب للغاية المرجوة ألا وهي الاسهام فى نشر العلم والمعرفة بين أبناء أمتنا ، والله من وراء القصد وهو خير معين .

الدكتور ابراهيم الشريقي

رمضان المبارك ١٣٨٩
تشرين الثاني ١٩٦٩



الفصل الاول

العرب قبل ظهور الاسلام

الثابت تاريخياً ان الجزيرة العربية هي مهد الجنس العربي وموطنه الأول . تشكل منطقة واسعة مترامية الأطراف ، تحيط بها البحار من جهاتها الثلاث ، حدودها الطبيعية هي :

من الجنوب البحر العربي ومن الشمال العراق والشام ومن الشرق الخليج العربي ومن الغرب البحر الأحمر .

ويُقسِّم المؤرخون الجنس العربي الى قسمين كبيرين هما :

١) العرب العاربة

هم أبناء قحطان وموطنهم الأول بلاد اليمن والعرب القحطانيون تفرعوا جميعهم من فرعين وهما : كهلان ، وحمير أبناء سبأ

وتسموا بالعرب العاربة لانهم أول من تكلم اللغة العربية من شعوب الجزيرة .

٢) العرب المستعربة

هم أبناء عدنان الذين يعود نسبهم الى النبي اسماعيل . وأطلق عليهم اسم المستعربة لأن اسماعيل كان يتكلم اللغة السريانية لغة أبيه ابراهيم . ثم لما جاء به أبوه الى مكة وجاوره الجرهميون من القحطانيين فى الحرم وتزوج منهم تعلم وأبناؤه العربية من أصهاره فسموا بالعرب المستعربة .

وتقع منازل العرب العدنانيين الأولى فى الحجاز ونجد وتمتد حتى بادية الشام ، ثم امتزج بهم بعد ذلك القحطانيون بعد انهيار سد مأرب حيث هاجروا الى الشمال واستوطنوا نجد والحجاز وخاصة يثرب .

العرب البائدة :

كان هناك قبل العدنانيين والقحطانيين جيل كبير من العرب انقرضوا انقراضاً كاملاً ولم يبق لهم من عقب حيث بادوا عن آخرهم .. ولذلك قيل لهم العرب البائدة . ومن هؤلاء عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس . وأهم مواطنهم (حضرموت واليمامة ويثرب وعمان وتيماء ووادي القرى) .

ديانة العرب :

كان العرب يدينون بدين الحنيفية (دين ابراهيم عليه السلام) وهو دين التوحيد ثم أدخل التحريف عليه رجل اسمه عمرو بن لحي إذ كان أول من علمهم عبادة الاصنام . وظل العرب يعبدونها قرونا

طويلة حتى جاء الله بالاسلام فأزال النبي ﷺ هذا الانحراف الوثني الخطير وعاد بالعرب الى جادة التوحيد الذي هو افراد الله تعالى وحده بالعبـــادة ٠

وكان فى جزيرة العرب أديان غير الوثنية العربية ٠٠ فهناك اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ٠

فاليهودية فى العصـــر الجاهلي كانت منتشـــرة فى يثرب وخيبر واليمن ووادي القرى وتيماء ٠ وليس هناك من العرب من دان بها الا أفراد قلائل ، لايكادون يذكرون ٠ غير انه فى اليمن دان باليهودية أحد ملوك حمير وتبعه جماعته ٠ ويظهر ان ذلك حدث قبل أن يدخل اليهود التحريف على دين موسى عليه السلام ٠

أما النصرانية فقد كانت منتشرة فى اليمن ونجران ومنطقة الجندل فى الشمال وبين عرب الغساسنة فى الشام والجذاميين فى الحيرة مـــن العـــراق ٠

والصابئة (عبادة النجوم والكواكب) فقد كان وجودها فى جنوب الجزيرة ضئيل جداً بحيث لايكاد يذكر ٠ وكان يدين بها بعض القبائل فى حران وأعالي العراق واليمن ٠

وكذلك المجوسية القائمة على أن هناك إله للخير وإله للشـــر كانت منتشرة فى شرق الجزيرة العربية واليمن ولكن على نطاق ضيق جداً ٠ ويظهر ان وجود المجوسية كان بحكم وجود الحكام من الفرس مع العلم انها تنتسب الى زرادشت الفارسي ٠

وقد كانت هناك أديان أخرى غير أنهـــا تلاشت بعـــد أن جاء الاســـلام فحمى آثار كل هـــذه الأديان من جزيرة العـــرب عندما

أشرقت شمسه عليها وأقام التوحيد الخالص .

ولم يكن العرب قبل الاسلام ينكرون وجود الله تعالى ، بل كانوا مع شركهم يؤمنون بـــه خالقا كمـــا جـــاء ذلك فى القـــرآن الكريم « وما يؤمـــن أكثرهم بالله الا وهـــم مشركون » (١٠٦ ــ يوسف) ؟ « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » (٢٥ ــ لقمان) .

وفى ذلك العصر المظلم كانت جزيرة العرب تعج بآلاف الآلهة من الأصنام فكان لكل قبيلة صنم خاص ، وكان لقبائل قريش وحدها ثلاثمائة وستين صنماً نصبت كلها حول الكعبة . وقـــد حطمها النبي صلى الله عليه وسلم جميعها يوم فتح مكة .

مقام الكعبة والحج :

لقد ظلت الكعبة منذ أن بناها ابراهيم الخليل ، محـــل تقديس وتعظيم عند العرب يطوفون حولهـــا ويعتبرونها بيت الله المعظـــم . وظلوا على هذا الحال حتى جاء الله بالاسلام فزاد من تعظيمها وأقر الطواف بها فى كل وقت .

أما الحج فكان مشروعاً منذ عهد النبي ابراهيم ، وظل العرب طيلة عهود الوثنية يحجون الى البيت العتيق ويؤدون كل شـــعائر الحج الا انهم أدخلوا عليه بدعاً جاهلية وأهمها التلبية الشركية وهي قولهم فى الحج (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك الا شـــريكاً تملكه وما ملك) (١) وقد أقر الاسلام الحج وجعله أحـــد أركان الاسلام

(١) أما تلبية الاسلام فهي : (لبيك اللهم لبيك ، لاشريك لك ، لبيك ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) .

بعد أن أزال عنه البدع .

تعظيم الحرم :

ومن التقاليد الابراهيمية التي ظلت مرعية عند العرب قبل الاسلام تعظيم منطقة الحرم الواقعة حول الكعبة ، فقد كانوا مجمعين على تحريم سفك الدم فى هذه المنطقة لذا كانوا يعتبرون كل من دخلها آمناً حتى يخرج منها .

كما كان للعرب فى الجاهلية تقليداً حميداً أجمعوا على الالتزام به ، وأقره الاسلام فيما بعد ، وهو انهم اتفقوا على أن تكون أربعة أشهر من كل سنة (حرماً) لا يجوز القتال فيها مطلقاً وهي : (رجب وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم) وقد ساهم الالتزام بهذا القانون غير المكتوب فى جعل القبائل تنعم بالأمن الشامل فى فترة تمكنهم من أداء شعائرهم وانعاش أسواقهم التجارية ومواسمهم الأدبية بعيدين عن فوضى التخاصم والاقتتال التي هي الحاكم المتحكم فى شئونهم .

الحالة الاجتماعية :

كانت البداوة هي الطابع الرئيسي المميز لجميع سكان الجزيرة وحتى سكان المدن كمكة ويثرب وصنعاء ونجران . وكان هذا الطابع هو المتحكم فى شئونهم والمسيطر على تصرفاتهم من حيث روح القبلية والعصبية الجاهلية . وكانت حدة الطبع التي أذكتها الجاهلية العمياء فى نفوسهم تجعلهم فى حالة حرب دائمة مع بعضهم البعض . وأسباب هذه الحروب القبلية متنوعة ، وكثيراً مايخوضونها لأسباب تافهة كالحرب التي استمرت أربعين سنة بين بكر وتغلب من أجل ناقة قتلها كليب شيخ وائل فى نجد .

أما الغزو للسلب والنهب فقد كان شرعة جاهلية تسير عليها كل القبائل العربية آنذاك وبموجبها تقوم كل قبيلة بغزو الأخرى كلما سنحت لها الفرصة ورأت أنها قادرة على ذلك •

الولاء ونظام الحكم :

مما لا جدال فيه أن ارتباط العربي بقبيلته هو ارتبـــاط وثيق وولاؤه لها هو فوق كل ولاء ، ولهذا فهو مستعد لأن يخوض حرباً لمجرد أن يتعرض أي فرد من أفراد قبيلته لأية اهانة •• بل ان المتبع عندهم (بحكم البيئة الجاهلية) ان تنصر القبيلة المنتسبين اليها حتى ولو كانوا هم الظالمين والبادئين بالعدوان • والى هذا أشار شاعرهم بقولـــه :

لايسألون أخاهم حين يندبهم * فى النائبات على ماقال برهانا

لم يكن فى المجتمع العربي قبـــل الاسلام نظـــام حكم بالمعنى المعروف ، وكل مافى الأمر أن البدوي مجبول على الولاء لقبيلته ثم لشيخها أو رئيسها الذي تختاره وتمنحه (حسب العرف القبلي) بعض السلطات فى فض النزاعات والتكلم باسمها فى المفاوضات مع غيرها وليقودها فى الحروب التي تنشب بينها وبين أية قبيلة معادية أخرى • وبقاء رئيس القبيلة فى منصبه يتوقف على رجاحة عقله وسعة صدره وشجاعته وقوة شخصيته وكرمه •

ويمكن القول أن أقرب القبائل للاستقرار وعدم الاختـــلاف هي قبيلة قريش فى مكة التي عرفت وحدها شيئاً من الشورى وذلك بانشائها دار الندوة التي كانت بمثابة برلمان مصغر •

حب الحرية :

ان البدوي بحكم الانطلاق الكامل الذي ألفه فى جزيرته عبر التاريخ ، صار محباً للحرية المطلقة الى حد الافراط • ويعتبر عدوه الاكبر هو الذي يقيد حريته ، ولا يتورع عن سفك دم أي انسان اعتقد أنه مس حريته أو كرامته حتى ولو كان أكبر رأس فى قبيلته نفسها •

الأسرة والقومية :

الأسرة فى المجتمع العربي موجودة منذ وجد الانسان العربي• وكان تكوين الأسرة يبدأ بعقد الزواج بين الرجل والمرأة عن طريق وليها ثم يتسع نطاق الأسرة بالتناسل ، والولد ذكر كان أم أنثى يكون تابعاً لأبيه وليس لأمه ، وكانت حالة المرأة سيئة للغاية فى المجتمع الجاهلي ، وبلغت الاستهانة بها الى أنها تورث ولا ترث •• وظلت المرأة فى حالة استعباد حتى جاء الاسلام فحررها وكفل لها كامل الحقوق •

ولعل من أبرز التقاليد الاجتماعية قبل الاسلام هي الاعتزاز والتفاخر بالأحساب والأنساب الى حد المغالاة ، الأمر الذي جعلهم يقيمون مواسم ليفخر فيها بعضهم على بعض • وقد شجب الاسلام هذه العادات السيئة وفرض المساواة ، قال تعالى : ان أكرمكم عند الله أتقاكم •

شرب الخمر :

أما شرب الخمر فقد كان شيئاً شائعاً بينهم ، وكان شربها من أهم مايفخرون بتعاطيه من المشروبات ، ولا أدل على ولعهم بها من كثرة

اشعارهم فى وصفها والترنم بأوصافها • وقد جاء الاسلام فحرمها لكثرة مافيها من الضرر •

الصـــدق :

لقد طفحت كتب التاريخ بالحديث عن أن صدق اللهجة والصراحة فى القول والتنزه عن الكذب هي من الخصائص التي يمتاز بها الانسان العربي ، ولنفور العرب من الكذب اذا كذب أحدهم كذبة حفظوها عليه وتحادثوا بها فى أنديتهم وأسمارهم كأمر مستنكر معيب •

الجـــود :

أما سخاء النفس والكرم فهما من أسمى الصفات الحميدة التي فطروا عليها •• بل أصبح الكرم شرعتهم الاجتماعية المحببة يتبارون فى ساحاتها ويحاول كل منهم أن يكون أطول باعاً فيها • اذ ليس هناك من يختلف فى ان الكرم هو خلق العربي الذي يحرص على أن يكون ملازماً له ملازمته لروحه • والعربي اذا نزل الضيف بداره يبالغ فى اكرامه واذا لـم يجد مايكرم به ضيفه الا راحلته أو فرس حربه ذبحها له فرحاً مسروراً •

ولتأصل هذا الخلق النبيل فى نفوسهم صاروا ينظرون الى البخل كأحط صفة يأنف كل منهم أن يتصف بها • وقد بلغ مستوى البذل والكرم بينهم حدا لم تبلغه أمة من الامم ، وكان بينهم أعلام مشاهير فى الكرم مثل حاتم طي •

عزة النفس والشجاعة :

كما ان من مزاياهم عزة النفس والتعفف ، والى هـذه الصفة الحميدة أشار عنترة بن شداد يقوله :

ولقد أبيت على الطوى وأظله ❋ حتى أنال به كريم المأكل

أما الشجاعة فهي من أهم الخصال التي يحرص العربي على أن يتحلى بها ، وكثيراً مايركبون المخاطر ويبذلون أرواحهم بسخاء متناه لاغاثة ملهوف أو انجاد مكروب التجأ اليهم •• أما شجعانهم المشاهير فأكثر من أن يحصيهم عدد •• وعلى سبيل المثال نذكر : عنترة بن شداد ، وربيعة بن المكدم وعمرو بن معدي كرب •

صيانة الأعراض :

العفة والحرص على صيانة العرض من أبرز الخصائص التي امتاز بها العرب على جميع الأجناس • ولقد نشأوا على الخلق وتوارثوه عبر الأجيال وبالغوا فى التمسك به وتنشئة بناتهم عليه حتى صرن لا يتصورن أن الحرة تفرط فى عرضها مهما كانت الظروف والأحوال •• ولعل أكبر شاهد على ذلك قول هند بنت عتبة (عندما بايع النبي ﷺ نساء مكة على ألا يزنين) فقالت مستغربة : « أوتزني الحرة يا رسول الله ؟ » •

حماية الجار :

وحماية الجار خلق متأصل فيهم ، بل وقانون معمول به فى طول البلاد وعرضها لا يجرؤ أي فرد على خرق هذا القانون الغير المكتوب الا الذي يرغب فى أن يعرض قبيلته لخوض حرب طاحنة •

فأية قبيلة ملزمة بحماية أي انسان يعلن فرد منها انه قد أجاره ، أي أعطاه الحماية •• واذا ماعتدى أي انسان على هذا المستجير فان القبيلة بأجمعها تهب للانتقام من المعتدى عليه حتى ولو أدى ذلك

الى بذل مئات الأرواح .

الوفاء بالعهد :

أما الوفاء بالعهد فهو أمر مقدس لا يمكن التهاون بشأنه . وان نقضه عندهم يعتبر جريمة لا تغتفر . ولذلك فانهم اذا أعطوا عهداً يسترخصون كل غال فى سبيل الوفاء به . وكم خاضوا حروباً وبذلوا دماءا غالية من أجل الوفاء بعهد أعطوه كما تشهد بذلك كتب التاريخ .

ثقافة العرب

يعتبر المجتمع العربي عبر عصور الجاهلية من أغنى المجتمعات بعناصر الثقافة الأدبية من حيث قوة التصور وحسن التعبير والقدرة على الوصف ورقة الأسلوب وحلاوة المنطق وحفظ الأحداث واستيعاب الأقوال ورسوخ المعاني فى الأذهان .

وكان العرب يعتمدون فى الاحتفاظ بانتاجهم الثقافى والأدبي على ذكائهم الخارق وقدرتهم المذهلة على الحفظ اذ هما الأوعية التي ظلت عبر القرون تحتفظ بانتاجهم الثقافى بصورة تدعو الى الدهشة .

فقد كان أحدهم يسمع (ولمرة واحدة) قصيدة من الشعر أو خطبة من الكلام الجزل فيحفظها فى الحال وتظل ذاكرته تختزنها ويتحدث بها كلما أراد دون أن ينسى منها حرفاً واحداً ، وهذا ما أنعش الأدب وساعد على نشر الثقافة .

اللغـــة :

كانت اللغة الحميرية منذ أقدم العصور هي لغة الثقافة والحضارة • وكان الحميريون أول من كتب لغتهم من العرب ، والخط الحميري لاتزال آثاره باقية فى اليمن على الصخور واللوحات الأثرية • وقد ازدهرت الثقافة والحضارة الحميرية فى اليمن وخاصة فى عهد ملوك التبابعة ، فكانت فى عهودهم أكثر بلاد اعــرب تحضراً وثقافة وتمدناً ، الا أن تعرضها للغزو الخارجي ووقوعها تحت الاحتلال الحبشي ثم الفارسي وتعرضها أيضاً لكوارث الطبيعة كانهيار ســد مأرب مفخر حضارتها ومصدر انتعاشها الاقتصادي ـ أوقف تقدمها فى أكثر المجــالات • كما أصاب اللغة الضعف فتوقفت عن التطور بسبب تطعيمها بألفاظ غريبة من لغــات المحتلين مما أفقدها ميزتهــا الى درجة الانحطاط والتلاشي •

وبينما اللغة الحميرية تضعف ويأخذ نجـم ازدهارها فى الأفول كانت لغة العدنانيين تنمو وتزدهر فى أواسط الجزيرة وشمالها وخاصة فى الحجاز ومكة (موطن القرشيين) الذين انتعشت لغتهم وأخــذت تسمو وتتطور حتى احتلت مكان الصدارة فى عذوبة اللفظ وسهولة التعبير ومتانة الأسلوب والاستيعاب لكل معاني البلاغة •

وعندما أزف ميعاد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت لغة قريش قد بلغت الكمال بين جميع لهجات الجزيرة ، ثم نزل بهــا القرآن الكريم فرفع شأنها وعزز مكانتها • وكان ذلك سبباً فى انصراف العرب عن اللهجات العربية الأخرى حتى تلاشت نهائياً •

الشعر والأسواق العربية :

والدليل على تفوق لغة قريش مـن أن الأسواق العربية التي يقيمها العرب خلال كل عام كانت تقام بالقرب من الحرم حيث يفـد إليها الناس من جميع أنحاء الجزيرة . وأهم هذه الأسواق : عكاظ ، ومجنة ، وذو مجاز .

وقد كانت هذه الأسواق بالاضافة الى التبادل التجاري تعتبر فى الدرجة الأولى مواسم ثقافية على أعلى المستويات الأدبية ، تقام فيها مباريات شعرية بين أبرز فحول الشعراء . وكان يجلس فيهـا محكمون أكفاء منصفون يعلنون فوز الشاعر الأفضل وتعلق قصيدته على الكعبة بمثابة جائزة تعتبر مفخرة عظيمة للشاعر لا يدانيها شيء . وكانت هذه القصائد تسمى المعلقات .

وكان الشعر من أهم وسائل التعبير والاعلام وتسجيل الأحداث الهامة لدى العرب ، ولذلك كان له المنزلة الأولى فى هـذه الأسواق الثقافية التقليدية .

وبالاضافة الى الشعر كانت الحكم البليغة والكلام الجزل يتحدث به الحكماء والبلغاء فى خطب تاريخية فريدة مثـل : أكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي الذي ألقى فى سوق عكاظ خطبته المشهورة وفيها انتقد مذهب الوثنية وبشر بدين الاسلام .

ولقد كان لهذه الاسواق التي تقام فيها المواسم الادبية عـدة مرات فى السنة أكبر الأثر فى نشر الثقافة بين القبائل ، وتشجيع التنافس بـين الشعراء والحكماء والبلغاء لاختيار أجمـل الألفـاظ وأرصن

التعبيرات وأرق الأساليب ، فساعد ذلك على الوصول باللغة العربية الى ما وصلت اليه من مستوى عال رفيع عند بزوغ شمس الاسلام حيث جاء والجزيرة العربية التي سادتها لغة قريش تزخر بالشعراء والفصحاء والخطباء .

العلوم :

بالرغم من طابع البداوة السائد بين القبائل الذي لايترك مجالا لشمس العلوم ان تظهر بحكم انشغال البدوي بالاتتقال من منطقة الى أخرى بحثاً عن الرعي لاشباع ماشيته التي هي عماد حياته ، فان هناك مناطق من بلاد العرب قد شهدت حركات عمرانية زراعية تشهد للعرب بحذاقتهم فى علوم الهندسة والتخطيط ، ولا أدل على ذلك من سد مأرب فى اليمن الذي يعتبر آية فى الهندسة والتصميم .

وللبدو معرفة خارقة بتقلبات الأجواء ، والاستدلال على قرب نزول المطر وتأخره وذلك بتقدير اتجاهات الرياح الى درجة ان الحاذقين منهم يأمرون ذويهم فى أوقات معينة بعدم البقاء فى بطون الوديان لأن سيولاً كبيرةً ستأتي فى أوقات معينة .

أما الطب فان الرقية والتعاويذ من الأمور الشائعة بينهم . وهناك العقاقير التي يجمعونها من الأعشاب وعرفوا فيها بالتجارب لمعالجة كثير من الأمراض . كما ان لهم براعة فى تجبير الكسور التي تصاب بها العظام ، والكي بالنار الذي يحتل الصدارة عندهم فى المعالجة . وكان بينهم أطباء لهم شهرة فى معرفة الأمراض ووصف الأدوية لها مثل الحارث بن كلدة ولقمان بن عاد .

التجــارة :

لقد عرف العرب التجارة من أقدم الأزمان وكانوا عــلى بداوتهم مهرة فيها الى حد بعيد • وزاد من ازدهار تجارتهم موقع جزيرتهم الذي يشكل حلقة اتصال بين الشرق والغرب • وكانت تأتي اليها السلع من الهند والشرق الأقصى عن طريق موانئها الجنوبية لينقل الكثير منها الى موانىء البحر الأبيض المتوسط ومختلف الأقطار الأوروبية الغربية • يضاف الى ذلك أن مناطق عــديدة فى جزيرتهم تصدر الى الخارج منتوجاتها المحلية وسلعاً كثيرة تدر على أهلها أرباحاً طائلة •

الفصل الثاني

بزوغ فجر الاسلام

سيرة الرسول :

ولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمكة يوم ١٢ ربيع الأول من عام الفيل الموافق سنة ٥٧١م •

نسبه الشريف من جهة والده : هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ابن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان •

أما نسبه من جهة أمه فهو ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ويلتقي نسب أمه مع نسب أبيه فى جده كلاب ابن مرة ••

وكان بنو هاشم (أسرة النبي صلى الله عليه وسلم) فى الذروة من الشرف بين قبائل قريش ، وقد اتصفوا بكرم الأخلاق والجود لذلك كانت لهم سقاية الحجيج ورفادتهم . وكان عبد الله أصغر أبناء عبد المطلب العشرة من الذكور و أحب أبنائه اليه ، وكانت أم عبد الله من الأوس من بني النجار فى يثرب . وامتاز عبد الله بحسن السلوك ودماثة الخلق وحسن المعاشرة . وعندما تخطى السابعة والعشرين اختار له أبوه زوجة من أشرف وأكرم بيوت يثرب وهي آمنة بنت وهب الزهرية ، فكانت مثال المرأة العفيفة الكريمة .. وقد سعد عبدالله بزواجها لما وجد فيها من كريم الصفات وشرف الخصال ، الا أن عشرته لها لم تدم طويلاً ، فبعد مرور مايقرب من أربعين يوم على زواجه منها ذهب الى الشام فى رحلة تجارية ، وفى هذه الرحلة توفى بالمدينة عند أخواله بني النجار على اثر مرض ألم به وهو عائد من الشام . وكانت زوجته السيدة آمنة حامل بالرسول . وعندما ولدته فرح به جده عبد المطلب فرحاً عظيماً .

نشــأته :

وقد أرضعته أمه لمدة سبعة أيام ، ثم أرضعته ثويبة مولاة عمه أبي لهب وأرضعت قبله عمه حمزة (ر) وكما هي عادة أهل مكة أسلمته أمه لمرضعة بدوية هي حليمة السعدية من قبيلة هوزان ، فأخذته معها الى البادية حيث أرضعته لمدة سنتين ثم فطمته . وأقام فى ديار بني سعد مع مرضعته واخوته بالرضاعة نحو أربع سنين ، ثم عادت به حليمة الى مكة .

وفى السادسة من عمره ماتت أمه السيدة آمنــة بنت وهب فى الطريق وهي عائدة من المدينــة الى مكة بعد أن زارت بــه أخواله

بني النجار • وقد دفنت فى الأبواء بين مكة والمدينة • ثم كفله جده عبد المطلب وازدادت عنايته به وتضاعف حبه له ، الا أن جده لم يطل به العمر فتوفى والرسول عليه الصلاة والسلام فى الثامنة من عمره •

وبعد وفاة جدّه عبد المطلب كفله عمه أبو طالب الذي لم يكن أقل حباً له وعطفاً عليه وبراً به من جده • وقد رعى الغنم بعد أن تخطى الثانية عشرة من عمره ليساعد عمه بما يكسبه فى تحمل أعباء المعيشة لأن أبا طالب كان شديد الفقر وكثير العيال •

وظل محل رعاية وعناية وحماية عمه الرجل الوقور حتى بلغ رشده وبعث نبياً مرسلاً • وكانت أول حرب يشهدها فى الرابعة عشرة من عمره هي حرب الفجار (سميت بحرب « الفجار » لأنها وقعت فى الأشهر الحرم التي نشبت بين قريش وحلفائها من جهة وبين قيس من جهة أخرى • وقد اشترك فيها فكان يساعد أعمامه بتجهيز النبل •

خارج الجزيرة :

كانت أول رحلة قام بها خارج الجزيرة هي رحلته الى الشام وهو فى الثانية عشرة من عمره •• ولم يكن فى رحلته متاجراً وانما ليصحب عمه أبا طالب الذي بشره فى هذه الرحلة بحيراً الراهب أن ابن أخيه محمداً هو النبي المنتظر كما هو مبين فى التوراة •

كان محمد ﷺ منذ نشأته مشهوراً بالصدق والأمانة والوفاء لذلك أوكلت إليه السيدة خديجة بنت خويلد القيام بشئون تجارتها •• وكان أول عمل تجاري قام به لخديجة أن ذهب ومعه غلامها ميسرة الى سوق حباشة فى اليمن فربح ربحاً حسناً • ثم ازدادت ثقتها

به فبعثت به الى الشام بتجارة لها فربح أرباحاً كبيرة وكان عمره خمساً وعشرين سنة •

وقد توسمت السيدة خديجة فيه من الخصال الحميدة والأخلاق العالية ماجعلها ترغب فى أن يكون زوجاً لها • وكانت من أشراف قريش كريمة الأصل والنسب مثال المرأة المخلصة الصالحة ـ وقد خطبها له عمه أبو طالب فتزوجها وهي فى الأربعين بينما كان هو فى السادسة والعشرين •

وكانت السيدة خديجة (ر) خير معين للنبي ﷺ طيلة حياتها معه ، فقد كانت تشد أزره أيام محنته فى مكة حينما اشتد أذى قريش له • وفى حديثه عنها قال : لقد آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقتني حين كذبني الناس ، وأعطتني مالها حين حرمني الناس • ومنها أنجب جميع أولاده ماعدا ابراهيم فانه من زوجته مارية القبطية (ر) •

سيرته قبل البعثة :

كان صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره بعيداً عن دنس الجاهلية وفسادها الذي غرق القوم فى جحيمها • وفى سيرته قبل البعثة الدليل الذي لا يقبل الجدل انه خلق ليؤدي رسالة عظيمة • فميزه الله بأخلاق وصفات لم يتحل بها غيره من عفة اللسان وطهارة الجنان وصدق الحديث وقوة الأمانة • وكان لهذه الصفات الحميدة الاحترام والاجلال من قومه على اختلاف طبقاتهم حتى انهم سموه بالأمين •

لقد عرف قبل البعثة بعمق التفكير ورجاحة العقل وسمو الخلق مالم يتوفر لغيره ، فشاعت سجاياه بين قومه فى أوساط قريش الذين حكموه فى حل مشكلة الحجر الأسود ، وقصتها هي :

حينما جدد بناء الكعبة اختلف زعماء قبائل قريش على وضع الحجر الأسود .. الكل منهم يريد أن يحظى لنفسه بشرف حمله ووضعه فى مكانه بالكعبة ، وكادت الحرب الأهلية أن تنشب بينهم ولكن أحد زعمائهم هو (أبو أمية حذيفة بن المغيرة المخزومي) اقترح حلاً للمشكلة أن يحكّموا أول من يدخل المسجد فقبلوا . وكان محمد صلى الله عليه وسلم أول من دخل ، ففرحوا قائلين : هذا الأمين قد رضينا به ، فأوجد حلاً للمشكلة بأسلوب يدل على رجاحة العقل وسداد التفكير ، فقد أمر بفرش رداء ثم وضع فيه الحجر بيده وهنا أمر زعماء القبائل بأن يمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء فيرفعوا الحجر ، حتى اذا ماحاذى المكان المعد له بالكعبة أخذه بيده الكريمة فوضعه فيه . وبهذا التصرف الحكيم قطع دابر النزاع وجنب قريشاً حرباً أهلية طاحنة ، فرفع ذلك من منزلته بين القوم .

ومما شهده الرسول هو حلف الفضول الذي دعى عقلاء قريش الى عقده بينهم على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ، الا رفعوا عنه الظلم وردعوا الظالم .. وعقد هذا الحلف فى دار عبد الله بن جدعان ، ولاعجابه وتقديره للحلف كان يقول بعد أن بعثه الله : (لو دعيت الى مثله لأجبت) .

وعندما اقترب ميعاد بعثته حبب الله إليه الخلوة بنفسه ، بعد أن صار يضيق مما يرى ويسمع فى مجتمع قومه من تصرفات تنافى الفطر السليمة ، وكان مكانه المفضل للخلوة والتعبد (غار حراء) فى ضواحي مكة .

البعثـــة :

بعد أن اكتمل الأربعين من عمره ، وبينما كان مختلياً بنفسه فى غار حراء يتعبد نزل عليـــه جبريل (ع) بالوحي وكان ذلك فى شهر رمضان عام ٦٠٩ ميلادية • وبدون مقدمات أمره جبريل أن يقرأ ففزع وقال : ما أنا بقارىء فكرر الأمر ثلاث مرات وفى المرة الرابعة قال له : (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الانسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم •)[1]

قال ﷺ فقرأتها ثم انتهى وانصرف عني ، فكأنما كتب فى قلبي كتاباً • ثم غادر الغار الى زوجته يرجف فؤاده من هول المفاجأة فأخبرها بما حدث له فقالت : ابشر يا ابن العم فوالذي نفس خديجة بيده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة •

وكان للسيدة خديجة من رجاحة العقل وصفاء البصيرة ماجعلها تستبعد أن يكون ماحدث لزوجها فى الغار من تلبيسات الشياطين ، لذلك لم تتجه للاستفسار الى الكهان والعرافين ، بل اتجهت الى رجل وقور ذي ثقـــافة متينة اعتزل الأصنام وقرأ التوراة والانجيل وهو ابن عمها ورقة بن نوفل ، ولما أخبرته خبر زوجها قال لها مبشراً : ان صدقت يا خديجة لقد جاء الوحي الذي ينزل على الرسل ، وانه لنبي هـــذه الأمة فقولي له فليثبت •

الـــدعوة الى الله :

ثم نزل عليه الوحي من جديد ، وبدأت مرحـــلة جديدة وهي الدعوة الى الاسلام بغير طريق المجابهة والصدع ، بل بطريق أقرب

(١) سورة العلق آية (١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) .

مايكون الى السرية .. وظل ﷺ طيلة ثلاث سنوات يعرض الاسلام (سراً) على من يتوسم فيهم الخير فآمن به نفر قليل من كبار النفوس كان فى مقدمتهم ، زوجه خديجة ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، ومولاه زيد بن حارثة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف والأرقم بن أبي الأرقم ، وغيرهم .

وبالرغم من علم قريش بظهور الدين الجديد ، إلا انهم لم يهتموا به خلال السنوات الثلاث . كما أن الرسول ، لم يتعرض لآلهتهم فى تلك المدة . ولكن معارضة قريش كانت عنيفة عندما أعلن دعوته جهراً كما أمره الله أن يجهر بها ويبدأ بأقاربه فيدعوهم الى دين الاسلام ، فقال تعالى : وانذر عشيرتك الأقربين . وكان أول من دعاهم بني عبد المطلب فلم يستجب له أحد منهم الا ابن عمه (علي بن أبي طالب) كما لم يسمعه أحد منهم مايكره الا عمه أبو لهب الذي رد عليه رداً قبيحاً ..

مقاومة قريش للدعوة :

هبت قريش لمقاومة الدعوة لأنهم رأوا فيها هدماً لكيانهم الذي أقيم على الوثنية . ولما رأوا ان الرسول ﷺ متمسكاً بدعوته غير عابىء بما يفعلون أو يقولون ، بعثوا وفداً من زعمائهم الى عمه أبي طالب ليأمره بالكف عن التنديد بدينهم وتحقير أصنامهم ، فاستدعاه أبو طالب وقال له ناصحاً : ابق علي وعلى نفسك يا ابن أخي ولاتحملني من الأمر مالا أطيق ، فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يميني ، والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر مافعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وكانت هذه الكلمات النبوية الحازمة كافية لأن تجعل أبا طالب ينسى قريشاً وإنذارهم فيؤكد للنبي ﷺ أنه لن يتخلى عنه قائلاً : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت وحدث ماشئت .

الهجرة الى الحبشة :

وتمادت قريش فى غيها وبذلت قصارى جهدها لاخماد صوت دعوة التوحيد . وكان من أشدهم مقاومة للدعوة أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان . ولما لم تستطع قريش أن تنال بغيتها ازدادت كفراً وعتواً وايذاء للمسلمين ، وصبت جام غضبها على المستضعفين ، وعندها أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الى الحبشة لينجوا من بلاء قريش قائلاً لو خرجتم الى الحبشة فاز بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ، فهاجر جمع منهم اليها وذلك فى السنة الخامسة من البعثة .

وقد بعثت قريش بوفد الى النجاشي ليعيد إليهم المهاجرين أو يطردهم ، وحاولوا اغراءه بهم فاتهموهم بأنهم يطعنون بعيسى عليه السلام ولكن النجاشي رفض طلبهم وأحسن الى المسلمين ــ بعد أن تلا أحدهم سورة مريم أمامه . وبقي المسلمون فى الحبشة الى أن عادوا مع جعفر ابن أبي طالب فى السنة السابعة من الهجرة . وقد وصلوا والرسول فى خيبر بعد اتمام فتحها فكان سروره مزدوجاً بوصول صحابته من الحبشة سالمين وبفتح خيبر .

جحود قريش وتهديدها :

اشتد القرشيون فى مقاومتهم لدعوة الاسلام ، ومع ذلك فقد تزايد عدد المسلمين وقوي جانبهم بدخول رجلين فى الاسلام كان لهما

وزنهما الثقيل فى المجتمع القرشي ، وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب ، بعد ذلك لجأوا الى سياسة المقاطعة والتجويع فتماهدوا فيما بينهم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب وكل المسلمين اقتصادياً واجتماعياً • وعانى الجميع من هذا الحصار أشد أنواع التجويع والحرمان ولكن بعض النبلاء من القرشيين استنكروا هذه المقاطعة ، فعملوا على انهائها بعد أن استمرت ثلاث سنوات •

واستمر الرسول يدعو الى ربه كل من يلقاه من أهل مكة وغيرهم فكانت دعوته تلقى تجاوباً ملموساً • وفى السنة العاشرة من البعثة أصيب بمصيبتين كبيرتين فى آن واحد كان لهما أكبر الأثر على نفسه هما وفاة زوجته خديجة التي كانت تشد أزره وتواسيه • وبعد مضي أربعين يوماً على وفاتها مات عمه أبو طالب الذي كان يحميه ويناصره •

وتجرأت قريش على النبي ﷺ وصار سفهاؤهم يمدون اليه أيديهم بالأذى • وقد أفصح عن ذلك فقال : (مانالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب) •

ومع مالحق به من أذى فكان يقول : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون » •

ولما اشتد عليه الأذى من قومه فى مكة ذهب الى الطائف فعرض الاسلام على اشرافها ودعاهم الى نصرته فلم يكتفوا بتكذيبه ورفضهم لنصرته بل أغروا به سفهاؤهم فقذفوه بالحجارة •

بيعـة العقبـة :

عاد الرســول من الطائف ودخل مــكة فى حمــاية المطعم بن عدي ، واستمر قومه فى ايذائه والتضييق عليه وعلى أصحابه ، ولكنه لم يأبه لهم بل بقي راسخاً كالطود العظيم لاتزعزعه الشدائد ولا توهن من عزيمته المصائب ، بل تزده تصميماً واقداماً ، واستمر فى دعوته •

ثم خرج أيام الحج كعادته يدعو الحجاج الى الاسلام ، فالتقى بنفر من أهل المدينة المنورة ، من الأوس والخزرج ، فآمنوا به وتعاهدوا معه على حمايته ان هو جاء الى المدينة ، وكان ذلك فى منى بمكان يقال له « العقبة » •

الهجرة الى المدينة المنورة :

بعد بيعة العقبة أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة الى يثرب فهاجر الصحابة سراً الا عمر بن الخطاب (ر) فانه بعد أن طاف بالكعبة خرج علناً وهدد من يتبعه من المشركين •

وقررت قريش قتــل النبي ، فاجتمعت فى دار الندوة واتفقوا على ان تشترك جميع قبائل قريش فى قتله ، فيختار من كل قبيلة شاباً فيضرب محمداً ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين جميع القبائل فيعجز بنو هاشم عن المحاربة فيرضون بالدّية • ولكن الرسول أفسد عليهم هذه الخطة فقرر الهجرة الى يثرب ، وغادر مكة ومعه أبو بكر الصديق فى الليلة التي اتفقت قريش على تنفيذ الجريمة فيها ، وترك ابن عمه علي ابن أبي طالب فى فراشه •

وجدّت قريش فى مطاردة النبي ﷺ وجعل زعماؤها مائة ناقة جائزة لمن يعيد إليهم محمداً حياً أو ميتاً ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ،

فقد تمكن وصاحبه من الافلات واتجها نحو يثرب بعد أن اختفيا فى غار (ثور) جنوبي مكة حيث مكثا ثلاث ليال .

وبعد رحلة شاقة استمرت أحد عشر يوماً وصلا قرية قبـاء فى ضواحي يثرب وفيها مكثا أربعـة أيام حيث أقام خلالها النبي أول مسجد أسس فى الاسلام .

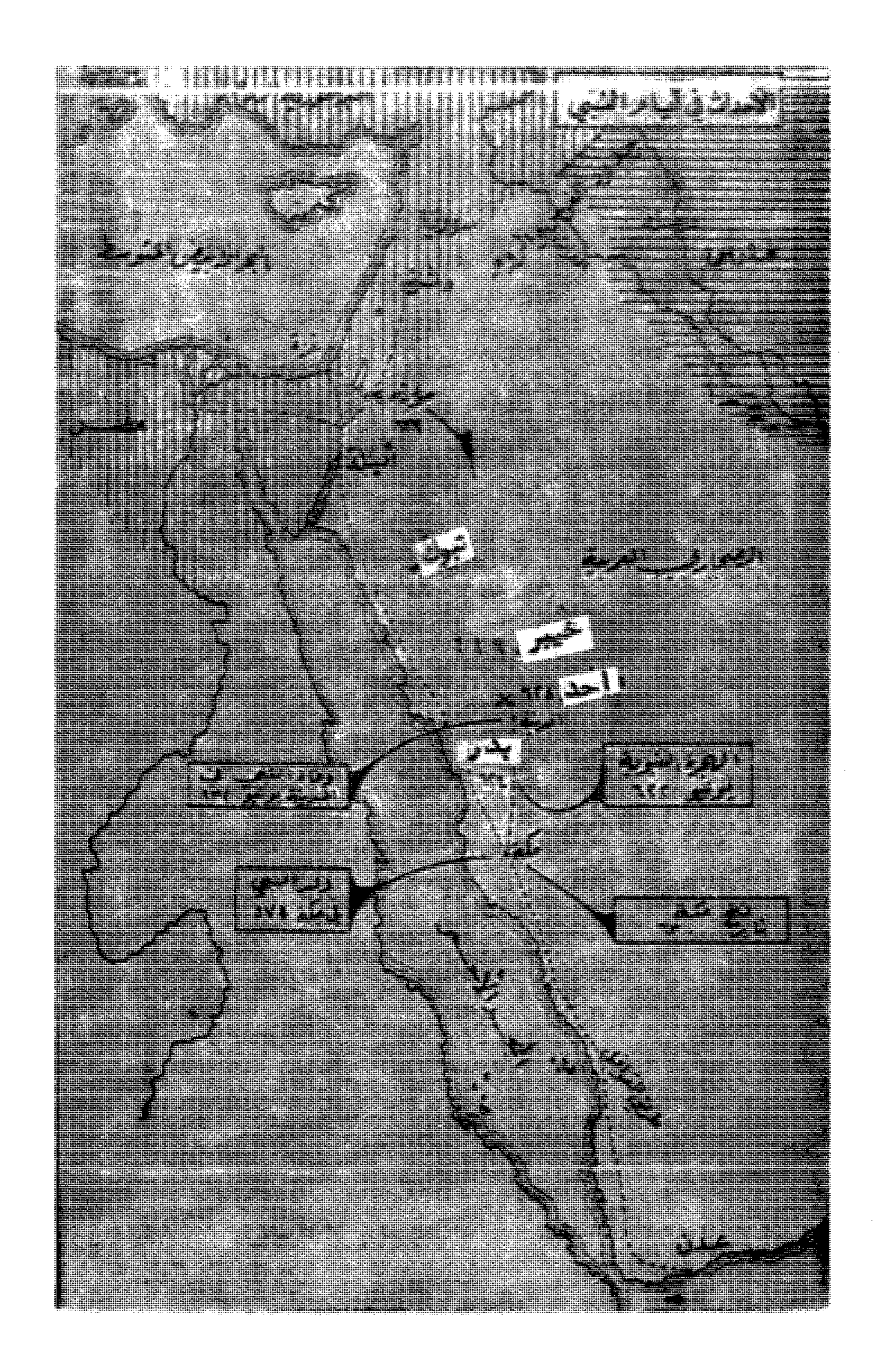
وفى يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول (سنة ٦٢٢ م) خرج أهل يثرب للترحيب بالرسول العظيم ، فكان ذلك اليوم يوماً تاريخياً لم تشهد المدينة مثله . ونزل فى دار (أبو أيوب الأنصاري) .

ومنذ ذلك التاريخ أطلق على يثرب اسم (دار الهجرة) أو المدينة وأطلق على الذين هاجروا إليها اسم المهاجرين وعلى الأوس والخزرج الذين آووا ونصروا النبي اسم الأنصار .

بنـاء الدولة الاسلامية

وكانت أولى المسائل التي اهتم بها النبي ﷺ بنـاء المجتمع الجديد على قواعد الاسلام ، وأول ماواجهه من مشاكل هو العـداء المستحكم بين قبائل الأوس والخزرج الذي هو من مخلفات الوثنيـة المظلمة .. وقد تغلب عـلى تلك المشكلة بحكمته ورجاحة عقله . ثم شرع فى بناء المسجد لتظهر فيه شعائر الدين الجديد ، ويكون ملتقى لمختلف العناصر القبلية فتتآلف فيه قلوبها فى ظل وحدة التوحيد .

وقد لجأ الى وسيلة حكيمة اجتث بها جذور الفرقة والبغضاء التي كانت تذكيها الحروب القبلية الجاهلية فعقد مؤتمراً عاماً فى المدينة آخى فيه بين المسلمين جميعاً . وبهذه المؤاخاة لم يعد أي وجود للشحناء فى المجتمع الاسلامي ، وأصبح أول مجتمع مثالي فى جزيرة العـرب


البحر المتوسط
الصحراء العربية
خيبر
أحد ٦٢٥
بدر
عدن

يسوده الهدوء والنظام وتسيطر عليه روح الاخاء والمحبة والتسامح .

وفى الوقت الذي تم فيه التآخي بين المسلمين منح يهود المدينة كافة الحقوق ، وتعهدوا له بالاشتراك مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة ضد أي عدوان خارجي ، ولكن اليهود نقضوا العهد ..

غزوة بدر الكبرى

(سنة ٢ هـ ـ ٦٢٤ م)

كان القتال قبل الهجرة غير مأذون به للمسلمين ثم نزل به الاذن فى آيات منها قوله تعالى « أذن الذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » . (٣٩ ، ٤٠ الحج) .

قبل معركة بدر الكبرى بحوالي تسعة عشر شهراً لم يحدث أي عراك دامي بين المسلمين والمشركين سوى الحادثة التي استولت فيها سرية عبد الله بن جحش على قافلة لقريش بين مكة والطائف وقتلت منهم رجلاً كان أول قتيل من المشركين .

وفى مكان يقال له بدر يقع على بعد ١٦٠ ميلا جنوب غرب المدينة المنورة كان بمثابة محطة رئيسية لقوافل قريش المتنقلة بين مكة والشام نشبت معركة بين المسلمين وقريش فى السنة الثانية من الهجرة وسببها أن المسلمين خرجوا للاستيلاء على قافلة تجارية لقريش التي استولت على أموالهم وصادرتها فى مكة .

أفلتت القافلة من المسلمين والتقوا بدلاً منها بألف مقاتل من

المشركين فاضطروا الى الاشتباك معهم فى بدر وذلك ماعناه الله تعالى بقوله « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين • (الانفال ٧) وقد كتب الله النصر للمسلمين فى هذه المعركة رغم قلة عددهم بعد أن قتلوا سبعين من المشركين وأسروا أعداداً كبيرة • وقد أطلق الرسول سراح بعضهم دون مقابل ، وبعضهم دفع عن نفسه الفدية ، والبعض الآخر أطلق سراحهم مقابل أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة •

أما الغنائم فقد جرى توزيعها حسب الآية الكريمة : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (الأنفال ٤١) •

غزوة أحد

(سنة ٣ هـ ـ ٦٢٥ م)

بعد الهزيمة الساحقة التي أنزلها المسلمون بقريش فى معركة بدر قرر قادتها أن يغسلوا عار تلك الهزيمة ويثأروا لقتلاهم فى بدر • ففي السنة الثالثة للهجرة جهزوا جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب لمهاجمة المسلمين فى يثرب وكانت قوات المسلمين تقدر بسبعمائة مقاتل •

وصل جيش قريش فعسكر بالقرب من جبل أحد الواقع شمالي المدينة ، وكان المسلمون قد خرجوا من المدينة وعسكروا فى موقع فم

الشعب وجعلوا جبل أحد وراء ظهورهم . ودارت المعركة فكان النصر للمسلمين فى المرحلة الأولى ولكنهم أصيبوا بنكسة حولت نصرهم الى هزيمة فقدوا فيها سبعين شهيداً بينهم حمزة بن عبد المطلب ، كما جرح الرسول ﷺ وأشيع أنه قتل . وكان سبب الهزيمة خروج الرماة على أوامر الرسول بتركهم أماكنهم فى الجبل الذي وضعهم فيه لحماية مؤخرة الجيش ، فقد اغتنم قائد سلاح فرسان قريش فرصة انسحاب الرماة من مواقعهم فكر على المسلمين من الخلف وأوقع الاضطراب والفوضى فى صفوفهم حتى تمزقت ، وقد اكتفت قريش بما حدث فعاد جيشها الى مكة بعد أن خسر أربعة وعشرين قتيلاً . وفى معركة أحد كشف الله المنافقين حيث تمرد منهم ثلاثمائة تركوا صفوف الجيش والنبي فى منتصف الطريق الى أحد . وقد كانت الانتكاسة درساً وعاه المسلمون فى الانضباط العسكري والتقيد بأوامر الرسول القائد .

غزوة الأحزاب

(سنة ٤ هـ ـ ٦٢٦ م)

أمر الرسول اجلاء يهود بني النضير عن المدينة بعد أن ثبت تدبيرهم مؤامرة لاغتياله . ولم يكد يستقر المقام لهؤلاء اليهود فى خيبر حتى اتفقوا مع زعماء قريش لمهاجمة المدينة والقضاء على المسلمين فيها . ولتحقيق مخططهم جمعوا مع قريش عشرة آلاف مقاتل من القبائل الوثنية فى نجد والحجاز . وقد بلغ النبي ﷺ أنباء هذا الحشد فجمع أعوانه وحفروا خندقاً شمالي المدينة كخط دفاع حسب مشورة سلمان

الفارسي (ر) • وهاجمت جيوش قريش وحلفائها المدينة وانضم اليها يهود بني قريظة الموجودين داخل المدينة بعد أن نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين •

شدد الغزاة الخناق على المسلمين والحصار على المدينة الصامدة كالطود • واستمر ذلك حوالي شهرين • ثم أرسل الله عليهم ريحاً شديدة ففكوا حصارهم عن المدينة دون أن يحققوا شيئاً من الأهداف التي جاءوا من أجلها •وكان فشل الاحزاب فى احتلال المدينة الاسلامية أكبر اندحار عسكري للمشركين واليهود وأعظم انتصار يحققه المسلمون فى العهد النبوي الأمر الذي أدى الى رفع سمعتهم فى جزيرة العرب •

صلح الحديبية :

بعد انتصار المسلمين على الأحزاب بادر النبي ﷺ الى تعميق جذور الدعوة وترسيخ قواعد الدولة الجديدة • وفى السنة السادسة للهجرة أمر أصحابه بالتهيؤ للعمرة فخرج ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين • وبالرغم من أنه لم يخرج للحرب فقد اعترض القرشيون سبيله ، فعسكر بأصحابه وهم بلباس الاحرام فى الحديبية على مقربة من مكة • ثم جرت المفاوضة بينه وبين القرشيين الذين طلبوا فى النهاية عقد صلح بينهم وبين المسلمين فأجابهم الى ذلك ، وكان من أهم بنود الاتفاق مايلي :

١) على المسلمين أن يرجعوا ولايدخلوا مكة ذلك العام •

٢) من حق المسلمين أن يدخلوا مكة معتمرين فى عامهم القادم ويقيمون فيها ثلاثة أيام •

٣) على المسلمين عند دخولهم الى مكة ألا يحملوا من السلاح الا السيوف فى أغمادها •

٤) انهاء حالة الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات •

٥) يلتزم الرسول بأن يعيد الى قريش من أبنائهم من جاء اليه بغير اذن وليه ، وليس على قريش أن تعيد من جاء اليها من المسلمين •

٦) تعطى الحرية المطلقة للقبائل المجاورة لقريش لتنضم الى أي الفريقين شاءت على أن تكون فى عهد الفريق الذي تنضم اليه وتطبق عليها أحكام والتزامات هذا الصلح •

مكاسب الصلح :

وقد كان صلح الحديبية نصراً عظيماً للرسول ودعوته • وخلاصة مكاسبه هي :

أ) اتاحة الفرصة للمسلمين والمشركين بأن يختلط بعضهم ببعض فى حرية وأمان ، الأمر الذي جعل القرشيين يتفهمون حقيقة الاسلام فيدخلون فيه عن فهم واقتناع •

ب) أوقف مقاومة قريش فساعد ذلك المسلمين على التفرغ لوضع حد لشغب اليهود فى خيبر ووادى القرى وفدك وتيماء •

ج) تفرغ الرسول ﷺ لنشر الدعوة على نطاق واسع وأوفد رسله الى ملوك وأمراء الشرق يدعوهم الى الاسلام •

د) فر كثير من شباب قريش المسلمين من مكة وأرادوا الاقامة

فى المدينة ، فلم يسمح لهم النبي ﷺ بذلك وفاء بالعهد الذي أعطاه لقريش فى الحديبية ، فقطعوا الطريق بين مكة والشام ، وصاروا يهاجمون قوافل قريش التجارية ، فلجأت قريش الى النبي وأبلغته تنازلها عن الشرط المتعلق بعدم ايوائه من يريد من أهل مكة لتأمن على تجارتها فوافق على طلبها •

الرسول يدعو الملوك الى الاسلام :

أثناء الهدنة بين المسلمين وقريش دعا النبي ﷺ الملوك والرؤساء الى الاسلام وفى مقدمتهم : هرقل امبراطور الروم ، وكسرى ملك الفرس ، والمقوقس عامل الرومان على مصر ، وباذان نائب كسرى على اليمن ، فبعث الى كل من هؤلاء رسولا خاصاً بكتاب منه ، وقد كان رد الفعل لدى هؤلاء مختلفاً فبينما غضب كسرى ومزق رسالة النبي قبل أن يقرأها ، تفهم هرقل الرسالة وأكرم حاملها وأيضاً المقوقس أجاب اجابة حسنة ، أما باذان فقد اعتنق الاسلام ومن معه من الفرس فى اليمن •

فتح خيبر

(سنة ٧ هـ ـ ٦٢٩ م)

كان أول عمل قام به النبي ﷺ بعد صلح الحديبية هو وضع حد لشغب اليهود ودسائسهم وانهاء سيطرتهم على منطقة خيبر التي اتخذوها مركزاً للحركات ضد المسلمين • مع العلم أنهم كانوا وراء غزوة الأحزاب التي خططوا لها مع قريش واشتركوا فى تنفيذها للقضاء

على الدعوة الاسلامية وتصفية أنصارها • وقد تمت السيطرة للمسلمين على خيبر بعد قتال شديد استمر شهرين ، وبسقوطها استسلمت باقي جيوب المقاومة اليهودية فى فدك ووادي القرى وتيماء • وبذلك تم نهائياً القضاء على الوجود اليهودي وخطره •

فتــح مــكة

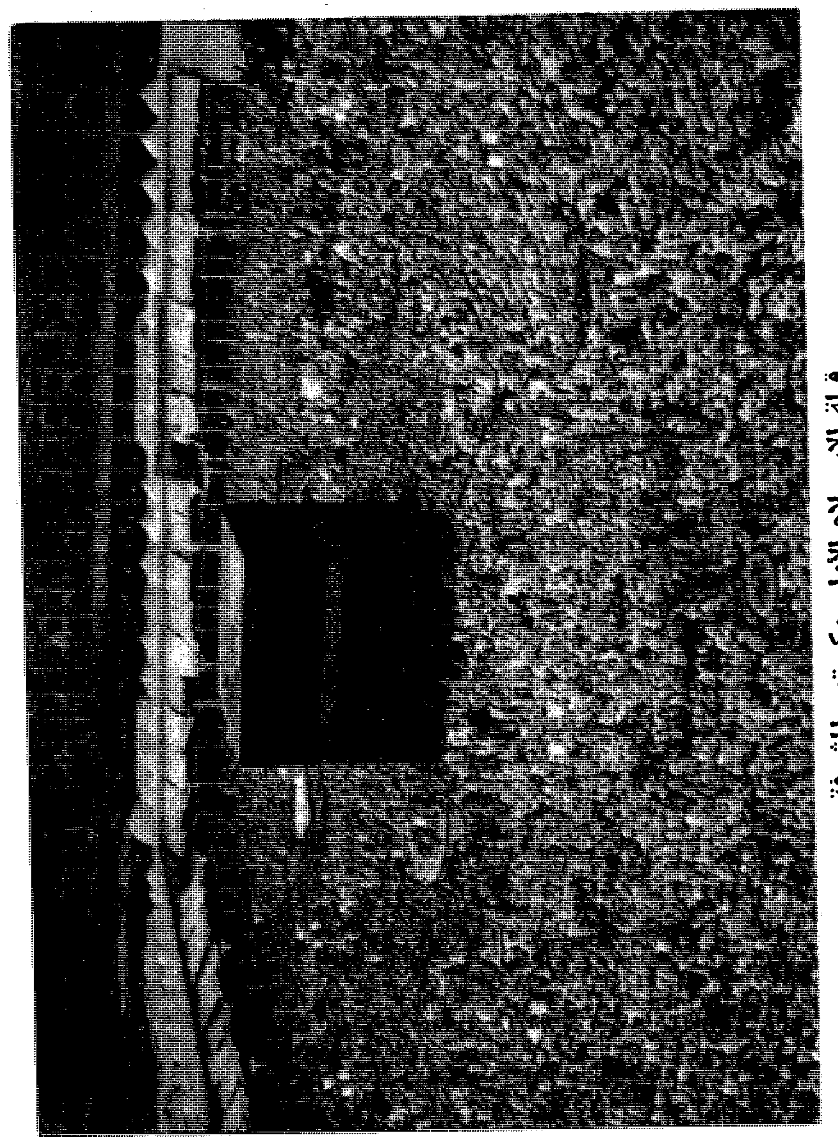
(سنة ٨ هـ ـ ٦٣٠ م)

اعتدى بنو بــكر حلفاء قريش على خزاعة حلفاء النبي ﷺ فاعتبر النبي مساعدة قريش لبني بكر بالســلاح والرجال نقضاً صريحاً لصلح الحديبية ، فقرر الزحف على مكة لأنهاء الوجود الوثني فيها •

وقد أمر الرسول ﷺ بالتعبئة العامة بين المسلمين فاجتمع لديه عشرة آلاف مقاتل خرج بهم من المدينة فى شهر رمضان السنة الثامنة للهجرة ، وكان قد التزم الكتمان فى زحفه حتى أن المسلمين لم يعلموا أنه يقصد مكة •

وكان ابو سفيان قد جاء الى المدينة بغية تجديد الصلح ولكنــه فشل فعاد الى مكة •• وعندما وصل الجيش الاسلامي الى ضواحيها خرج أبو سفيان يلتقط الأخبار فالتقى به العباس بن عبد المطلب فذهب به الى الرسول فأعطاه الأمان ، ثم أسلم •

ودخل المسلمون مكة من جهــاتها الأربع ، ولم يحدث عنــد فتحها الا بعض المناوشات فى الناحية التى دخلها خالد بن الوليد حيث اعترضه بعض المشركين فاضطر لقتالهم •



قبلة الاسلام الاولى وكعبتهم المشرفة

وعند دخول مكة أعلن الرسول ﷺ : من دخل الحرم فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن حتى تمت السيطرة للمسلمين عليها •

تحطيم الأصنام :

بعد أن طاف الرسول بالكعبة سبعاً وخلفه أصحابه أمر بتحطيم جميع الأصنام وهو يقول (وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا) « الاسراء ٨١ » ،ثم أذن بلال على سطح الكعبة ، وصلى المسلمون وخطب النبي ﷺ خطبة تجلى فيها التسامح فى أعلى مظاهره فقال : (لا إله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ، ثم خاطب قريشاً قائلا : (يامعشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء • الناس من آدم وآدم من تراب (يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) «الحجرات١٣» • يامعشر قريش ماتظنون أني فاعل بكم قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم قال : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) •

غزوة حنين
(سنة ٨ هـ ـ ٦٣٠ م)

علمت قبائل هوازن باستيلاء المسلمين على مكة ، فساءها ذلك وقرر زعيمها مالك بن عوف النضري أن يزحف على المسلمين لاخراجهم من مكة ، وبلغ النبي ﷺ ذلك فخرج فى اثني عشر ألفاً من المسلمين • وفى وادي حنين ـ بين مكة والطائف ـ التقى بقبائل هوازن البالغ عدد رجالها آلاف المقاتلين •

ومع طلوع الفجر انفض المسلمون بقوة وايمان لا يغلب ، على هوازن وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة مزقتهم شر ممزق ، وغنموا فى هذه المعركة مالم يغنموا مثله فى أية معركة حدثت فى العهد النبوي .

حجـة الوداع :

مما قال جابر (١) فى وصفه لحجة الوداع .. ان الرسول صلى الله عليه وسلم قصد مكة حاجاً فى السنة العاشرة من الهجرة فخرجنا معه من المدينة حتى أتينا ذا الحليفة .. الى أن قال : ثم ركب القصواء (٢) حتى اذا استوت ناقته على البيداء نظرت الى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك .. الى أن قال : حتى اذا زاغت الشمس خطب فى الناس ومما قال : ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا . كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع . فاتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمان الله . الى أن قال : ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله .

ولقد ذكر ان عدد الذين حجوا مع رسول الله فى ذلك العام مائة ألف . وفى حجة الوداع نزل على النبي آية من القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام

---

(١) صحيح مسلم ـ الجزء الرابع

(٢) الرسول صلى الله عليه وسلم ركب ناقته واسمها القصواء

دينا . » ولقد قيل ان هـذه الآية دلت على انقطـاع الوحي وان الرسول صلى الله عليه وسلم سوف يلتحق بالرفيق الأعلى . وبعد حجة الوداع بثلاثة أشهر مرض بالحمى ، ولما اشتد به المرض أمر أبابكر أن يصلي بالناس ، ولما بلغه أن الأنصار يبكون خرج الى المسجد معصوب الرأس متكئاً على علي بن أبي طالب حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وخطب فقال : (أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبي قبلي ممن بعثه الله ؟ فأخلد فيكم ، ألا اني لاحق بربي ، وأنكم لاحقون بي ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خـيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم بخير فان الله يقول : والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر . وأوصيكم بالأنصار خيراً فانهم الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم) .

وفـاة الرسول :

لما اشتد المرض عليه ﷺ لم يخرج من البيت حتى لقي ربـه وذلك ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة (الموافق ٨ حزيران ـ يونيه عام ٦٣٢ م) فحزن المسلمون حزناً عظيماً لهذا الخبر المؤلم ، ومنهم من مرض وبعضهم أنكر وفاته مثل عمر بن الخطاب الذي شـهر سيفه قائلا : من قال أن محمـداً قد مات قطعت رأسـه بسيفي هذا . وكان عمر يرى ان الرسـول لم يمت ـ بل يرى أنه وعد مثلما وعـد موسى وسـوف يرجع (قال تعالى : وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه هارون اخلفني فى قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) « ١٤٢ ـ الأعراف » .

عندما سمع أبو بكر الصديق ماقاله عمر بن الخطاب ورأى ما آل اليه أمر المسلمين وقف فيهم خطيباً وقال (أيها الناس ، من كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لايموت ثم تلا الآية : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللهشيئاً وسيجزي الله الشاكرين » .

وفى ليلة الاربعاء فى اليوم الرابع عشرمنشهرربيعالأول سنة ١١ هـ دفن عليه الصلاة والسلام فى مكان فراشه فى بيت عائشة (ر) ..

مزاياه وصفاته :

اذا أردنا هنا أن نعد ونحصي مزايا الرسول ﷺ وصفاته وأفعاله الحميدة فلن تتمكن ، ولن نستطيع أن نوفيه حقه فمزاياه كلها حسنة ، وأفعاله كلها رشيدة ، وصفاته فى غاية الكمال والجمال . وكفاه فخراً أن امتدحه الرب جل جلاله فى كتابه ، فقال تبارك وتعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » وقال تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . » ١٢٨ التوبة ، وقال تعالى « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيرا . » — ٤٥،٤٦ الأحزاب . وقوله تعالى فى سورة النجم : والنجم اذا هوى (١) ماضل صاحبكم وماغوى (٢) وما ينطق عن الهوى (٣) إن هو الا وحي يوحى .

لقد لاقى رسول الله فى سبيل دعوته من العنت والأذى والمشقة والضرر ماينوء عن حمله أشداء الرجال وعظمائهم . وبالرغم من ذلك استمر يدعو الى الله دون ضعف أو كلل ، ودون تعب أو ملل . وقد صبر وتحمل فوق مايحمل البشر ، وماذا كان يقول عندما يلحقه الأذى

من كفار قريش ؟ كان يدعو لهم فيقول : اللهـم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

وكان الرسول أذكى الناس وأصدقهم لهجة . عرف بالعـدل والشجاعة والبلاغة والحكمة . وقد اتصف بالتواضع والصبر والثبات ورجاحة العقل ورحابة الصـدر والتسامح . وكان يعود المسـاكين ويجالس الفقراء ويحث على مكارم الأخلاق وعمل الخير . ورفع شأن الفضيلة ، وبني المجتمع الاسلامي على أسس متينة .

مآثـر الاسلام

كان للاسلام أثره العظيم فى نهضة العرب ، فأوجد لهم كياناً ونظاماً شمل جميع نواحي الحياة . وهذه هي بعض مآثره :

١ ــ قضى عـلى الوثنية وحول الناس الى عبادة الله وحـده لا شريك له .

٢ ــ أنقذ العرب من براثن الجهل الذي كان متفشياً فى أوساطهم فتفتحت عيونهم الى النور وتحرروا من الخرافات .

٣ ــ قضى على العادات الضارة وفسادها : (السلب والنهب وشرب الخمر والربا والزنا الخ ..) وأعاد الى المرأة كرامتها وحقوقها فى المجتمع .

٤ ــ أزال الفوارق بين الأجناس ، ونهى عن التواكل والتخاذل ، وحث على الانفاق فى أوجه البر والخير .

٥) أمر الصغير بأن يحترم الكبير ، وأمر كل فرد باطاعة رئيسه مالم يأمر بمعصية الله ، كما أمر ببر الوالدين ، وأوصى بالجار ، وحث

على مكارم الأخلاق •

٦) وحد العرب وجمع شملهم وكون لهم ذاتية ومجتمعاً له نظامه المستمد من القرآن الكريم •

لقد جاء الاسلام دين الهدى والحق للناس كافة • جاء برسالة تجمع الشعوب فى أمة واحدة لاتعرف شعوبية ولا اقليمية ، رابطتها العقيدة الدينية والايمان الراسخ والاخوة الصادقة •



الفصل الثالث

الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين

قيـام الخلافة :

لم يعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بالخلافة لأحد بل ترك الأمر شورى بين المسلمين • وبعد وفاته كان لابد من اختيار خليفة يتولى شؤون المسلمين ودولتهم الناشئة • وقد حصل فى بادىء الأمر خلاف بين المهاجرين والأنصار ، فادعى المهاجرون المكيون أنهم أولى الناس بالخلافة لانتسابهم الى قبيلة النبي ﷺ ولكونهم أول من صدق بدعوته ، ومن جهة أخرى ادعى الأنصار المدنيون أنهـم أحق بالخلافة لأنهم قاموا بنصـرة الرسول وحمايتـه ، ورشحوا من جماعتهم سعد بن عبادة سيد الخزرج للخلافة • وأسرع كل من أبو بكر وعمر بن الخطاب الى مكان الاجتماع فى سقيفة بني ساعدة حيث

دارت مناقشات انتهت بمبايعة أبي بكر • وسميت تلك البيعة بالبيعة الخاصة ، وأما البيعة العامة فكانت فى المسجد فى اليوم التالي حيث بايعه عامة الناس •

أبو بكر الصديق

هو عبد الله أبو بكر بن عثمان الذي عرف باسم أبي قحافة ، يجتمع نسبه مع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ستة آباء لقب بالصديق لأنه كان يبادر فى تصديق الرسول فى كل ما يقول • وهو أول من أسلم من الرجال ، وخديجة (ر) أول من أسلم من النساء ، وعلي (ر) أول من أسلم من الصبيان •

وكان أبو بكر صديقاً للرسول ، ورفيقه فى الجهاد لنشر الدعوة الاسلامية التي أنفق فى سبيلها ماكان يملكه • وعندما ولي الخلافة خطب بالمسلمين فقال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني •• الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه •

حروب الردة :

قاوم أبو بكر الصديق حركة المرتدين والمتنبئين والقبائل التي رفضت دفع الزكاة بحزم ، فأرسل جيوشاً الى المرتدين فى اليمامة والبحرين وعمان واليمن ، فقضت على حركتهم وزعمائها أمثال مسيلمة الكذاب فى اليمامة الذي كان استفحل خطره بعد أن تزوج بامرأة من بني تميم اسمها سجاج ادعت النبوة كزوجها • وكان من

أشهر قادة المسلمين فى حروب الـردة خالد بن الوليد ، وعكرمـة ابن أبي جهل ، وعمرو بن العاص • ومن بين الذين استشهدوا أربعة من البواسل الذين اشتركوا فى غزوة بـدر الكبرى وهم : عمار ابن ياسر ، أبو حذيفة بن عتبة ، سالم بن سالم ، وعبد الله بن سهل •

وبذلك تم القضاء على المرتدين وأعيدت الوحدة الى الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام •

حملة أسامة الى البلقاء :

أرسل أبو بكر الصديق جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل بقيادة أسامة بن زيد لمحاربة الروم • وكان هـذا الجيش قد عقـد لواءه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته لتأديب الغساسنة الذين قتلوا والد أسامة زيد بن حارثة • وسار الجيش الى بلاد الشام واشتبك مع الروم فى معارك دارت رحاها بالبلقاء قرب مؤتة فانتصر عليهـا وعاد بغنائم ثمينة بعد أربعـين يوماً • وكان ذلك الانتصار فاتحـة خير وتمهيداً للفتوحات الكبرى •

فتح الحيرة والانبار :

جهز الخليفة أبو بكر الصديق جيشـاً بقيادة خالد بن الوليد وجعل تحت امرته المثنى بن حارثة الشيباني شيخ قبيلة بكر للاستيلاء على الحيرة والانبار ـ (سنة ١٢ هـ) وبعد عـدة معارك انتصـر الجيش الاسلامي على الفرس واستولى على الحيرة وشاطىء الفرات الغربي وبادية الشام وعلى عدة مدن فى العراق • ثـم ترك القيادة خالد الى المثنى بن حارثة وتوجه بناءً على أمر من الخليفة أبو بكر الى الشام لنجدة المسلمين •

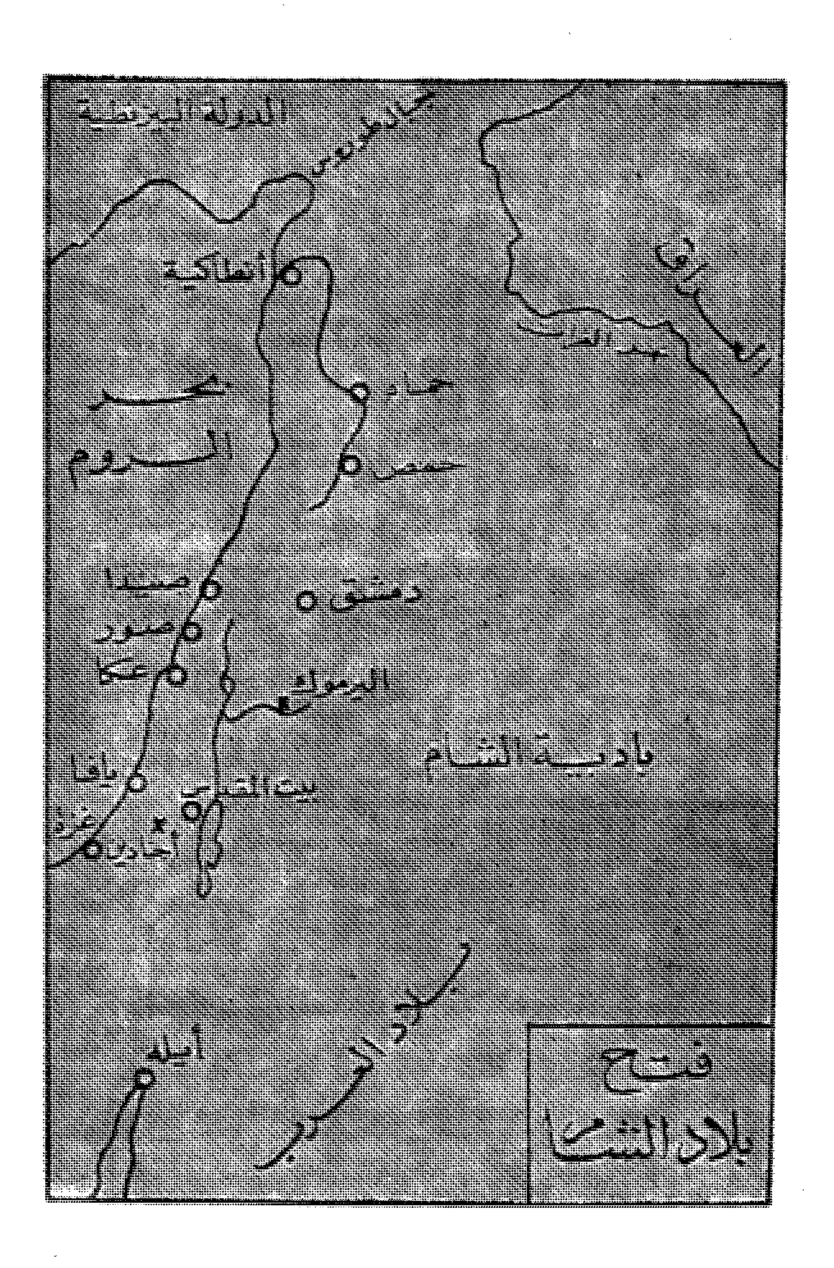
فتــح الشام :

أرسل أبو بكر لفتحها أربعة جيوش تحت قيادة كل من أبو عبيدة عامر بن الجراح وجعل وجهته حمص ، وشرحبيل بن حسنة وجعل وجهته الأردن ، وعمرو بن العاص وجعل وجهته فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق . وكانت مجموع تلك الجيوش (٣٦ ألف) وعلى الفور أرسل هرقل امبراطور الروم جيوشه لقتالهم بقيادة ماهان الأرمني ، وكان عددها ٨٠ ألفاً . ولما اشتدت المعارك توالت على الروم الامدادات حتى بلغ عددها ٢٤٠ ألفاً فى الوقت الذي لم يزد فيه عدد المسلمين عن ٤٠ ألفاً مما اضطر القواد المسلمون الى طلب المدد من الخليفة أبو بكر ، فأرسل لهم خالد بن الوليد مع قواته من الحيرة وولاه قيادة جيوش المسلمين فى اليرموك . وكان خالد قائداً فذا ، فنظم الجيوش تنظيماً حسناً وجعل لها قلباً ومقدمة وميمنة وميسرة . وقد قاتلت جيوشه ببسالة منقطعة النظير ، وبينما كان القتال مستمراً عند اليرموك توفى أبو بكر الصديق ، وتولى الخلافة عمر بن الخطاب .

جمع القرآن فى عهد أبي بكر :

فى عهد أبي بكر جمع القرآن على اثر استشهاد فئة كبيرة فى الحروب من الذين يحفظون القرآن ، وعهد الى زيد بن ثابت أن يقوم بجمعه ليكون فى مصحف واحد .

وقد جمع القرآن من الرقاع وألواح اللخاف وصدور الرجال فى صحف تجمع سوره كلها ، تم ذلك فى عهد أبي بكر الصديق الذي حرص قبل وفاته على جمع صحف كتاب الله الكريم ليظل واحداً



الدولة البيزنطية
أنطاكية
حماه
حمص
بحر
الروم
دمشق
صيدا
صور
عكا
اليرموك
بادية الشام
يافا
بيت المقدس
غزة
أجنادين
أيلة
فتح
بلاد الشام

لا لبس فيه ولا تحريف •

وكان أبو بكر تقياً حريصاً على تنفيذ تعاليم الدين الاسلامي • وهو أصغر من الرسول بسنتين ، توفى سنة ١٣ هـ — ٦٣٤ م عن عمر يناهز ٦٣ عاما • وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر • ودفن فى حجرة عائشة بجوار رسول الله •

عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نيفل وكنيته أبو حفص ، يجتمع مع الرسول صلى الله عليه وسلم فى الجد السابع من جهة أبيه وفى الجد السادس من جهة أمه ، وهو أصغر من النبي بثلاث عشرة سنة •

وكان عمر (ر) حازماً وعادلا ، شهد مع الرسول جميع غزواته • وقد عهد أبو بكر اليه بالخلافة وهو على فراش مرضه بعد أن استشار كبار الصحابة •• رأى ذلك حرصا على وحدة المسلمين أن يعهد بالخلافة الى شخصية تتوفر فيها العدالة والكفاءة والشجاعة تجمع كلمتهم لكي لايقع الخلاف وتنشب الفتنة فتجلب عليهم الوبال وتحل بالجيوش الاسلامية التي تحارب الروم فى الشام الهزيمة •

ودعا أبو بكر الصديق عثمان بن عفان وأملا عليه كتاب العهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب جاء فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ماعهد به أبو بكر بن أبي قحافة الى المسلمين • أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب •• فإن صبر وعدل فذلك علمي به ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب •

ثم أشرف على جموع المسلمين فى المسجد وقال لهم : أترضون بمن استخلف عليكم ؟ قالوا سمعنا وأطعنا •

وبناء على هذا العهد تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر • وقد بايعه جميع الصحابة ، ولقب بأمير المؤمنين •

سير مراحل الفتوحات الاسلامية

كانت معركة اليرموك على أشدها عندما تولى الخلافة عمر بن الخطاب • وبقيادة البطل خالد بن الوليد حققت الجيوش الاسلامية انتصارات رائعة أكسبت الدولة الاسلامية الفتية هيبة ومكانة • وكان خالد قائداً شجاعاً حاذقاً بفنون الحروب وأساليبها ، خاض الكثير من المعارك فأكسبته خبرة واسعة • وخشية من افتتان المسلمين به أرسل الخليفة عمر كتاباً الى خالد يأمره بتسليم قيادة الجيوش الى عبيدة بن الجراح ولما وصله خاف اظهاره حتى لاتهن عزائم الجنود ، فأبقاه حتى تم النصر فى معركة اليرموك الحاسمة سنة ١٥ هـ ــ ٦٣٦ م ثم سلم القيادة الى أبي عبيدة وبقي معه يعمل جندياً فى سبيل واجبه الديني والوطني •

انتهاء سيطرة الروم

وبعد هزيمة جيوش الروم وابادة القسم الأكبر من كتائبها على ضفاف اليرموك وفى المرتفعات الجبلية وقرب درعا زحفت القوات الاسلامية بقيادة أبي عبيدة الى دمشق فاحتلتها ومنها تابعت الزحف الى المدن الأخرى فسقطت ، واستمرت فى ملاحقة فلول جيوش هرقل

امبراطور بيزنطية (الروم) حتى بلغت جبال طورس • وبذلك انتهت سيطرتها على سوريا وفلسطين •

الخليفة عمر يدخل القدس

وفى الوقت الذي كان الجيش الاسلامي بقيادة أبو عبيـدة بن الجراح يطارد قوات الروم المدحورة كان عمرو بن العاص يواصل سيره باتجاه بيت المقدس بعد أن انتصر على الروم فى موقعة أجنـادين • وعندما بلغت قواته المدينة المحصنة حاصرتها وطال حصارها ، عندئذ طلب البطريرك منغوريوس تسليمها على أن يحضر الخليفة عمر بنفسه فحضر عمر من المدينة المنورة وفى طريقه مر بالشام وتفقد أحـوالها ثم واصل السفر الى بيت المقدس عام ١٦ هـ (٦٣٧ م) حيث استقبله البطريرك بالترحيب وسلمه المدينة ، فأمن المسـيحيين على حيـاتهم وممتلكاتهم وكنائسهم وأطلق لهم حرية العبادة • وقد دهش البطريرك منغوريوس بما لمسه وانحنى أمام الخليفة وقال : حقاً يا أمير المؤمنين ان رسالتكم تمثل أسمى معاني التسامح والعدالة والحرية • تلك هي رسالة الاسلام العظيمة التي حملها عمر بن الخطاب من المدينة المنورة الى القدس • وفى اليموم التالي طاف عمر بالمدينة وشاهد معالمهـا التاريخية ، وفى موضع هيكل سليمان الذي دمره نبوخذ نصر (نبوكد) ملك بابل عام ٥٨٧ ق م • رأى قمامة فأمر بازالتها وبناء المسجد فى ذلك المكان •

فتح العراق وفارس

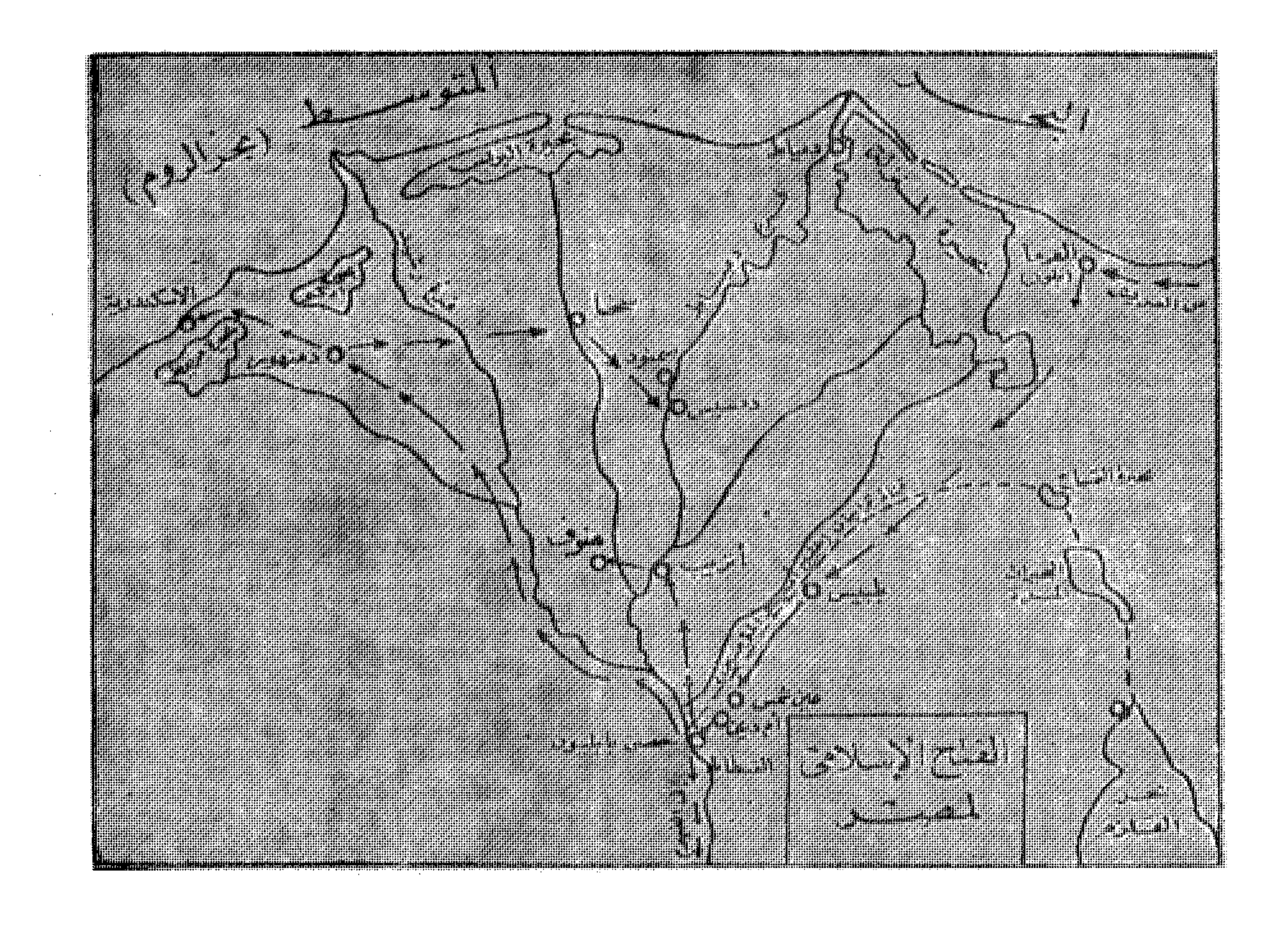
أعد الخليفة عمر الجيوش لفتح فارس ، وقد ولى سعد بن أبي وقاص قيادتها ، فنزل بها فى القادسية عام ١٧ هـ الموافق ٢٠ آب ٦٣٧ م ، وكانت جيوش الفرس التي يقودها رستم تزيد على جيوش المسلمين بأربعة أضعاف . واصطدم الفريقان فى قتال دام أربعة أيام وانتهى بالنصر المبين للمسلمين . وقد استشهد منهم ٧ـ٨ آلاف مقاتل، وقتل من الفرس ثلاثين ألفاً من بينهم القائد رستم . وبعد شهرين واصل الجيش سيره الى المدائن ودخل القائد المسلم سعد بن أبي وقاص قصر كسرى الابيض وهو يقرأ قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين » [1] وأعد الفرس من جديد جيشاً قوامه ١٥٠ ألف مقاتل ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب جيشاً بقيادة النعمان بن مقرن قوامه ٣٠ ألف ، وعند نهاوند دارت بينهما المعركة الحاسمة التي كتب الله النصر فيها للمسلمين وسميت (بفتح الفتوح) لأن امبراطورية الفرس بعدها لم تقم لها قائمة ، كان ذلك سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م) . ثم تابعت الجيوش الاسلامية سيرها واستولت على بلاد فارس .

فتح مصر

فى أواخر عام ٦٣٩ م توجه عمرو بن العاص الى مصر لفتحها بعد أن استأذن الخليفة عمر بن الخطاب . وكان جيشه قوامه أربعة

---

(١) الدخان آية ٢٥،٢٦،٢٧



البحر المتوسط (بحر الروم)
الإسكندرية
دمياط
الفرما
منوف
بلبيس
الفتح الإسلامي لمصر

آلاف مقاتل سار بهم من فلسطين بمحـاذاة الساحل • وتمكـن من من الاستيلاء على بلبيس ، ثم زحف على حصن بابليون حيث تقيم الحامية الرومانية فحاصرها ، وطلب من الخليفة عمر مدداً فأرسل اليه ثمانية آلاف مقاتل يقودهم الزبير بن العوام • وتم الاستيلاء عـلى بابليون بعد أن ألحق بالروم هزيمة شنعاء •

وتابعت الجيوش الاسـلامية تقدمها حتى بلغت الاسكندرية فحاصرتها وطال حصارها لأن المدد الى حاميتها كانت تصلها عن طريق البحر التي يسيطر عليه الأسطول البيزنطي • وأخيراً استسلمت المدينة بعد أن عقد المقوقس بطريرك الأقباط حاكم مصر من قبـل الروم صلحاً مع عمرو بن العاص سنة ٢١ هـ ــ ٦٤٢ م ، وكانت أهم شروطه : يسمح للحامية الرومانية بالانسحاب ، يمنح للمسيحيين حريتهم الدينية ويحافظ على أرواحهم وأموالهم •

وقد رحب شعب مصر بالعرب وقائدهم عمرو بن العاص لمـا لمسه من العدل والشهامة والتسامح • وبقرب حصن بابليون أسس عمرو عاصمته الجديدة وأطلق عليها اسم الفسطاط ، وفيها بني مسجد سمي باسمه لايزال باقياً حتى اليوم • ولقد أدخل الكثير من الاصلاحات كما اهتم بالزراعة والري ، وجدد حفر القناة وسماها خليج أمـير المؤمنـين •

شخصية عمر بن الخطاب واصلاحاته

عرف الخليفة عمر بالعدل والتقوى والتواضع الـذي ظهر في ملبسه ومظهره وفراشه من سعف النخل الذي كان ينام عليه • وكان يطوف الاسواق ويتفقد بنفسه الرعية ويسهر على مصالحها • ولم يكن

يهمه من حياة الدنيا سوى اعلاء كلمة الله والدفاع عن الاسلام والحرص على كرامة المسلمين وأموالهم •

وقد جعل عمر بداية التاريخ العربي من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل رأس السنة يبدأ من أول المحرم • ونظم الدولة وقسمها الى ولايات ، وعين لادارتها الرجال الاكفاء النزهاء • ولضمان العدالة جعل القضاة مستقلين عن الولاة • كما أنشأ ديوان الجند لتسجيل أسماء الجنود ورتبهم وخدماتهم للدولة ، وأسس البريد ، وأنشأ أيضاً ديوان بيت المال لاحصاء أموال الدولة ومصروفاتها ، وأيضاً دار الحسبة ـ لمراقبة المكاييل والموازين والنظافة وقمع الغش الخ • كما أرسل العلماء والفقهاء للأمصار لتعليم المسلمين أمر دينهم •

وقتل عمر (ر) غدراً فى سنة ٢٣ هـ ـ ٦٤٤ م على يد أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة ، ولما علم عمر أن قاتله مجوسي ، حمد الله الذي جعل قاتله من الذين لم يسجدوا لله سجدة واحدة • ودفن عمر فى حجرة عائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر •

عثمان بن عفـان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، يلتقي نسبه مع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم فى جده عبد مناف •

وقد شهد عثمان الغزوات كلها مع النبي الا غزوة بـدر وذلك لانشغاله بتمريض زوجته رقية بنت رسول الله • ولما توفيت زَوَّجَهُ النبي أختها أم كلثوم ولذلك لقب (بذي النورين) • وكان من كتاب الوحي ، فقيهاً فى الدين ، سخياً ومتواضعاً •

بيعة عثمان

بعد أن طعن الخليفة عمر بن الخطاب لم يعهد بأمر الخلافة لواحد معين من بعده كما فعل أبو بكر عندما أحس بدنو أجله ، بل جعلها شورى بين المسلمين ، وأمرهم بأن يختاروا واحداً من كبار الصحابة وهم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله والزبير بن العوام • وقد انتخب عثمان بن عفان للخلافة من بين هؤلاء الستة •

استمرار الفتوحات الاسلامية

واستمرت الفتوحات فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، ففتح كل من : خراسان ، أذربيجان ، وطبرستان ، وطرابلس الغرب التي كانت لاتزال تحت حكم الروم • كما أخمد الثورة التي نشبت فى بلاد فارس• وكان من أبرز الانتصارات هو تدمير الأسطول الاسلامي للأسطول الروماني فى موقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ ــ ٦٥٥ م •

نشوب الفتنة ووبالها

فى المرحلة الأولى لحكم الخليفة عثمان بن عفان ازدهرت الولايات الاسلامية وسادها الاستقرار ، وانتشر العرب فى شمال افريقيا ، وجمع القرآن فى مصحف واحد ووزعت منه عدة نسخ على الولايات •

وفى المرحلة الثانية من حكم عثمان الذي كان بلغ عمره ٧٦ سنة استعان بنفر من ذوي قرباه لتسيير أمور الدولة ، وسرح بعض الولاة الذين ولاهم سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وولى آخرين بدلا منهم استبدوا بالأهالي وعظم خطرهم ، فضج الناس من كثرة مالاقوه



من هؤلاء الولاة ، وأقبلت جماعة ثائرة من أهالي الكوفة والبصرة ومصر الى المدينة المنورة . ولما علم بهم الخليفة عثمان أرسل يستفسر عن سبب مجيئهم فعلم أنهم قادمون لعزله أو لقتله . فأشار عليه كبار أهل المدينة المنورة بضرورة مواجهة هؤلاء الثوار وقتالهم الا أن عثمان (ر) لم يرغب فى سفك دماء المسلمين ، ورفض مشورتهم وقال لهم (بل نعفو) . وعندما قابلهم وشرحوا له ماجاءوا من أجله ، دافع عن نفسه حتى أقنعهم ثم أجابهم الى بعض مطالبهم فرجعوا من حيث أتوا وفى الطريق تغلب عليهم شيطان النفس والهوى فعادوا ثانية الى المدينة المنورة زاعمين أن الخليفة كتب الى عماله بقتلهم .. وحاصروا عثمان فى داره ٤٠ يوماً ، ومنعوا عنه الماء وهو شيخ يزيد عمره على ثمانين سنة . . ثم تسلقوا داره فوجدوه يقرأ القرآن ، فقتلوه ونهبوا بيت المال ، ومات شهيداً سنة ٣٥ هـ (٦٥٦ م)

وقد أدى مقتل الخليفة عثمان الى مأساة كبرى كان لها أثرها الكبير ، وأخطارها القريبة والبعيدة ، فجرت فى أعقابها سلسلة من المآسي الدامية على المسلمين .

علي بن أبي طالب

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة . اشتهر بالبلاغة والشجاعة والبراعة فى القضاء

وبعد مقتل عثمان بن عفان عرض بعض الصحابة الخلافة على الامام علي فرفض . ولما ألحوا عليه اضطر الى اجابتهم وتمت البيعة فى مسجد المدينة . وقد بدأ بازالة الخلافات ، فعزل

جميع ولاة سلفه الخليفة الشهيد عثمان بن عفان لأنهم كانوا السبب فى تذمر الناس بل وفى الفتنة التي أدت الى مقتل عثمان ، فأذعنوا جميعهم ماعدا معاوية بن أبي سفيان الذي رفض الامتثال لأمر الخليفة علي وأصر على البقاء فى ولايته بالشام حيث علق على المنبر قميص عثمان وأخذ يطلب بثأر الخليفة المقتول بحجة أنه قريبه وولي دمه .

موقعة الجمل

واتخذ الامام علي كرم الله وجهه الكوفة فى العراق عاصمة لـه وبينما كان يستعد لقمع حركة التمرد بالشام واخضاع معاوية للطاعة ظهرت حركة فى مكة بزعامة الزبير بن العوام وطلحة بن عبـد الله ، وتوجه الثوارالى العراق وكان بصحبتهم أم المؤمنين عائشة . فجهز الامام علي جيشاً قاده بنفسه وسار الى البصرة لملاقاة الثـوار ، وكاد أن يقنعهم ببراهينه الساطعة وحججه البليغة لولا أن ابن سبأ اليهودي وأعوانه ممن اشتركوا فى مقتل عثمان خافوا على أنفسهم من القصاص فبادروا باشعال نار الحرب . وكان النصر فيها للامام علي وأتباعه . وقد قتل فى تلك المعركة طلحة وابنه والزبير . حدث ذلك فى سنة ٣٦ هـ (٦٥٦ م) وقد سميت بموقعة الجمل لأن أم المؤمنين عائشة كانت تركب جملا . وبعد انتهاء المعركة أعاد علي أم المؤمنين الى المدينة المنورة معززة مكرمة وأرسل معها ابناه الحسن والحسين لحراستها .

موقعة صفين

حاول الامام علي بالطرق السلمية حسم النزاع ولكن معاوية لم يستجب ، وعندئذ جهز جيشاً لقتـال معاوية وأتباعه من المتمردين فتقابل الجيشان فى (صفين) غرب الفرات سنة ٣٧ هـ (٦٥٧ م) ،

واستمرت الحرب بينهما ثلاثة أيام رجحت فيها كفة الامام علي ، وكاد يهرب جيش معاوية لولا أن أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع المصاحف على أسنة الرماح بقصد التحكيم الى كتاب الله • وكان ذلك بنظر علي خدعة ولكن قادة الجيش أشاروا عليه بقبول التحكيم فعمل بمشورتهم • واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، فاختار الامام علي أبو موسى الأشعري لعلمه وفقهه وورعه ، واختار معاوية عمرو بن العاص لدهائه • وقد اتفقا على خلع كل من الامام علي ومعاوية وأن يختاروا من بين المسلمين خليفة وذلك ليقضوا على الفتن وحقنا لدماء المسلمين • وعند اعلان نتيجة التحكيم طلب عمرو بن العاص من أبي موسى الأشعري بأن يتقدم فيعلن النتيجة أمام الجميع لأنه أكبر منه سناً، فتقدم أبو موسى قائلا : « أيها الناس انا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها من أن نخلع علياً ومعاوية ونرد الأمر شورى فالتمسوا من هو أهل للخلافة » وبعد انتهائه تقدم عمرو بن العاص وقال : ان هذا قد خلع صاحبه ، وأنا أخلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولي عثمان وأحق الناس بمقامه • وعندئذ وقعت الفتنة وانقسم جيش الامام على نفسه قسمين ، قسم أيده (الشيعة) وقسم آخر تمرد ، عرف باسم الخوارج فناصبوه العداء واتخذوا من بينهم خليفة يدعى عبد الله بن وهب •

وعندما رأى الامام علي أن الخوارج يشكلون خطراً ويرفضون الانصياع الى الطريق المستقيم ، خرج عليهم وقضى على قسم كبير منهم فى موقعة النهروان سنة ٣٨ هـ ، وهرب الباقون •

وبعد تصفية الخوارج استتب الأمر لعلي فى العراق واستقر فى

عاصمته الكوفة . أما معاوية فقد ظل فى الشام يعد العدة ويجهز القوات ليأخذ الخلافة .

وخلاصة القول أن التحكيم لم يحسم النزاع بين الامام علي ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان الذي استقل بولايته (الشام) بل وسع شقة الخلاف وادى الى انقسام المسلمين .

شخصية الامام علي ومميزاته :

لقد أضيف لاسم الامام علي لقب (كرم الله وجهه) لأنه لم يسجد لصنم ، ولم يعبد سوى الله وحده . وهو الذي قدم نفسه فداء للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بمبيته فى فراشه ليلة الهجرة . وقد تزوج من فاطمة الزهراء بنت رسول الله فولدت له الحسن والحسين. واشتهر الامام علي بن أبي طالب بالشجاعة والبطولة والفصاحة ، فلم يفر من معركة ، ومابارز أحداً الا غلبه . وكان أول المبارزين يوم بدر ، وأحد الثابتين يوم أحد ويوم حنين مع رسول الله . وكان يرجع اليه الصحابة فى الكثير من أمور الدين ، وقال عنه النبي (أقضاكم علي) . وهو أحد الستة الذين قال عنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ توفي الرسول وهو عنهم راض .

مؤامرة الخوارج وعاقبتها

اتفق ثلاث رجال من الخوارج على قتل الامام علي وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان . وقد تعاهدوا فى الكعبة فيما بينهم بأن ينفذوا خطتهم فى يوم واحد ، وحددوا يوم ١٧ رمضان لتنفيذ المؤامرة . واختار كل واحد منهم رجلا يقتله ، فالامام علي تعهد

بقتله عبد الرحمن بن ملجم ، ومعاوية تعهد بقتله البرك بن عبد الله التميمي ، وعمرو بن العاص تعهد بقتله عمرو بن بكر التميمي • وخرج ثلاثتهم كل واحد يقصد الرجل الذي تعهد بقتله •• وطعن ابن ملجم الامام علي وهو متوجه لصلاة الصبح فقتل • أما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة يوم ١٧ رمضان لسبب مرضه ، فخرج نائبه وهو (خارجة بن أبي حبيبة) فقتله عمرو بن بكر التميمي ظناً منه أنه عمرو بن العاص • وأما معاوية فان الذي تعهد بقتله ضربه بالسيف فأصابه على وركه وجرح جرحاً بليغاً ، لكنه عولج حتى شفي •

وهكذا كان فقد نفذ الخوارج مؤامرتهم الاجرامية •• ومات الامام علي شهيداً فى ١٧ رمضان عام ٤٠ هـ (٦٦١ م) ودفن فى الكوفة

بيعة الحسن وتنازله :

بعد يومين من وفاة علي بن أبي طالب بايع الناس ابنه الحسن (ر) ، وأول من تقدم هو قيس بن سعد بن عبادة الذي كان على امرة أذربيجان فبايعه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بايعه كبار القوم فى المسجد بالكوفة •

وحاول بعض قادة الجيش اقناع الحسن بن علي لقتال معاوية الذي كان بالاضافة الى ولاية الشام التي استقل بها ضم اليه ، مصر ولكن الحسن لم يكن فى نيته أن يقاتل أحدا ، ورأى أن انقسام المسلمين على أنفسهم يشكل خطراً على أمتهم وبلادهم ، والأفضل هو ايجاد الجو الملائم للوصول الى صلح ينهي النزاع ويحقن دماء الأمة الاسلامية •

وقد جرت اتصالات ومفاوضات دامت عدة أشهر انتهت الى عقد صلح بين الحسن بن علي ومعاوية ، أهم شروطه هي : (١) يتنازل

الحسن عن الخلافة لمعاوية • (٢) يطبق معاوية الشريعة الاسـلامية ، ويجعل الخلافة من بعده على أساس (شورى) أي انتخاب بين المسلمين، ويحافظ على آل البيت وأمنهم وسلامتهم ، ويسمح الى الحسـن بأن يأخذ خمسة آلاف درهم من بيت مال الكوفة •

وبعد أن تم الاتفاق حضر معاوية الى الكوفة ومعه صديقه عمرو بن العاص عام ٤١ هـ ، فبايعه الحسن بن علي وتبعه أنصاره • وأطلق على هذه السنة التي تمت فيها وحدة الكلمة اسم (عام الجماعة) • وبذلك استتبت الأمور ، وأعيد للدولة الاسلامية وحدتها وهيبتها •

ثم رحل الحسن بن علي ومعه أخوه الحسين وعمهم عبد الله بن جعفـر الى المدينة المنورة وفيها توفي عام ٤٩ هـ (٦٦٩ م) ودفن بالبقيع قريباً من قبر أمه فاطمة الزهراء •

نتـــائج الفتـــوح
فى عهـــد الخلفاء الراشدين

خلال عهد الخلفاء الراشدين الذي امتد منذ وفاة الرســـول صلى الله عليه وسلم سنة ١١ هـ حتى سنة ٤٠ هـ اتســـعت أرجـــاء الدولة الاسلامية فشملت الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين ومصـــر والعراق وفارس وبلاد القفقاس وبرقة وطرابلس الغرب وقبـــرص ورودس • وتم تصفية الامبراطورية الفارسية ، واقتـــلاع جذور الامبـــراطورية البيزنطية (دولة الروم) من الشرق حيث كان الصراع فيه محتدماً بين الدولتـــين •

وقد انتشر الاسلام خلال عهد الخلفاء الراشدين انتشاراً واسعاً بدخول كثير من سكان البلاد التي فتحها العرب فيه تحت لواء الرسالة الاسلامية • وفى هذه البلاد اتخذوا مباديء الاسلام أساساً لتوطيـــد حكمهم ، قوامها الحرية ، والعدل ، والمساواة ، والتسامح ، والحفاظ على ممتلكات السكان ومصالحهم •

وبالاضافة الى بناء المساجد والعناية بتثقيف المسلمين فقد تأسست عدة مدن فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ونظمت الدولة والادارة فى الولايات ، وانتشرت اللغة العربية فى البلاد المفتوحة حيث أقبلت شعوبها على تعلمها فساعد ذلك على توطيد العلاقات والاختلاط بـــين العرب الذين خرجوا من الجزيرة العربية لنشر الدعوة الاسلامية والاقوام الاخـــرى •

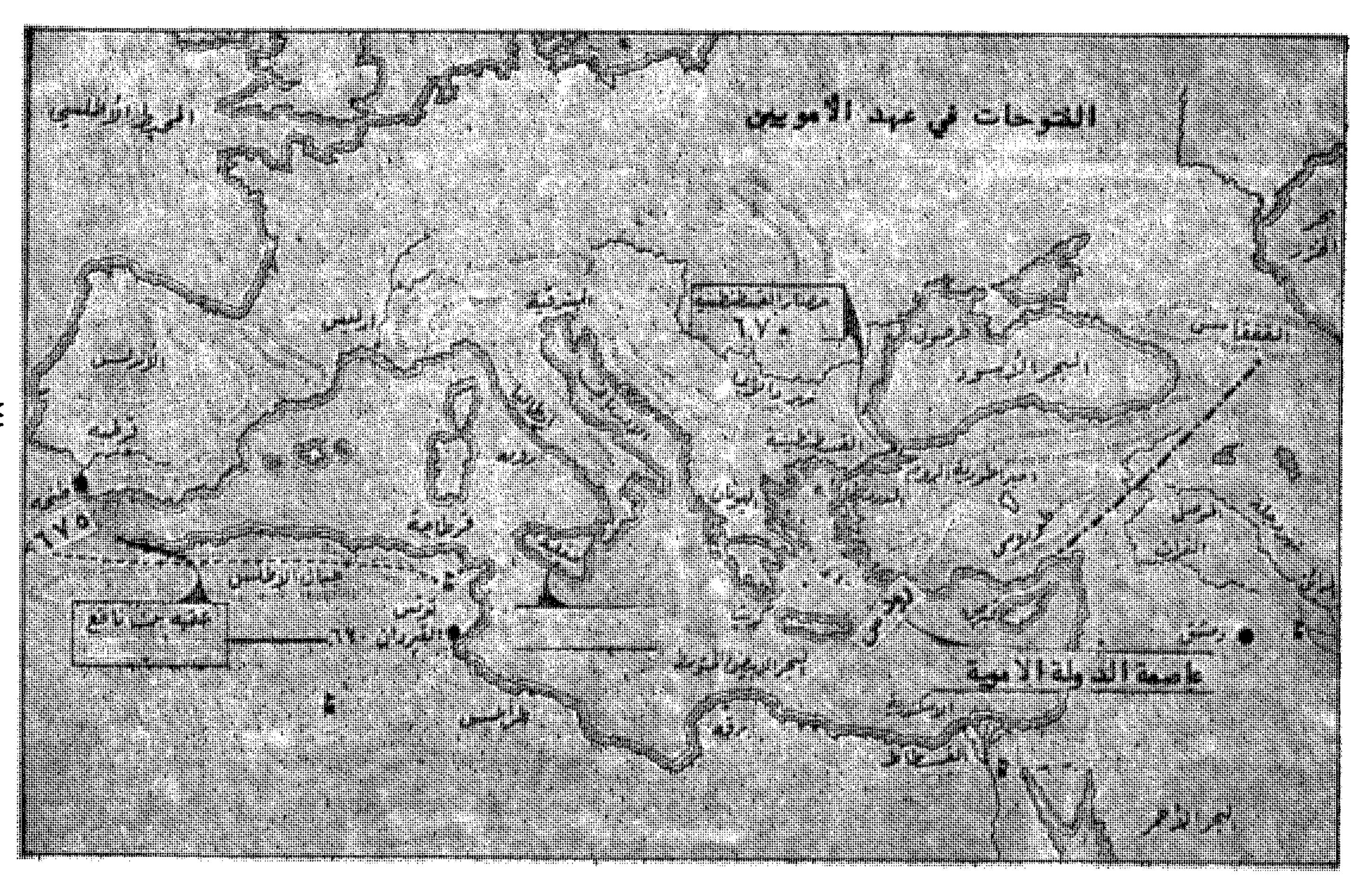
الفصل الرابع

الدولة الاموية

ينتسب الأمويون الى أمية بن عبد شمس الذي كان فى الجاهلية سيداً من سادات قريش ، وكان فى الشرف والرفعة يعادل عمه هاشم بن عبد مناف ، ولذا فقد تنافس كلاهما على رئاسة قريش فى الجاهلية ، واستمر التنافس بين الاسرتين فى الاسلام .

معاوية ابن أبي سفيان

يعتبر معاوية مؤسس الدولة الأموية ، وهو أول خليفة من الأمويين فى الاسلام ، ولد بمكة قبل الهجرة بخمسة عشر سنة وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه وأمه هند وباقي الأمويين الذين لم يتساووا مع البيت الهاشمي فى شرف السبق الى الدخول فى الاسلام


الفتوحات في عهد الأمويين
٦٧٠
القيروان ٦٧٠
دمشق
عاصمة الدولة الأموية
البحر الأحمر

ومناصرة الرسول • وقد اشترك معاوية فى فتح فلسطين ، وولاه الخليفة عمر الأردن ودمشق ، ولما تولى عثمان الخلافة ولاه الشام كلها • وبعد مقتل عثمان استقل ونقل خلافته بعد أن استتب له الأمر الى دمشق •

الفتوحات فى عهده :

وجه معاوية اهتمامه الى الامور الداخلية والتوسع فى الفتوحات فأمر القائد المهلب بن أبي صفرة بغزو بلاد السند ، فزحف على أفغانستان واستولى على كابول سنة ٤٤ هـ (٦٦٥) ومنها استمر حتى وصل الى مدينة لاهور بإقليم البنجاب • وفى خراسان تمكنت الجيوش الاسلامية من الاستيلاء على بخارى وسمرقند •

وعمل معاوية على تقوية الأسطول الاسلامي حتى بلغ عدد سفنه ١٧٠٠ سفينة ، ففتح رودس وقبرص وبعض جزر اليونان فى البحر الأبيض المتوسط • وفى سنة ٤٩ هـ حاصرت الجيوش الاسلامية القسطنطينية براً وبحراً ولم تتمكن من الاستيلاء عليها لمتانة أسوارها ومناعة موقعها ، واستخدام الروم النار الاغريقية التي أحرقت مجموعة من سفن العرب فعادوا الى الشام •

وامتدت الفتوحات الاسلامية الى افريقيا بقيادة عقبة بن نافع ففتح طنجة سنة ٦٧٠ م ثم ذهب الى تونس وأسس مدينة القيروان وجعلها قاعدة حربية له عام ٥٥ هـ (٦٧٥ م) •

أعمال معاوية :

كان معاوية رجلا حازماً وسياسياً محنكاً ، نجح فى تنظيم الدولة فى الداخل • وأسس ديوان التسجيل ، وأنشأ مصلحة البريد التي عمت

جميع الولايات ، وجعل الخلافة سلالية ترتكز على مبدأ وراثي بعد أن كانت الخلافة شورى بين المسلمين •

وتقرب معاوية لرؤساء العرب ، واختار الولاة الأكفاء لادارة الأقاليم • ولم يكن يستعمل الشدة الا متى رأى استعمالها محتماً ، وكان بطيء الغضب ضابطاً لثورات النفس ، ومن أقواله الدالة على تصرفاته : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، اذا شدوها خليتها واذا خلوها شددتها » •

لقد رأى معاوية أن يحصر الخلافة فى نسله ، فعهد الى رجاله المخلصين بترويج الدعوة لقبول الناس البيعة لابنه يزيد بولاية العهد • وقد جرت البيعة فى دمشق فى اجتماع عام ضم العلماء والوفود التي جاءت من الولايات • وهكذا ضمن الخلافة من بعده لابنه يزيد •

وقبل وفاة معاوية ترك وصية ليزيد أوصاه بإكرام أهل الحجاز ومسايرة أهل العراق ، والتعاون مع أهل الشام •

وفى عام ٦٠ هـ (٦٨٠ م) توفى معاوية بدمشق ودفن فيها بعد خلافة دامت عشرين سنة •

خلافة يزيد بن معاوية

بعد موت معاوية بويع يزيد بالخلافة من قبل المسلمين ما عدا بعض الشخصيات فى الحجاز من أبناء الصحابة وأبناء الخلفاء وغيرهم • وعندما علم يزيد بالخبر كتب الى عامله على المدينة الوليد بن عتبة أن يأخذ له البيعة من الذين تمنعوا ، فتمكن من أخذ البيعة للخليفة يزيد

من عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر أما عبد الله بن الزبير فقد رفض وتوجه الى مكة •

ورفض ايضاً الحسين بن الامام علي مبايعة يزيد وقال لعامله الوليد : ان مثلي لايبايع سراً ، فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً • ثم ترك المدينة المنورة وذهب الى مكة •

مأساة كربلاء وذيولها :

وردت على الحسين بن الامام علي الرسائل من الشيعة بالعراق ملحين طالبين أن يأتي لمبايعته • فتوجه الحسين (١) اليهم مع أهل بيته على رأس عدد قليل من أتباعه لم يتجاوز ٨٠ رجلا ،وعندما وصل الى كربلاء قدم عليه جيش بقيادة عمر بن سعد سيره عبد الله بن زياد والي يزيد على الكوفة ، وأخذ يشدد الحصار على الحسين وجماعته ومنعهم من الوصول الى الماء لاملاء القرب للقافلة ، وعند ئذ طلب الحسين من قائدهم الموافقة على أحد الشروط التالية حقناً لدماء المسلمين وهي : اما أن يسمح له بالذهاب الى الحدود الشريفة ليجاهد فى سبيل الله لمقاتلة الكفار ، واما أن يسمح له بأن يعود الى المدينة المنورة ، أو يأخذه الى الخليفة يزيد بن معاوية ، فرفض القائد عمر بن سعد وأمر فرسانه بالانقضاض عليه ، وكان عددهم أربعة آف ، فقاتل الحسين ومن معه قتال الأبطال الى أن استشهدوا جميعاً ولم يبق سوى النساء وطفل صغير هو علي زين العابدين بن الحسين ، ومن الذين قتلوا ١٦ رجلا من أهل بيته و٦٤

(١) أوفد الحسين قبل سفره الى الكوفة ابن عمه مسلم ابن عقيل فرحب به أهلها ، ثم مالبثوا أن تفرقوا عنه خوفاً من بطش الوالي عبد الله بن زياد الصارم الذي لاحق مسلم وقتله ولم يعرف الحسين بخبر مقتله الا بعد ان وصل الى العراق .

من أنصاره • واحتز رأس الحسين وحمل الى يزيد بدمشق فأمر برده الى أخت الحسين زينب فدفن مع الجسد فى كربلاء • وسميت تلك الموقعة بموقعة كربلاء ، فكانت كرب وبلاء • حدث ذلك فى العاشر من شهر محرم عام ٦١ هـ الموافق عام ٦٨٠ ميلادية •

الاعتداء على المدينة وحصار مكة :

أثارت مذبحة كربلاء موجة من السخط والاستياء والنقمة على يزيد بن معاوية فى جميع الولايات الاسلامية ، فأثر ذلك على مركزه ونفوذه وبالأخص فى الحجاز التي لم تبايعه فئة من وجوهها بالخلافة بعد وفاة أبيه معاوية •

وحاول يزيد استرضاء أهل المدينة المنورة ، فكتب الى عامله أن يرسل وفداً من أشرافها ، فاتصل بوجهاء البلد وذهب وفد برئاسة عبد الله بن حنظلة الى دمشق لزيارة يزيد ، وعاد غير راض مما شاهده ولمسه •

وثار أهل المدينة وأعلنوا خلع يزيد ، وطردوا عامله ، فأرسل اليهم جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل بقيادة مسلم بن عقبة المري • ووصل الجيش الى المدينة وحاصرها من جهة الحرة ، وأمهل السكان ثلاثة أيام ليعودوا الى طاعة الخليفة فرفضوا واعتبروا الحصار امتهاناً لمدينة الرسول • وقد انقض جيش يزيد على المدينة وسكانها الذين دافعوا ببسالة ، وتمكن من احتلالها واخضاع أهلها بالسيف بعد أن قتل منهم زهرة شبابهم وكبار قادتهم ثم أباح القائد مسلم بن عقبة المدينة لجنوده ثلاثة أيام فعاثوا فيها نهباً وقتلا وفساداً • وسميت تلك الوقعة بوقعة الحرة ، حدثت فى سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) •

وبعد أن قام الجيش الأموي بتخريب المدينة المنورة توجه الى مكة المكرمة لاخضاع عبد الله بن الزبير ، الذي صار يدعو لنفسه بالخلافة بعد مقتل الحسين بن علي • وبينما كان الجيش سائراً فى طريقه أدركت قائده المنية فخلفه الحصين بن نمير ، واستمر يواصل تقدمه حتى وصل الى مكة فحاصرها وأخذ يقذفها بالمنجنيق ، فأصابت قذائفه الكعبة المشرفة واشتعلت فيها النيران وتهدم القسم الأكبر منها • وقد دافع ابن الزبير وأهل مكة وقاوموا الجيش الأموي • وفى تلك الأثناء توفى الخليفة يزيد بن معاوية ، فلما علم قائده الحصين بن نمير بموته انسحب بعد أن كان مضى على حصار مكة شهرين وعاد الى الشام •

التنافس على الخلافة

بعد وفاة يزيد عام ٦٤ هـ (٦٣٨ م) اشتدت حملة التنافس على الخلافة بين الأمويين وعبد الله بن الزبير الذي نجح بكسب ولاء أهل الحجاز •

وقد خلف يزيد ابنه معاوية الثاني ، وكان شاباً تقياً ورعاً محباً لبني هاشم ، ولكن خلافته لم تطل سوى أربعين يوماً ، فمرض واعتكف فى داره ، ولم يختار واحداً من بني أمية أو غيرهم ليتولى الخلافة بعده ، بل ترك أمر الخلافة شورى بين المسلمين • وبقي معتكفاً فى منزله حيث توفى بعد عشرة أيام •

الحجاز تبايع عبد الله بن الزبير :

ينحدر عبد الله بن الزبير من أسرة عريقة ، فأبوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق • وكان تقياً عالماً

وشجاعاً ، أحبه الجميع ومالوا اليه وبايعه بالخلافة أهل الحجاز بعد أن توفى يزيد . وقد عظم نفوذه ، وبايعه أهل العراق ومصر واليمن وفارس ولم يبق سوى بلاد الشام التي كان لعبد الله فيها أتباع وأنصار تؤيده . وكان بوده الذهاب الى الشام للحصول على البيعة ولكنه خشي من عدم الحصول على البيعة الجماعية والاصطدام بمقاومة مسلحة يغذيها الأمويون بالمال والسلاح ، فظل فى الحجاز واتخذها مركزاً لخلافته التي استمرت تسع سنين (حتى عام ٧٣ هـ) .

الشام تبايع مروان بن الحكم :

فى نفس الوقت الذي بايع فيه الحجاز عبد الله بن الزبير بالخلافة ، استغل الأمويون فرصة عدم قدومه الى الشام فالتفوا حول مروان بن الحكم (١) واختاروه خليفة (عام ٦٤ هـ ـــ ٦٨٤ م) .

واتفق مروان مع القحطانيين فى الأردن وحوران الذين ظلوا موالين للامويين ومنهم جهز جيشاً قوامه ستة آلاف رجل وزحف به لقتال أنصار عبد الله بن الزبير الذين كانوا بقيادة الضحاك بن قيس الفهري . واشتبك الفريقان فى موقع مرج راهط شرق دمشق ، كان النصر فى تلك المعركة التي استمرت عشرين يوماً لمروان بن الحكم الأموي . وبذلك تثبت مركز مروان وأصبح المعترف به خليفة فى بلاد الشام . ثم جهز جيشاً وانتزع مصر من سلطة عبد الله بن الزبير وعزل عامله عبد الرحمن بن حجدم .

وهكذا أعاد مروان بن الحكم الى الأمويين هيبتهم ونفوذهم فى الشام ومصر . وعندما دنت منيته عهد بالخلافة من بعده لولديه عبد

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاصى بن امية بن شمس بن عبد مناف .

الملك ومن بعده الى عبد العزيز ، وأخذ لهما البيعة من مؤيديه • وبعد أيام معدودة من وصيته توفى بدمشق عام ٦٥ هـ (٦٨٥ م) •

عبد الملك بن مروان

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة المنورة سنة ٢٦ هـ ، وأخذ الفقه عن علماء الدين ، وحفظ القرآن الكريم ، وبرع فى الأدب والشعر •

وعندما تولى الخلافة بعد وفاة أبيه كان شقيقه عبد العزيز والياً على مصر ، فنعمت فى عهده بالأمن والرخاء • وقد أدخل الكثير من الاصلاحات منها بناء مقياس للنيل وتوسيع جامع عمروبن العاص فى الفسطاط ، كما جعل من مدينة حلوان عاصمة له •

ووجه الخليفة عبد الملك بن مروان اهتمامه الى الناحية الداخلية ، وتمكن بدهائه ورجاحة عقله وحكمته من القضاء على الفتن والفوضى• ولقد لقي من الصعوبات فى بادىء الأمر الشيء الكثير ، الا أنه مالبث أن تغلب عليها ووطد دعائم الدولة ، فلقب بالمؤسس الثاني للدولة الأموية•

اخضاع الكوفة :

تفرغ عبد الملك بن مروان بعد أن نظم الأوضاع فى بلاد الشام ومصر لتجهيز الجيش واعداده لاخضاع الولايات التي يحكمها عبد الله بن الزبير ، واخضاع البربر فى افريقيا ، واخماد ثورة الخوارج والعلويين فى العراق • وكان آنذاك فى العراق المختار ابن أبي عبيد الثقفي فى صراع مع جماعة الزبير على السلطة ، وبالوقت ذاته كان يلاحق قتلة الحسين بن علي وأتباع الأمويين • وتغلب فى باديء الأمر على جميع أعدائه ، وعلى الجيش الأموي بقيادة عبد

الله بن زياد قرب الموصل عام ٦٧ هـ وقتل عبد الله فى تلك المعركة على يدي ابراهيم بن الأشتر النخعي قائد جيش المختار • وكان عبد الله فى عهد يزيد والي الكوفة عندما قتل الحسين بن علي ، وهو نفسه الذي أمر بجز رأسه وأرسله الى يزيد •

وخشي عبد الله بن الزبير أن يفقد سلطته على الكوفة فأرسل جيشاً بقيادة أخيه مصعب وانضم اليه عندما وصل الى البصرة المهلب بن أبي صفرة • وقد التحم مع جيش المختار فى معركة قرب الكوفة انتهت بهزيمة المختار وفراره الى داخل المدينة ، فلاحقوه وقتلوه مع عدد من جماعته •

وما كاد مصعب ابن الزبير ينتهي من اعادة النظام الى الكوفة حتى تحرك عبد الملك بن مروان على رأس جيش زحف به من الشام الى العراق ، ودخل الكوفة بعد أن تغلب على أنصار مصعب الذي أبى الاستسلام ، فقاتل هو وابنه عيسى وابراهيم بن الأشتر وبعض أنصاره حتى قتلوا • وبذلك انتهى حكم بن الزبير فى الكوفة عام ٧١ هـ • وتم للخليفة عبد الملك بيعة أهلها وانضم اليه القائد الشهير المهلب ابن أبي صفرة ، فأوفده لقتال الخوارج الذين استفحل خطرهم فحاربهم وانتصر عليهم فى سلسلة من المعارك •

انتزاع الحجاز من ابن الزبير :

لم يبق أمام عبد الملك بن مروان من الخصوم الا الخليفة فى مكة عبد الله بن الزبير ، فأرسل له جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي • فحاصر مكة وقام بقصفها بالمجانيق التي نصبت على الجبال المحيطة بها لارغام أهلها على طلب الأمان والطاعة لعبد الملك • وأصابت قذائف

المنجنيق الكعبة المكرمة وقتل خلق كثير • وقاوم عبد الله بن الزبير الجيش الأموي خمسة أشهر • ورغم انضمام بعض أتباعه واستسلام ولديه الى الحجاج فقد ظل يقاوم ويقاتل حتى قتل ومات شهيداً فى شهر جمادي الأولى عام ٧٣ هـ (٦٩٢م) وبموته استتب الأمر لعبد الملك بن مروان حيث دانت له جميع البلاد الاسلامية دون منازع • ولقد كافأ عبد الملك قائده الحجاج فولاه على العراق سنة ٧٥ هـ وكان الحجاج حازماً وعنيفاً • وقد تمكن من القضاء على سائر الفتن والثورات فى العراق • (١)

ثورة بن الاشعث والقضاء عليها :

لم يكد الوالي الحجاج بن يوسف ينتهي من اخماد الفتن والثورات التي أوقدها الخوارج فى العراق حتى فوجىء بتمرد عبد الرحمن بن الأشعث الذي كان الحجاج أرسله على رأس جيش لاخضاع كابول وحاكمها رتيبل الذي رفض دفع الجزية • ويظهر كما يقول الطبري وغيره من المؤرخين العرب ان الاشعث لم يوغل فى أرض رتيبل ويفرض عليه الخضوع بل اكتفى بالحصول على بعض الغنائم فاعتبر ذلك الحجاج ضعفاً وتهاوناً وهدد الأشعث بعزله اذا لم ينفذ ما أمره به ، فتمرد ورجع مع جيشه واحتل البصرة ثم الكوفة فبايعه الناس وخلعوا الحجاج بن يوسف الذي لم يتمكن من مقاومة الثوار ، فاضطر الى الانسحاب وسار حتى (دير تري) حيث ظل ينتظر مجيء النجدات من الشام • وعلى الفور أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً اشتبك فى شهر

---

(١) اشتهر الحجاج بن يوسف بخطبته التي القاها فى الكوفة عندما دخل المسجد وهو ملثم بعمامة خز حمراء .

جمادي الثانية عام ٨٣ هـ (٧٠٢) مع جيش عبد الرحمن الأشعث فى دير الجماجم ، واستمرت المعارك بينهما مائة يوم انتهت بانتصار الجيش الأموي وفرار ابن الاشعث الى رتيبل فى كابول مستغيثاً به ، فكتب الحجاج الى رتيبل يأمره أن يرسله اليـــه مقيداً ، فأذعن للأمر خوفاً وقتله وأرسل برأسه الى الحجاج •

اخضاع البربر واستئناف الفتوح :

استأنف الخليفة عبد الملك بن مروان سير الفتوحات التي كانت توقفت منذ وفاة عُقْبة بن نافع الذي قتل فى كمين نصبوه له البربر فى جبال الأوراس وهو عائد من طنجة عام ٦٣ هـ (٦٨٣م) وذلك فى عهد يزيد بن معاوية • وبعد مقتله استولى البربر على القيروان التي كان أسسها عام ٥٠ هـ واتخذها قاعدة لفتوحه •

وأرسل عبد الملك جيشاً كبيراً بقيادة حسان بن النعمان لمحاربة الروم واسترجاع المناطق التي كان استولى عليها عقبة بن نافع ، واخضاع البربر • وزحف الجيش من قواعده فى برقة حتى وصل الى قرطاجنة (١) واستولى عليها بعد معركة مع الحامية البيزنطية عـــام ٦٩٥م ، وعاد الروم واحتلوها بمساعدة أسطولهم البحري ، ثم عاد حسان بن النعمان وطردهم منها عام ٦٩٨ م •

وواصل القائد حسان بن النعمان الزحف عبر جبـــال الأطلس حيث اشتبكت قواته مع قبائل البربر فى عدة معارك كان أعنفها مع

---

(١) مدينة تاريخية تقع على بعد عشرة أميال غرب تونس ، أسسها الفينيقيون عام ٨١٤ قبل الميلاد .

القبائل التي تتزعمها (الكاهنة) صاحبة الفكرة القائلة : أحرقوا الزروع واجعلوا الأرض فقراء لكي لا يجد العرب شيئاً يستفيدوا منه .

وفى طبرجة التي تبعد عن قرطاجنة ١٢٨ كيلو متراً دارت رحى أكبر وأعنف معركة بين جيش ابن النعمان وقبائل الكاهنة ، فهزم فيها البربر وقتلت زعيمتهم وذلك عام ٨٧ هـ (٧٠٢م) .

وبعد ذلك النصر العظيم أقبل البربر على اعتناق الاسلام عن ايمان . وبفضل الاسلام تحولوا الى عبادة الله وتحسنت أحوالهم وساد الأمن بلادهم .

الاصلاحات الكبرى

(بناء مسجد الصخرة والقبة)

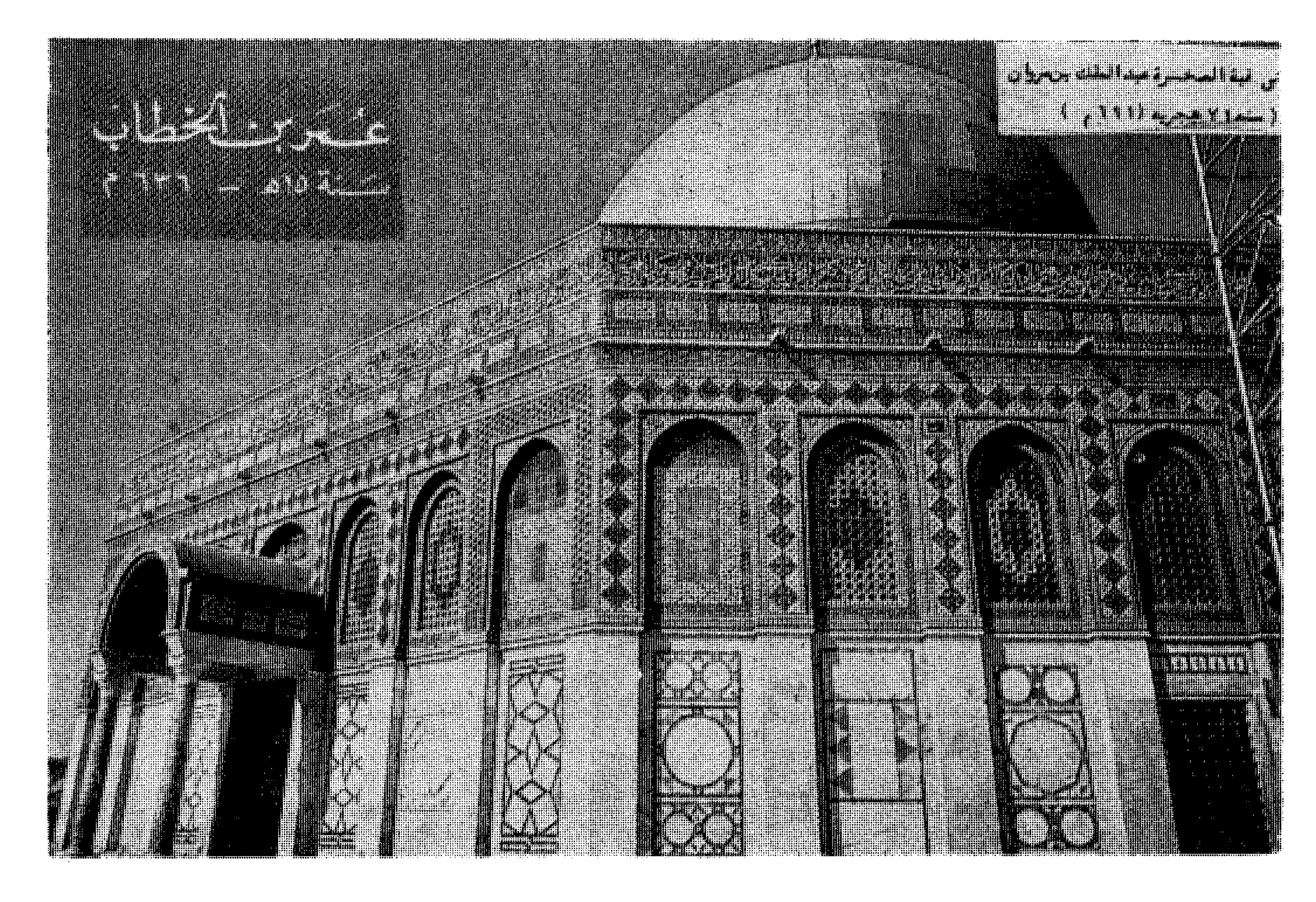
من أهم الاصلاحات التي قام بها عبد الملك خلال خلافته التي دامت منذ عام ٦٥ ــ ٨٦ هـ هي :

أولا ــ نقل الدواوين الى اللغة العربية بدلا من اللغات الفارسية واليونانية والقبطية التي كانت تستخدم فى الولايات الاسلامية .

ثانيا ــ وضع أساساً للنقد فى الولايات وذلك بتعميم التعامل بنقود عربية [1] هي الدينار والدرهم والفلس ، والدينار كان من الذهب ضرب فى عهد عبد الملك . أما الدرهم فكان من الفضة ، والفلس من النحاس .

---

(١) قبل الاسلام لم يكن للعرب نقود خاصة بهم . وأول من ضرب النقود العربية هو الخليفة عمر بن الخطاب .


عمر بن الخطاب
سنة ١٥هـ – ٦٣٦م
قبة الصخرة عبد الملك بن مروان
(سنة ٧٢ هجرية (٦٩١م))

٣ ــ بناء مسجد الصخرة والقبة فى بيت المقدس • وقد اكتمل عـام ٧٣ هـ بأيدي صناع ماهرين اختيروا من الولايات الاسلامية ، ووكل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه بالاشراف على العمل الذي استغرق حوالي سبع سنوات • وجاء بناء القبة من أحسن وأروع البناء ، فزينت جدرانها وسقفها بالفسيفساء والجواهر ، وصبت صفائح من الذهب على أبواب المسجد والقبة ، وفى الداخل وضع العود القماري المغلف بالمسك ، وقناديل الذهب والفضة • ولم يكن عهدئذ أروع وأجمل من بناء قبة الصخرة فى العالم • ويعتبر مسجد الصخرة أقدم بناء اسلامي بقي حتى الآن •

● وهناك أعمال واصلاحات أخرى قام بها عبد الملك بن مروان فى الولايات مثل اصلاح نظام البريد ، وتنظيم الدواوين • وفى آخر عهده طلب البيعة لابنه الوليد ومن بعده سليمان • وتوفى فى دمشق عام ٨٦ هـ (٧٠٥م) •

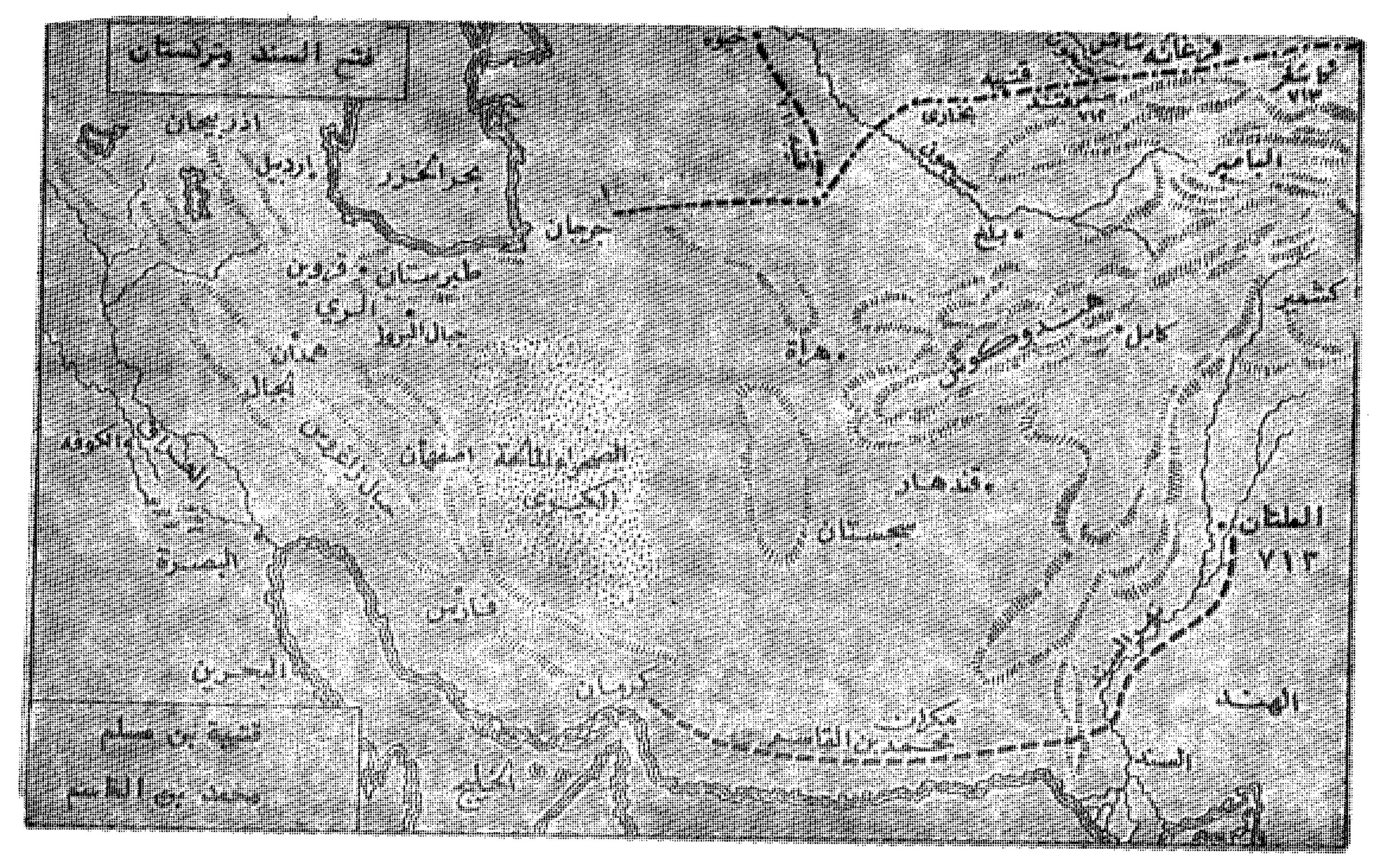
اتساع الدولة الاسلامية

(فى عهد الوليد بن عبد الملك)

تولى الخلافة الوليد بعد وفاة والده عام ٨٦ هـ ، وفى عهده اتسعت الدولة الاسلامية وأصبحت حدودها من نهر السند وتخوم الصين شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً • وكان عهده عهد رخاء واصلاحات عمرانية وفتوحات •

فتح تركستان والسند :

أمر الخليفة الوليد الوالي الحجاج بن يوسف بأن يرسل جيشاً لاخضاع تركستان وبلاد السند • وبقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي



فتح السند وتركستان
قتيبة بن مسلم
محمد بن القاسم
أذربيجان
أردبيل
بحر الخزر
جرجان
طبرستان
قزوين
الري
همذان
بلخ
هراة
كابل
هندوكوش
كشمير
قندهار
سجستان
الملتان
٧١٣
الهند
فارس
كرمان
البصرة
الكوفة
البحرين
الخليج
اصفهان
بخارى
سمرقند
فرغانة
الشاش
قتيبة
٧١٢

أحد زعماء القيسيين الذي عينه الحجاج على ولاية خراسان بدلا من المفضل بن المهلب عام ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ، خرج الجيش من مدينة ترو التي اتخذها مركزا لحركاته الحربية الى تركستان واشتبك فى معارك ضارية مع قبائلها العديدة المتمرسة على القتال • وتمكن القائد البطل قتيبة المشهور فى تاريخ العرب من دحر جيش خاقان الترك ملك بخارى والاستيلاء على مدن تركستان ، ثم دخل بلاد خوارزم وفتح سمرقند عام ٩٣ هـ (٧١٢ م) •

وحطم قتيبة الأصنام التي كان يعبدها سكان تلك البلاد ، ونشر الاسلام ، وبانتشاره دخلت المدنية الى بلاد تركستان •

وبينما كان قتيبة يفتح بلاد ماوراء النهر ، كان محمد بن القاسم الثقفي يزحف بجيش لفتح الهند عام ٨٩ هـ (٧٠٨م) ، فعبر الساحل الغربي وفتح الديبل (كراتشي حالياً) وبنى فيها مسجداً ثم تابع سيره الى بيرون واستولى عليها • ومنها تقدم عبر نهر السند واشتبك مع الملك داهر فى معارك ضارية قتل فيها ملك السند وهزم جيشه عام ٧١٢م ، وبإيمان وعزيمة واصل الجيش المسلم زحفه فاتحاً بلاد ماوراء نهر السند حتى وصل الى مدينة (الملتان) الواقعة جنوب البنجاب فاستولى عليها وغنم منها غنائم عظيمة بما فيها المجوهرات التي كان الهنود يقدمونها الى الصنم الذي يحجون اليه والمعروف باسم مزار (بوذي شهير) ، وفى الملتان وقبل أن يستأنف القائد محمد ابن القاسم سيره داخل بلاد الهند ليواصل فتحها وصله نبأ وفاة خاله الحجاج بن يوسف ثم توفى بعده الخليفة الوليد فتوقف الفتح فى بلاد الهند التي نشر فيها هذا القائد العربي رسالة الاسلام •

مراحل فتح الأندلس

فى الوقت الذي كان قتيبة بن مسلم يقوم بفتح بلاد تركستان ومحمد بن القاسم الثقفي بلاد السند كان موسى بن نصير الوالي على افريقيا يقوم باخضاع المناطق الباقية من الشمال الافريقي • وقد تمكن من اجلاء البيزنطيين عن السواحل باستثناء سبتة الواقعة فى المغرب • وكانت هذه مستعمرة حاكمها الكونت (جوليان) من أنصار ملك اسبانيا السابق (غيطشه) الذي خلعه فريق من القوط GOTHS (١) وقتله ، واعتلى العرش (رودريك) المعروف عند العرب باسم لذريق •

وعندما وصلت طلائع قوات موسى بن نصير الى سبتة اتصل الحاكم جوليان بموسى واقترح عليه القيام بغزو الأندلس • كما تعهد له بأن يشترك معه بمحاربة القوط وملكهم رودريك • فدهش موسى ابن نصير ، ونقل الى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك عرض جوليان ، فكتب له الوليد بقبول الفكرة ولكن حذره أن يأخذ الاحتياطات لكل الأمور خشية أن تكون هناك خدعة أو مكيدة مدبرة من حاكم سبتة جوليان •

الحملة الاستكشافية :

اختباراً لصدق نوايا حاكم سبتة طلب موسى بن نصير ارسال حملة استكشافية مشتركة ، مكونة من خمسمائة رجل بقيادة طريف بن

---

(١) القوط GOTHS قبائل من أوروبا الشرقية احتلت اسبانيا فى أوائل القرن السادس الميلادي . وقبلهم أقامت قبائل الوندال الجرمانية فى القرن الخامس الميلادي دولة فى جنوب اسبانيا سميت واندالوسيا ، ثم أطلق عليها العرب اسم (الاندلس) .

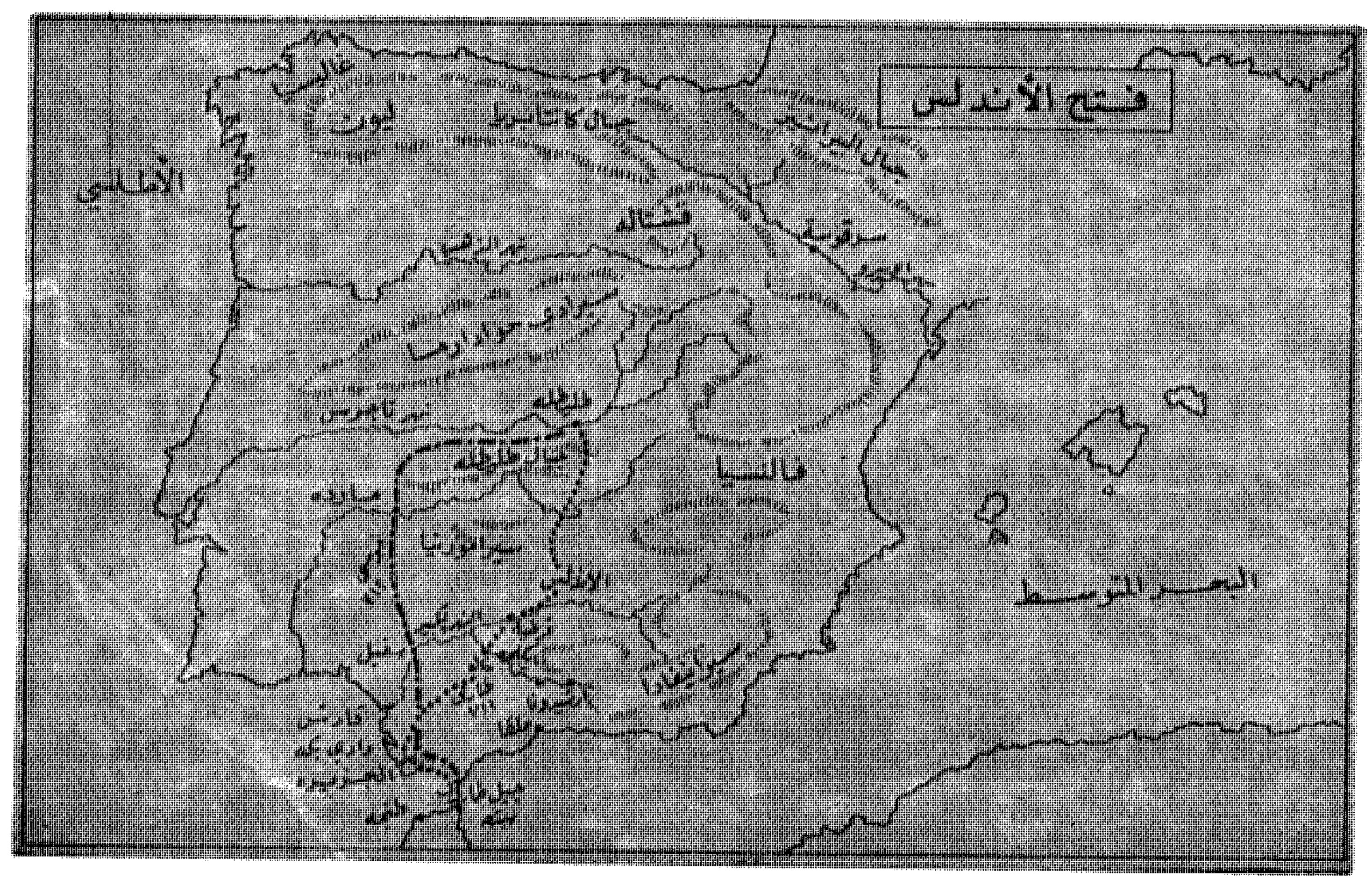
مالك ، بربري مسلم ـ سنة ٩١ هـ ـ ١٧٠م ، فجهز لها جوليان السفن اللازمة ، وتمكنت من انجاز مهمتها على خير وجه • وبعودتها حمل قائدها الى موسى بن نصير أخبار عن تفكك القوطيين وتذمر الأهالي من حكمهم الاستبدادي • فأكدت له هذه الحملة صدق نوايا جوليان وضعف وسائل الدفاع عن الأندلس ، فقرر فتحها •

طارق بن زياد يدخل اسبانيا :

كان طارق بن زياد آمرا على طنجة عندما أمره موسى بن نصير أن يقود جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتل معظمهم من مسلمي البربر لفتح الأندلس • والمعروف تاريخياً ان طارق كان مولى لموسى بن نصير وان موسى وثق به وقربه اليه وولاه على بعض الكتائب فى جيشه الذي حارب البربر والروم بافريقيا •

وفى سنة ٩٢ هـ ـ ٧١١ م عبر طارق بن زياد مضيق سبتة على سفن حاكمها جوليان ، وعندما نزل وجنوده قام باحراق السفن التي قدموا عليها وذلك خشية أن يفكر الجنود عند شدة القتال فى التقهقر الى حيث توجد السفن للهروب فيها • وكان نزوله على صخرة الأسد سميت فيما بعد باسمه وأطلق عليها اسم « جبل طارق » •

وبعد أن قام طارق بحرق سفنه وقف فى جيشه خطيباً ، فحمد الله وحث جنوده على القتال بشجاعة وصبر وثبات • ومما قاله فى خطبته الشهيرة : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم هنا فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم


فتح الأندلس
ليون
قشتالة
سرقسطة
طليطلة
فالنسيا
البحر المتوسط
سبتة

بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ولا أقوات لديكم الا ماتستخلصونه من أيدي عدوكم ، ولئن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ، ذهب ريحكم وتعودت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، واعلموا انني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة .. الى أن قال : واذا هلكت قبل وصولي اليه (يعني لملك القوط لذريق) فاخلفوني فى عزيمتي هذه . » وبعد تلك الخطبة البليغة دب الحماس فى جنود طارق وصار الكل منهم مثال البطولة والشجاعة يحذو حذو قائده .

هزيمة جيش رودريك :

وزحف طارق بن زياد لملاقاة جيش رودريك (لذريق) المؤلف من فيالق الفرسان والمشاة الكثيرة العدد والتقا الفريقان عند وادي بكة قرب مصب « نهر سلادو » حيث التحم الجيشان فى قتال مرير استمر سبعة أيام ، وفى اليوم الثامن توج المسلمون كفاحهم بالنصر ، وهزم القوط شر هزيمة ، وفر ملكهم رودريك ولكنه مات غريقاً . وتسمى هذه الموقعة « شريش » نسبة الى مدينة شريش الاسبانية .

وبعد ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون توجه طارق ابن زياد القائد العظيم الى طليطلة عاصمة الأسبان عن طريق استجه فاستولى عليها . ثم أخذت تتهاوى القرى والمدن الأسبانية وبسرعة فائقة تم الاستيلاء على قرطبة واشبيلية وكثير من المدن الأخرى . وهكذا تمكن طارق بن زياد فى مدة لاتتجاوز خمسة أشهر من فتح أكثر من نصف اسبانيا تحت لواء الاسلام ، فكتب له النصر المبين .

مساهمة موسى بن نصير :

وقد ساهم موسى بن نصير مع طارق فى فتح اسبانيا ، فسار على رأس جيش قوامه ١٨ ألف مقاتل سنة ٩٣ هـ ـ ٧١٢ م ، واتجه الى اشبيلية التي كانت تمردت بعد خروج طارق منها فحاصرها وارغم أهلها على الولاء والطاعة ، ثم فتح قرمونة (سيدونيا) ومدينة مريدة • وهناك بالقرب منها التقى موسى بن نصير بطارق بن زياد فلامه على مخالفته لأوامره اذ اعتبر موسى توغل طارق فى البلاد بدون مشورته عصياناً للأوامر ، ولهذا السبب وبخه •

وحاول طارق بن زياد بشتى السبل أن يبرر لموسى بن نصير سبب مخالفته مبيناً له الضرورة التي ألجأته لمواصلة القتال بحيث لو لم يفعل ذلك وتخاذل عن الاستمرار لهلك هو وجنوده • غير ان موسى لم يقتنع فى بادىء الأمر رغم ماقدمه طارق من براهين واعتذاره اليه • وأخيراً زال سوء التفاهم بين القائدين وأكمل طارق مع موسى فتح اسبانيا •

العوامل التي ساعدت على الفتح :

لا شك بأن قوة ايمان المسلمين وصبرهم وشجاعتهم مجتمعة فى بوتقة واحدة هي التي بفضلها حققوا تلك الانتصارات العظيمة • وهناك عوامل أخرى ساعدت على فتح هذه البلاد هي :

١ ـ استبداد ملوك القوط بالحكم وظلمهم للشعب •

٢ ـ ارهاق الأهالي بالضرائب الباهظة •

٣ ـ استعبد القوط طبقة من الشعب تعرف باسم طبقة العبيد ورقيق الأرض •

٤ ــ ارغام القوط لليهود باتباع الدين المسيحي قسراً والا تعرضوا للنفي ومصادرة أموالهم •

٥ ــ وجود خلاف ونزاع بين الأسرة المالكة من القوط وبين النبلاء القوطيين •

تلك العوامل ساعدت موسى وطارق على التقدم سريعاً وتحقيق الظفر تلو الآخر الى أن وصلا حدود اسبانيا الشمالية • ولقد راودت موسى بن نصير فكرة احتلال فرنسا عن طريق جبال البرانس ، ثم يتجه الى الشرق فيفتح القسطنطينية ومنها يتوجه الى الشام ، ولكن استدعاء الخليفة لموسى للحضور الى دمشق مع طارق حال دون تحقيق رغبته •

ملاحظة : لقد عمل الولاة على الأندلس بعد موسى بن نصير لتحقيق الفكرة التي كانت تراوده ، أشهرهم البطل عبد الرحمن الغافقي الذي عبر جبال البرانس عام ٧٣٢ ميلادية وتمكن من الاستيلاء على جنوب فرنسا بعد أن هزم دوق أكوتانيا على ضفتي نهر غارون ، ثم اتجه الى مدينة بوردو فحاصرها ودمر حصونها ، ومنها زحف شمالا الى بواتيه ، وهناك بين هذه المدينة ومدينة تور تقابل مع جيوش الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) فى موقعة أطلق عليها فيما بعد اسم (بلاط الشهداء) انتهت بمقتل عبد الرحمن الغافقي وانسحاب الجيش الاسلامي الى اسبانيا • وعاد العرب بعد عامين واحتلوا مدينة افينيون التي تبعد عن مدينة مرسيليا ٢٢٠ كم • وقد سبق عبد الرحمن الغافقي فى قطع جبال البرانس أحد القواد المسلمين (الحر بن عبد الرحمن الثقفي) ، فقام بحملات عام ٧١٧ــ٧١٨م على دوقات أكوتانيا ، وتابعها

بعده السمح بن مالك الخولاني فاستولى علـى سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط فى عام ٧٢٠م ثم احتل اربونة سنة ٧٢١م ومنها زحف الى تولوز حاضرة دوق اكوتانيا غير أن تلك الحملة باءت بالفشل بسبب استشهاد قائدها السمح بن مالك •

استدعاء الخليفة للقائدين موسى وطارق :

بعد الانتصارات التي حققها موســى بن نصير وطارق بن زياد استدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك فامتثلا لأمره ، وقد عين موسى قبل سفر الموكب الى الشام ابنه عبد العزيز نيابة عنه على الأندلس • وكان الموكب يضم بالاضافة الى عدد كبير من الضباط والجنود والخدم عشرات من الأمراء ونبلاء القوط جلبهم موسى لتقديم فروض الطاعة لأمير المؤمنين • ووصل الموكب الى دمشق فى شهر جمــادي الأولى عام ٩٦ هـ (٧١٥م) بعد رحــلة طويلة عبر الشمال الافريقي ومصــر وفلسطين • فقام موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد بتقديم الهدايا والتحف الثمينة للخليفة الوليد بن عبد الملك • وبعد أيام اعتل الوليد وأصيب بنكسة جديدة أقوى من الأولى التي أصابته قبل وصول الموكب الى دمشق ومات • وتولى الخلافة سليمان بن عبــد الملك فعزل موسى بن نصير وعامله معاملة قاسية لا رحمــة فيها • واتجه موسى الى الحجاز حيث قضى آخر أيامــه فى فقر وحالة يرثى لها ، وتوفى بوادي القرى سنة ٩٧ هـ عن عمر يناهز ٧٦ سنة • وبدوره طارق بن زياد فقد عزله سليمان عن القيادة ، وسمح له بالعودة الى طنجة حيث توفى فيها سنة ١٠٢ هـ (٧٢١) •

سياسة وليد العمرانية والاجتماعية :

لقد وصلت الدولة فى عهد الوليد الى ذروة الفتوحات ، واتسعت حركة العمران . ومن أهم الأعمال الاصلاحية التي قام بها خلال خلافته التي دامت حوالي عشر سنوات هي :

توسعة وتجديد المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، والجامع الأموي فى دمشق ، وأنشأ العديد من المدارس ، والمستشفيات الخاصة للمجذومين . وخصص الوليد لكل أعمى قائداً يقوده ولكل مقعد خادماً يخدمه ، وجعل للفقراء وأصحاب العاهات عطاء (صدقات) من بيت المال . وفى عهده تم تعريب الدواوين التي بدأها أباه من القبطية واليونانية الى العربية ، كما ازدهرت الفنون الاسلامية وخاصة فن العمارة .

وفى أواخر أيام الوليد أراد جعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز بدلا من أخيه سليمان الذي كان أوصى له بالخلافة عبد الملك بن مروان من بعد الوليد . وقد دعا الولاة والقواد وكبار القوم لمبايعة ابنه فاستجاب لرغبته البعض منهم ، وكتب الى أخيه سليمان يدعوه للحضور من الأردن ليفرض عليه مبايعة عبد العزيز فتمارض واعتذر ، ولكن اعتذاره لم يقتنع به الوليد فقرر أن يذهب اليه بنفسه ويرغمه على التخلي عن ولاية العهد الا ان الأجل المحتوم حال دون تحقيق رغبته فمات فى جمادي الثانية سنة ٩٦ هـ (فبراير ـ شباط ٧١٥م) .

خلافة سليمان بن عبد الملك :

تولى الخلافة سليمان بعد وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ (٧١٥م) ، وأول عمل قام به هو الانتقام من القواد الذين أيدوا أخيه الخليفة فى محاولة انتزاع ولاية العهد منه وتولية عبد العزيز . ومن الذين انتقم منهم محمد بن القاسم الثقفي الذي فتح بلاد السند وعين والياً عليها ، فعزله وسجنه ، وقيل انه مات تحت وطأة التعذيب . وعزل أيضاً قتيبة بن مسلم الباهلي الذي فتح بلاد ماوراء النهر ووصل الى داخل حدود الصين ، وقتل مع بعض بنيه واخوته . ونكل سليمان بموسى بن نصير وطارق بن زياد الذين سبق ذكرهما .

وقد أعاد الخليفة سليمان القواد الذين كان الحجاج بن يوسف (١) عزلهم وأمر بترقيتهم . ومن بين هؤلاء يزيد بن المهلب فعينه والياً على خراسان .

محاولة فتح القسطنطينية :

جهز سليمان بن عبد الملك جيشاً لفتح القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة الذي كان فى عهد الوليد عبر بقواته جبال طورس وتقدم داخل الممتلكات البيزنطية حتى وصل الى نقطة لا تبعد عن القسطنطينية سوى ٢٢٥ كيلو متراً (عام ٧١٠م) . وأراد سليمان ان يحقق مابدأه أخوه ، الا ان الجيش الذي أرسله بقيادة مسلمة طالت مدته دون أن يتمكن من فتح المدينة التي حاصرها براً وبحراً ، وعندئذ قرر أن يسير بنفسه على رأس جيش لنجدة أخيه . ولما وصل الى دابق

(١) الحجاج هو أول من وافق على عزل سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد ومبايعة عبد العزيز ابن الوليد . وكان سليمان ينوي معاقبته ولكن الحجاج توفى قبل الوليد .

مابين منبج وانطاكية مرض مرضاً شديداً حال دون مواصلة سيره • ولما شعر بدنو أجله أراد أن يجعل ولاية عهد الخلافة فى أبنائه ، وكان أكبرهم لا يتجاوز عمره الثامنة عشر سنة ، ولكنه عدل وأخذ بنصيحة أحد المقربين فأوصى بولاية عهد الخلافة من بعده الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وبعده أخيه يزيد ومات سليمان فى عام ٩٩ هـ ٧١٧م دون أن يتمكن من فتح القسطنطينية • (١)

الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز

لقد كتب سليمان بن عبد الملك وصيته بالخلافة الى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وختمها بخاتمه وطلب من بني أمية مبايعة من اختاره لهم دون أن يخبرهم عن اسمه فبايعوه ، ولما فتحت الوصية بعد وفاته وجدوا أنها مكتوبة باسم عمر بن عبد العزيز فجددوا له البيعة ورضي عنه الجميع لما فيه من تقوى وصلاح وعلم بأمور الشريعة الاسلامية وحسن خلق وتواضع •

والخليفة الجديد ولد سنة ٦٢ هـ ، أبوه عبد العزيز بن مروان كان والياً على مصر فى عهد أخيه الخليفة عبد الملك ، وأمه أم عاصم ليلى بنت عمر بن الخطاب • أخذ الفقه عن كبار فقهاء المدينة المنورة ، وفيها درس الأدب والعلوم • وكان خير خلفاء بني أمية وأحسنهم سيرة وسريرة • لقب بالخليفة الصالح ، وهو صالح ومصلح ، سار على نهج جده عمر بن الخطاب فى اتخاذ العدل أساساً للحكم ، وفى معيشته وتقشفه فى ملبسه •

---

(١) فتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح العثماني عام ١٤٥٣ ميلادية ، وأطلق عليها فيما بعد اسم استنبول .

وعندما تولى الخلافة ذهب الى جامع دمشق (الجامع الأموي) وخطب في الناس فقال : (لست بقاض ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً) وبعد الصلاة أحضروا الركائب المعدة خصيصاً للخليفة فرفض أن يمتطيها وقال لا أغير دابتي . وأمر ببيع تلك الدواب ورد ثمنها الى بيت مال المسلمين .

اعادة الشيعة الى حظيرة السلم :

اتخذ عمر بن عبد العزيز شعار خلافته قول الله عز وجل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » . ولقد قام بعزل الولاة الذين ثبت لديه أنهم ظلموا الرعية وحققوا مكاسب شخصية ، وأبدلهم بولاة صالحين متقين مخلصين قد آثروا آخرتهم على دنياهم . ولتصفية القلوب وتوحيد كلمة المسلمين أمر عماله بمعاملة الشيعة معاملة طيبة وانصاف كل مظلوم منهم . وبهذه السياسة الحكيمة الرشيدة قضى على الفتن والحزازات ، وأعاد الشيعة الى حظيرة السلم ، بدليل انهم لم يثوروا خلال خلافته .

الغاء الضرائب المستحدثة :

كان خلفاء بني أمية السابقين يأخذون الجزية من الأعاجم رغم اسلامهم بالاضافة الى الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة (١) ، فمنع عمر بن عبد العزيز أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، كما أعفى المسلمين الأعاجم منها . فأدت هذه السياسة الحميدة الى دخول كثير

---

(١) النصارى واليهود .

من الناس فى دين الله أفواجاً ، منهم من اعتنق الاسلام محبة فى عدله ومنهم من دخل الاسلام هروباً من دفع الجزية • وألغى الخليفة أيضاً الضرائب التي ابتدعها خلفاء بني أمية ، والرسوم التي كان الحجاج فرضها فى العراق على الأراضي وأجور البيوت والنكاح وخراج من أسلم من أهل الذمة ، ولم يبق سوى الضرائب التي كانت مفروضة فى عهد الخلفاء الراشدين ، فأثر ذلك علـى الخزينة مما جعل أحـد الولاة يشكو الى عمر نقص الأموال والعجز نتيجة لكثرة الداخلين فى الاسلام ، مستأذناً من عمر فى استمرار فرض الجزية ، فلم يقره على رأيه وقال له : قبح الله رأيك ، ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً •

اعادة الأملاك المغتصبة الى أصحابها :

مراعاة للعدل وتنفيذاً لأحكام الشريعة الاسلامية السمحة فقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بإعادة الأراضي وغيرها من الأملاك التي أغتصبت فى عهد بعض الخلفاء الأمويـين الى أصحابها ، والتي لم يكن لها صاحب ترد الى بيت مال المسلمين •

وسبق لعمر الخليفة الصالح أن ورث أرضاً عن أبيه عبد العزيز فأعادها الى بيت المال • كما طلب من زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بأن تقدم ماوهبها والدها من مجوهرات الى خزينة المسلمين فاستجابت لطلبه بغبطة وقدمت حليها وجواهرها •

إزالة الظلم واشاعة العدل :

وألغى الخليفة عمر أساليب الحكم التي كانت متبعة فى عهد الخلفاء الأمويين الذين سبقوه • فقد كان الولاة يصدرون الأحكام بالقتل

وقطع اليد دون الرجوع الى الخليفة ، وكثيراً ماكانوا يرتكبون أخطاء فادحة فى تصرفاتهم وأحكامهم مما أساء الى سمعة الدولة والقضاء وأدى ذلك الى التذمر والسخط فى بعض الولايات وخاصة العراق فى عهد الوالي الحجاج بن يوسف .. تلك الأساليب الضارة والفاسدة ألغاها عمر بن عبد العزيز ، وأمر الولاة بأن لا ينفذوا حكما بقتل أو قطع يد أحد إلا بعد استشارته ، كما أمرهم بأن لا يأخذوا الناس بالظنة بل بالبينة وما جرت عليه السنة . وبذلك أزال الظلم وأشاع العدل .

سياسة السلم ونشر الاسلام :

لقد نعمت البلاد فى عهد عمر بن عبد العزيز بالهدوء والاستقرار والاطمئنان ، بدليل لم تقع فتنة أو حركة تذمر أو تمرد طيلة خلافته التي اتخذت النهج الاسلامي الصحيح قاعدة للحكم والعدل .

وفى عهده توقف التوسع فى الفتوحات لأن البلاد التي سبق وتم فتحها كانت تستدعي الاهتمام وبذل الجهود لتنظيم شؤونها وتحسين أحوال أهلها . ولذلك أوقف مواصلة الفتوحات ليكرس جهوده للشؤون الداخلية وتقوية دعائم الدولة . وقد أمر مسلمة بن عبدالملك قائد الجيش الذي كان الخليفة سليمان أرسله لفتح القسطنطينية ولم يتمكن من فتحها بالعودة مع جيشه الى الشام .

وكان لنظام المساواة بين المسلمين من العرب وغيرهم الذي طبقه الخليفة أثره العظيم فى البلاد التي افتتحت . فقد دخل كثير من أهلها فى الدين الاسلامي دونما خوف أو اكراه .

وحتى ملوك السند والهند استجابوا لدعوة عمر بن عبد العزيز ودخلوا فى دين الله .

وفاة الخليفة الصالح :

توفى الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله وله من العمر ٣٩ سنة ، فى شهر رجب سنة ١٠١ هـ (شباط ـ فبراير ٧٢٠م) بقرية دير سمعان شمال سورية ، وقيل انه مات مسموما . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر كرسها لخدمة الاسلام والمسلمين . وقد كان دخله فى كل سنة قبل أن يتولى الخلافة ٤٠ ألف دينار فترك دخله لبيت مال المسلمين ولم يقتطع منه سوى ٤٠٠ دينار فى السنة . حقاً ان عمر الخليفة الصالح كان مثالا للعدل والانصاف وكرم النفس والتقوى والورع ، نهج طريق جده عمر بن الخطاب ، كما لم يتزوج غير امرأة واحدة هي فاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

وقد رثاه جرير (١) فقال :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا ❋ يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به ❋ وسرت فيه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعة ❋ تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

ورثاه الشاعر محارب بن دثار ، فقال :

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعه ❋ لعدله لم يصبك الموت يا عمر
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم ❋ كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يالهف نفسي ولهف الواجدين معي ❋ على العدول التي تغتالها الحفر

(١) جرير شاعر مشهور من قبيلة كليب ، كنيته أبو حذرة ، ولد فى اليمامة سنة ٦٥٣م ، وتوفى سنة ٧٣٢م .

تدهور حكم بني أمية

بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز بدأ نجم بني أميـة فى الأفول . فالخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم لم يكن البعض منهم على مسـتوى المسؤولية وبالتحديد الـذين انغمسوا فى الترف واللهو والاسراف . وقد أدى استهتارهم واسرافهم وانقسامهم على بعضهم البعض الى ضعف الدولة الأموية وتدهورها .

وخلال هذه المرحلة التي دامت ثلاثين سنة تولى الخلافة خمسة من بني أمية منهم واحد برز وأصلح الأمور هو هشام بن عبد الملك . وفيما يلي لمحة عن هذه المرحلة من الخلافة والخلفاء الـذين تعاقبوا على سدة الحكم :

يزيد الثاني بن عبد الملك :

تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ هـ ــ ٧٢٠م) حسب وصية أخيه الخليفة سـليمان بن عبد الملك . وكان أضعف شخصية عرفها العهد الأموي ، تأثر فى بداية حكمه بعمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح ، ولكن سرعان ما انقلب الى حياة الترف .. وفى عهده نشبت الفتن الداخلية وتأزمت الحالة وكان سببها سوء ادارته وتصرفاته . دامت خلافته أربع سنين ، وتوفى فى الأردن سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤م) . وقيل كان مرضـه السل فقضى عليـه .

هشام بن عبد الملك :

بويع هشام بن عبد الملك (١) بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥ هـ (٧٢٤م) ، وكان له من العمر أربع وثلاثون سنة . وقد تمكن من اصلاح ما أفسده يزيد بعد جهود تكللت بالنجاح . وبذلك أوقف التيار الذي كاد يجرف الدولة الأموية الى هاوية الانهيار .

وفى عهد الخليفة هشام فتح الجيش العربي بقيادة مسلمة بن عبد الملك عدداً من مدن الروم منها قيسارية عام ٧٦٦م وقونية وخرشنة . وأخذت الأساطيل البحرية العربية تشدد غاراتها على ثغور الروم فى حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان أمير البحر عهدئذ عبد الرحمن بن معاوية ومن أكبر قواده عبد الله بن عقبة .

هزيمة الترك واخضاعهم :

وفى الوقت الذي كانت فيه الجيوش الاسلامية تقوم بقمع الفتن الداخلية التي اندلعت قبل ان يتولى هشام الخلافة ولم تخمد الا بعد أن أصلح هشام الأمور بحكمة ومقدرة ، كان الترك فى بلاد ماوراء النهر (جيحون) يوحدون صفوفهم ويجهزون قواتهم للقيام بحركة فى بلاد تركستان التي كان قتيبة بن مسلم أتم فتحها عام ٩٣ هـ .

وأمر الخليفة هشام والي خراسان أسد بن عبد الله القسري أن يزحف بالجيش لتأديب الترك ، فالتقى بمجموعات منهم فى (غرفانة) حيث جرت معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة الترك وقتل أميرهم

---

(١) ولد هشام بدمشق عام ٧٢ هـ ، أبوه عبد الملك ، وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومي .

مع عدد كبير من قواته (سنة ١٠٨ هـ ــ ٧٢٧م) • وبالوقت الذي تمت فيه هزيمة الترك فى فرغانة كانت هناك جموع منهم بقيادة خاقان ملك الترك تهاجم اذربيجان ، فتصدى لها الحارث بن عمرو آمر المنطقة (١) واشتبك معها فى معركة قرب مدينة وارثان • وسرعان مالحقت الهزيمة بالترك ، وهرب الخاقان مع فلول قواته المنهزمة •

وفى سنة ١١٢ هـ أعاد الترك الكرة من جديد ، فأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك لقتالهم الجنيد بن عبد الرحمن الذي كان عينه الخليفة والياً على خراسان سنة ١١١ هـ خلفاً للوالي المعزول أشرس ابن عبد الله • وعبر الجنيد بقواته الى ماوراء النهر وسار حتى وصل مسافة لا تبعد عن سمرقند سوى أربعة فراسخ ، فهاجمه الخاقان بقوات كبيرة من الترك ، ورغم قلة عدد المسلمين بالنسبة الى أعداد عدوهم الهائلة فقد كتب لهم النصر واستعادوا سمرقند وبخارى • وفى هذه المعركة القاسية استشهد من المسلمين جماعة كثيرة ، وقتل من الترك عدد كبير •

أما فى منطقة اذربيجان فقد استعاد القائد سعيد بن عمرو الجرشي مدينة اردبيل التي كان استشهد فى مرجها القائد الجراح ابن عبد الله الحكمي • وهزم هذا القائد الباسل قبائل الخزر والترك هزيمة نكراء • وفى أعقاب تلك الموقعة ولى الخليفة هشام أخاه مسلمة ابن عبد الملك ارمينيا واذربيجان ، وسار بجيش لفتح عدة مناطق واوغل حتى وصل الى بلنجر •

---

(١) الحارث بن عمرو بطل معركة وارثان ، جرح فى المعركة ومات شهيدا .

وفى سنة ١١٤ هـ (٧٣٢م) تولى ارمينيا واذربيجان مروان بن محمد (حفيد مروان بن الحكم) ، فأمده الخليفة هشام بجيش كبير فتح به بلاد الخزر وادنت له قبائلها وملكها .

ثورة البربر والقضاء عليها :

سبق وذكرنا ان البلاد كانت فى حالة سيئة عندما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك . ففي الشمال الافريقي اتخذ الوضع طابعاً ينذر بالخطر ، وراح البربر يستعدون للقيام بحركة تمرد ضد الحكم الأموي وهكذا حدث ، فقد ثاروا فى منطقة طنجة وجبال الأطلس والقيروان عام ١٢٢ هـ (٧٤٠م) وغاروا على الحاميات العربية وقتلوا مجموعة كبيرة من أفرادها . وعلى الفور أرسل الخليفة حملة عسكرية لتأديبهم ولكنها لم تتمكن من اخضاعهم واخماد حركة العصيان التي اتسعت وزادت خطورتها . وخشي الخليفة هشام من نكسة جديدة فجهز جيشاً بقيادة البطل حنظلة بن صفوان وأمره بالزحف على البربر . وتمكن بعد معارك عنيفة دارت فى القيروان من انزال الهزيمة بقبائل البربر الثائرة ، ثم واصل سيره الى طنجة ففك حصارها ودخلها ظافراً ، ومنها اتجه الى جبال الأطلس حيث تم اخضاع العصاة . وبذلك أعاد الأمن والاستقرار الى سائر المناطق فى الشمال الافريقي عام ٧٤٢ ــ ٧٤٣ م .

من التقويم الى التصدع والاضمحلال

لا شك بأن هشام بن عبد الملك أصلح الأمور الى حد ما وأنقذ الخلافة الأموية التي كانت على وشك الانهيار • فقد قمع الثورات التي اندلع لهيبها فى خراسان والعراق والشمال الافريقي ، وأخضع الترك وقبائل الخزر • كما افتتحت الجيوش الاسلامية فى عهده عدة مدن من المملكة البيزنطية وجزء من جنوب بلاد الفرنجة (حالياً فرنسا) ووصلت طلائعها الى سواحل الريفيرا المتاخمة لمملكة لومبارديا (حالياً ايطاليا) عام ٧٣٨ ميلادية •

وأخطر حادثة وقعت فى الكوفة فى عهد الخليفة هشام هو مقتل حفيد علي بن أبي طالب (زيد بن علي زين العابدين بن الحسين) • وكان سبب ذلك هو ان زيد لما جاء الى الكوفة لتسوية قضية تتعلق به شخصياً التف حوله أهل الكوفة وبايعته فئة كبيرة • واتفق مع أنصاره للتأهب والخروج فى موعد حدد تاريخه (مساء الأربعاء من مستهل صفر سنة ١٢٢ هـ ـ ٧٤٠م) وفى الموعد المحدد علم الوالي يوسف بن عمر الثقفي بالخطة ، فأمر بجمع الناس فى المسجد لمنعهم من الخروج • ولما حانت ساعة الموعد لم يخرج مع زيد الا عدد قليل من أنصاره لا يتجاوزون ثلاثمائة فارس اشتبكوا فى معركة عنيفة مع الجيش الذي سيره والي الكوفة • وقد أصيب زيد بن علي بسهم فقتله • كما قتل بعض أنصاره وعدد من الجيش الأموي •

وخلاصة القول ان هشام بن عبد الملك قد أعاد للدولة الأموية هيبتها وقوتها وحفظها من التصدع والانهيار • وكان يشبه الى حد كبير معاوية فى دهائه وعبد الملك فى مقدرته • ومن أهم الاصلاحات

العمرانية التي قام بها هي : فتح الآبار على طريق الحج الى مكة المكرمة وشق قنوات الري ، وتحصين الثغور •

وتوفى هشام وهو فى الثالثة والخمسين من عمره سنة ١٢٥ هـ ٧٤٣م بعد حكم دام تسعة عشر عاماً وستة أشهر •

وبعد وفاة هشام تدهور الوضع وانقسم البيت الأموي على نفسه ، وأخذت الحالة تسوء والدولة تسير الى طريق الزوال •

وفى هذه الفترة التي استمرت سبع سنوات وانتهت بزوال الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية تعاقب خلالها على سدة الحكم أربعة خلفاء من الأمويين هم :

أولا ــ الوليد الثاني بن يزيد :

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأمه بنت محمد يوسف الثقفي ، بويع بالخلافة بعد وفاة عمه هشام سنة ١٢٥ هـ (٧٤٣م) بناء على وصية والده يزيد الثاني الذي تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز • وكان الوليد لا يصلح للحكم •• تهاون واستخف فى أمر الخلافة والرعية ، وغاص فى جحيم المنكرات فكرهه الناس وسادات بني أمية وقواد الجيش • وأخيراً قرروا التخلص منه ومبايعة ابن عمه يزيد ابن الوليد الذي تزعم الحركة وقضى على الوليد ، وقتل فى شهر جمادى الثانية سنة ١٢٦ هـ بعد حكم دام سنة وثلاثة شهور •

ثانيا ــ يزيد بن الوليد الأول

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وأمه شاهفرند بنت (فيروز) ابن يزد جرد آخر ملوك الفرس ، وأم فيروز بنت (شيرويه) بن كسرى

وأم أم فيروز بنت ملك الروم ، وأم شيرويه بنت خاقان ملك الترك •

عهـده للشعب :

تولى الخلافة بعد الوليد ، ومما قاله فى خطبته : (أيها الناس ، اني والله ماخرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة فى الملك ، واني لظلوم نفسي ، ان لم يرحمني ربي ، ولكني خرجت غضباً لله ولرسوله ودينه ، وداعياً الى كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين أطفىء نور أهـل التقى ، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب كل بدعة ، وانه لإبن عمي فى النسب ، فلما رأيت ذلك استخرت الله فى أمره ، ودعوت الى من أجابني مـن أهلي وأهل ولايتي ، فأراح الله منه العباد والبلاد بحول الله وقوته • ولا أنقل مالاً من بلد الى بلد حتى أسد ثغرة ، ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولكم عندي أعطياتكم حتى تستدر المعيشة بين المسلمين ، واذا لم أوف لكم ، ورأيتم أحداً أردتم بيعته فأنا أول من يبايعه ويدخل فى طاعته • واستغفر الله لي ولكم) •

وكان الخليفة يزيد (١) محباً للخير ، مبغضاً للشر ، عادلا ومتواضعاً دعا الناس الى التمسك بدينهم واطاعة ربهم • وأوصى الولاة بالتعاون مع الأهالي والسهر على مصالحهم •

لم يكتب ليزيد العمر الطويل ، فقد مات بالطاعون كما قيـل فى نفس السنة التي بويع فيها بالخلافة (١٢٦ هـ ـــ ٧٤٤ م) • وكانت مدة خلافته ستة أشهر •

---

(١) لقب يزيد بالناقص لانه ألغى زيادة عطاءالجنود والقواد التي كان الوليـد بن يزيد زادها لهم لكسب تأييدهم .

ثالثاً ـ ابراهيم بن الوليد :

هو ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، أخذ له يزيد البيعة قبل وفاته من أهل دمشق وقواد الجيش . وتولى الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد فى الوقت الذي عاد مروان بن محمد بن مروان من بلاد اذربيجان وارمينيا حيث كان حاكماً عليها . وقد زحف الى دمشق على رأس جيش مدرب ، وعند عين الجر (بين بعلبك ودمشق) اشتبك مع جيش الخليفة ابراهيم وهزمه ، ثم دخل العاصمة وبايعه كبار القوم . أما ابراهيم فهرب الى حران ومعه ابن عمه سليمان بن هشام قائد الجيش وبعد أن استتب الأمر لمروان بايعه ابراهيم الخليفة المعزول وابن عمه وأصحابه .

رابعا ـ مروان الثاني وزوال الدولة :

هو حفيد مروان بن الحكم ، قضى عدة سنوات فى الحروب يقود الحملات العسكرية لقمع الثورات واخضاع الترك وقبائل الخزر . ولقب بمروان الحمار لأنه كان يصبر على مكاره الحرب ويقاوم الشدائد والمصاعب ببسالة وبدون وهن أو ملل .

تولى الخلافة سنة ١٢٧ هـ والبلاد فى حالة اضطراب ، فكرس جهوده لاخماد اللهيب المستعر وانقاذ الدولة الأموية واعادتها الى مكانتها . وبقوة وحزم قام بقمع حركات التمرد والعصيان والفتن التي تشعبت واندفعت كالسيل الجارف . وتمكن فى المرحلة الأولى من خلافته التي دامت خمس سنين وعشرة أشهر من قمع الثورة التي قامت فى العراق بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني وقتله ، كما قمع الثورة فى حضرموت وقتل زعيمها المختار بن عوف الازدي المعروف

باسم أبي حمزة الذي كان دخل الحجاز مع قواته واستولى على المدينة ومكة • وبالوقت ذاته تم القضاء على عبد الله بن يحيى وجماعته فى اليمن الذين كانوا بايعوا المختار بن عوف • ونشبت أيضا ثورات فى حمص ودمشق وفلسطين فقمعها جميعها الخليفة مروان • وكان أشدها خطراً عليه هي حركة ابن عمه سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي حاول انتزاع الخلافة من مروان بالقوة ، فاستولى على قنسرين واعتصم فيها مع جنوده • وكان أثناءها مروان فى حران ، فهب مسرعاً على رأس جيش وهزم قوات سليمان وقتل عدداً كبيراً من جنوده • أما سليمان نفسه فتمكن من الفرار الى تدمر •

انطلاق الدعوة العباسية :

وبينما كان مروان منهمكاً فى اخماد الثورات كان نشاط الدعوة لبني العباس قد اتسع نطاقه فى خراسان بقيادة أبو مسلم الخراساني (١) الذي انتدبه ابراهيم بن محمد الامام العباسي لنشر الدعوة • وكان ابراهيم يقيم مع أهل بيته واخوته وأعمامه فى قرية الحميمة بالبلقاء (الأردن) •

واستطاع أبو مسلم الخراساني أن يضمن لنصرة الدعوة العباسية مجموعة كبيرة من أهل خراسان • وحسب الخطة المرسومة اتخذ خراسان قاعدة للزحف على العراق •

ولم يكن الخليفة مروان يعلم مايجري فى الخفاء الا بعد أن اطلع على رسالة سرية كان ابراهيم الامام بعث بها الى أبي مسلم يأمره

---

(١) هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم الخراساني . قيل كان يسمى ابراهيم بن عثمان ابن يسار ، ولد باصفهان ، غير اسمه بأمرابراهيم الامام وتسمى عبد الرحمن بن مسلم .

بالاسراع فى تنفيذ الخطـة • وفى الحال أمر عامله فى البلقاء بالقـاء القبض على ابراهيم واحضاره مقيـداً الى حران التي كان مروان اتخذها مقراً لقيادته • فودع ابراهيم أهـله وأوصاهم بأن يـكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، كمـا أمرهم بالسـير الى الكوفة • ولما وصل الى حران زج به فىالسجن •

وهكذا ظهرت الدعوة العباسية الى الوجود ، وقوي مركزها فى خراسان بعد أن أعلن القسم الأكبر من أهل مدينة (مرو) مساندتهم لحركة أبي مسلم الخراساني • وقد حاول الوالي نصر بن سيار التصدي للحركة والقضاء على اتباعها ، فأرسل الى أمير المؤمنـين مروان بن محمد كتاباً يخبره بحقيقة الوضع المتردي ويطلب منه ارسال نجدات عسكرية • ومما قاله فى كتابه للخليفة الأموي :

أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيـام ؟؟

فإن كانوا لحينهموا نيـاماً ... فقل قوموا فقد حان القيام

الا ان مروان لم يستطع أن يفعل شيئاً لانشغاله باخماد ثورة الخوارج • والذي زاد الطين بلةً وجعل من الصعب عـلى نصر بن سيار مقاومة الحركة والقضاء على أبي مسلم هو اندلاع الفتنة بـين العرب القيسيين واليمنيين فى خراسان • فاستغلها أبو مسلم الـذي كان له يد فيها ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة مرو عام ١٣٠ هـ (٧٤٧ م) ورفع العلم العباسي الأسود فوق الامارة •

وانسحب نصر بن سيار من خراسان الى مدينة الري (جنوب شرق طهران) حيث ظل يترقب وصول نجدات ، ولكن لم يصلـه شيئاً • واضطر بعد أن استولت قوات الخراساني على مدينة نيشابور

وأصبحت على أبواب مدينة الري الى الانسحاب مع جماعته الى مدينة همدان ، وفيها توفي سنة ١٣١ هـ (٧٤٨ م) ٠

وبعد أن أصبحت خراسان بقبضة أبي مسلم بالاضافة الى عدد من المدن الهامة التي استولت عليها قواته بقيادة قحطبة بن شبيب هي : (نيشابور ، الري ، اصفهان ، نهاوند) أمـر قحطبة بالزحف عـلى الكوفة ، فاشتبك فى معركة عنيفة مع الجيش الأموي بقيـادة الوالي يزيد بن هبيرة ، وكانت نتيجتها احتلال الكوفة ورفع العلم العباسي ٠ وفى أثناء هذه المعركة الحاسمة قتل قحطبة قبل أن تحتل قواته المدينة التي دخلتها فى اليوم التالي بقيادة ابنه الحسن ، سـنة ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) ، وأخذت البيعة لأبي العباس السفاح ٠

معركة نهر الزاب أنهت الامويين :

بعد سقوط الكوفة بيد العباسيين ، زحف الخليفة مروان على رأس جيش الى العراق ٠ وعندما علم أبو العباس السفاح بنبأ تحرك مروان أرسل جيشاً بقيادة عمه عبد الله بن علي ٠ والتقى الفريقان على ضفاف نهر الزاب الكبير على بعد ١٢٥ كيلو متراً من الموصل عام ٧٥٠م وقد هزم الجيش الأموي لعدة أسباب أهمها : (١) ضياع خراسان ودحر جيش يزيد بن هبيرة فى الكوفة والفوضى والانقسام أضعف معنويات الجيش ٠ (٢) الخلاف الـذي حصل بين مروان وبعض قواده قبل بدء المعركة ٠ وبعد الهزيمة حاول مروان وجيشة عبور النهر للفرار فغرق من الجنود كما يقول بعض المؤرخين أكثر ممن قتلوا فى المعركة ٠ وكان من بين الغرقى ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن الوليد وخلعه مروان ٠

ان معركة الزاب أنهت الحكم الأموي والخليفة مروان الذي ظل يستمر بالانسحاب وبسرعة حتى وصل الى مصر • وفى قرية بوصير بالفيوم داهمته ثلة من جنود العباسيين كانوا يطاردونه فعثروا عليه فى الكنيسة التي لجأ اليها ليلاً وأحاطوا به ، فخرج اليهم وقاتلهم ، وفى النهاية تغلبوا عليه وقتلوه • حدث ذلك فى شهر ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) •

وقد فتحت المدن أبوابها فى بلاد الشام وفلسطين للجيش العباسي ماعدا دمشق عاصمة الأمويين المحصنة تحصيناً قوياً • ففرض عليها عبد الله بن علي عم السفاح حصاراً استمر أياماً وأخيراً وقع الخلاف بين أهلها وانقسموا الى فئتين الأولى رفضت التسليم والثانية رغبت بالتسليم ، واشتبك القتال بين الفريقين داخل أسوار المدينة فساعد ذلك القائد العباسي على فتحها فى العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٢ هـ (حزيران ــ يونيه ٧٥٠م) • وقتل بالاضافة الى الأمويين مجموعة كبيرة من أنصارهم ، كما أحرقت راية الدولة الأموية البيضاء ، وارتفعت فوق القصور وأحياء العاصمة أعلام العباسيين السوداء •

واستمر العباسيون يلاحقون الأمويين ويقتلونهم حتى لم تقم لهم قائمة • ولم ينج منهم الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي هرب الى الأندلس وأنشأ فيها دولة مستقلة (سيأتي ذكرها بالتفصيل فيما بعد) •

أسباب سقوط الدولة الأموية :

١ ــ استقر الرأي منذ العهد النبوي علـى أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، ولم يعهد أي من الخلفاء الراشدين بالخلافة لابنه ، بينما حصرها الأمويون فى أبنائهم بالوراثة فى الوقت الـذي كان فيه من هو أحق منهم بها • وتصرفهم هذا لم يلق التأييد من كافة أوساط المسلمين لا سيما من الذين يرون أنهم أحق بالخلافة مثـل الامام علي ، والزبير بن العوام •

٢ ــ أهمل الخلفاء الأمويون مظاهر الحيـاة فى بساطتها التي عاشها كل من الخلفـاء الراشدين ، وقلدوا مـلوك الروم وأكاسرة الفرس فى حياة الترف •

٣ ــ سوء تصرف بعض خلفاء الأمويين فى نظام ولاية العهد أدي الى الانقسام والنزاع بين بعضهم البعض منذ أن أعـلن مروان بن الحكم ولاية العهد لولديه عبد الملك وعبد العزيز الواحد تلو الآخر ، وحذا حذوه ابنه عبد الملك فأعلن ولاية العهد لكل من ولديه ، الوليد ويليه سليمان • وبعد موت الوليد تعمقت هوة الشقاق بين الاخوة والأعمـام •

٤ ــ سلك بنو أمية سياسة غير عادلة مـع الموالي فى المراكز والمناصب فحقدوا عليهم وثاروا ضدهم فى عدة مناسبات •

٥ ــ تباين العدل فى حكمهم وحكامهم ، فبينما نجد أحدهم حاز كافة الصفات الحميدة التي ترضى عنها الرعية نجد الآخر جاء بنقيض الأول ، فكانت نتيجة ذلك اثارة سخط الناس وتذمرهم •

٦ ــ شجع بعض الأمويين والـولاة العصبية القبلية التي نهى

عنها الاسلام وقضى عليها عند أول ظهوره ، فأدى الى نزاع خطير بين القيسيين واليمنيين .

٧ ــ مطالبة آل البيت بالخلافة ومناصرتهم فى العراق . وكذلك ظهور الحركات السياسية التي قام بها الخوارج والعلويون .

مميزات العصر الأموي

لقد ساد العنصر العربي فى العصر الأموي ، وغيَّر نهج الحكم الذي أتبع فى عهد الخلفاء الراشدين ألا وهي الخلافة الديموقراطية .

وفى عهد بني أمية الذي امتد منذ عام ٤٠ الى عــام ١٣٢ هـ (٦٦١ ــ ٧٥٠م) انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً فى البلاد التي افتتحوها ، وظهرت الحركة العلمية والأدبية بعــد أن جرى نقــل الدواوين من اليونانية والفارسية والقبطية الى العربية . وعم استعمال النقود العربية التي ضربت فى دمشق فى عهد عبد الملك بن مروان بدلا من النقود الرومية والفارسية التي حظر استعمالها . وشــجع الأمويون الفنون والزخرفة وخاصة فن العمارة حتى بلغ القمة وصار مضرب المثل فى الروعة والتصميم . كما نظموا الجيش وبنوا الأساطيل البحرية ، وأنشأوا البريد ، وعمموا بناء المساجد والمدارس . واتسعت الفتوحات فى عهدهم حتى بلغت حدود الدولة الاســلامية من تخوم الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً .

ومن أشهر قواد الفتوحات فى العصر الأموي هم : عقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد (فى افريقيا والأندلس) . والمهلب بن أبي صفره ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن قاسم الثقفي فى

(بلاد ماوراء النهر والسند والهند) ٠

ومن فحول الشعراء الذين نبغوا فى العهد الأموي هم : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ٠ وهذا الأخير كان مسيحياً ٠

وكانت الـدولة مقسمة اداريا الى ولايات كبرى هي : (١) الحجاز واليمن وأواسط الجزيرة العربيــة (٢) سوريا وفلسطين ، (٣) العراق وفارس وخراسان ٠ (٤) الجزيرة واذربيجان وارمينيا ٠ (٥) مصر ٠ (٦) افريقيا الشمالية والأندلس وجزر البحر المتوسط ٠ وكان الخليفة هو المرجع الأعلى ، ولكنه جعل للولاة سلطة واسعة فى الشؤون الادارية والمالية والقضائية ٠

الفصل الخامس

الدولة العباسية

العباسيون :

يتصل العباسيون فى النسب الى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكان العباس قبل الاسلام يعمل سادناً للكعبة وفى التجارة . وقد أسلم قبل فتح مكة ، ولم يكن يطمع فى الخلافة بعد الرسول أو يسعى فى طلبها مع انه كان أقرب بني هاشم الى رسول الله وأكبرهم سناً . وكان الخلفاء الراشدون يكرمونه ويحترمونه ويقدرونه .

وقام العباسيون بدعوتهم على أساس انهم لايريدون الخلافة

الا لانقاذ المسلمين من ظلم بني أمية وجبروتهم • وانهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وبالتالي فان على الناس اطاعتهم ، ذلك لأن من أطاعهم أطاع الله •• ومن عصاهم فقد عصا الله •

الخليفة الأول للدولة العباسية

أبـو العباس السفاح

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس ، ويكنى بأبي العباس ولـد فى الحميمة بالبلقاء (الأردن) سنة ١٠٤ هـ ، لقب بالسفاح ، واختلف الرواة فى تفسير هذا اللقب وأسبابه ، فمن قائل ان عبد الله كان كريماً محباً للضيوف يكثر الذبائح لهم ، ولكثرة ما أراق من دماء الذبائح لضيوفه أطلق عليه لقب السفاح ، ومن قائل ان هذا اللقب أطلق عليه بعد أن أطلق على نفسه فىخطبته التي قال فيها : (أنا السفاح المبيح) والله أعلم بالصواب • بويع له بالخلافة فى الكوفة سنة ١٣٢ هـ

توطيد دعائم الدولة العباسية :

اتخذ أبو العباس السفاح الحزم منذ البداية لتوطيد دعائم الدولة العباسية وحمايتها من الفتن والدسائس • فقضى على أنصار الأمويين وغيرهم من المناوئين للعباسيين •

وكان العلويون من الفئة التي كان يخشاها السفاح ويحسب لها ألف حساب • علماً بأن العلويين يرون أن الخلافة يجب أن تكون فى آل البيت وانها حق للامام علي كرم الله وجهه وذريته • وللتخلص من العلويين الذين كانوا يشكلون قوة كبيرة فى العـراق ، قرر السفاح

الفتك بزعيمهم أبي سلمة حفص بن سلمان (الخلال) ، الذي أسهم في تأسيس الدولة العباسية وحارب مع أنصاره الأمويـين ، فأرسل السفاح أخيه الى أبيمسلم الخراساني والي خراسان يستشيره بالموضوع فرحب بالفكرة وأرسل شخصاً اسمه مرّار بن أنس الضبي الى الكوفة لقتل أبي سلمة الخلال ، فقتله غدراً وأشيع ان الخوارج قتلوه .

وكان أبو العباس ينوي التخلص من أبي مسلم الخراساني الذي أول من آزره من الفرس ، ومكافأة لجهوده ومؤازرته للعباسيين ولاه خراسان حيث مالبث أن ازداد نفوذه وقويت شوكته فخشي منه أبو العباس السفاح على سلطانه مما جعله يعزم على قتله ، ولكن المنيـة وافته قبل أن يقضي على الخراساني .

أهم أعمال أبو العباس السفاح :

من أهم أعمال السفاح مايلي :

١ ــ قضى على العناصر المناوئة ووطد دعائم الدولة .

٢ ــ وضع عـلامات الأميال على الطريق بين مـكة المكرمة والكوفة وذلك ليتسنى للمسافرين معرفة المسـافة التي يقطعوها أثناء سيرهم .

٣ ــ نقل عاصمة الخلافة من دمشق الى الأنبار بالعراق ، وأطلق عليها اسم هاشمية الأنبار نسبة الى جدهم هاشم .

٤ ــ أبطل بدعة الخطابة جلوساً التي كان ينتهجها سلفه الأمويون وصار يخطب بالناس قائماً كما توجبه السنة المحمدية .

٥ ــ جعل شعار دولة العباسيين اللون الأسود •

وعلى طريقة الأمويين لم يجعل من ولاية العهد شورى بين المسلمين بل أراد حسماً للفتن والمنازعات أن يجعلها تعييناً من بعده فأمر بالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور ، ومن بعده الى ابن عمه عيسى بن موسى •

وكان أبو العباس السفاح رجلا حازماً ، يحب المجالس والنقاش فى الأمور العامة • وتميز بتشجيعه للأدب وحبه للشعر واكرام الشعراء • ولم يقتن الجواري ، كما لم يتزوج سوى امرأة واحدة اسمها (أم سلمة) (١) سيدة عربية أديبة اشتهرت بقوة الادراك وحسن الرأي •

وقد توفى السفاح بمرض الجدري بمدينة الأنبار سنة ١٣٦ هـ (٧٥٤ م) عن عمر لايتجاوز ٣٢ سنة • وكانت مدة خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر •

الخليفة أبو جعفر المنصور

هو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وكنيته أبو جعفر المنصور ، ولد فى الحميمة بالبلقاء (الأردن) سنة ٩٥ هـ ، وكان أكبر سناً من أخيه أبي العباس السفاح ، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه ، وكان آنئذ فى الحجاز يؤدي فريضة الحج ، فلما وصله النبأ عاد مسرعاً الى الكوفة فبايعه أهلها ، ومنها سار الى الانبار مقر الخلافة • وقد أخذت له البيعة من جميع الولايات الاسلامية باسم الخليفة المنصور ، وبحزم ووعي وحكمة سير أمور الدولة وثبت قواعدها •

---

(١) كانت أم سلمة زوجة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، مات زوجها بدمشق ، ثم تزوجت أبا العباس السفاح قبل أن يصبح خليفة بعدة سنين . وقد أنقذت فى عهد خلافته من الموت عددا من الابرياء .

اخماد فتنة عمه عبد الله بن علي :

وبالوقت الذي بايع أهل الكوفة والأنبار المنصور كان عمه عبد الله بن علي الذي أباد بني أمية فى بلاد الشام يدعو الى نفسه بالخلافة زاعماً أن السفاح كان وعده أن يكون خليفة من بعده وذلك مكافأة لانتصاره على الجيش الأموي واخضاعه بلاد الشام . فزحف عبد الله بن علي بجيش كبير عندما بلغه وفاة السفاح وهو فى طريقه لغزو بلاد الروم واتجه الى حران فاستولى عليها وتحصن فيها . وفى الحال أرسل الخليفة المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني الداهية ومعه القائد المشهور مالك بن هيثم الخزاعي . ولما علم عبد الله بقدوم أبي مسلم خاف أن ينقلب ضده جند خراسان اذا رأوا أبا مسلم فقتل منهم جماعة كبيرة ، وترك حران مع جنود الشام الى نصيبين وعسكر فيها . وهناك دارت معارك بين جيش الخليفة المنصور وجيش عمه عبد الله استمرت ٥ ــ ٦ شهور كان خلالها الحرب سجالا بينهما . وفى المعركة الحاسمة انتصر جيش الخليفة فى شهر جمادي الثانية سنة ١٣٧ هـ (كانون الاول ــ ٧٥٤ م) وفر عبد الله بن علي هارباً الى البصرة حيث أقام عند الوالي أخيه سليمان بن علي مختفياً . ثم علم المنصور به فسجنه وظل فى سجنه حتى مات .

الرسائل المتبادلة بين المنصور والخراساني :

وبعد أن أخمدت الفتنة عزم الخليفة أبو جعفر المنصور على التخلص من أبي مسلم الخراساني الذي شمخت نفسه وأصبح بمركزه القوي يشكل خطراً عليه . مع العلم أن السفاح كان ينوي قتل الخراساني بعدما انكشف له مكره وخطره ، ولكن الأجل وافاه قبل تنفيذ رغبته . وأرسل المنصور فى طلب أبي مسلم قبل أن يسير الى

خراسان عائداً من نصيبين حيث كان يقود جيش الخليفة ، فرد عليه أبو مسلم فى رسالة يقول فيها : (انه لم يبق لأمير المؤمنين عدو الا مكنه الله منه . وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف مايكون الوزراء اذا سكنت الدهماء . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ماوفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وان أبيت الا أن تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي) .

ورد الخليفة برسالة بعثها الى أبي مسلم الخراساني حملها عيسى بن موسى ومعه أبو حميد المروزي يقول فيها : (قد فمهت رسالتك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم فى انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت فى طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة . وقد حمل اليك عيسى بن موسى رسالة أمير المؤمنين لتسكن اليها قلبك ان أصغيت اليها ، وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزعاته وبينك ، فان لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليه) .

نهاية الخراساني :

واستمر الخليفة المنصور يستعمل الدهاء والليونة ، ويوفد الى أبي مسلم الخراساني مندوبين ليقنعوه بالرجوع الى الطاعة حتى اقتنع وكتب الى الخليفة يعلمه بقدومه عليه . ولما وصل الى المدائن رحب به رجال القصر ، ثم أدخل على الخليفة ، فأظهر له الكرامة والاحترام ، وقال له :

اذهب الليلة وأرح نفسك من عناء السفر ، واحضر فى الغد • وعندما حضر صباحاً دخل على المنصور ووقف بين يديه ، فعاتبه الخليفة فى كل ماصدر منه ، وسأله عن سبب قتله سليمان بن كثير وابراهيم بن ميمون وهمامن كبارالدعوةالعباسية ، فقال : خالفا أمري ، فغضبالمنصوروقال : ويحك ! أنت تقتل اذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ ثم صفق بيديه فخرج الحرس من وراء الرواق وانهالوا على أبي مسلم الخراساني بسيوفهم حتى قتل • كان ذلك فى شهر شعبان سنة ١٣٧ هـ (٧٥٥ م) •

آل الحسن يثورون ويطالبون بالخلافة :

تجددت حركة المطالبة بالخلافة لذرية علي بن أبي طالب • وكان فى أواخر العهد الاموي ، وبالتحديد فى أواخر خلافة مروان بايع جماعة فى الحجاز محمد بن عبد الله بن الحسن المسمى بالنفس الزكية (١)• ويقول الطبري أن محمداً لم يبايع السفاح ، وكذلك تخلف هو وأخوه ابراهيم عن مبايعة المنصور •

وعندما أدى الخليفة المنصور فريضة الحج سنة ١٤٤ هـ ، سأل عبد الله بن الحسن عن ولديه محمد وابراهيم ، فقال : لا أدري أين هما ، ثم ألح المنصور على عبد الله فى طلب ولديه ، فقال لا أدري أين صارا ولا البلاد التي سافرا اليها • فغضب المنصور وأمر بسجنه ونقله مع أهل بيته وآل الحسن الى العراق •

وفى عام ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) ظهرت الحركة فى الحجاز واستولى محمد بن عبد الله الملقب (بالنفس الزكية) علىالمدينة ومكة ، وأرسلوفوداً

---

(١) كان فى الحجاز من نسل الامام علي بن أبي طالب عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ابن أبي طالب وولداه محمد المسمى بالنفس الزكية وابراهيم .

الى الشام يدعو أهلها الى بيعته فلم يستجيبوا ، وقالوا لرسله ، ضجرنا من الحروب ومللنا من القتال •

وعندما علم الخليفة المنصور بخروج محمد بن عبد الله وتحصنه فى المدينة مع جماعته أرسل جيشاً بقيادة عيسى بن موسى وأمره بأن يؤمن على أرواح أهل المدينة ، وتمكن جيش المنصور من القضاء على حركة محمد بن عبد الله وقتله فى ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ •

وكان من المقرر حسب الخطة المرسومة أن يقوم ابراهيم أخو محمد بن عبد الله فى حركة بالبصرة فى ذات الوقت الذي يخرج أخوه فى المدينة ، ولكنه تأخر فى الوصول ولم يتمكن من جمع أنصاره العلويين الا بعد أن كان جيش الخليفة المنصور قد بلغ المدينة المنورة وقضى على حركة المقاومة فيها • وفى البداية كسب ابراهيم الجولة الأولى وتمكن من الاستيلاء على البصرة والأهواز والمدائن • أما الجولة الثانية فكان النصر فيها للجيش العباسي وانهزام جيش ابراهيم فى المعركة الحاسمة التي دارت رحاها بين الفريقين على بعد ستة عشر فرسخا من الكوفة •

وقد قتل ابراهيم بن عبد الله (١) فى شهر ذي الحجة سنة ١٤٥ هـ بسهم أصابه أثناء المعركة ، وبمقتله أخمدت حركة أولاد عبد الله آل الحسن فى الحجاز والعراق •

بناء بغداد عاصمة العباسيين

من أهم ماقام به أبو جعفر المنصور من أعمال عمرانية ظلت راسخة فى التاريخ ، بناؤه مدينة بغداد • ففي سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) أمر المنصور ببناء عاصمته الجديدة على أنقاض قرية قديمة ساسانية

(١) قيل عن بعض المؤرخين ان الخليفة المنصور لما جلب له رأس ابراهيم بن عبد الله بكى بكاءا مرا وقال : والله لقد كنت لهذا كارها . ولكنك ابتليت بي وابتليت بك .

اسمها بغداد ومعناه (هبة) ، وسماها مدينة السلام • وهي تبعد عن المدائن عاصمة الفرس القديمة ٣٢ كيلومترا • وعندما اختار المنصور المكان لبناء المدينة على الضفة الغربية من نهر دجلة خيم فيه عدة أيام وليالي فوجده صالحاً تتوافر فيه سبل العيش وتسهل فيه المواصلات بين الولايات الاسلامية • وكان هو أول من وضع لبنة بيده فى بنـــاء بغـــداد ، وقال : (بسم الله والحمد لله ، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين) •

واتنقل الخليفة المنصور الى عاصمته الجديدة سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) حيث استمر البناء أربع سنوات حتى استكملت ، فكانت آية فى روعة الهندسة والفن المعماري والتصميم البديع • وقد جعلها فى تصميمها الهندسي مدورة تحيط بها أسوار مزدوجة ، ولها أربعة أبواب تمـر فيها طرق بعدد الأبواب وهي : باب الشام ، وباب البصرة ، وباب الكوفة ، وباب خراسان • وفى وسطها قصر الخليفة المسمى (باب الذهب) تتوسطه قبة خضراء ارتفاعها ٨٠ ذراعاً (٥٦ مترا) ، والى جانبه المسجد الفخم البناء • وغدت بغـــداد (دار السلام) منارة للعلوم والآداب ، ومركزاً عالمياً للحضارة الاسلامية •

تشجيع العلوم ومحاربة البدع :

وشجع الخليفة المنصور الحركة العلمية والأدبية ، وأقبل العلماء على ترجمة الكتب من اللغات الفارسية واليونانية الى اللغة العربية ، وتأليف الكتب فى الفقه والطب وعلم الفلك والرياضيات الخ •• وفى عهده صدر كتاب (الموطأ) للامام مالك ، والفقه لأبي حنيفة • وظهر من نوابغ الكتاب ابن المقفع الذي ترجم كتاب (كليلة ودمنة) الشهير الى العربية •

كما شجع الفنون ، واهتم بالزراعة وحفر أقنية المياه ، وجعل العنصر العربي قوياً فى الجيش ، ونظم البريد وجعله بمثابة (شرطة سرية) لجمع المعلومات عن أحوال الولايات وأخبار الولاة .

وقضى المنصور على كثير من البدع الدينية والعقائد الفارسية القديمة التي أبطلها الاسلام . وكانت آنذاك خراسان وبلاد ماوراء النهر موبوءة بهذه البدع التي أزال خطرها .

وفاة الخليفة المنصور :

توفى الخليفة المنصور وهو فى طريقه الى الحج سنة ١٥٨ هـ (٧٧٥م) ودفن فى مكة المكرمة ، وكان يومئذ عمر ٦٣ سنة ، ومدة خلافته ٢٢ سنة .

وكان قبل وفاته أخذ البيعة لولده المهدي بعدما حمل عيسى بن موسى على التخلي عن ولاية العهد . وكان عيسى بويع عندما اختار السفاح أخاه المنصور ولياً لعهده ودعا الناس لمبايعته ومبايعة ابن أخيه عيسى بن موسى خليفة للمنصور بعد وفاته ، ولكن المنصور أراد أن يحصر الخلافة بذريته فنفذ رغبته وجعل ولاية العهد لولده المهدي .

عهد خلافة المهدي :

تولى الخلافة محمد المهدي بعد وفاة أبيه المنصور (سنة ١٥٨ هـ) وأول عمل قام به هو اطلاق السجناء ما عدا الذين اقترفوا جرائم قتل ، وعزل الولاة الذين كانوا غير أكفاء ، وشكل هيئة استشارية للبت فى القضايا ورد المظالم .

وسار المهدي على نهج سليم قوامه السنة ، والاهتمام بالرعية ، ومكافحة البدع ، والقضاء على الملحدين . وكان يختلف عن أبيه

المنصور فی بعض النواحي وبالأخص الجود الذي اشتهر به المهدي ، فكان يوزع الأموال على الفقراء ، ويغدق على الأدباء والشعراء العطاء • وقيل انه فتح خزائن أبيـه المملوءة بالذهب والفضة ووزعها عـلى أبناء رعيته •

وفی سنة ١٦٠ هـ حج المهدي ، وكان معه ابنه هارون الرشيد • وقد وزع يومئذ على أهل مكة أموالا كثيرة • ولما دخل المدينة المنورة مكث فيها حتى أتم توسعة المسجد النبوي • وقبل عودته الى بغداد تزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية •

اقتحام بلاد الروم وفرض الجزية :

وفی سنة ١٦٦ هـ (٧٨٢ م) جهز الخليفة المهدي جيشـاً كبيراً قوامه ٩٥ ألف رجل بقيادة ابنه هارون الرشيد للزحف على بلاد الروم الذين كانوا قبل عامين شنوا غارة على المناطق العربية عبر جبـال طوروس • وسار الجيش العباسي حتى بلغ ضفاف البوسفور ، وأصبح على بعد بضعة أميال من القسطنطينية ، فأسرعت الامبراطورة ايرين (١) الى طلب الصلح من الرشيد • وتم الاتفاق على أن تدفع الامبراطورة (ملكة الروم) جزية سنوية الى الخليفة قدرها ٧٠ ألف دينار •
وعاد هارون الرشيد من الحرب منتصراً ومعه وفد من الروم يحمـل الجزية الى أبيه الخليفة محمد المهدي ، فاستقبلته بغداد استقبالا رائعاً •
وفی ذلك النصر العظيم قال مروان ابن أبي حفصة :

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً ... اليها القنا حتى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتى أتتك ملوكهـا ... بجزيتها والحرب تغـلي قدورها

(١) ايرينا زوجة الامبراطور ليو الرابع ، تسلمت مقاليد الحكم بعد وفاة زوجها باسـم ابنها قسطنطين السادس الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد .

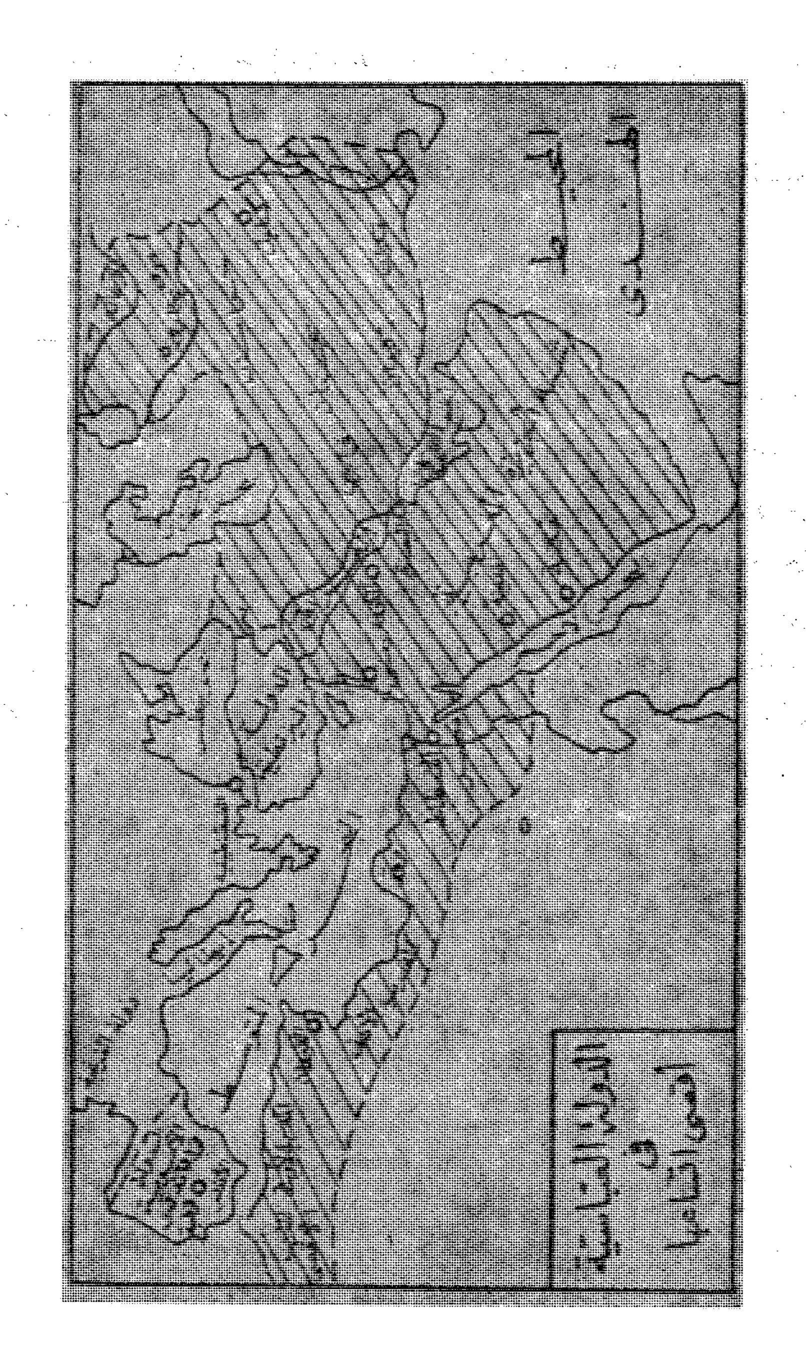
وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ هـ) توفى المهدي عن عمر يناهز ٤٣ سنة، وكانت مدة خلافته عشر سنوات • أما سبب وفاته فقيل أنه مات مسموماً ، وقيل أنه مات بالحمى ، وقيل أنه أصيب بكسر أثناء الصيد فمات على أثره •

خلافة الهادي بن المهدي :

بويع موسى الهادي بالخلافة بعد وفاة أبيه غير ان مدة حكمه لم تدم أكثر من سنة وشهرين : وقد وقع خلال فترة خلافته حادثة خطيرة فى الحجاز ، موجز قصتها هي : خرج الحسين بن علي بن الحسن (من آل البيت) ومعه جماعة من أنصاره ، ويقال أن السبب خلاف وقع بين عامل العباسيين وجماعة من أهل المدينة فتدخل الحسين وثار على العباسيين ، ثم انتقل مع جماعة من أنصاره الى مكة ، ولما علم الخليفة الهادي بالخبر أرسل جيشا بقيادة محمد بن سليمان العباسي لقمع حركة الحسين بن علي • وفى موقع (فخ) القريب من مكة دارت معركة بين الفريقين انتهت بمقتل الحسين وطائفة من جماعته وفرار الذين كتبت لهم النجاة من بينهم ادريس بن عبد الله بن الحسن وأخيه يحيى بن عبد الله [1] فالاول ذهب الى المغرب ، والثاني الى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين •

وحاول الهادي انتزاع ولاية العهد من أخيه هارون الرشيد ، وجعلها لابنه جعفر الصغير ، ولكن أمه (الخيزران) التي كان لها نفوذاً واحتراماً عظيماً فى عهد زوجها المهدي عارضت ذلك • وقبل أن يتمكن من تحقيق رغبته وافاه الأجل ومات سنة ١٧٠ هـ عن عمر ٢٣ سنة • وتختلف الروايات فى أسباب وفاته ، فقيل انه مات مسموماً ، وقيل مات بقرحة فى معدته ، وقيل دخلت قصبة فى منخره فمات ، والله أعلم •

(١) هما اخوان محمد النفس الزكية .



العصر الذهبي للدولة العباسية

فى عهد هارون الرشيد

عندما بويع هارون الرشيد بالخلافة عام ١٧٠ هـ (٧٨٦م) ، كان فى الثانية والعشرين من عمره ، وفى ذات اليوم الذي تولى فيه الخلافة ولد ابنه المأمون ، فسر بمولده ، ووزع يومئذ العطاء الجزيل على الفقهاء والشعراء والجند والفقراء .

ولد هارون سنة ١٤٥ هـ فى الري ، مدينة قديمة جنوب شرقي طهران . وقد أعده والده المهدي اعداداً حسناً ، وولاه قيادة الجيوش التي حاربت الروم وبلغت فى زحفها أبواب القسطنطينية وفرضت الجزية على الامبراطورة ايرين ، فأكسبته تلك القيادة والمهام التي عهد اليه والده بها خبرة فى شؤون الدولة واطلاعاً على أحوال البلاد .

وكان هارون الرشيد أشهر شخصية عرفها العصر العباسي الذي دام خمسة قرون وربع القرن . ففي عهده بلغت بغداد المركز الزاهر فى العلوم والفنون والتجارة .

حقاً ان عهده يعتبر من حيث الاستقرار والرفاه والتقدم والازدهار العصر الذهبي للدولة العباسية الاسلامية الكبيرة التي صنعت تاريخها العظيم ، وتبوأت المركز الأول فى التاريخ القديم . وقد خطب ود الرشيد الملوك وعظماء العالم منهم شارلمان امبراطور الغرب الذي تقرب من الخليفة العباسي ووطد معه علاقات متينة سنأتي على ذكرها ..

لم يسبق لملك فى الشرق أن ذاع صيته فى العالم فى تلك الحقبة الطويلة من التاريخ كالخليفة هارون الرشيد . فقد نشرت عن عهده مجموعات كبيرة من المصنفات ومئات الكتب بمختلف اللغات ، كما رويت القصص الكثيرة عن رجاحة عقله وقوة ادراكه ، وسرعة بديهته ، وكرمه ، وحبه لمجالس الطرب والغناء والشعر .

وكان الرشيد ورعاً ، محباً لأعمال الخير ، جزيل العطاء • وكان يتصدق من ماله فى كل يوم بألف درهم ، ويصلي فى كل يوم مائة ركعة تطوعاً • وقيل أنه طلب من رجل صالح أن يعظه ، فقال له يا أمير المؤمنين اذا ظمئت وانقطع الماء فكم تدفع ثمناً لشربة منه تدفع عنك غائلة الظمأ وترطب بها جوفك ، فقال هارون : أدفع قيمتها نصف ملكي ، فقال الناصح : واذا أصبت بمرض حصر البول وعز الدواء ، وبعد عناء شديد تمكنت من العثور عليه ، فكم تدفع ثمناً له ؟ فقال الرشيد : أدفع لذلك الدواء ملكي كله ، فقال الناصح : يا أمير المؤمنين مادام الأمر كذلك فازهد فى ملك لايساوي نصفه جرعة ماء ولا يساوي كله بوله •

والواقع أنه كان يقرب من مجلسه العلماء والفقهاء والشعراء ، ويصغي لأهل الفكر والموعظة ويقدرهم • وقيل أنه استدعى اليه الفقيه الجليل الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث ، وبعد انفضاض المجلس دعاه للغداء مع الحاضرين ، ثم قام الفقيه الضرير ليغسل فصب الخليفة هارون الرشيد الماء على يديه ، وقال له : أتدري من يصب لك الماء ؟ فقال لا • قال : هو أمير المؤمنين ، تعظيماً للعلم وأهله •

المرحلة الاولى من حكمه :

تميزت المرحلة الأولى من خلافة هارون الرشيد بتعيين يحيى بن خالد بن برمك [1] الذي رباه فى صغره كبيراً لوزرائه ، وقال له : (قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من حقي اليك ، فاحكم فى ذلك بما

(١) يحى البرمكي اعتنى بتربية هارون الرشيد عندما كان طفلا ، ونـ [illegible] الهادي بأن يعدل عن فكرة انتزاع ولاية العهد من أخيه هارونوتولية ابنه جعفر ، فزج الهادي فى السجن ثم أطلق سراحه هارون عندما تولى الخلافة .

ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ماترى ••) •

كما ولى الرشيد ولدي يحيى البرمكي المناصب الكبرى • فولى جعفر مصر والفضل خراسان • وشكل لجنة من القضاة والعلماء لوضع أصول الحكم فى مؤلف خاص • وأصدر عفواً عن جميع المساجين باستثناء الذين اقترفوا جرائم قتل •

وقد أعاد الخليفة والدته الخيزران الى القصر بعد أن كانت هجرته فى عهد أخيه الهادي بسبب خلافها معه ، وأصبحت لها الكلمة الاولى كما كانت فى عهد زوجها المهدي • وكانت الخيزران سيدة محترمة ، نيرة العقل تحب الشعر • وتوفيت سنة ١٧٣ هـ عن عمر لايتجاوز ٤٥ سنة •

ظهور حركة فى بلاد الديلم والمغرب :

ظهرت حركة جديدة قام بها أبناء عبد الله بن الحسن (من آل البيت) فى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين ، وفى بلاد المغرب • وقد سبقتها حركة أتينا على ذكرها ، قامت فى الحجاز فى عهد الهادي تزعمها الحسين بن علي (من آل البيت) وأخمدها الجيش العباسي بسرعة سنة ١٦٩ هـ بعد معركة قتل فيها الحسين • وكان معه يومئذ يحيى وشقيقه ادريس من ذرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فتمكنا من الفرار ، واتجه يحيى الى بلاد الديلم ، وادريس الى المغرب •

وفى بلاد الديلم قام يحيى بن عبد الله سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بحركة استفحل أمرها ، فأرسل الخليفة هارون الرشيد وزيره الفضل ابن يحيى على رأس جيش لاخمادها ، وكان الفضل رجلا سياسيا ماهراً فتمكن ببراعته وحسن تدبيره وفصاحته من استمالة يحيى بن عبد الله وذلك حقناً لدماء المسلمين • • وبعد أن أمنه على نفسه سار

بصحبته الى الخليفة هارون الرشيد فاحتفى به وأكرمه • ثم مالبث أن سجنه لدى جعفر ابن يحيى البرمكي فاستنجد به عبد الله ، وظل يتوسل حتى أطلق سراحه •

أما شقيقه ادريس بن عبد الله فى المغرب فقد التف حوله الكثير من البربر • وكان لبعد المسافة الشاسعة بين المغرب وبغداد وقلة المواصلات أثر كبير فى نجاح حركته الانفصالية عن الدولة العباسية • وقد شيد ادريس مدينة فاس فى موقع جميل واتخذها عاصمة له ، وأصبح هو الحاكم المطلق لبلاد مراكش •

وقرر الخليفة هارون الرشيد القضاء على ادريس بدون حرب وسفك دماء فى بلاد المغرب ، فأرسل رجلا يدعى الشماخ ، بربري من الموالي ، تنكر فى زي طبيب ، ودس السم لادريس فمات (٧٩٢ م) • ولكن الامر لم ينته بموته ، فالتف أنصاره حول ولده الطفل الصغير وبايعوه •

وعاد الخليفة هارون وأرسل سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) القائد العربي ابراهيم بن الأغلب لتوطيد النظام والامن فى الشمال الافريقي ، وأطلق له اليد فى حرية التصرف وادارة هذه البلاد • وتمكن من السيطرة على الوضع ، وبسط نفوذه • ومع مرور الزمن أصبحت المنطقة امارة مستقلة عرفت فيما بعد باسم دولة الأغالبة ، وبقيت مرتبطة معنوياً واسمياً بالخلافة العباسية •

اخماد الفتن الداخلية :

وقد نشبت فى فترات متقطعة منازعات وفتن داخلية أخمدها جميعها الخليفة هارون الرشيد • ففي بلاد الشام نشبت فتنة بين اليمنيين والقيسيين ، تحولت الى حرب أهلية مستعرة أخمدت سنة ١٨٠ هـ

(٧٩٦م) • وبعدها بثلاث سنوات ثارت قبـائل من الخزر ونهبت وقتلت عدداً كبيراً من أهالي ارمينيا واذربيجان ، فأرسل الخليفـة الرشيد جيشاً بقيادة حازم بن خزيمـة ونائبه يزيد بن مزيد ، فقمع ثورة الخرز وأعاد النظام والأمن • وفى طبرستان وخراسان نشبت فتنة سـنة ١٨٥ هـ فأخمدت • وبعدها ظهرت فتنة أخرى فقمعت ، وعاد الهدوء والاستقرار الى المنطقة •

العلاقات بين الرشيد وشارلمان

لقد توطدت العلاقات بين الخليفة هارون الرشيد وشارلمان (١) امبراطور الغرب الذي تبادل مع الخليفة العباسي السفراء والهدايا النفيسة • وكان من ضمن الهدايا التي أرسلها الرشيد الى شارلمان ساعة مائية صنعت فى بغداد ، وسيف من الذهب ، وفيل •

ويعتبر تبادل السفراء بين العاهلين حدثاً تاريخياً لـم يسبق أن حصل مثيله خلال التاريخ القديم • ففي العصور الغابرة كانت تعقد بين الملوك معاهدات سلم وتجارة • أما تبادل السفراء فـلم يحصل الا فى عهد هارون الرشيد وشارلمان •

وقد تقرب شارلمان من الخليفة العباسي وكسب وده ، ووقـع معه معاهدات صداقة وتجارة ، ومنحت التسهيلات للحجاج المسيحيين الوافدين من أوروبا الى القدس •

وعلاوة على ذلك ، كان شارلمان يتوخى من وراء تقوية علاقاته

---

(١) شارلمان هو ابن الامير بيبان لوبريف ، تبوأ العرش فى فرنسا عام ٧٧١ م ، واستولى على أوروبا الغربية ، وحارب الوثنية وحول السكسونيين فى ألمانيا الى المسيحية . وقد توجه البابا ليون الثالث امبراطورا على الغرب عام ٨٠٠ ، وتوفي عام ٨١٤م .

مع الرشيد كسب مودته للحصول على مركز أدبي فى الشرق ، والعمل على اضعاف الدولة الأموية فى الأندلس التي ظلت قائمة ولم يتمكن العباسيون من القضاء عليها . وأيضاً التعاون مع الخليفة العباسي على انهاك الامبراطورية البيزنطية .

واستعان الامبراطور شارلمان بالقوانين المطبقة فى الدولة العباسية لاصلاح نظام دولته . كما أوفد بعثات الى بغداد لدراسة فن البناء والطب وصناعة الأقمشة . علماً بأن أوروبا كانت آنذاك متأخرة غائصة فى ظلام العصور الوسطى .

انتصار الرشيد على امبراطور بيزنطية :

كنا أتينا على ذكر بلوغ الجيش العباسي أبواب القسطنطينية فى عهد المهدي وبقيادة ابنه هارون الرشيد وفرض الجزية على الامبراطورة ايرين وقدرها ٧٠ ألف دينار سنوياً . ولما خلعت ايرين عن العرش فى سنة ٨٠٢م واستولى على الحكم أحد النبلاء تحت اسم الامبراطور نقفور نقض اتفاق الجزية وكتب الى الخليفة هارون الرسالة التالية :

من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب .. أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت اليك من أموالها ماكنت حقيقاً بحمل أمثاله اليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ماحملته اليك من أموالها ، وافتد نفسك به ، والا فالسيف بيننا وبينك .

ولما قرأ الرشيد كتاب نقفور استفزه الغضب الشديد حتى لم يجرأ أحد أن ينظر اليه . وطلب دواة وقلماً ، وكتب على ظهر الكتاب :

بســم الله الرحمن الرحيم :

من هارون أمير المؤمنين ، الى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ماتراه دون أن تسمعه ، والسلام .

وفى الحـال صدرت الأوامر لتجهيز الجيش ، وتولى قيـادته الخليفة بنفسه ، وزحف حتى بلغ هرقلية على البحر الأسود . فخاف نقفور ملك الروم وطلب من الرشيد الموادعة على خراج يؤديه كل سنة ، فأجابه على ذلك . ولما رجع الخليفة ووصل الرقة على الفرات ليقضي فترة من الراحة فى قصره الجميل تمرد نقفور ونقض العهد . وكان البرد قد اشتد والثلوج بدأت تكسو جبال طوروس ، ورغم ذلك فقد عاد الرشيد من جديد وزحف بجيشه عبر تلك الجبال حتى بلغ سواحل البحر الأسود بعد ان اجتاح آسيا الصغرى ودمر حصون الروم وهزم جيشهم . فهلع نقفور وأرسل على جناح السرعة وفـداً يطلب الصلح . وكان من جملة بنود الاتفاق الذي وقعه امبراطور الروم هو أن يدفع الجزية دنانير ذهب تضرب فى القسطنطينية بأسماء هارون أمير المؤمنين ، وأولاده : الأمين والمأمون والمؤتمن . وذلك امعانا فى اذلالـه .

وبالوقت الذي كان الجيش العباسي يزحف باتجاه سواحل البحر الأسود ، كانت هناك حملة بحرية أرسلها الرشيد لاستعادة جزيرة قبرص التي أضاعها العرب أيام الحروب الأهلية . وقـد استولت على الجزيرة وأسرت عدداً كبيراً من جنود العدو . حدث ذلك سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢م) .

الخليفة هارون ينهي البرامكة :

يرجع أصل البرامكة الى برمك المجوسي ، وهم من أسرة فارسية عريقة • وقد أسلم أولاد برمك ، وكان أحدهم يدعى خالد قد آزر الدعوة العباسية منذ نشأتها وناصرها بكل مايملك وبشتى الوسائل ، ومكافأة له على صنيعه استوزره الخليفة العباسي السفاح • وبدوره المنصور ولاه على بلاد فارس ، ثم الموصل • ولما تولى الرشيد الخلافة قرب اليه يحيى بن خالد البرمكي وجعل منه الشخصية الكبيرة الأولى فى الدولة ، كما قرب أبناءه الفضل وجعفر وقلدهم المناصب الكبرى •

وكانت أسرة يحيى البرمكي أحظى الناس عند الرشيد وأحبها اليه • وقيل ان الخيزران أم هارون الرشيد أرضعت بلبنها الفضل بن يحيى ، وأم الفضل وجعفر أرضعت هارون لبنها • وهذا مايفسر ان الفضل يعتبر أخا لهارون بالرضاعة •

ويستدل من أقوال المؤرخين ومؤلفاتهم ان البرامكة بثقافتهم وعلمهم وخبرتهم قدموا خدمات جلى للرشيد وأسهموا معه فى تقوية دعائم حكمه • وقد ظلوا سبعة عشر سنة يتمتعون بنفوذ كبير وصلاحيات مطلقة فى ادارة شؤون الدولة ، جمعوا خلالها ثروات ضخمة ، وبنوا قصوراً فخمة ، واقتنوا الخدم والموالي حتى أصبح عددهم لايقل عن عدد موالي وخدم الخليفة •

وقد اختلف المؤرخون فى أسباب نقمة الخليفة هارون على البرامكة وتدميرهم واستئصال شأفتهم • فقال البعض ان السبب (العباسة) أخت الرشيد التي زوجها من جعفر البرمكي زواجاً صورياً ليستطيع

جعفر ان يحضر مجالسه العائلية ، واشترط عليه بأن لايقيم أية علاقة من أي نوع مع أختـه العباسة • ولكن الوقت لم يطل حتى حملت العباسة من زوجها جعفر وولدت غلاماً وأرسلته سراً مع جارية من جواريها الى مكة ليربى عند مرضعة • فلما علم الرشيد غضب وقطع رأس جعفر وقضى على البرامكة • فهذه القصة التي تناقلتها الألسن بأشكال وأساليب مختلفة ليست هي بحد ذاتها السبب الرئيسي فى نكبة البرامكة ، بل هناك أسباب أعمق من تلك الرواية أهمها :

١ ـ كان البرامكة فى السنوات الأخيرة يبتون فى أمور هامة دون أخذ رأي الخليفة فيها ، مثال ذلك اطلاق سراح يحيى بن عبد الله الذي تزعم حركة مناوئة للدولة العباسية فى بلاد الديلم دون عـلم الرشيد ، الأمر الذي جعله ينقم على جعفر ويعتبر عمله خيانة •

٢ ـ تضخم ثروة البرامكة ، والانفاق بدون حساب من أموال الخزينة على قصورهم وجواريهم وأتباعهم وأنصارهم مما زاد نقمة الرشيد عليهم وبالأخص كما يقول المؤرخ ابن جرير وغيره عنـدما علم ان جعفر أنفق على بناء قصره أموالا ضخمة تقدر بمليوني ونصف مليون دينار أخذها من بيت المال (خزينة الدولة) •

٣ ـ ازدياد نفـوذ البرامكة وهيمنتهم عـلى الدولة ، فخشي الرشيد من خطر نفوذهم الآخذ بالازدياد على الخلافة العباسية • وقد نقل الى الخليفة بعضـ المقربين اليه أن البرامكة يميـلون الى العلويين ، وربما فى المستقبل يقومون بحركة لاعادة الملك الى فارس باعتبارهم من أصل فارسي ، أو تحويل الخلافة الى العلويين •

تلك هي العـوامل التي أدت الى نكبـة البرامكة التي كان

للدسائس فى بلاط الرشيد دوراً فيها . وليس ثمة من شك بأن الثراء والنفوذ والتمتع بالسلطة المطلقة وتوزيع العطاء والمناصب على أنصارهم أثار العداء ونقمة الكثيرين من رجال القصر وجهاز الـدولة وغيرهم من الأعيان والوجهاء على البرامكة . وحتى زبيدة فقد نقمت على يحيى ابن خالد البرمكي والد جعفر والفضل وشكته مرات الى الرشيد لتضييقه فى النفقة على عيال الخليفة ، بينما كان ينفق بسخاء من أموال الخزينة على عياله وقصور أولاده .

وأخيراً قرر الرشيد انهاء البرامكة ، فأرسل خادمه الأمـين (مسرور) ومعه حماد بن سالم أبو عصمة مع ثلة من الجند الى قصر جعفر فألقوا القبض عليـه وسجنوه ، ثم حز رأسـه . وكان عمره وقتئذ ٣٧ سنة وفى نفس الليلة التي قتل فيها جعفر أمر الرشـيد بسجن يحيى وولده الفضل ، وظلا فى سجنهما حتى ماتا . وقد كانت وفاة يحيى البرمكي فى سجنه ببغداد سنة ١٨٨ هـ (٨٠٣م) ، عـن عمر يناهز ٧٠ سنة ، ووفاة ولده الفضل فى حبسه بالرقة سنة ١٩٢ هـ وله من العمر ٤٥ سـنة .

أما أملاك البرامـكة وأموالهم فقـد صادرها الخليفة هارون الرشيد ، كما أعتق عبيدهم وجواريهم ، وطهر القصر وجهاز الدولة من أنصارهم وأتباعهم . وهكذا قضى على البرامكة واندثرت آثارهم حدث ذلك فى سنة ١٨٧ هـ (٨٠٢م) .

ازدهار الحركة العلمية والتجارة والصناعة

ازدهرت الحضارة الاسلامية فى عهد الخليفة هارون الرشيد . وقـد نشطت التجارة نشاطاً ملحوظاً حتى فكر فى وصـل البحر الأبيض

المتوسط بالبحر الأحمر ، وكان ذلك قبل أن يفكر المهندس الفرنسي فيردينان دوليسيبس بأكثر من ألف سنة .

وكان من عوامل النشاط التجاري اتساع الدولة الاسلامية والاختلاط بالروم والصينيين والافريقيين وسائر شعوب البلاد المفتوحة . وقد وصل العرب بتجارتهم شرقاً الى الصين ، وغرباً الى المحيط الأطلسي ، وجنوباً الى جزيرة مدغشقر ، كما عبروا صحراء افريقيا الكبرى حتى نهر النيجر .

وقد اهتم الرشيد بأمور رعيته حتى انه كثيراً ماكان يتنكر متخفياً ويسير فى طرق بغداد وأسواقها لكي يتعرف على أحوال الرعية فيتسنى له بالتالي انصاف المظلوم واغاثة الملهوف . ومن جملة أعماله التي قام بها : تأمين الطرق التجارية ، وحفر الآبار ، وانشاء المحطات على طول طرق القوافل لامداد المسافرين بما يلزمهم . كما أنشأ المدارس والمساجد والمستشفيات ، وشجع التأليف وترجمت الكتب الهندية والفارسية والرومانية وغيرها الى اللغة العربية .

وقد عني الرشيد بنشر العلوم ، فأمر بتأسيس المعاهد لتخريج الأطباء . وكان هناك نوعان من الكليات الطبية النوع الأول هو (البيمارستان) أي المستشفى ، والنوع الثاني ــ المدارس النظرية . كما شجع الصناعات فى الولايات الاسلامية ، وكان من أهمها أن ازدهرت فى عهده صناعة السجاجيد الحريرية والقطنية والصوفية ، وصناعة البسط والنسيج والبسط المطرزة ، والأقمشة ، وصناعة الأواني الخزفية ، وأدوات الطهي ، والمصابيح . وكان لكل ولاية صناعتها الخاصة التي اشتهرت بها ، فمثلاً اشتهرت الكوفة فى العراق بصناعة

الكوفيات ، واشتهرت دمشق بصناعة نوع من الأقمشة أطلق عليه الأوربيون اسم (داماسك) نسبة اليها ، وكذلك الموصل فى العراق فقد اشتهرت بصناعة نوع من الأقمشة أطلق عليه الغرب اسم (موسلين) نسبة اليها ، وأيضاً مصر اشتهرت ببعض الصناعات أطلق على معظمها اسم الدمياطي نسبة الى دمياط • وهناك صناعة القاشاني والفسيفساء فقد اشتهرت دمشق بهما • كما تقدمت صناعة الحلي وصقل الأحجار الكريمة فى كثير من المدن الاسلامية • وأصبح اللؤلؤ والياقوت والزمرد والماس من الجواهر المفضلة عند علية القوم • ويقال ان من أشهر الجواهر فى التاريخ الاسلامي ياقوتة حمراء كبيرة توارثها قديماً ملوك فارس الساسانيون ، ثم صارت الى الخليفة هارون الرشيد فاشتراها بمبلغ أربعين ألف دينار •

المجالس الاجتماعية :

وكان هارون الرشيد مثالاً للكرم ، فقصده الأدباء والشعراء وأرباب النوادر ، وأرباب الموسيقى والغناء • وكانت فى قصره تعقد الندوات ويتبارى فيها الشعراء ، ومجالسه الخاصة تتخللها التسلية والنوادر والغناء •

ومن مشاهير الأدباء والشعراء والموسيقيين فى عهد الرشيد هم :

الأصمعي ، أديب كبير ، شاعر ، ومؤلف ، عهد اليه الخليفة هارون الرشيد بتعليم ابنه الأمين • ولد فى البصرة سنة ٧٤٠ م ، وتوفى سنة ٨٢٨ م •

أبو العتاهية ، كني بأبي العتاهية لتعتعته وحبه للمجون ، نشأ

بالكوفة ، شاعر مشهور ،عاش فى أيام الرشيد حتى أيام المأمون ، توفى ٨٢٥م ، ومن أقواله :

فيا ليت الشباب يعود يوماً ❋ فأخبره بما فعل المشيب

أبو نواس ، من كبار شعراء العصر العباسي ، قضى حياته مقرباً من الرشيد ، ولد فى الأهواز سنة ٧٦٢م ، وتوفى فى بغداد سنة ٨١٣م .

ابراهيم الموصلي ، موسيقي مشهور ، شاعر ، ومغني ، من ندماء الرشيد ، ولد فى الكوفة سنة ٧٤٢ م وتوفى فى بغداد سنة ٨٠٤ م .

وكان من أشهر أطباء الخليفة هارون جبرائيل بختيشوع ، مسيحي من طائفة السريان ، له كتب فىعلم الطب ، توفى فى عام ٨٣٠ م .

أما زوجة الرشيد أم العزيز الملقبة (زبيدة) فهي عربية عباسية بنت جعفر بن المنصور ، لقبت زبيدة لأن جدها الخليفة المنصور كان يقول لها وهي صغيرة : أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب ذلك عليها وأصبحت تعرف بهذا الاسم . وتزوجها هارون الرشيد فى عهد أبيه المهدي ، وولدت له الأمين .

وكانت زبيدة محبة لأعمال البر والخير كريمة وجميلة ، لها منزلة عالية وأحب الناس الى الرشيد . وذكر المؤرخ المشهور ابن خلكان انه كانت تفرض على جواريها أن يحفظن القرآن الكريم . وقيل لما حجت أنفقت ثلاثة ملايين دينار على أعمال الخير والفقراء وجر الماء الى الحرم بمكة المكرمة من عين أطلق عليها اسم عين زبيدة . وقد عاشت حوالي ٦٢ سنة منها ٢٣ بعد وفاة الرشيد . وتوفيت ببغداد سنة ٢١٦ هـ .

ولاية العهد ووفاة الرشيد :

فى السنوات الأخيرة من حياة الخليفة هارون الرشيد أراد ان يختار أحد أبنائه للخلافة من بعده . وكان هناك تنافس بين فئتين ، الأولى تحبذ الأمين ابن زبيدة لولاية العهد ، والفئة الثانية تناصر المأمون . وهذه الأخيرة كانت بزعامة الفضل بن سهل من أصل فارسي ، يؤيد البيعة للمأمون باعتباره أكبر سناً من أخيه الأمين ، ومن أم فارسية اسمها مراجل . بينما الفئة الأولى كانت تمثل النفوذ العربي بزعامة زبيدة أم الأمين والوزير الفضل بن الربيع .

وأخيراً اتخذ الرشيد قراره وجعل ولاية العهد لأولاده الثلاثة على أن تكون ولايتهم بالتتابع ، الأول يكون الأمين ، ويليه المأمون ، ثم القاسم الملقب بالمؤتمن . وثبّت ذلك بعهد كتبه فى مكة المكرمة بعد أن أدى فريضة الحج سنة ١٨٧ ، وأشهد عليه الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة ، وأودعه الكعبة المكرمة .

ولضمان التفاهم والتعاضد بين أولاده ، ومنعاً لاثارة الغيرة والحسد والصراع بينهم فقد ولى كل واحد منهم امارة . فالأمين ولاه امارة الشام والعراق ، والمأمون خراسان وبلاد ماوراء النهر والمشرق ، والمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم المتاخمة الى الروم . وأخذت العهود من الأمين والمأمون بأن لايتدخل أحدهما بشئون ادارة امارة الآخر . كما أخذ عليهما عهداً بأن لايتدخلا فى ادارة أخيهما المؤتمن فى الجزيرة .

وفى عام ١٩٣ هـ (٨٠٩ م) نشبت فتنة فى تركستان تزعمها رافع بن ليث تفاقم خطرها ، فسار ، الخليفة هارون الرشيد على رأس

جيش لاخمادها . وعندما وصل الى مدينة طوس فى خراسان مرض واشتدت به العلة ومات (١) وكان فى الخامسة والأربعين من عمره ، بعد أن تولى الخلافة ٢٣ سنة .

وقد رثاه الشعراء بقصائد كثيرة . ومما قاله الشاعر أبو الشيص :

غربت فى الشرق شمس * فلها العينان تدمع
ما رأينا قط شمساً * غربت من حيث تطلع

خلافة الأمين :

بعد وفاة هارون الرشيد تولى الخلافة ابنه الأمين ، وقد بايعه وجهاء بني هاشم والأمراء وقواد الجيش وعامة الناس . وكان الأمين عازماً كما ذكر المؤرخون على تنفيذ وصية أبيه والوفاء لأخويه بما تعهد ، ولكن وزيره الفضل بن الربيع ظل يحثه على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد لأنه كان يخشى ان أفضت الخلافة الى المأمون سيعزله من منصبه ويولي مكانه الفضل بن سهل (الفارسي) . مع ان الفضل ابن الربيع هو أول من نكث بالعهد الذي كان أخذه هارون الرشيد عليه للمأمون فى طوس حيث جدد البيعة لابنه قبل وفاته . ومن جملة مانص عليه كتاب تجديد البيعة يومئذ هو ان جميع الأموال والسلاح والدواب والمؤن التي هي بحوزة المأمون تبقى له ، والجنود مع قوادهم ينضمون اليه . وبعد وفاة الرشيد نقض بن الربيع العهد وعاد مسرعاً مع جنوده الى بغداد لعند الأمين .

---

(١) قال ابن جرير المؤرخ المشهور لما توفى الخليفة هارون الرشيد كان فى بيت المال (خزينة الدولة) ٧٠٠ مليون دينار .

الفتنة بين الأخوين :

واستمرت محاولات الفضل بن الربيع حتى وافق الأمين على انتزاع ولاية العهد من المأمون لولده الطفل الرضيع من بعده ، كما بعث رسولا الى مكة المكرمة لسحب كتاب العهد الذي كان والده الرشيد كتبه وأودعه فى الكعبة ، فمزقه وأحرقه .

وهكذا وقعت الفتنة بين الأخوين ، واشتد بينهما النزاع الذي كان فى الواقع نزاعاً بين العرب والفرس على النفوذ تحت ستار مؤازرة العرب للأمين والفرس للمأمون .

وسير الأمين جيشاً كبيراً الى خراسان لقتال أخيه بقيادة علي بن عيسى بن ماهان سنة ١٩٥ هـ ، ولما بلغ الري اشتبك مع جيش المأمون الذي يقدر بأربعة آلاف مقاتل بقيادة طاهر بن حسين بن عيسى الخزاعي وكانت النتيجة مقتل علي بن موسى قائد جيش الأمين وفرار جنوده . وقد أثرت تلك الهزيمة على مركز الأمين فى بغداد حيث تضعضع الوضع وازداد تفاقماً بعد الهزيمة الثانية التي مني بها جيش الخليفة فى همذان وقتل قائده عبد الرحمن بن جبلة . ثم واصل القائد طاهر بن حسين تقدمه حتى وصل حلوان ، فاحتلها بسهولة ، ومنها اتجه الى الأهواز بعد أن سلم هرثمة بن أعين القيادة فى المنطقة .

نهاية خلافة الأمين :

حاول الأمين انقاذ نفسه وانقاذ خلافته ، فأتى بنجدات من بلاد الشام ، ولكن ماكادت تدخل بغداد حتى نشبت ثورة أهلية ، واشتد القتال بين الفئتين المتنازعتين وهما الفئة المؤيدة للأمين والأخرى المؤيدة للمأمون .

وأخيراً وصلت جيوش المأمون الى بغداد بقيادة طاهر بن حسين وهرثمة بن أعين ، وحاصرت المدينة حصاراً طال أمده ، ثم دخلتها بعد قتال عنيف • أما مصير الأمين فقد حاول عبور نهر دجلة الى الضفة الشرقية ليسلم نفسه للقائد هرثمة الذي كان وعد ان يحافظ عليه ويسير معه الى المأمون ليأخذ له الأمان والعفو ، ولكن محاولته لم تنجح ، فقد تتبعه جنود طاهر بن حسين وقتلوه •

وكان الأمين عندما قتل فى سنة ١٩٨ هـ (٨١٣ م) فى السابعة والعشرين من عمره ، وكانت مدة خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر • وبعد مقتله نقلت أمه زبيدة من قصر أبي جعفر المنصور الى قصر الخلد ، وبعث القائد طاهر بولدي الأمين (موسى وعبد الله) الى عمهما المأمون بخراسان • وبذلك انتهى عهد الأمين وبايعت جميع الولايات أخيه المأمون •

عهد خلافة المأمون

فى المرحلة الأولى لم ينتقل المأمون الى بغداد بل بقي فى مدينة مرو بخراسان ارضاء لأهلها الذين ناصروه • كما منح وزيره الفضل ابن سهل صلاحيات واسعة ، وولى شقيقه الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والحجاز واليمن ، وأرسل طاهر بن الحسين الى الرقة لقمع حركة نصر بن شعث وولاه نيابة بلاد الشام والجزيرة والمغرب ، وولّى هرثمة بن أعين خراسان •

وعملا بمشورة وزيره الفضل بن سهل (الفارسي) فقد اختار

المأمون علي الرضا بن موسى (١) الذي ينتمي نسبه الى الامام علي ابن أبي طالب لولاية العهد ، وحظر ارتداء اللباس الأسود والاستعاضة عنه باللباس الأخضر • مع العلم ان الأسود هو شعار العباسيين والأخضر شعار العلويين • وقد اختلفت الآراء حول اختيار علي الرضا لولاية العهد ، فهناك فريق يقول : ان المأمون أراد بذلك ارضاءً للفرس أنصار العلويين ، وهناك فريق آخر يقول : ان المأمون كان يميل الى العلويين فى أول أمره لتأثره بالفرس ، وهناك فريق ثالث يقول : ان المأمون رأى ان علي الرضا أجدر من بني العباس بولاية العهد ، وهناك فريق رابع يقول : ان الوزير الفضل بن سهل هو الذي حث المأمون على هذا الاختيار لهدف معين قوامه تحقيق رغائب الفرس المتمثلة فى انتقال الخلافة الى العلويين عاصمتها احدى مدن فارس •

وليس ثمة من شك ان خلع السواد والاستعاضة عنه باللون الأخضر ، واختيار علي الرضا لولاية العهد هو من تدبير الفضل بن سهل الذي كان يخفي الكثير من الأمور على المأمون • وقد أدى ذلك الى نشوب حركة انقلابية فى بغداد أطاحت بحكم المأمون ومبايعة عمه ابراهيم بن المهدي بالخلافة فى شهر محرم ٢٠٢ هـ (٨١٦ م) •

ولما علم المأمون بالأمر اغتاظ من وزيره الفضل لسوء تدبيره واخفائه عن الخليفة حقيقة الوضع ، وفى الحال أصدر أمره بالسير الى

---

(١) هو علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب .

بغداد • وعندما وصل الموكب الى سرخس تسلل تحت جناح الظلام أربعة رجال الى غرفة الوزير الفضل بن سهل وقتلوه فى الحمـام • وتم اعتقال القتلة وقطعت رؤوسهم •

وفى طريقه الى العراق مر الخليفة المأمون بطوس حيث زار قبر والده هارون الرشيد • وفى بلدة طوس توفى فجأة فى أواخر شهر صفر عام ٢٠٣ هـ علي الرضا الذي كان اختاره المأمون لولاية العهد بناء على مشورة وزيره الفضل • ويدعي الشيعة انه أكل عنبا ومات مسموما ••

ولم تكد تصل أنباء قدوم المأمون الى بغـداد حتى ثار أهلها على ابراهيم المهدي الذي كانوا بايعوه قبل عامـين • وقبل دخول المأمون العاصمة العباسية أقام فى النهروان عدة أيام حيث وافاه طاهر ابن الحسين وبعض قواد الجيش • وفى ١٤ صفر سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩م) دخل بغداد بأبهة عظيمة وجيش كبير ، وبعـد أسبوع أعاد اللباس الأسود والرايات السوداء ، واختفى اللون الأخضر •

أما ابراهيم المهدي (١) عم المأمون فقـد هرب وظل مختفياً فى بغداد ستة أعوام ، ثم استسلم وعفا عنه ، كما عفا المأمون عن الثائرين باستثناء أربعة من كبار المتآمرين •

وبعد أن هدأت الحالة واستقرت الأمور تزوج المأمون فى سنة ٢١٠ (٨٢٦م) من بوران ابنة الحسن بن سهل شقيق الفضل بن سهل وزير مأمون السابق الذي اغتيل قبل ثمانيـة أعوام • وقد حضرت العرس زبيدة أم الأمين وخلعت على بوران بذلتهـا الأميرية وقالت

(١) كان ابراهيم المهدي يجيد الشعر والغناء والعزف على العود .

للمأمون : يا أمير المؤمنين ! فى عرسك ذكرى المحبة والمسرة من ذكرى أيام أبيك هارون الرشيد .. وقيل ان بوران فى ليلة حفلة عرسها طلبت من المأمون أن يعيد الى عمه ابراهيم المهدي منزلته ، وأن يأذن لزبيدة فى أداء فريضة الحج ، فحقق رغباتها .

القضاء على البدع والفتن :

اشتعلت نيران الفتن فى بعض الولايات وكان أشدها خطراً هي التي نشبت فى مصر حيث استولى الثوار بقيادة عبيد الله بن السري عليها وأقاموا لهم حكومة فيها . وقد سيَّر المأمون جيشاً فى عام ٨٢٥م بقيادة عبد الله بن طاهر بن الحسين (١) الذي تميز بالشجاعة ومكارم الأخلاق . ومما قاله فى خطبته البليغة التي ألقاها فى جنوده نقتطف ما يلي :

انكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، المدافعون عن دينه ، الذائدون عن محارمه ، الداعون الى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة الأمور الذين جعلهم الله رعاة الدين ، ونظام المسلمين ، فقاتلوا الذين شذوا وتمردوا وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين وسعوا فى الأرض فساداً ، فانه يقول تبارك وتعالى : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، فليكن الصبر معقلكم ، الذي اليه تلجأون ، وعدتكم التي بها تستظهرون .

وتمكن عبد الله من القضاء على حركة الثوار فى مصر واعادة

---

(١) طاهر بن الحسين القائد المشهور الذي ولاه المأمون خراسان سنة ٢٠٥ هـ وتوفى سنة ٢٠٧ هـ بمدينة مرو ، وولى الخليفة ابنه عبد الله مكانه .

الأمن والنظام وتوطيد حكم الخليفة العباسي • ومكافأة له فقد ولاه الخليفة المأمون الجزيرة وبلاد الشام ومصر •

وفى بلاد اذربيجان ظهرت حركة (بابك الخرمي) الـذي قام بنشر بدعته التي تبيح الكثير من المحرمات • واعتصم بابك فى المناطق الجبلية واستفحل خطره ، فأرسل المأمون جيشاً لقتاله والقضاء عـلى حركته التي استمرت حتى عهد المعتصم ، فأبادها وقتل بابك • (وسنأتي على ذكرها بالتفصيل) •

الثروة العلمية والأدبية

حذا المأمون حذو والده هارون الرشيد فى تشجيع العلم والأدب وقد أنشأ فى بغداد سنة ٨٣٠ ميلادية بيت الحكمة يشمل مدرسة للعلم والترجمة ومكتبة تزخر بمختلف الكتب والمصنفات العلمية والأدبيـة والفلسفية •

وفى عهـده ترجمت الكثـير من الكتب اليونانيـة والفارسية والسريانية الى اللغة العربية ، وكان من أشهر المترجمين هو حنين بن اسحق ، طبيب وفيلسوف ، نقل الى العربية عدة كتب عن اليونانية منها : كتب جالينوس وابقراط فى الطب ، وكتب المقولات والطبيعيات والأخلاق لارسطو ، وكتب الفلسفة والقوانين لافلاطون وثيماوس ، وأصول الهندسة لاقليدوس ، والكرة والاسطوانة لارخميدس • كما ترجمت مجموعات أخرى من كتب الطب والفلك والهندسة والموسيقى الخ •• وكان حنين ومساعديه من المترجمـين ، يتلقون بالاضافة الى مرتباتهم مكافآت مالية يمنحها الخليفة المأمون •

ان عصر المأمون يعتبر عصـر الرقي والتقدم والتطور • ففي عهده ازدهرت العلوم والفنون الاسلامية ازدهاراً رائعاً وذلك بتشجيعه للعلم ورواده • وكان المأمون شغوفاً بالعلم والمعرفة ، فدرس فى عهد أبيه هارون الرشيد الفقه والأدب والتاريخ ، وتعمق بدراسة التشريع وعلم الفلك والفلسفة • وكان فصيح اللسان ، يجيد الشعر ، ويحب مجالس العلماء والأدباء والشعراء ، وقيل انه فى أواخر عهده أفسح المجال للمعتزلة لابـداء آرائهم بحرية وعقد الندوات للمناقشـات الدينية والفلسفية • والجدير بالذكر ان كبار الأئمة وفى مقدمتهم الامام أحمد بن حنبل (١) اعتبروا آراء المعتزلة منحرفة تناقض كلام الله تعالى القائم بذاته المقدسة •

وفاة الخليفة المأمون :

كان المأمون قبل وفاته بثلاث سنوات عبر خلالها عـدة مرات بلاد الروم • ففي سنة ٢١٦ هـ (٨٣١م) دخل بلاد الروم على رأس جيش واحتل هرقلية ودمر عدة حصون • ثم عاد ثانية عندما رجع من مصر حيث قضى على فتنة عبدوس الفهري سنة ٢١٧ هـ وعبر بلاد الروم وحاصر لؤلؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً ، فخدعه أهلها وأسروه حيث ظل ثمانية أيام ، وعاد المأمون للمرة الثانية الى لؤلؤة فخرج أهلها وطلبوا الأمان والمصالحة •

وفى سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) خرج المأمون من الرقة للزحف على

---

(١) الامام أحمد بن حنبل ، عالم كبـير وفقيه جليل ، صاحب المذهب الحنبلي المعروف باسمه ، ولد فى بغداد سنة ١٦٤ هـ وتوفى سنة ٢٤١ هـ .

بلاد الروم ، فوافاه الأجل فى البدندرن شمال طرسوس ، فحمل اليها ودفن بها • وكان عمره ٤٨ سنة ، ومدة خلافته ٢٠ سنة وخمسة أشهر •

عهـد المعتصم بالله

هو محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون فى شهر رجب سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) بمدينـة طرسوس التي دفن بها أخيه • وكان المعتصم من أم تركية اسمها ماردة تزوجها هارون الرشيد فولدت له المعتصم وأم حبيب • وقد اتصف بالشجاعة والجرأة والقوة البدنية الخارقة ، فيروى انه كان يكسر بين أصبعيه زند الرجل ، ويمسح قطعة النقود من الذهب أو الفضة •

واعتمد المعتصم على العنصر التركي فى تكوين جيشـ خاص للتخلص من نفوذ العنصر الفارسي الذي ازداد قوة فى عهد المأمون وبالوقت ذاته لحماية الدولة من الحركات المعادية فى الداخل • وقد شكل فرقة خاصة من الترك استقدمهم من بلاد ماوراء النهر ، وألبسهم زياً خاصاً • وان بعمله هـذا أثار عداء الفرس بالدرجـة الأولى ، وبالتالي العرب الذين فقدوا مركزهم فى بيت الجند •

بناء حاضرة جديدة :

لم تمض فترة طويلة على تكوين فرقة عسكرية من الأتراك حتى خيم على بغداد موجة من الاستياء بسبب أعمال الضـباط والجنود الاستفزازية حيث أدت الى وقوع اصطدامات بين الأتراك والأهالي ، فاضطر الخليفة المعتصم الى بناء مدينة جديدة ينتقل اليها مع جنوده •

وعلى بعد ٧٠ ميلا شمال بغداد على ضفة نهر دجلة تم بناء (سامراء) [1] سنة ٨٣٦ ميلادية • وفيها بنى الخليفة قصراً فخماً ، ومسجداً بلغ علو مأذنته ٥٥ متراً ، وأحياء خاصة للضباط وجنود الأتراك • وظلت سامراء حاضرة للخلافة العباسية ٦٠ سنة •

حركة بابك الخرمي والقضاء عليها :

سبق وذكرنا ان بابك الخرمي صاحب البدعة الخرمية البابكية قام فى عهد المأمون بحركة فى اذربيجان استفحل خطرها • وقد أرسلت حملات عسكرية لاخمادها والقاء القبض على بابك ولكن فراره الى الجبال الوعرة واعتصامه فيه حال دون القضاء على هذه الحركة التي استمرت حتى عهد المعتصم الذي كان أوصاه المأمون حين أدركته المنية بأن يكافح الخرمية بدون هوادة حتى يبيدها •

وفى سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥م) جهز المعتصم حملة عسكرية للقضاء على بابك الذي قويت شوكته وانتشر أتباعه فى اذربيجان • واختار لقيادة الحملة حيدر بن كاوس المعروف باسم (الافشين) ، تركي من بلدة اشروسنة الواقعة وراء النهر • وكان الافشين خبيراً بحرب العصابات ، فأحكم الطوق على المنطقة ، وتمكن من اقتحام المواقع الجبلية حيث دارت المعارك العنيفة بين قوات الخليفة والثوار كانت حصيلتها تضعضع جماعة بابك وقتل الكثير منهم • ثم استمر تقدم الجيش العباسي عبر الجبال وممراتها الوعرة حتى بلغ قلعة بابك التي

(١) أطلق على المدينة فى أوائل الامر اسم (سرور من رأى) ، ثم اختصر الاسم وأصبح (سر من رأى) وبعد زوال الدولة العباسية ومع مرور الزمن أصبحت تعرف باسم سامراء .

اتخذها عاصمة له ، واسمها (البند أو البذ) ، فاقتحمها الافشين بعد قتال وحصار طويل ، وتمكن من آسر بابك وأخيه عبد الله وبعض أنصاره • وأرسل الجميع الى سامراء حيث أمر الخليفة المعتصم بقتل بابك وأخيه وصلبهما • وبذلك قضى فى عام ٨٣٧ ميلادية على حركة بابك الذي بلغت ضحاياه منذ ظهوره فى سنة ٢٠١ هـ حتى سنة ٢٢٢ هـ نحو ٢٥ ألف من المسلمين قتلهم ونكل بهم •

فتح عمورية فى بلاد الروم :

بعد أن قضى المعتصم على حركة بابك وبدعته قام بتجهيز جيش كبير لقتال الروم الذين كانوا استغلوا فرصة انشغال قوات الخليفة فى محاربة بابك باذربيجان فزحف ملكهم الامبراطور تيوفيل على المناطق العربية ، فاقتحم زبطرة المدينة التي ولد فيها المعتصم ونكل بأهلها ، ومنها اتجه الى ملاطية (ملطية) فسبى النساء المسلمات وقتل كثيراً من الرجال •

وسار المعتصم فى عام ٨٣٨ ميلادية على رأس جيش ضخم بعدده وبتجهيزه • وولى الافشين قيادة الجيش الثاني وأمره بعبور الجبال عن طريق الحدث والاتجاه الى أنقره حيث حدد اللقاء فيها • وبينما كان المعتصم يعبر بجيشه جبال طورس تقدمت قوات امبراطور الروم باتجاه الجيش الذي يقوده الافشين وانقضت عليه بسرعة خاطفة ، فصمد الجيش الاسلامي رغم الخسائر ، وتمكن من شن هجوم مضاد على الروم ، فدحرهم ، وانسحب الامبراطور تيوفيل مع جيشه المنهزم الى عمورية •

وفى أنقره التقى الجيشان حسب الخطة التي رسمها المعتصم ،

ومنها زحف الخليفة الى عمورية (١) بجيشه الكبير الذي قسمه الى ثلاث أرتال ، الأول الميمنة بقيادة الافشين ، والثاني الميسرة بقيادة اشناس ، والثالث القلب بقيادة المعتصم نفسه • وأطبقت الجيوش على المدينة المحصنة ذات الأسوار المنيعة والأبراج العالية ، وشددت عليها الحصار ، ثم اقتحمتها بعد أن هدمت قسما من أسوارها بالمنجنيق • وعلى غرار مافعله الروم فى زبطرة وملاطية فقد انتقم منهم المعتصم وأمر بهدم المدينة •

وكان من بين الأسرى المسلمين الذين أنقذهم جيش المعتصم بعد أن استولى على عمورية امرأة مسلمة اتخذها أحد النبلاء جارية فكان يعذبها وتصيح قائلة : (وامعتصماه) ، أي تطلب من المعتصم انقاذها • وكان خبرها قد نقله أحد التجار الى الخليفة المعتصم قبل أن يقتحم عمورية ، فلما استولى عليها أمر باحضار الجارية المسلمة والرومي الذي كان يعذبها ، وقال لها المعتصم قد حكمتك بهذا الرومي فاذا شئت قتله قتلناه لك ، فشكرت أمير المؤمنين وطلبت منه أن يعفو عنه ، فأكبر منها ذلك المعتصم وعفا عنه •

وقد خلد الشعراء معركة عمورية وانتصار المعتصم • ومما قاله أبو تمام الشاعر المشهور فى وصفه لتلك المعركة التاريخية نقتطف الأبيات التالية :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب
لقد تركت أمير المؤمنين بها   للنار يوماً ذليل الصخر والخشب

---

(١) عمورية تبعد عن أنقرة نحو ١٥٠ كيلو مترا ، فيها ولد تيوفيل امبراطور الروم ، وأيضا والده الامبراطور ميخائيل .

ضوء من النار والظلماء عاكفة / وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت / والشمس واجبة من ذا ولم تجب
لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على / بان بأهل ولم تغب على عزب
تدبير معتصم بالله منتقم / لله مرتغب فى الله مرتقب
لم يغز قوماً ولم ينهض الى بلد / الا تقدمه جيش" من الرعب
رمى بك الله برجيها فهدمها / ولو رمى بك غير الله لم تصب

اكتشاف المؤامرة :

عزم قواد العرب على التخلص من المعتصم ومبايعة العباس بن المأمون بالخلافة • فوضع عجيف بن عنبسة القائد العربي الخطة لاغتيال الخليفة وقواد الأتراك منهم الافشين واشناس • وظل العجيف يحث العباس ويلح عليه حتى وافق على خطة المؤامرة التي نقل سرها الى المعتصم أحد رجاله المخلصين وهو فى طريق العودة من عمورية الى طرسوس ، فأمر بقتل المتآمرين ، وسجن ابن أخيه العباس حيث ظل حتى مات •

نهاية الافشين :

ثبت للخليفة المعتصم ان الافشين القائد التركي يعمل سراً للوصول الى الملك وقيام دولة فى بلاد ماوراء النهر • وكخطوة أولى لتحقيق غايته راح الافشين يشجع مازيار بن قارن الثائر فى طبرستان ويحرضه على التمرد وعدم الانصياع الى نائب الخليفة فى خراسان عبد الله بن طاهر ، ظناً بذلك ان الوضع يتضعضع فيوليه المعتصم امارة خراسان مكان نائبه عبد الله • ولكن ذلك لم يتحقق ، فالخليفة أرسل جيشاً الى عبد الله بن طاهر للقضاء على حركة مازيار ، فتمكن من اخمادها

والقاء القبض على مازيار وأخيه قوهيار وارسلهما الى الخليفة فى سامراء ، كما بعث اليه الرسائل التي كان الافشين أرسلها الى مازيار •

وقد أمر المعتصم بقتـل وصلب مازيار ، أما الافشين فشكل لمحاكمته مجلساً يتألف من القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، والوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونائبه اسحق بن ابراهيم • فثبت انه كان على اتصال بمازيار المتمرد على الدولة ، وكان يراسل جماعة من بلده اشروسنة ويبعث اليهم بالأموال والهدايا لتوزع فى بلاد ماوراء النهر ، كما ثبت انه لا يزال يدين بمذهب المجوس دين آبائه وأجداده ، فأمر الخليفة بسجنه فى كوة ضيقة حيث ظل حتى مات سنة ٢٢٦ هـ •

وبعد مرور عام توفى الخليفة المعتصم فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٣م) ، وكان فى السابعة والأربعين من عمره ، ومدة خلافته تسع سـنوات •

خلافة الواثق بن المعتصم :

تولى هارون الواثق الخلافة بعد وفاة أبيه فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢م) • وكان الواثق مـن أم رومية اسمها قراطيس ، توفيت فى نفس السنة التي تولى فيها الخلافة • وعلى غرار خطـة أبيه فقد قرب الأتراك منه ، وقلدهم المناصب الكبرى فى الدولة ، كما اتخذ القائد التركي (اشناس) وزيراً له ولقبه بلقب سلطان ، وألبسه وشاحين وتاجاً مرصعاً بالجواهر •

وكان لدى الواثق وزيرين للاستشارة فى أمور الدولة هما أحمد بن دؤاد المعتزلي ، ومحمد بن عبد الملك الزيات • وقد حاول الأول

بأسلوب لبق وأيده الثاني ضمناً العمل علـى الحد من نفوذ الأتراك الآخذ بالازدياد ولكنه لم يتمكن ، واضطر فى النهاية الى العدول عن محاولته بعد أن ثبت له ان مقاومة النفوذ التركي ستكلفه حياته وحياة أصدقائه ، والنتيجة ستكون سلبية •

وفى عهـد الواثق وقعت اضطرابات فى الحجاز ونجد ، فأرسل حملة عسكرية بقيادة القائد التركي بغا الكبير لاخضاع القبائل الثائرة • وتمكن جيش الخليفة من اخضاع بني سليم ، وبني هلال ، وبني فزارة فى الحجاز سنة ٢٣٠ هـ • أما فى نجد واليمامة فقد جرت معارك عنيفة تكبد فيها جيش بغا خسائرا فادحة ، وكادت قبائل بنو نمير وبنو تميم تهزمه لولا النجدات العسكرية التي وصلته من العـراق ، فعدلت الموقف ، وتم اخضاع القبائل سنة ٢٣٢ هـ •

وكان الواثق رجلاً عاطفياً ، أديباً وشاعراً ، يقرب منه العلماء ، ويعقد فى قصره الندوات للمناقشات العلمية والفلسفية • وفى هـذا الصدد يقول ابن جرير وغيره من المؤرخين : ان الواثق كان يعتبر من أهل العلم والأدب ، كرس أوقاتـه للمطالعة والدراسات التـاريخية والفلسفة والعلوم الطبيعية منذ صباه ، ترعرع فى بغداد ، وقضى عهد خلافته فى سامراء الحاضرة الجديدة التي بناها المعتصم •

وقد أصيب الخليفة الواثق بمرض قيل انـه مرض الاستسقاء ، فمات عن عمر لا يتجاوز ٣٦ سنة فى شـهر ذي الحجة سنة ٢٣٢ هـ (٨٤٧ م) ، وكانت مدة خلافته خمسة أعوام وتسعة أشهر •

عهد الخليفة المتوكل على الله

(مكافحة المعتزلة والبدع ـ محاولة القضاء على نفوذ الأتراك)

تولى جعفر ابن المعتصم الملقب بالمتوكل على الله الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ . وقام بحملة كاسحة ضد المعتزلة ، فحظر عليهم عقد الندوات ، ونشر الآراء المخالفة لمذهب السنة ، وطرد أتباعهم من دواوين الدولة . واستدعى الامام أحمد بن حنبل الذي قاوم المعتزلة وأكرمه ، وأصبحت له الكلمة الأولى النافذة ، ولم يعد يولي المتوكل أحداً فى القضاء والمناصب الكبرى الا بعد مشورته .

وحارب المتوكل أصحاب البدع ، وشدد الخناق على الذين لا يتبعون الكتاب والسنة ، كما أمر بتطهير الدواوين فى جميع الولايات من العناصر المنحرفة والفاسدة ومصادرة أموالهم .

وفى سنة ٢٣٧ هـ قامت حركة فى ولاية ارمينيا بزعامة البطريرك بقراط بن اشوط كانت تهدف الانفصال عن الدولة العباسية واقامة امارة مستقلة ، فألقي القبض على البطريرك وأرسل الى الخليفة ، فهاج الأرمن وحاصروا مدينة طرون مقر الوالي يوسف بن محمد يوسف فقتلوه ، وقتلوا معه عدداً من المسلمين . ولما بلغ الخليفة المتوكل ما وقع فى ارمينيا أرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة بغا التركي الذي أخضع فى عهد الواثق القبائل التي ثارت فى جزيرة العرب . وتمكن القائد بغا بعد معارك عنيفة من القضاء على حركة التمرد فى ارمينيا .

وفى عهد المتوكل ازداد نفوذ الأتراك الى درجة كبيرة ، فخشي

الخليفة أن يؤدي ذلك الى سيطرتهم على الدولة واغتصابهم للملك ، ورأى ان أفضل وسيلة للتخلص منهم تدريجياً هو انتهاج سياسة التقرب من العرب واعادة بعض النفوذ اليهم لكي يساندوه فى التخلص من الأتراك . وعلى هذا الأساس نقل عاصمته من سامراء الى دمشق سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧م) ، ولكن ذلك لـم يحقق الهدف الـذي كان يتوخاه ، فاضطر الى ترك دمشق والعودة الى سامراء بعد أن علـم بالخطة التي يعدها الأتراك لاغتياله . وللتمويه أشيع ان مناخ دمشق لا يوافق صحة الخليفة فرجع الى العراق حيث أسس مدينة الماحوزة (١) بجوار سامراء أطلق عليها اسم المتوكلية ، واتخذها مقراً له .

مقتل الخليفة المتوكل :

لقد تآمر الأتراك على التخلص من المتوكل قبل ان يحقق مآربه ويقضي على نفوذهم ، وبالاشتراك مـع ابنه المنتصر ورسموا الخطة لقتله . وكان المنتصر الابن الأكبر للمتوكل يحنق عـلى أخيه المعتز الذي ينافسه على ولاية العهد ، وعلى أبيه الخليفة لأنـه كان يحب المعتز أكثر منه . مع العلم ان المعتز من أم رومية اسمها (كابيه) .

وحسب الخطة التي رسمها القائد التركي بغا الكبير بالاتفاق مع المنتصر ، فقد دخل عـلى المتوكل فى مخيمه القريب من مدينـة الحوزة فى نيلة الثالث من شهر شوال سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) شرذمة

---

(١) فى سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩م) بدء ببناء مدينة الماحوزة ، وفى نفس السنة وقعت زلازل رهيبة فى الشرق دمرت مدينة اللاذقية وجبلة وانطاكية ، وأصيبت عدة مدن أخرى بأضرار جسـيمة .

من جنود الأتراك وقتلوه مع وزيره الفتح بن خاقان • وكان له من العمر أربعون سنة ، ومدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر •

بداية الضعف فى الدولة العباسية

بعد مقتل الخليفة المتوكل قام القائد بغا ورجاله الأتراك بتنصيب ابنه المنتصر ، وأخذوا له البيعة من أخيـه المعتز بالضغط والتهديد ، ثم بايعه الأعيان وعامة الناس • وبعد عـدة أيام نقلوا الخليفة مـع حاشيته من المتوكلية الى سامراء حيث توجد ثكنات الجيش التركي والقصر الفخم الذي بناه المعتصم •

وهكذا أصبح الأتراك أصحاب الكلمة الأولى فى تنصيب وعزل الخلفاء • وكل من لا يخضع لمشيئتهم ويسير حسب أهوائهم يكون مصيره العزل أو كمصير المتوكل الذي كان مقتله ايذاناً بزوال هيبة الخلفاء العباسيين • والمنتصر نفسه لم تدم خلافته سوى ستة أشهر ، فمرض ومات مسموماً • ويقول بعض المؤرخين ان الأتراك هم الذين أمروا طبيبه أن يفصده بريشة مسمومة للتخلص منه لأنه أبدى رغبة فى التحرر من سيطرتهم ، فقضوا عليه وهو فى ريعان شبابه لا يتجاوز عمره خمس وعشرين سنة •

لقد انتهى الدور الأول للعصر العباسي الذي تميز بقوة الدولة وفرض هيبتها واحترامها ، ونشر العلم والمعرفة ، وازدهار الحضارة •• انتهى ذلك الدور الذي استمر أكثر من قرن ، وبدأت مرحـلة تسلط الأتراك على الخلفاء الذين تعاقبوا على سدة الحكم ، فزالت هيبة الخلافة ، ودب الضعف والانحطاط فى الدولة العباسية •

والجدير بالذكر ان سامراء ظلت حاضرة الخلافة حتى نقلها الى بغداد المعتضد بالله ، الرجل القدير الذي دامت خلافته عشر سنوات : ٢٧٩ـ٢٨٩ هـ (٨٩٢ـ٩٠٢م) • وقبله تولى الخلافة خلال الفترة التي استمرت (٣٢ سنة) أربعة من الخلفاء فى سامراء هم : المستعين بالله ، تولى فى سنة ٢٤٨ هـ وخلع وقتل سنة ٢٥٢ هـ • والمعتز بالله تولى فى سنة ٢٥٢ هـ وخلع ومات سجيناً سنة ٢٥٥ هـ • والمهتدي تولى فى سنة ٢٥٥ هـ وقتل فى سنة ٢٥٦ هـ ، والرابع المعتمد على الله ، تميز بضعف الارادة والانهماك بالملذات ، أبقوه الأتراك حتى توفى بعد خلافة اسمية دامت ٢٢ سنة وعدة شهور •

الحركات الانفصالية :

لقد أدى ضعف سلطان الخلفاء العباسيين الى تفكك الدولة الاسلامية الكبرى ، وانتشار الحركات الانفصالية فى أرجائها • وتعود أسباب الضعف والتفكك الى ظهور الاتجاهات السياسية عند الجماعات الاسلامية وانقساماتها فى الرأي [١] وانتشار البدع والآراء الفلسفية المتضاربة ، وتنمية الشعوبية وتغذية الروح الانفصالية ، وبروز العنصر التركي وامتداد نفوذه وتسلطه على الخلفاء منذ بداية عهد الواثق بن المعتصم •

تلك العوامل جميعها أدت الى اضعاف الخلافة العباسية ، وقيام حركات استقلالية فى الأندلس والشمال الافريقي وبلاد الشام وفارس الخ •• سنأتي على ذكرها بالتفصيل •

---

(١) السنة يمثلون أغلبية المسلمين ، التزموا أحكام القرآن وسنة الرسول . الشيعة رأوا ان الخلافة حق لعلي بن أبي طالب ثم لاولاده من بعده بالوراثة ، وانقسموا الى فرق منهم الزيدية والاسماعيلية والامامية الاثنا عشرية . الخوارج يرون ان الخلافة حق لكل مسلم حر ، وليست مقتصرة على العرب . المرجئة يرجئون الحكم على الذي يرتكب اثما الى يوم الدين ، ويفوضون أمره الى الله . المعتزلة مؤسسها واصل بن عطا ، تقول يجب تحكيم العقل فى حسم الخلافات .

الفصل السادس

الدولة الاموية في الاندلس

مؤسسها عبد الرحمن الداخل :

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان لقب بصقر قريش ، وعرف باسم عبدالرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء الأمويين . وقصة نجاته وفراره الى الأندلس خلاصتها :

عندما استولى العباسيون على الحكم جدوا فى البحث عن بني أمية . واستطاع عبد الرحمن الفرار مع أخيه الذي يصغره بسبع سنوات والالتجاء عند جماعة من البدو بالقرب من نهر الفرات فىالعراق حيث اختبأ لديهم ريثما تهدأ حركة البحث عن الأمويين الهاربين من

اضطهاد العباسيين . وبينما كان خارج خيمة مضيفه شاهد ثلة من جنود العباسيين تتجه نحو المخيم ، فخشي ان بقي عند البدو لا يسلم من الهلاك ، فأمر أخاه أن يتبعه حتى وصلا الى نهر الفرات ، فشاهدهما الجنود وجدوا في مطاردتهما ، وما كادا يتجاوزا مسافة قصيرة عبر النهر حتى صاح بهما الجنود بأن يرجعا ولهما الأمان ، فرجع الأخ الصغير وقتلوه . أما عبد الرحمن فواصل سيره متنكراً حتى وصل الى فلسطين ، ومنها الى مصر ، ثم الى المغرب حيث لجأ الى قبيلة أخواله في سبتة سنة ١٣٧ هـ بعد خمس سنوات من التجوال والتخفي والمتاعب مع مولاه الأمين المسمى (بدر) الذي كان لحق بسيده قبل ان يتجاوز فلسطين .

توطيد دعائم الدولة وسحق القوات المعادية :

فكر عبد الرحمن في احياء الدولة الأموية بالأندلس ، فأرسل مولاه بدر ليتصل بأنصار الأمويين ، فوجد لدى جند الشام واليمنيين الاستعداد لنصرة سيده الأمير الأموي . وفي ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) عبر عبد الرحمن المضيق ونزل في مكان اسمه المنكب أو المنقار على بعد ٦٣ كيلو متراً من ملقا . وسرعان ما انضمت اليه عدة كتائب عسكرية زحف بها الى اشبيلية ، فاستولى عليها وبايعه أهلها .

وكان يحكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، فحشد جيشاً لقتال عبد الرحمن الداخل ، وفي موقع اسمه المصادرة بالقرب من قرطبة انهزم جيش الفهري سنة ١٣٩ هـ (٧٥٦م) ، ودخل الأمير عبد الرحمن قرطبة دخول الفاتحين . ثم قام بتوطيد دعائم دولته الفتية بالأندلس مستقلة عن الخلافة العباسية .

وحاول الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور استرداد الأندلس ، فعين فى سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) العلاء بن مغيث والياً عليها وأمده بالمال والرجال . وقد انضم اليه أنصار الوالي السابق يوسف الفهري (١) وغيرهم من العرب الحاقدين على الأمير عبد الرحمن الذي تمكن بجرأة وبسالة من سحق قوات العلاء وقتله أمام أبواب اشبيلية . ولما علم الخليفة العباسي بهزيمة جيشه وقتل عامله قال : الحمد لله الذي جعل بيني وبين عبد الرحمن هذه البحار الواسعة ..

وحاول شارلمان ملك الفرنجة بالاتفاق مع حكام المدن الاسبانية الشمالية القضاء على امارة عبد الرحمن الأموي ولكنه فشل واضطر للانسحاب بعد أن عجزت قواته من الاستيلاء على مدينة سرقسطة عام ٧٧٨ ميلادية .

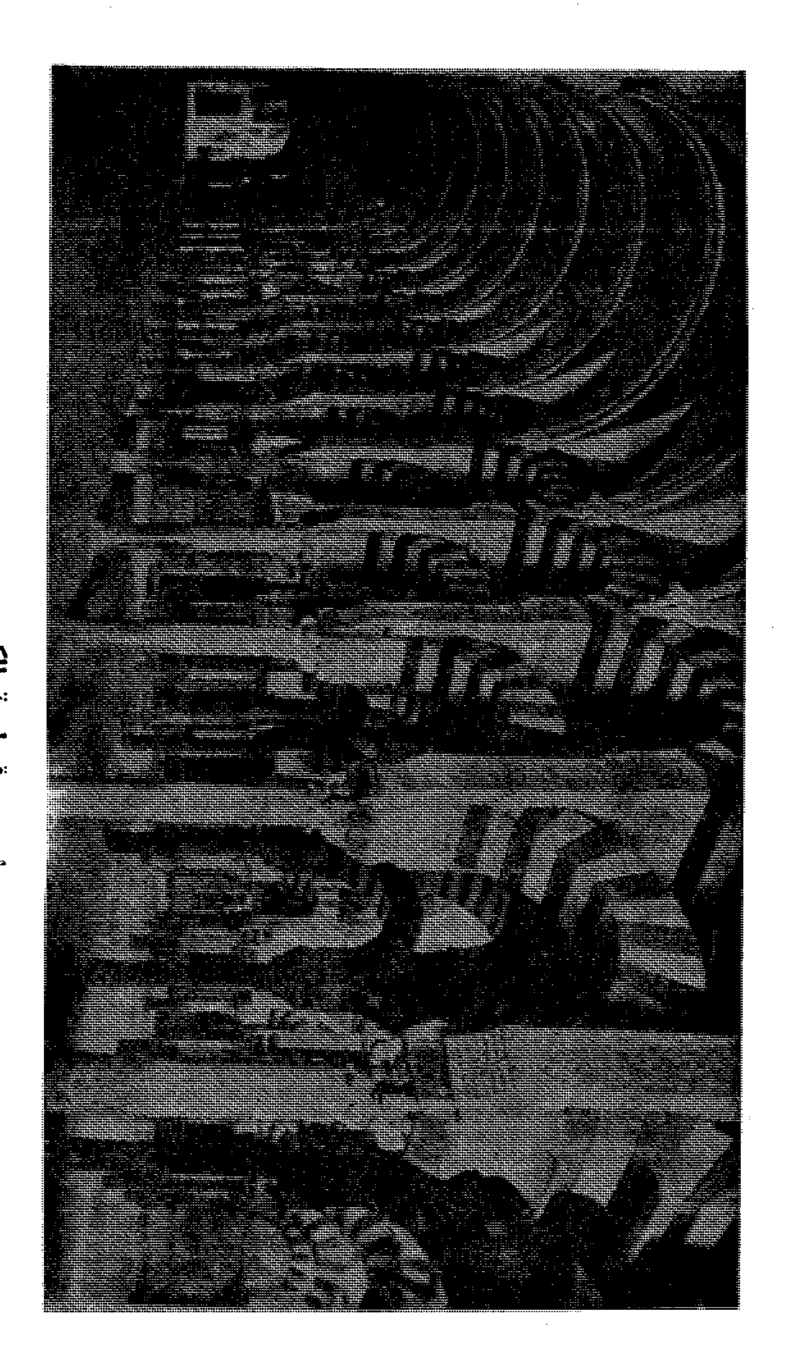
وأنشأ صقر قريش جيشاً منظماً قوامه أكثر من أربعين ألف مقاتل معظمهم من البربر المسلمين . وأبطل اسم الخليفة العباسي على المنابر فى المساجد والدعاء له ، وبالوقت ذاته لم يتخذ لنفسه لقب خليفة بل اكتفى بلقب أمير .

ازدهار قرطبة :

اهتم عبد الرحمن بتطوير امارته وعمرانها ، فشجع العلوم والفنون والزراعة والصناعة . وأصبحت قرطبة عاصمة الأندلس المطلة على نهر الوادي الكبير منارة للعلوم والحضارة الزاهرة التي تجلت فى ازدهار المدينة ومساجدها ومعاهدها وجامعتها وقصورها وحدائقها الغناء .

---

(١) بعد هزيمة يوسف الفهري قرب قرطبة وعقد الصلح سنة ٧٥٦ ميلادية ، عاد وجهز جيشا لاستعادة الاندلس فهزمه جيش عبد الرحمن وقتل .



جامع قرطبة الكبير

وقبل وفاة عبد الرحمن بعامين بدأ ببناء مسجد قرطبة العظيم الذي أنجز فى عهد ابنه هشام • وكان آية رائعة فى هندسته وأعمدته ونقوشه وبهوه الخارجي الفخم • وقد فاخرت قرطبة عواصم العالم طيلة عـدة قرون بجامعها الذي يمثل الأثر الرائع للحضارة الاسلامية التي لعبت دوراً رئيسياً فى تقدم وتطور الأمم والشعوب •

وتوفى الأمير عبد الرحمن الداخل عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) عـن عمر يناهز ٥٨ سنة ودفن بجامع قرطبة • وكانت مدة حكمه ٣٣ سنة •

هشام بن عبد الرحمن الأمير التقي العادل :

بعد وفاة عبد الرحمن تولى ابنه هشام الامارة سنة ١٧٢ هـ • وكان هشام تقياً ، متواضعاً ، يهتم بشؤون رعيته وتميز عهده باشاعة العدل ، والـذود عن الدين ، وتنشيط حـركة التجارة والصناعة والعمران •

وأتم الأمير هشام بناء مسجد قرطبة ، وجدد بناء قنطرة الوادي الكبـير • وامتلأت الأندلس فى عهـده بالمساجد والقصور والمنازل والحدائق ، وتعددت ضواحي قرطبة حتى بلغت سبعاً وعشرين ضاحية • وقد روي ان المسافر يستطيع أن يسير ليلا فى طرقها المرصوفة مسافة عشرة أميال على ضوء المصابيح •

وكان هشام يكرم رجال العلم والفقهاء والأدباء ، ويغدق عليهم العطايا ، ويزور الفقراء فى بيوتهم ويحمل اليهم الألبسة والطعام • فأحبه الشعب على اختلاف طبقاته •

وتوفى عن عمر لا يتجاوز ٣٨ سـنة فى عام ١٨٠ هـ (٧٩٦م) بعد حكم دام سبع سنين وعدة شهور •

الوضع فى عهد الحكم بن هشام :

سلك الحكم بن هشام الذي تولى الامارة سنة ١٨٠ هـ سياسة تختلف عن سياسة أبيه الورع الصالح • فقد أبعد العلماء عن التدخل فى شؤون الدولة ، وحصر عملهم فى اقامة الشعائر الدينية • كما نظم جيشـاً من المرتزقة الزنوج الافريقيين ، فعـاثوا فى المدينة فساداً ، وضاق بهم الشعب ذرعاً • فاتنفض العلماء ضد الأمير الحكم ، وقامت حركات تمرد فى الأندلس ، ثم تلتها ثورة بتحريض عمـه عبد الله بن عبد الرحمن وأخيه سليمان ، ولكنها قمعت وأعيـد الأمن والنظام • وبعد حكم دام ٢٦ سنة توفى الحكم بن هشام فى قرطبة عام ٢٠٦ هـ (٨٢٢ م) •

التقدم فى عهد عبد الرحمن الثاني :

اهتم عبـد الرحمن الثاني بن الحكم بنشر العـلم والمعارف فى الأندلس ، وبناء المسـاجد والمعاهد والمستشفيات ، كما أنفق أموالاً ضخمة على تحسين وتجميل قرطبة ، حتى أصبحت تنافس بغداد فى قصورها وعمرانها والنهضة العلمية •

وكان الأمير عبد الرحمن الثاني مولعاً بالشعر ، متضلعاً بعلوم الشريعة والفلسفة • وعلى غرار الخليفة المأمون كان يغدق العطـاء على أهل العلم ، ويعقد فى قصـره الندوات للدراسات والمناقشات الفلسفية وشكل لجنة خاصة لترجمة المصنفات وكتب فلاسفة وعلمـاء اليونان •

وفى عهده الذي دام منذ عام ٢٠٦ـ٢٣٨ هـ ازدهرت الأندلس وسادها الأمن والاستقرار .. وكثير من الاسبان اعتنقوا الاسلام ، ونبغ منهم أدباء ساهموا فى نشر اللغة العربية .

العصر الذهبي فى الأندلس

(عهـد عبد الرحمن الثالث)

بعد وفاة عبد الرحمن الثاني دب الضعف والانقسام والانحطاط فى الدولة الأموية بالأندلس . وقد استمرت هذه الفترة نحو اثنتين وستين سنة تعاقب خلالها على سدة الحكم أمراء ضعاف لم يكونوا على مستوى المسؤولية . وظل الوضع على هذا المنوال حتى تولى الحكم عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر سنة ٣٠٠ هـ (٩١٢ م) .

وكان عبد الرحمن الثالث رجلاً شجاعاً ، ذكياً ، قديراً ، تمكن من اعادة الهيبة للدولة ووحد البلاد بعد أن أخمد الفتن وقضى على الانقسامات والفوضى .. وفى سنة ٣١٧ هـ أصدر أمراً بأن تكون الخطبة يوم الجمعة فى المساجد باسمه خليفة وأميراً للمؤمنين . والذي شجعه على اتخاذ هذا القرار هو تقلص نفوذ الخلافة العباسية وأضحى الأمر بيد الأتراك ، وبالتالي ظهور الخلافة الفاطمية فى مصر . وبذلك تحولت الامارة فى الأندلس الى خلافة ، وبايع أهل البلاد عبد الرحمن على انه أمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله .

ويعتبر عهد الخليفة عبد الرحمن العصر الذهبي للأندلس . فقد عمها الرخاء والازدهار بفضل ماحققه الخليفة من مشاريع عمرانية

وزراعية وصناعية • هذا بالاضافة الى المساجد والمدارس والمستشفيات التي أنشأها فى جميع أنحاء البلاد •

وفى الشمال الغربي من قرطبة على هضبة من هضاب جبل الشارات المطل على نهر الوادي الكبير أنشأ (قصر الزهراء) الفخم الذي استمر العمل فيه نحو من عشرين سنة حتى أنجز • وجلب له الرخام من قرطاجنة والأعمدة المزدانة بالتماثيل المذهبة من القسطنطينية • وبالاضافة الى المسجد العظيم والقاعات الكبرى كان قصر الزهراء يضم أربعمائة غرفة ومقصورة •

وازدهرت قرطبة وصارت بروعة عمرانها ، وفخامة شوارعها المرصوفة المضاءة بالقناديل ، وحدائقها الغناء لا يضاهيها سوى بغداد والقسطنطينية • وغدت بجامعتها ومعاهدها منارة للعلوم يؤمها الطلاب من جميع أنحاء أوروبا التي كانت فى ذلك العصر تعيش فى ظلام القرون الوسطى •

وقد ازدادت ثروة البلاد ، وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخل خزانتها السنوي فى المرحلة الثانية من عهد عبد الرحمن الناصر سبعة ملايين دينار كان ينفق منها ٣٥ بالمئة على المشاريع العمرانية والمدارس والمستشفيات ، و ٣٠ بالمئة على الجيش الذي بلغ تعداده مائة ألف من العرب والبربر والصقالبة ، و ١٥ بالمئة على الدواوين ، والباقي يدخر •

وخلاصة القول فان مجد العرب فى الأندلس بلغ ذروته فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي دام حكمه خمسين سنة ، من عام ٣٠٠ ــ ٣٥٠ هـ (٩١٢ــ٩٦١م) •

خلافة الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

تولى الخلافة بعد وفاة والده سنة ٣٥٠ هـ ، وكان عالماً فاضلاً ، اهتم بنشر العلوم والثقافة العامة • وأنشأ مكتبة أنفق عليها أموالاً كثيرة لشراء الكتب القيمة التي بلغ عددها نحو ٤٠٠ ألف كتاب •

وفى بداية عهد الخليفة الحكم هاجم النورمان السواحل فردوا على أعقابهم ، وتحرك أمراء النصارى فى الشمال ضده فحاربهم وتغلب عليهم ، واحتلت قواته بعض المناطق من بلادهم ، فأسرعوا الى طلب الصلح بالشروط التي يريدها ، فاستجاب لطلبهم •

وقد ازدهرت جامعة قرطبة فى عهد الحكم بن عبد الرحمن ، ووسع نطاق المسجد الكبير وزين سقفه وجدرانه بالفسيفساء • وابتنى الخليفة على نفقته ٢٧ مدرسة جديدة ، وأنشأ مجلساً للعلماء خصص لكل عضو فيه راتباً شهرياً •

وقد توفى الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٦٦ هـ بقرطبة بعد حكم دام ١٦ سنة قضاها فى عمران البلاد ونشر العلوم وتقوية دعائم الدولة •

تضعضع الدولة الأموية فى الأندلس :

بعد وفاة الحكم تولى الخلافة أمراء ضعاف تركوا أمور الدولة فى أيدي حجابهم ووزرائهم ، فاستبد هؤلاء بالحكم وصاروا يمنعون الناس من الاتصال بالخليفة وكان أشهر هؤلاء الحجاب محمد بن عبد الله ابن أبي عامر الملقب بالمنصور • وأدى تسلط الحجاب على ديوان الخليفة نفسه الى اضعاف هيبة الخلافة ، واثارة التذمر والبلبلة •

وحاول بنو حمود (سلالة تتصل بصلة النسب بأدارسة المغرب) اغتصاب الخلافة من الأمويين ، فدخل القائد ابن حمود على الخليفة فى قصره وقتله ونصب نفسه بدلاً منه ، وبايعته فئة من أهالي قرطبة ، ثم مالبث أن وقع الشقاق بين بني حمود وفقدوا مركزهم وسلطتهم ، وعاد الأمويون الى الحكم من جديد •

الانقسام ونهاية الخلافة :

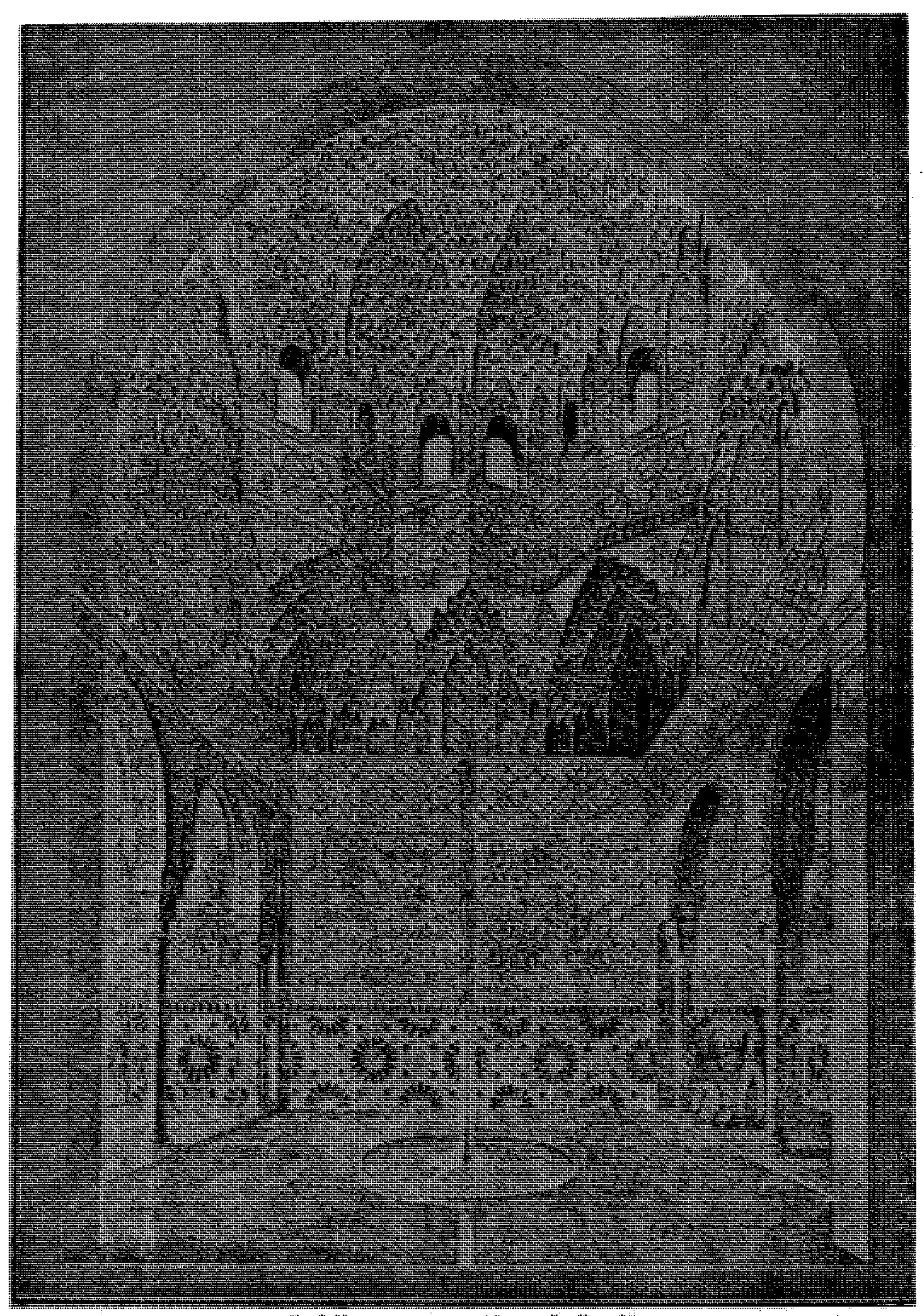
أدى انقسام الأمويين وتشتت كلمتهم الى انقضاض أعدائهم عليهم وضياع الخلافة التي أنهى سلطتها المجلس الذي عقد فى قرطبة سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٥م) وتسلم الحكم فى الأندلس • وبسقوط الخلافة قامت مجموعة دويلات صغيرة فى المدن والمقاطعات يعرف حكامها بملوك الطوائف • ومن أشهرهم :

١ ـ بنو عباد : مؤسس دولتهم فى اشبيلية أبو القاسم محمد بن عباد السوري الأصل سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١م) •

٢ ـ ذو النون : أسرة من البربر من قبيلة الهوارة ، دخلت قديماً اسبانيا فى عهد الدولة الأموية ، برز منها يحيى المأمون ذو النون وأسس دولة فى طليطلة سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧م) •

٣ ـ بنو زير ، أسرة من البربر ، ظهر منها فى الأندلس باديس ابن حبوس (الصنهاجي) وأسس دولة فى غرناطة سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨م) •

وبتقسيم الأندلس الى دويلات صغيرة تناحر بعضها بعضاً شجع ذلك الامارات المسيحية فى الشمال للانقضاض عليها • وعندما شعر



قاعـة قصر الحمراء ـ غرناطـة

حكام هذه الدويلات بخطر غزو جيوش الامارات الشمالية استنجدوا بدولة الموحدين فى المغرب (مراكش) (١) فأمدتهم بنجدات عسكرية دحرت القوات المعادية سنة ٥٤٠ هـ .

ولما زال الخطر عاد أمراء العرب والمسلمين الى التناحر والتنازع على السلطة ، وانتقلت العدوى الى حكام الموحدين فى المغرب فدب الشقاق بينهم وضعف سلطانهم . فاغتنم الفرصة السانحة حكام الامارات المسيحية فى شمال اسبانيا وجهزوا الجيوش لغزو دويلات الجنوب ، فسقطت جميعها باستثناء غرناطة التي ظلت صامدة كالطود .. وكان سقوط قرطبة سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، واشبيلية سنة ١٢٤٨ م .

دولة غرناطة الاسلامية :

لم يقف فى وجه جيوش الشمال المعادية ويصدها بعزم وايمان سوى بني نصر (بني الأحمر) الذين صمدوا فى غرناطة وأسسوا فيها دولة مستقلة سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢م) ، كان أول ملوكها محمد بن الأحمر الذي تميز عهده بتقوية دولته وتنمية ثروتها .

وقد ازدهرت امارة غرناطة فى عهد ملوك بني الأحمر ، وعمّها الرخاء والاستقرار . ومن أشهر آثارهم الباقية حتى يومنا هذا قصر الحمراء الفخم الذي بناه محمد بن الأحمر وأنجزه ابنه الغالب بالله . أما جامع القصر فقد بناه محمد حفيده ، وكان آية فى روعة هندسته ونقوشه .

---

(١) الموحدون ، دولة من البربر أسسها المهدي ابن تومرت ، غلبت المرابطين فى المغرب واستولت على الملك سنة ١٠٥٥ ميلادية .

وقصر الحمراء (١) يقع على هضبة عالية طولها ٨٠٠ متر ، أحيط بسور أنشأ داخله الملك محمد عدة أبراج أهمها برج الحراسة ، وجلب له الماء فى قناة من نهر حدره • وهذا الصرح العظيم تجلت فخامته بروعة بنيانه ، وأبراجه العالية ، وأعمدته الرشيقة ، وزخارف سقوفه وجدران قاعاته • ويتألف من قسمين متكاملين هما قصر قمارش الذي بناه الملك أبو الوليد اسماعيل ووسعه ابنه أبو الحجاج يوسف سنة ١٣٤٨ ميلادية ، وقصر السباع الذي بناه الملك محمد الغني بالله فى المرحلة الأولى من عهده الذي دام سبع وثلاثين سنة : (١٣٥٤ — ١٣٩١م) • ويعتبر قصر السباع من أجمل أقسام الحمراء ، أهم قاعاته هي قاعة الملوك ، ويليها قاعة بني سراج الذين قضى عليهم بنو الأحمر • وتبرز من حول أجنحته الأروقة المحمولة على أعمدة من الرخام عددها ١٢٤ عموداً • وفى وسط الفناء نافورة حوضها من الرخام يحمله أثنا عشر أسدا على شكل دائرة •

وقد ظلت دولة غرناطة الاسلامية قائمة قرنين ونصف القرن • وفى عهد الملك محمد الغني بالله الذي حكم أطول مدة من جميع ملوك بني الأحمر انتدب ابن خلدون المؤرخ والفيلسوف سفيراً لدى بلاط ملك قشتالة (منطقة فى اسبانيا الوسطى) •

خروج العرب من الأندلس :

ان العـوامل التي أدت الى خـروج العرب من الأندلس هي بالدرجة الأولى انقسامهم على بعضهم وتنازعهم على السلطة ، فشجع ذلك أعداءهم على الانقضاض عليهم والقضاء على سلطتهم بعد حكم

---

(١) قيل انها سميت بالحمراء نسبة الى القلعة الحمراء التي على أطلالها بنيت ، أو الى احمرار أبراجها ، أو الى الآجر الاحمر الذي استخدم فى بناء أسوارها .

دام حتى زوال ملـوك الطوائف باستثناء بني الأحمـر فى غرناطة : (٥٤٢ سنة) .

أما امارة غرناطة فقد سقطت بعد أن تم توحيد مملكة الأرغون (ارجونة) ومملكة قشتالة فى دولة واحدة أنهت حكم بني الأحمر سنة ٨٨٧ هـ (١٤٩٢م) . وكان آخر ملوكهم أبو عبد الله بن محمد الذي لم يتمكن من فك الحصار الذي فرضته عليه القوات الاسبانية ، فاضطر الى الاستسلام .

وهكذا خرج العرب (١) من الأندلس وانتهى حكم المسلمين فيها بعد أن حولوها الى بلاد عامرة مزدهرة ونشروا فيها العلوم والمعارف والفنون ، ولا تزال آثارهم حتى الآن قائمة تمثل حضارتهم العظيمة .

(١) فى نفس السنة التي خرج فيها العرب من الاندلس اكتشف كولومبس أميركا (سنة ١٤٩٢ ميلادية) .

الفصل السابع

الدولة الطولونية في مصر

فى سنة ٢٥٤ هـ عين الخليفة العباسي أميراً تركياً والياً على مصر يدعى بايكباك (بقبق) الا ان هـذا الوالي بقي فى حاضرة الخلافة وعين نائباً عنه ليقوم بولاية مصر أحمـد بن طولون • وكان بايكباك قد تزوج من أم أحمد بعد أن مات زوجها طولون الذي كان مملوكاً تركياً أهدي إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد من قبل حاكم بخارى • وكان طولون ذكياً ماهراً شجاعاً ، حاز على اعجاب المأمون فأغدق عليه العطايا وولاه المناصب وأخذ يرتقي حتى أصبح رئيساً لحرس الخليفة •

ونشأ أحمد بن طولون عند والده رئيس الحرس نشأة حسنة •

ولما تولى على مصر من قبل بايكباك عمل على انعاشها وتنمية مواردها ، فأحبه شعبها ووضع فيه ثقته •

وخدم الحظ أحمد بن طولون بتعيين الخليفة لبرقوق مكان بايكباك الذي قتل • وكان برقوق صهراً لأحمد ، فثبته فى منصبه بمصر ، ومنحه صلاحيات واسعة ، فساعده ذلك على تقوية مركزه والاستمرار بالاصلاحات التي بدأها •

وكان أحمد بن طولون كثيراً مايرسل بالهدايا والتحف الى الخليفة العباسي فأحبه وقدره • وحدث أن عامل الخراج المدعو أحمد بن المدبر حاول اقصاء ابن طولون عن مصر ، فدس له عند الخليفة ولفق له شتى الاتهامات غير أن الخليفة لم يستمع الى وشايته بل عمد الى نقله بناء على مشورة ابن طولون الى الشام • وبدوره حاول «الموفق» أخو الخليفة أن ينهى بن طولون فلم يفلح •

استقلال أحمد بن طولون بالحكم :

عندما قوي مركز أحمد بن طولون وحاز على ثقة الشعب المصري قام بتكوين جيش وأسطول عظيمين ، أنفق عليهما أمولا ضخمة • وحينما أصبح بمركز القوة امتنع عن دفع الخراج للخليفة الموفق بدعوى ان مايدفعه للخراج سوف يقوم بانفاقه على الجيش فزاد هذا الاجراء من غيظ الخليفة وحقده على ابن طولون غير انه لم يكن فى وضع يمكنه من محاربته واقصائه عن ولاية مصر •

ثم مالبث ان استقل أحمد بن طولون بمصر استقلالا داخلياً ، ولم يكتف بذلك ، بل راح يعمل على توسيع ملكه • فجهز جيشاً قوياً

ووجهه الى الشام حيث تمكن من الاستيلاء عليها ، ومنها زحف شمالاً حتى وصل الى تخوم الروم ، وعلى مقربة من طرسوس دارت معركة عنيفة أسفرت عن انتصار جيش بن طولون على قوات الروم •

أهم اصلاحاته وأعماله :

من أهم الانجازات التي تحققت فى عهد أحمد بن طولون الذي دام حكمه نحو واحد وعشرين سنة ونيف هي : انشاء جامع سمي باسمه ، يشبه بمأذنته وتصميمه الهندسي جامع سامراء • وأسس فى شمال مدينة الفسطاس حاضرة أطلق عليها اسم (القطائع) نسبة الى الأرض التي اقتطعها بن طولون الى كبار رجال الدولة وقواد الجيش وقام كل منهم ببناء عمارة فى القطعة التي امتلكها • وأنشأ أيضاً مستشفى كبير لمعالجة الأهالي بالمجان ، وداراً لسك النقود الفضية والدينار الذهبي •

وفى عهده نعمت مصر بالأمن والاستقرار ، وتقدمت الزراعة وراجت التجارة •• وتوفى أحمد بن طولون سنة ٨٨٤ ميلادية عن عمر يناهز الخمسين سنة •

ولاية خمارويه :

تولى خمارويه بن أحمد بن طولون على مصر بعد وفاة أبيه ، وكان شاباً عمره ٢٠ سنة يفتقر الى الخبرة وخاصة شؤون الحرب ، لأنه لم يمارسها إبان حكم أبيه • وفى بداية ولايته هزمته جيوش الخليفة مراراً لقلة خبرته ، وخرجت الشام عن حكمه ، الا انه مالبث أن برع فى فنون الحرب وتمكن من استرداد المدن التي فقدها فى المعارك وأيضاً الشام • وبذلك قوي مركزه ووطد دعائم حكمه •

وصالح خمارويه الخليفة العباسي وزوجه ابنته (قطر الندى) ، فكسب بذلك مودته • وقد أهدى ابنته أثمن الجواهر والحلي والتحف التي كان والده جمعها ، كما أنفق على عرسها أمولا كثيرة •

وكان خمارويه كريماً لدرجة التبذير والاسراف ، فبدد الأموال دون حساب وأفقر خزانة الدولة • ومن هواياته انشاء الحدائق واقتناء الحيوانات البرية التي كانت تجلب لها وتستأنس كالأسود والفهود وغيرها • وفى أواخر عهده أصيب بالأرق فأشار عليه بعض الأطباء بأن ينشىء بركة ويملأوها بالزئبق ويضع سريره فيها وينام ، فنفذ مشورة الأطباء • وقبل وفاته أمر بولاية العهد لابنه أبو العساكر •

زوال حكم الأسرة الطولونية :

لم يكن أبو العساكر بن خمارويه على مستوى المسؤولية ، ففي عهده ساءت الأحوال ، وفسدت الأمور وعمت الفوضى فى البلاد • وبتبذيره للثروة ، وانغماسه فى الترف واللهو أفرغ الخزائن من الأموال وهوى بالدولة الى الحضيض ، ففقدت هيبتها وسيطرتها فى الشام وغيرها من المناطق التي خرجت عن طاعتها •

وأخيراً عزل أبو العساكر وزال حكم الأسرة الطولونية بعد حكم دام فى مصر من سنة ٢٥٤ ــ ٢٩٣ هـ (٨٦٨ ــ ٩٠٥م) ، وعادت مصر الى حظيرة الخلافة العباسية •

الـدولة الأخشيدية

بعد زوال الدولة الطولونية ظلت مصر تحت ادارة الخـلافة العباسية المباشرة ثلاثين سنة : (٩٠٥ ـ ٩٣٥م) • وخلال هـذه الفترة اجتاحتها الفوضى وأثرت على الوضع العام فيها حيث استمر حتى ولي عليها محمـد بن طغج الأخشيد من قبـل الخليفة العباسي الراضي بالله سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥م) •

وأصل أسرة محمد بن طغج من فرغانة فى بلاد تركستان ، وكان والده ضابطاً كبيراً فى جيش خمارويه الطولوني ويعرف باسم الاخشيد وقد امتاز الوالي محمد بن طغج بالمقدرة وحسن الادارة ، فنظم البلاد وأصلح الأمور حتى عاد لمصر الأمن والاستقرار •

وقام الأخشيد باصلاح الزراعة وتنظيم أقنية الري ، ثم وجه عنايته الى الشؤون العسكرية ، فأنشأ جيشاً قوياً تعداده ٤٠ ألفاً •

ضـم بلاد الشـام :

بعد أن اطمأن على الوضع فى مصر ووطد حكمه فيها ، سيَّر جيشه الى بلاد الشام ليضمها اليه كما فعل أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية •

وكانت الشام تحت حكم رجل يدعى ابن رائق فاستعد لحرب ابن طغج الاخشيد وجمع جيوشه من جند الشام ، الا انه مني بالهزيمة وانتصر الاخشيد عليه ، ثم عقد معه صلحاً واقتسم واياه بلاد الشام ، فأخذ بن طغج القسم الجنوبي ، وابن رائق القسـم الشمالي • وظلت الشام مقسمة حتى وافت المنية بن رائق ، وبعد موته خشي بن طغج ان هو أهملها أن يناصبه الذي يتولاها العداء ، فما كان منه الا أن

استولى على القسم الشمالي من الشام وضمه الى القم الجنوبي دون اراقة دماء •

ضـم الحجاز :

لم يكتف الأخشيد بما حققه من انتصارات ومكاسب بل اغتنم ضعف ولاة الحجاز ، ووجه جيشاً قوياً تمكن من الاستيلاء عليها • وبذلك أصبحت بيده ثلاث ولايات كبرى هي مصر والشام والحجاز •

وحاول سيف الدولة الحمداني أمير حلب انتزاع الشـام من الأخشيد ، ولكن جيشه هزم فى قنسرين ، وتتبعت قوات الأخشيد فلوله حتى دخلت مدينة حلب • ولما اتصف به الأخشيد من سماحة فقد صالح سيف الدولة وتنازل له عن شمال بلاد الشام •

حـكم كافور :

بعد وفاة محمد بن طغج الأخشيد خلفه ابنـاه وكان صغيران فحكما تحت وصاية كافور الذي كان عبداً حبشياً اشتراه الأخشيد وعلمـه وهذبه فصـار يرتقي فى المناصب حتى وصل الى رتبـة قائد عام للجيش ، وأخيراً صار وصياً على عرش مصر واتخذ له لقباً هو (الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي العالي بالله) •

وحارب كافور الحمدانيين فى شمال سوريا وانتصر عليهم • وبذلك تمكن من الاحتفاظ بالشام تحت حكمه • وفى عهده انتعشت أحوال مصر وراجت التجارة • وقد شجع الأدباء والشعراء وأكرمهم ، منهم أبو الطيب المتنبي (١) الذي مدحه فى عـدة مناسبات ، ثم هجاه • وهذه هي بعض الأبيات من القصيدة التي امتدح بها كافور :

(١) المتنبي شاعر مشهور ، ولد فى العراق سنة ٩١٥ م وتوفى سنة ٩٦٥م ، امتدح سيف الدولة الحمداني ، ثم كافور . وكان شجاعا وطموحا .

ترعرع الملك الأستاذ مكتهلا　　قبل اكتهال اديباً فوق تأديب
يصرف الملك من مصر الى عدن　　الى العراق فأرض الروم فالنوب
ولا تجاوزها شمس اذا شرقت　　الا ومنه لها اذن بتغريب
أنت الحبيب ولكني أعوذ به　　من أن أكون محباً غير محبوب

وبعد وفاة كافور سنة ٩٦٨ ميلادية تضعضع حكم الدولة الأخشيدية فى مصر ، ثم مالبثت أن قضى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩م) بعد حكم دام أربع وثلاثين سنة .

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية

مؤسسها :

سميت الدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وقد أسسها أبو عبد الله الشيعي أحد دعاة أئمة الشيعة فى الشمال الافريقي حيث قام بدعوته سنة ٢٨٨ هـ وذلك بعد أن نجح فى موسم الحج باستمالة جماعة من قبيلة كتامة من البربر الى عقيدة الشيعة . ثم صحب هؤلاء بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم . وفى تونس جمع حوله الحاقدين على الأغالبة وانضم اليهم جماعات كثيرة من البربر والعرب

شكل منهم قوة هجم بها على مدينة رقادة عاصمة دولة الأغالبة [1] واحتلها سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٩م) ، وأطاح بهـذه الدولة التي أسسها ابراهيم بن الأغلب عندما بعثه هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠م) لتوطيد النظام والأمن فى الشمال الافريقي . وبعد أن قضى أبو عبد الله على الأغالبة الذين دام حكمهم مائة وتسع سنوات استدعى سعيد بن الحسن أحد أئمة الشيعة ، ونادى به خليفة للدولة الفاطمية الجديدة ، ولقب (عبيد الله المهدي) .

توطيد حكم الدولة الفاطمية :

اتخذ عبيد الله المهدي مدينة المهدية فى تونس عاصمة له ، ودانت له كافة القبائل ، وبذلك وطد دعائم الدولة الفاطمية . وقـد حاول فتح مصر ولكنه توفى قبل ان تتحقق أمنيته ، فخلفه ابنه القائم سنة ٩٣٤م ، وفى عهده نظم جيشاً قوياً غزا سواحل ايطاليا ، وكرر محاولة أبيه للاستيلاء على مصر والقضاء عـلى حاكمها محمد بن طغج الأخشيد ففشل ، وتوفى سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦م) . وخلفه ابنه المنصور الـذي دام حكمه سبع سنوات نشبت خلالها ثورات داخلية أقمعها ، وتوفى فى مدينة المهدية سنة ٣٤١ هـ

فتـح مصـر :

بعد وفاة المنصور تولى الخلافة المعز لدين الله ، وكان عالماً وشجاعاً عمل على انعاش البلاد ، فأحبه الشعب . وقد جهز جيشاً وسلم قيادته

---

(١) دولة الاغالبة بسطت سيادتها على طرابلس وبلاد تونس وقسما من الجزائر الحالية . واستولت على جزيرة صقلية وثبتت أقدامهافيها بعد نجاح الحملة العسكريةالبحرية التي نزلت فى الجزيرة سنة ٨٢٧م ، واحتلت قواتهاجنوب ايطاليا سنة ٨٤٦م ووصلت فى زحفها حتى أبواب روما .

الى « جوهر الصقلي » وأرسله لفتح مصر ، فتمكن من الاستيلاء على الاسكندرية دون أن يجد مقاومة كبيرة فيها ، ثم قصد الفسطاس ففتحها ، وقضى على الدولة الأخشيدية سنة ٣٥٨ هـ • وبعد أن تم له النصر أراد أن يستميل قلوب الشعب المصري فوزع على الأهالي كميات كبيرة من الحبوب • ثم قام بتأسيس القاهرة حيث بنى فيها قصراً فخماً للخليفة المعز لدين الله ، والجامع الأزهر الذي أنجز سنة ٣٦١ هـ •

انتقال الخليفة الفاطمي الى مصر :

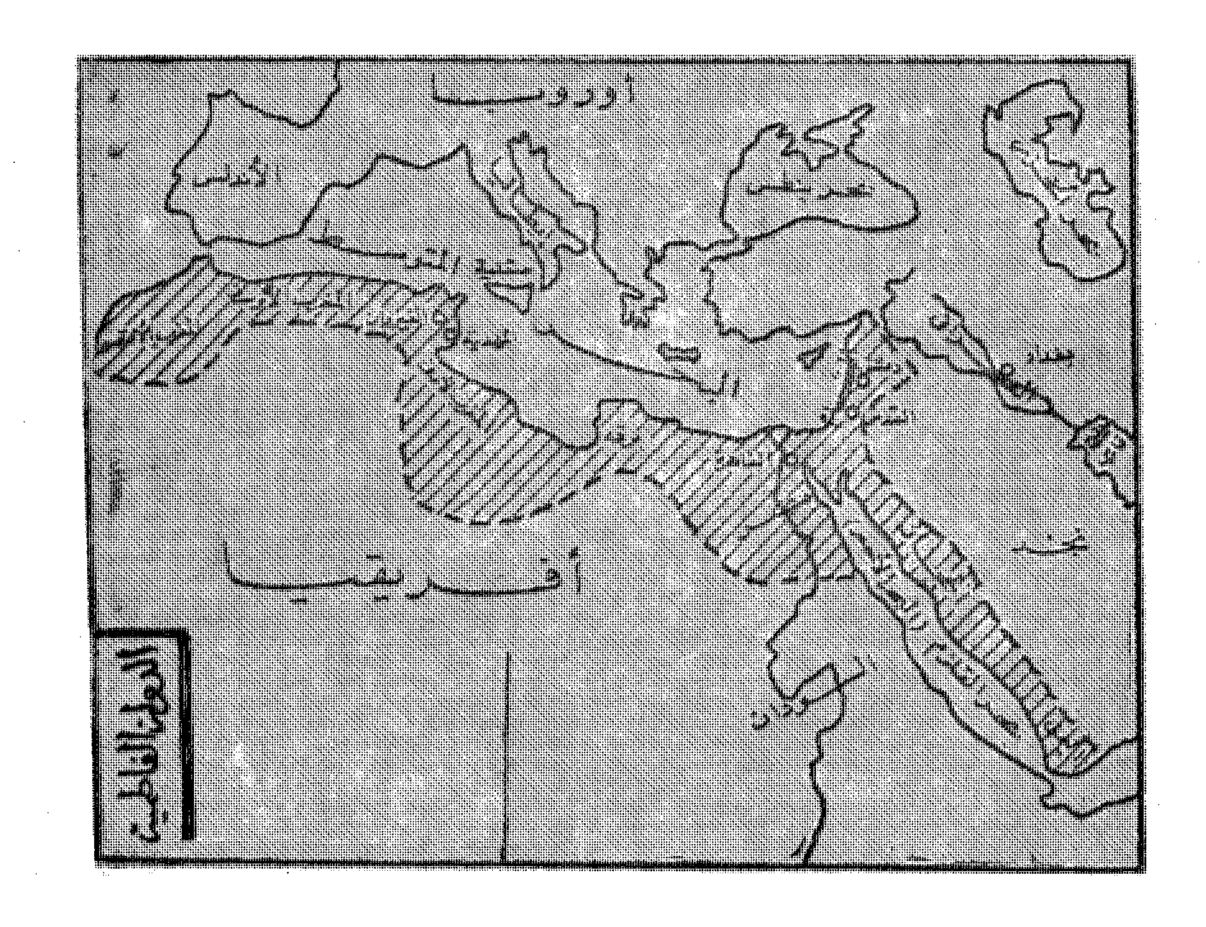
ولما انتهى جوهر الصقلي من بناء المدينة انتقل الخليفة الفاطمي الى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣م) واتخذها عاصمة له • وقيل انه أحضر رفاة أبيه وأجداده وأمر بدفنهم فى القاهرة العاصمة الجديدة •

وبانتقال المعز لدين الله الى مصر ، وضم بلاد الشام والحجاز الى الدولة الفاطمية ازداد نفوذها وقوي مركزها وصارت تنافس الخلافة العباسية التي كانت تعاني الضعف بسبب تسلط قادة الترك على الخلفاء فى بغداد •

ومن أهم الأعمال التي أنجزت فى عهد المعز لدين الله هي :

انشاء أسطول حربي يتألف من ستمائة سفينة ، وداراً أطلق عليها اسم (دار الكسوة) لخياطة الملابس للجيش وموظفي الدولة ، وبنى السدود والأقنية لتنظيم الري وزيادة المساحة الزراعية ، وشجع الصناعة ، فساعد ذلك على ازدهار مصر وتنمية مواردها •

واهتم المعز بنشر المذهب الشيعي • وفى أواخر أيامه هاجمت


الدولة الفاطمية
أوروبا
الأندلس
أفريقيا
بغداد
نجد

قوات القرامطة (١) مصر ، وحاصرت القاهرة ، فعمد المعز الى حيلة أنقذ بها العاصمة فدفع الى حليف القرامطة أحد مشائخ بني طي أموالا ضخمة من نقد مزيف فتخلى عن مساعدة المعتدين فاضطروا الى فك الحصار عن القاهرة والرجوع من حيث أتوا •

الدولة الفاطمية فى أوج ازدهارها :

تبوأت الدولة الفاطمية مركز الصدارة وبلغت أوج ازدهارها فى عهد العزيز بالله الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المعتز سنة ٩٧٥م ، وكان عهده عهد رخاء وتقدم وعمران ، فنمت الزراعة والصناعة ، وامتلأت القاهرة بالقصور الفخمة منها قصر الخليفة وقصر الضيافة وقصر منازل العز على النيل الخ ••

وبنى العزيز مسجداً عظيماً أطلق عليه اسم جامع الحاكم نسبة الى الخليفة الحاكم • وفى عهده تطور جامع الأزهر وأصبح جامعة للعلوم الدينية ، يقدم للطلاب الذين يدرسون فيها الملبس والمأكل على نفقة الخليفة •

وكان العزيز الخليفة الفاطمي يعتمد فى رسم السياسة المالية والاقتصادية على وزيره يعقوب بن كلس من أصل يهودي وأسلم ، وعلى وزير آخر اسمه عيسى بن نسطوروس النصراني • وتزوج العزيز من أخت بطريرك الاسكندرية • وكان وفاته فى القاهرة سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦م) •

---

(١) تنتسب القرامطة الى حمدان بن الاشعث الملقب (بقرمط) الذي تزعم الحركة فىالكوفة سنة ٢٨٧ هـ ، ومنها امتد نشاطها الى بلادالشام ثم الى الخليج العربي حيث دامت سيطرتهم عليه نحو ٨٥ سنة . واشتهر القرامطة بالقسوة والعنف والظلم .

خلافة الحاكم بأمر الله :

تولى أبو العلي المنصور (الحاكم بأمر الله) الخلافة بعد وفاة أبيه العزيز الا انه كان صغير السن فعمل أستاذه المدعو (بيرجوان) وصياً عليه . وكان الـذي يقوم بتصريف شؤون الدولة قائد الجيش ابن عمار ولقب بأمين الدولة . وقد قتل أثناء المنازعات التي نشبت بين الجنود الأتراك والمغاربة فى القاهرة . وبعد موته حل مكانه الوصي بيرجوان .

تصـرفاته الشاذة :

لما تسلم الحاكم بأمر الله مقاليد الحكم نقم على أستاذه بيرجوان وأمر بقتله . وقد عـرف بالشذوذ فى تصرفاته وأحكامـه التي كان يصدرها . وهذه بعضها :

١ ــ ادعى الألوهية ، وصار يأمر الناس بالسجود له عندما يذكر اسمه الخطباء على المنابر .

ب ــ أمــر باغلاق الأسواق نهــاراً ، وفتحها ليــلاً فامتثل الناس لأمر الحاكم ولم يعد يعملون فى متاجرهم وحوانيتهم الا فى الليل فيضيئونها ويسهرون حتى الصباح .

ج ــ منع النساء الخروج من منازلهن ، وحرم عمل الأحذية لهن .

د ــ حرم أكل العسل والزيت والملوخية وشرب الخمور ، وأمر باقتلاع كروم العنب حتى لا يصنع الناس منها خمراً ودبساً وزبيباً .

وعندما كثرت مساوىء الحاكم بأمر الله وتفاقم ظلمه كرهه الشعب على اختلاف طبقاته ، وحقد عليه جيشه وأهل بيته وبالأخص أخته (ست الملك) التي اتفقت مع كبير أمراء الجيش المدعو ابن دواس للتخلص منه وانقاذ البلاد من شره • وحسب الخطة المرسومة تتبعه بعض الجنود وقتلوه بينما كان يتجول ليلاً فى جبل المقطم قرب القاهرة ، وذلك سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠م) •

وكان الحاكم بأمر الله مولعاً بدراسة النجوم ، فأنشأ مرصداً فى سفح جبل المقطم حيث كان يمضى الليالي فى رصد الأجرام • وأنشأ أيضاً داراً للعلماء أطلق عليها اسم (دار الحكمة) لعقد الندوات العلمية ونشر المذهب الشيعي • وكانت مدة خلافته ٢٥ سنة منها سبع سنوات تحت وصاية أستاذه بيرجوان • ولما قتل كان عمره ٣٧ سنة •

أبو الحسن يتولى الخلافة :

بعد وفاة الحاكم بأمر الله أرسلت أخته ست الملك الى ابنه أبي الحسن علي تستدعيه من دمشق ، فحضر وبايعه الأمراء والوزراء وكبار القوم ، ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله • وكانت السلطة الفعلية بيد ست الملك التي ظلت قابضة على زمام الأمر أربع سنوات أعادت خلالها للدولة هيبتها وقوتها ، وأحسنت سياسة الشعب فأحبها واحترمها • وبعد وفاتها سنة ٤١٥ هـ ظل ابن أخيها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله يحكم حتى توفى سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥م) ، وكان عمره ٣٣ سنة •

حكم المستنصر بالله :

لما توفى الخليفة الظاهر بايع قواد الجيش ورجال الدولة لولده أبي تميم الملقب بالمستنصر ، وكان عمره لايتجاوز سبع سنوات ، فتسلم الوزراء مهام السلطة ودب بينهم الشقاق والنزاع على الحكم .

ولما شب المستنصروتسلم مقاليد السلطة كانت الفوضى مستفحلة ، وازدادت الخطورة بتعرض البلاد الى قحط استمر عدة سنوات ، عرفت فترتها باسم (الشدة العظمى) حيث عم الخراب والمجاعة والضائقة المالية . فاستدعا الخليفة المستنصر بدر الجمالي وعينه وزيراً وخوله صلاحيات واسعة لانقاذ البلاد . وقد اتصف بالمقدرة والحزم والاخلاص للخليفة الفاطمي ، فطهر الجيش من عناصر الشغب والفتن ، وأصلح الأمور . ولحماية القاهرة العاصمة الفاطمية فقد بنى سوراً حولها تعلوه أبراج المراقبة ، لاتزال بعض آثاره باقية الى يومنا هذا .

وحكم المستنصر بالله أطول مدة عرفها التاريخ الاسلامي ، فقد بويع بالخلافة سنة ٤٢٧ هـ ودام حكمه حتى توفى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) . وفى نفس السنة توفى وزيره بدر الجمالي .

سقوط الدولة الفاطمية :

بعد المستنصر بدأ عهد جديد تميز بضعف الخلفاء الفاطميين الذين تعاقبوا على سدة الحكم ، وعجزهم عن اصلاح الأمور ، فعهدوا الى وزراء بتصريف شؤون الدولة فاستأثروا بالسلطة خلال المرحلة الأخيرة من تاريخ حكم الفاطميين ، وعرفت هذه المرحلة بعصر الوزراء

العظام • وقد أدى تنازعهم وصراعهم الى تقلص نفوذ الدولة الفاطمية ، وفقدان ممتلكاتها فى الشمال الافريقي وجزيرة صقلية • واستمر الانقسام يعصف بها حتى تلاشت قواها وسقطت •

وخلال المرحلة التي امتدت منذ وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ حتى زوال الدولة الفاطمية توالى على الحكم ست خلفاء هم : أحمد المستعلي بالله ابن المنتصر : ٤٨٧ــ٤٩٥ هـ (١٠٩٤ــ١١٠١م) • على الآمر بأحكام الله ابن المستعلي : ٤٩٥ــ٥٢٤ هـ (١١٠١ــ١١٣٠م) ، الميمون الحافظ لدين الله ابن الأمير أبي القاسم : ٥٢٤ــ٥٤٤ هـ (١١٣٠ــ١١٤٩م) • اسماعيل الظافر بأمر الله ابن الميمون : ٥٤٤ــ٥٤٩هـ (١١٤٩ــ١١٥٤م) • عيسى الفائز بنصر الله ابن اسماعيل : ٥٤٩ــ٥٥٥ هـ (١١٥٤ــ١١٦٠م) • أبو محمد عبد الله العاضد لدين الله : ٥٥٥ــ٥٦٧هـ (١١٦٠ــ١١٧١م) •

وفى عهد الخليفة العاضد قامت حركة تنازع على السلطة بين وزيرين هما ضرغام بن سوار ، وشاور بن مجير الدين أبو شجاع ، فالأول استنجد بالصليبين الذين كانوا ثبتوا أقدامهم فى فلسطين ، والثاني خرج الى الشام ليستنجد بالسلطان نور الدين محمود زنكي ملك الشام الذي رحب به وأرسل معه جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه ، فدخل مصر وتغلب على ضرغام بن ساور وقتله ، ثم ثبت شاور فى الوزارة • كان ذلك عام ٥٥٩ هـ •

وفى عام ٥٦٢ هـ دخلت جحافل من الصليبيين مصر ، فعاد اليها

أسد الدين شيركوه على رأس جيش وبمعيته ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، فطرد الصليبيين ، وقتل شاور الذي نكث بعهده لنور الدين محمود ، وتحالف مع أعدائه الصليبيين • وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه أسد الدين ولاه العاضد الخليفة الفاطمي الوزارة ولقبه الملك المنصور • ولم يمهله الأجل طويلاً فمات بعد ثلاثة أشهر سنة ٥٦٤ هـ ، فعهد العاضد الى صلاح الدين بالوزارة ولقبه الملك الناصر • وفى سنة ٥٦٧ هـ توفى العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وأعلن صلاح الدين زوالها دون أية معارضة أو مقاومة ، وأمر باقامة الخطبة للخليفة العباسي فى مصر بعد انقطاع دام قرنين ونيف •

ومن أهم مميزات الدولة الفاطمية وأعمالها انها حافظت على الكيان العربي فى المناطق التي كانت تحت سيطرتها ، مثال ذلك الشمال الافريقي • وقد شجعت العلوم والفنون ، واهتمت بالزراعة والصناعة وعمران البلاد ، كما سمحت للنصارى واليهود باقامة شعائرهم الدينية ، وعينت البعض منهم فى مناصب كبرى وبالأخص فى عهد الخليفة المعز وعهد ابنه العزيز •

وتطور فن العمارة فى عصر الفاطميين الذين اهتموا ببناء المساجد والقصور الفخمة المزخرفة بالنقوش البديعة • ومن أشهر انجازاتهم التي لا تزال باقية الى يومنا هذا ، الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الجيوش ، وسور القاهرة ، والقاهرة التي بنيت فى عهد الخليفة المعز لدين الله •

الفصل التاسع

الدولة الحمدانية

استقل حمدان بن حمدون أحد كبار شيوخ قبيلة تغلب العربية [1] بمنطقة الموصل وذلك بعد أن تسلط قادة الترك على الخلافة العباسية وأقصوا العناصر العربية عن القيادة .

واتخذ الحمدانيون مدينة الموصل عاصمة لدولتهم العربية سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) حيث انضمت تحت لوائها القبائل الضاربة فى وادي الفرات ، وأطراف بادية الشام . ومن أشهر قادتها الذين لعبوا دوراً

(١) تغلب من قبائل العرب الكبرى ، أصلها من اليمن ، انتقلت الى الحجاز ونجد ، ثم الى بلاد الشام فالى مابين النهرين . نبغ منها شعراء ، وفرسان أبطال . اشتبكت مع قبيلة بكر وائل فى حرب طويلة تعرف باسم حرب البسوس .

كبيراً فى مقاومة نفوذ الأتراك فى العراق الحسن وعلي ولدا عبد الله بن حمـدان .

محاولة انقاذ الخليفة العباسي :

جهز الحسن بن عبد الله الحمداني جيشاً من العرب وسار بـه ومعه أخوه الى بغداد لاقصاء نفوذ الترك وانقـاذ الخليفة العباسي المتقي بالله من تسلطهم ، ودخل الحسن العاصمة حيث رحب به الخليفة ، ومنحه رتبة أمير الأمراء ، وهي الرتبة التي تمنح للذي بيده السلطة . كما منح أخيه لقب (سيف الدولة) . وبذلك تمكن الحمدانيون من انتزاع السلطة سنة ٣٣٠ هـ من الترك الذين كانوا قوادهم قبل دخول الجيش العربي بغداد فى نزاع على مركز السلطة .

ولم تمضى السنة على اقصاء الترك عن مركز السلطة حتى وحدوا صفوفهم بقيادة أحد أمرائهم المدعو (توزون) الذي اشتهر بالقسوة والعنف . وقد تمكن من اخراج الحمدانيين من بغـداد ، فعادوا الى الموصل سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢م) .

أما مصير الخليفة العباسي المتقي بالله فقد خلعه توزون بعد أن سمل عينيه ، وعين خليفة بدلاً منه المستكفي بالله ـ سـنة ٩٤٤م ،

الحمدانيون يتخذون حلب عاصمة لهم :

نقل سيف الدولة العاصمة من الموصل الى مدينة حلب شـمال الشـام سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤ م) وذلك بعد أن استتب له الأمر وقضى على نفوذ الاخشيد فى تلك المنطقة ذات المركز الهام ، وكان الأخشيد آنذاك يحكم مصر وبلاد الشام والحجاز .

وعاد سيف الدولة وهاجم الأخشيد فى شمال الشام ، ولكنه خسر المعركة الحاسمة فى قنسرين ، وانتهت الحرب بينهما بصلح ينص على بقاء القسم الشمالي من بلاد الشام تحت حكم سيف الدولة •

الحروب مع البيزنطيين :

كان سيف الدولة شجاعاً ، رزيناً وكريماً يحبه شعبه وجيشه الذي قام بصد غارات البيزنطيين على الجزيرة وشمال الشام وأنزل بهم الهزائم بقيادة سيف الدولة نفسه • وقد حاول الامبراطور البيزنطي (نقفور فوقاس) السيطرة على حلب والاستيلاء على المناطق المعروفة باسم العواصم والثغور المتاخمة لبيزنطية ، فصدت قوات نقفور وطردها سيف الدولة من المناطق التي تسللت اليها ، واستمر يزحف بجيشه حتى دخل حدود بيزنطية واستولى على مدينة مرعش وعدة حصون •

لقد قام الحمدانيون بدور بطولي فى الدفاع عن المناطق الاسلامية وحمايتها من غارات البيزنطيين الذين حاولوا فى عهد الامبراطور شميشق الاستيلاء على بيت المقدس ، فقاومهم الحمدانيون وهاجموا مؤخرة جيوشهم الزاحفة عبر الشام ، وأرغموا بفضل مقاومة الحمدانيين على الانسحاب • وبذلك فشلت بيزنطية باستعادة نفوذها على بلاد الشام وفلسطين التي طردت منها فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٥-١٦ هـ (٦٣٦-٦٣٧م) •

ازدهار العلوم والآداب :

وفى عهد سيف الدولة ازدهرت العلوم والآداب • وعلى غرار هارون الرشيد وابنه المأمون كانت تعقد فى قصره بحلب الندوات

للأدباء والشعراء • وكان يجزل لهـم العطاء ، ويشجع نشـر العلوم والفنون • ومن الذين برزوا فى عهـده (1) : أبو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الأغاني الشهير ، والمتنبي الشاعر العظيم ، والفارابي الفيلسوف صاحب المؤلفات الفلسـفية والعلمية والاجتماعية ، وابن نباتة الخطيب المشهور ، وأبو فراس الحمداني الشاعر الفذ والفارس الشـجاع •

نهاية الدولة الحمدانية :

بعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ (١٩٦٧م) انتاب الدولة الحمدانية الضعف الذي ظل يلازمها حتى زالت فى عهد أبي المعالي شريف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٣م) وقبله توالى على الحكم ثلاث حكام هم : سعد الدولة الذي خلف سيف الدولة سنة ٣٥٦ ، حتى ٣٨١ هـ ، ثم سعيد الدولة حتى سنة ٣٩٢ هـ ، وخلفه أبو الحسن عـلي حتى سـنة ٣٩٤ هـ •

---

(1) أبو الفرج الاصبهاني : هو علي بن الحسين ، ولد فى اصفهان سنة ٨٩٧ م وتوفى سنة ٩٦٦م .

المتنبي : (أبو الطيب) ولد فى محلة كندة بالكوفة سنة ٩١٥م وتوفى سنة ٩٦٥م .

الفارابي : (أبو النصر) ولد فى فاراب بتركستان سنة ٨٧٣ م وتوفى فى دمشق سنة ٩٥٠م .

ابن نباته : ولد سنة ٩٤٦م وتوفى سنة ٩٨٤م .

الـدولة البويهية

مؤسســـــها :

أبو شجاع بويه من أسرة بني بويه الفارسية التي استقرت قديماً فى اقليم الديلم ، جنوب بحر قزوين • وانتهز أبو شجاع فرصة ضعف الخلافة العباسية فى بغداد ، وتنازع ولاة الخليفة الراضي فى فارس فاستولى على شيراز • ومنها امتدت حركة بنو بويـه : (أولاد أبو شجاع : علي وحسن وأحمد) الى مناطق أخرى وبسطوا سلطانهم عليها • ثم قاموا بتوطيد دعائم دولتهم فى جنـوب فارس وجعلوا عاصمتها شيراز ، وأنشأوا جيشاً قوياً لتوسيع ملكهم •

تسلطهم على الخلافة العباسية :

وفى أواخر سنة ٣٣٣ هـ (٩٤٤م) سار أحمـد بن أبي شجاع بويه على رأس قوة كبيرة الى بغداد ، فدخلها ورحب به الخليفـة العباسي المستكفي بالله ومنحه لقب (معز الدولة) ، وأنعم على أخيه علي بلقب (عماد الدولة) ، وأخيه حسن لقب (ركن الدولة) •

وهيمن أحمد بويه على السلطة فى بغداد ، وعزل الخليفة المستكفي الذي أحسن استقباله وأنعم عليه وعلى اخوته بأرفع الألقاب • وعين بدلاً منه الخليفة المطيع لله الذي غدا ألعوبة بيده • كما أمر أن يذكر اسمه مع الخليفة على المنابر فى خطبة الجمعة •

بنو بويه فى اوج القوة والعظمة :

أصبح بنو بويه هم الحكام فى بغداد ، وقويت سلطتهم فى العراق وفارس فى عهد زعيمهم عضد الدولة الذي نقش اسمه على العملة التي تسك فى العاصمة العباسية ، وتزوج من ابنة الخليفة المطيع وزوج ابنته للخليفة . وكان وراء هذا الزواج فكرة تكمن فى مخيلة عضد الدولة قوامها تحويل الخلافة عن طريق الوراثة بالتزاوج الى بني بويه ولكن حلمه لم يتحقق .

وقام عضد الدولة بأعمال عمرانية عظيمة فى كل من بغداد وشيراز التي بقيت عاصمة للدولة البويهية ، ومن أهمها انشاء (البيمارستان العضدي) فى بغداد الذي كان من أشهر المستشفيات فى القرن الرابع الهجري ــ العاشر الميلادي .

وكان عضد الدولة يكرم العلماء والأدباء ويعقد معهم الندوات فى قصره ويشجعهم على البحوث والتأليف . وتوفى سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣م) .

نهاية الدولة البويهية :

عاشت الدولة البويهية التي كان حكامها من الشيعة الفرس بعد وفاة عضد الدولة نحو ٧٢ سنة . ففي الفترة الأولى حافظت على مركزها ونفوذها فى فارس والعراق ، قام خلالها ولدا عضد الدولة : (شرف الدولة وبهاء الدولة) بأعمال هامة منها تأسيس مجمع علمي فى بغداد وداراً للكتب سنة ٩٩٠م بمساعدة سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة ، احتوت على عشرة آلاف كتاب .

أما المرحلة الثانية فقد تميزت بتسرب الضعف الى الدولة البويهية ونشوب الخلاف بين حكامها • وفى بدايتها عزل بهاء الدولة الخليفة العباسي الطائع سنة ٣٨١ هـ (٩٩١م) وعين الخليفة القادر الذي دامت خلافته حتى سنة ١٠٣١م • وفى أواخر أيامه فرض على البويهيين احترامه واستعاد للخلافة هيبتها •

وقد استمر الضعف يلازم الدولة البويهية حتى انهارت على يد طغرل بك زعيم السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) •

oooooooooooooooooooo

الفصل العاشر

الدولة الايوبية

مؤسسها صلاح الدين :

هو القائد البطل الذي قام بدور خالد فى التاريخ تمثل بتوحيد الشرق الاسلامي والقضاء على جحافل الصليبيين فى معركة حطين الحاسمة التي غيرت مجرى التاريخ فى القرن السادس الهجري — الثاني عشر الميلادي •

وينتمي صلاح الدين الى أسرة كردية عريقة من اذربيجان ، خرجت من بلدتها (درين) واستقرت فى العراق • وكان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين فى عهد الخليفة العباسي المسترشد بالله حاكماً

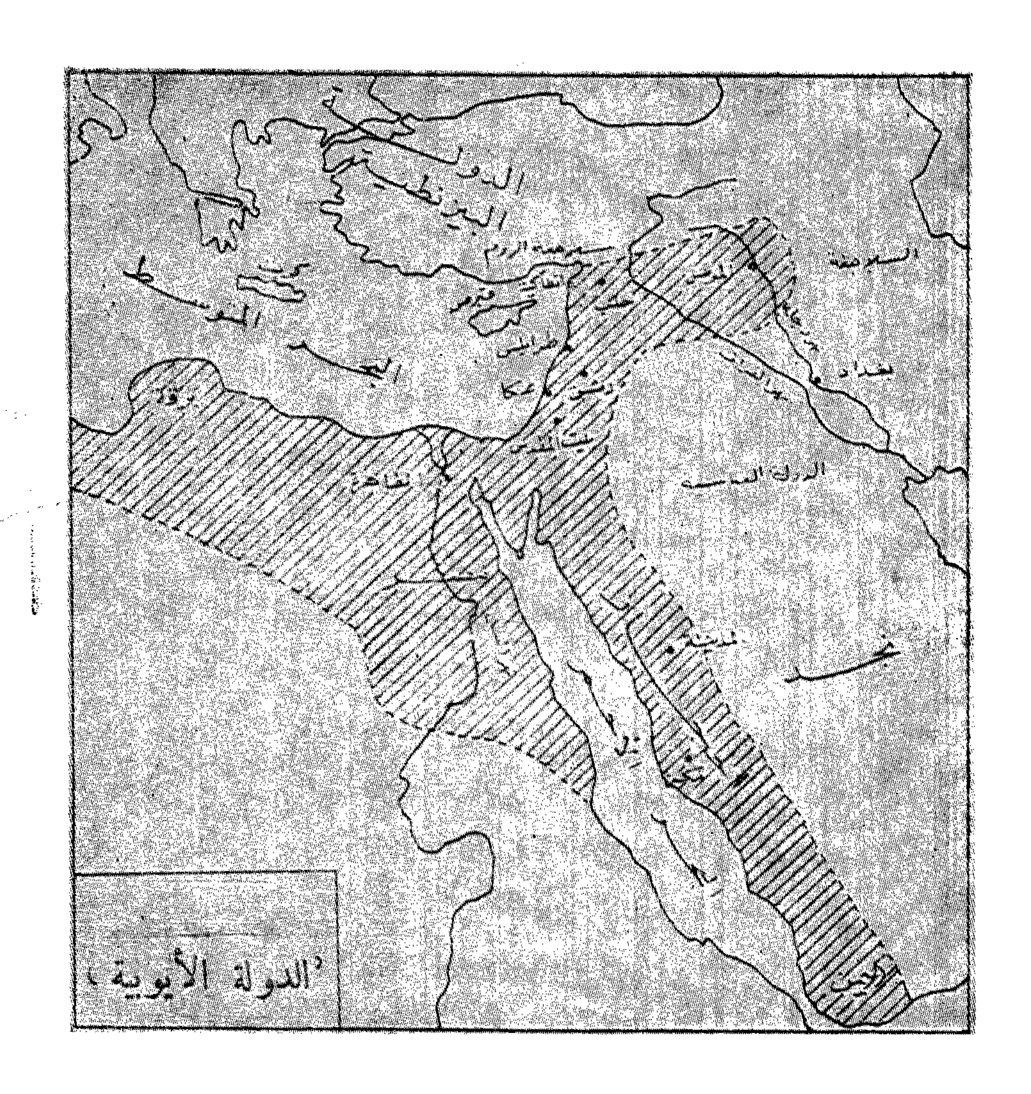
لمدينة تكريت على شاطىء دجلة شمالي سامراء ، وفيها ولد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨م) • وفى نفس السنة التي ولد فيها وقعت اصطدامات دامية بين الخليفة العباسي الراشد بالله والسلطان مسعود السلجوقي انتهت بفرار الخليفة الى اصفهان حيث قتله رجل من خراسان • وعلى اثر ذلك رحل نجم الدين أيوب عن تكريت مع عائلته لعند صديقه عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية فى الموصل وحلب حيث عمل فى خدمته وشقيقه أسد الدين شيركوه ورقيا الى أرفع المناصب فى الجيش •

ونشأ صلاح الدين نشأة طيبة ، ودرس الفقه والأدب دراسة عميقة ، وتدرب على الفنون الحربية ، وترعرع فى حلب ، ثم فى بعلبك المدينة الشهيرة بآثارها الضخمة فى البقاع الشمالي (بلبنان الحالي) حيث كان أبوه نجم الدين حاكما على القلعة والمدينة •

وبعد أن فتح نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق سنة ٥٤٩ هـ استقر نجم الدين أيوب مع أسرته فيها ، وتسلم صلاح الدين منصب آمر الشرطة الذي كان يقوم به أخوه توران شاه • ثم ترقى حتى أصبح من كبار قواد جيش نور الدين ملك الشام •

توطيد الدولة الأيوبية :

اشترك صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه فى الحملات العسكرية التي أرسلها نور الدين زنكي الى مصر لطرد الصليبيين الذين كانوا بدأوا يتغلغلون فيها • وفى تلك المعارك التي تكللت بالانتصار ظهرت مواهب ومقدرة صلاح الدين القائد الفذ الذي



الدولة الأيوبية

سجل فى مصر الانتصار الأول من سلسلة انتصاراته على الصليبيين •

وبعد وفاة عمه أسد الدين فى القاهرة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) أسند اليه الخليفة الفاطمي العاضد الوزارة ولقبه الملك الناصر • فأحبه الشعب والتف حوله ، وأعاد لمصر الأمن والاستقرار بعد أن قضى على المؤامرات الداخلية التي كانت تدبرها جماعة من أنصار الدولة الفاطمية التي دخلت فى دور الانهيار •

وفى سنة ٥٦٧ (١١٧١م) توفى الخليفة الفاطمي ، وبوفاته طويت آخر صفحة من حكم الفاطميين الذين كان مضى على قيام دولتهم ٢٦٢ سنة كانت بدايتها فى تونس بعد أن قضت على دولة الأغالبة سنة ٩٠٩م وفى مصر بعد أن أطاحت بالدولة الاخشيدية سنة ٩٦٩م •

وقام صلاح الدين بسلسلة من الاصلاحات فى مصر ، فحسن أحوالها ، وقضى على المفاسد ، وحول الدعاء فى خطبة الجمعة الى الخليفة العباسي المستضيء ، وولى القضاء للفقيه صدر الدين عبدالملك ابن درباس الشافعي ، وبنى مدرسة للشافعية وأخرى للمالكية ، كما بنى قلعة وسوراً لحماية القاهرة من غارات الأعداء ورمم أسوار الاسكندرية •

وهكذا وطد صلاح الدين الأيوبي دعائم دولته فى مصر ، ثم انطلق الى توحيد الشرق الاسلامي لانقاذه من خطر الحملات الصليبية التي توطدت أقدامها فى سواحل بلاد الشام وفلسطين • فسار الى دمشق بجيش بعد أن توفى الملك نور الدين زنكي [1] سنة ١١٧٤ م

---

(١) نور الدين محمود زنكي لقب بالملك العادل ، كان شهما شجاعا كريما ، محبا لعمل الخير ، فتح دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، وبنى فيها المدارس والمساجد ومستشفى ، رتب للايتام والفقراء نفقة وكسوة ، حارب الصليبيين وانتصر فى عدة معارك .

واستولى عليها وعلى كثير من بلاد الشام سنة ١١٧٥م ، وفتح أخوه توران شاه بلاد اليمن •

وفى المرحلة التالية ضم حلب والجزيرة والموصل التي كانت لاتزال تحت سيطرة ابن نور الدين زنكي الملقب بالملك الصالح الذي توفى سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١م) وابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل • وبذلك أعاد صلاح الدين توحيد الأقطار الاسلامية لمواجهة الصليبيين والحفاظ على كيان الأمة الاسلامية •

حروبه مع الصليبيين :

قام صلاح الدين الأيوبي بعد أن وحد الأقطار الاسلامية بشن حرب لتحرير المناطق والمدن التي كان الصليبيون استولوا عليها وأسسوا فيها امارات مضى على قيامها ٨٥ سنة بدأت باستيلائهم على مدينة انطاكية وطرسوس والرها بأعلى الفرات سنة ١٠٩٨م ، وبيت المقدس سنة ١٠٩٩م ، وطرابلس وما جاورها سنة ١١٠٩م الخ ••

أجل قبل أن يوحد صلاح الدين الشرق الاسلامي كانالصليبيون يسيطرون على مناطق هامة • وقد عجزت الخلافة العباسية التي اتنابها الضعف ان تقاوم الحملات العسكرية • وكذلك الدولة الفاطمية التي دبت اليها الفوضى والصراع بين الوزراء على الانفراد بالسلطنة بعد وفاة المستنصر جعلها غير قادرة على الوقوف فى وجه ذلك الغزو الخطير •

(أما الأسباب التي دعت أوروبا للقيام بحملات صليبية ، ودور كل حملة من هذه الحملات العسكرية فسنأتي على شرحها بالتفصيل فى فصل لاحق) •

بعض المعارك الحربية :

سبق موقعة حطين المشهورة فى التاريخ التي انتصر فيها صلاح الدين وقضى قضاءً مبرماً على القوات الصليبية ، نشوب عدة معارك كان أهمها معركة مرج عيون (بلدة فى لبنان حالياً) سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) هزمت فيها قوات الفرنج وأسر مئات من فرسانهم وبعض قوادهم .

وفى نفس السنة هاجم السلطان صلاح الدين حصن الأحزان الذي كان الفرنج بنوه قرب مدينة صفد (فى الجليل الأعلى بفلسطين) واستولى على الأسلحة التي فيه ، بعد حصار دام أسبوعين ، وأسر ٧٠٠ من جنود وفرسان الصليبيين .

وفى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٣م) وجه الأمير (ريجنالد دو شاتيون) حاكم حصن الكرك جنوب شرقي الأردن حملة بحرية للاستيلاء على الحجاز ، فأسرع العادل شقيق صلاح الدين ونائبه على مصر وأرسل على الفور أسطولا بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ ، اشتبك مع الحملة الصليبية فى معركة دارت رحاها فى البحر الأحمر شمال (ينبع) أسفرت عن هزيمة الصليبيين وأسر منهم بالاضافة الى عدد كبير من الجنود والبحارة البعض من قوادهم وأمرائهم . وبذلك قضى على مغامرة ريجنالد ومخططه الخطير . وكان هذا المغامر من أشد أمراء وحكام الصليبيين تعصباً ، هاجم مراراً قوافل الحجاج المسلمين وسلبها ناقضاً بذلك شروط العهود والمحالفة التي تنص على عدم التعرض للقوافل الآمنة .

وهناك معارك أخرى جرت حوادثها فى الأعوام الثلاثة التي سبقت معركة حطين كان النصر فيها للمسلمين فى مناطق مختلفة . وكانت هذه تعتبر مقدمة للمعركة الكبرى مع الصليبيين .

موقعة حطين الحاسمة

فى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) زحف السلطان صلاح الدين على رأس جيش سار به من دمشق واتجه الى حصن الكرك واستولى عليه بعـد معركة ضارية . ثم تابع زحفـه الى طبرية فحاصرها ستة أيام واحتلهـا .

وعلى مقربة من طبرية دارت رحى معركة حطين فى شهر ربيـع الثاني (٥٨٣ هـ) تموز ـ يوليو (١١٨٧م) بـين جيش المسلمين والجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمراء صور وعكا والناصرة والكرك ، وكان عددها نحو ٢٠ ألفاً من الفرسان و ١٣ ألف مقاتل من كتائب المعسكرات والحصون و ٧ آلاف مقاتل من كتائب المساندة أما قوات صلاح الدين فكان عددها ١٢ ألفاً بالاضافة الى بعض كتائب من المتطوعين .

وفى صبيحة يوم الجمعة بدأت المعركة والتحمت الجيوش فىقتال عنيف . وكانت معركة حاسمة انتصر فيها السلطان صلاح الدين وأنزل بالفرنج هزيمة ساحقة . وقد وقع من الأسرى فى أيـدي المسلمين ملك القدس (غي دو لوزينان) والأمير (ريجنالد شاتيون) حاكم حصن الكرك ، وغيرهما من الأمراء ومعظم كبار قواد كتائب الجيوش ، و ١٤ ألف جندي . وبلغ عدد قتلاهم نحو ٩ آلاف ، كما قضى على كثير منهم العطش والحر والنيران التي اشتعلت فى الحشائش الجافة التي قذفت بالنفط فتأجج اللهب تحت سنابك خيولهم وحول معسكرهم وأهلك مجموعات منهم .

وأحسن صلاح الدين السلطان النبيل معاملة أسرى الصليبيين وأطلق سراح غي دو لوزينان ملك القدس بعد أن أخذ عليه تعهد بأن لا يتعرض للمسلمين بأذى ولا يحرض على قتالهم • أما رجينالد حاكم حصن الكرك الذي نقض مراراً شروط العهد واعتدى على قوافل المسلمين فقد ضرب عنقه • وكان صلاح الدين قد أقسم اليمين أن يقتل هذا الغدار اذا وقع بيده ، فبر بقسمه وقتله ، كما ضرب عنق فرسانه الذين سلبوا ونكلوا بالناس الآمنين •

استرداد بيت المقدس :

بعد ذلك النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين وجيشه فى معركة حطين التي كانت بداية النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية اتجه الى الساحل حيث استولى على عكا وصيدا وبيروت ويافا ، ونابلس والرملة ، ثم فتح بيت المقدس بعدأن حاصر المدينة منجميع الجهات وشدد عليها الحصار حتى سلمت فى شهر رجب ٥٨٣ هـ (تشرين أول ــ أكتوبر ١١٨٧م) • ودخل السلطان العادل الكريم النفس المدينة المقدسة وأعطى الأمان لأسر الفرنج البالغ عدد أفرادها رجالا ونساءً وأطفالا نحو ١٧ ألف نسمة ، وعفا عن الأسرى • وأمر بتنظيف المسجد الأقصى وغسل الصخرة بالماء الطاهر وماء الورد ، ونصب المنبر الى جانب المحراب ، وأقيمت الصلاة • وهكذا أعيد الى المسجد الأقصى حرمته وهيبته ، وانطلق فى أجواء بيت المقدس صوت المؤذن يردد الله أكبر •• الله أكبر •• بعد انقطاع دام ٨٨ سنة كانت بدايتها سنة ١٠٩٩ ميلادية (٤٩٢ هـ) تاريخ استيلاء الصليبيين على القدس •

وبذلك تقوضت مملكة الفرنج الصليبيين فى الشرق ولم يبق فى

حوزتهم إلا صور وطرابلس وانطاكية وبعض القلاع على السواحل وما جاورها من المدن الصغيرة •

حملة ملوك أوروبا العسكرية :

أحدث انهيار المملكة اللاتينية واسترداد المسلمين لبيت المقدس هزة عنيفة فى أوروبا • فقام ملوكها بتجهيز حملة عسكرية لاستعادة المناطق التي خسرها الفرنج فى الشرق وبالأخص القدس • وكانت هذه الحملة من أكبر الحملات الصليبية ، فقوادها ثلاثة ملوك هم : فريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، فيليب أوغست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا •

وفى الطريق غرق الامبراطور فريدريك وهو يعبر أحد أنهار كيليكية (فى تركيا حالياً) ، فتشتت جيشه ورجع القسم الأكبر من جنوده وقواده الى بلادهم ، ولم يصل منه الى سواحل بلاد الشام سوى خمسة آلاف •

واختار الفرنج عكا لتكون قاعدة ينطلقون منها لاسترداد القدس والمدن الأخرى التي فقدوها • وهاجمت قواتهم المدينة من البحر والبر بأعداد كبيرة مؤلفة من جيش فيليب أوغست ملك فرنسا ، وجيش أمير صور ، والألمان الذين كانوا وصلوا الى الساحل • وعززت هذه القوات بجيش ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا الذي وصل فى ابان حصار مدينة عكا التي ظلت صامدة وصلاح الدين يدافع عنها ببسالة منقطعة النظير مدة عامين : ٥٨٥ـ٥٨٧ هـ (١١٨٩ـ١١٩١م) ولولا وصول النجدات للافرنج تلو النجدات عن طريق البحر ومساندة أسطولهم البحري لما تمكنوا من الاستيلاء على المدينة التي دخلوها على اطلال من الأنقاض •

وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين ريتشارد ملك انكلترا وزميله ملك فرنسا أوغست فأبحر هذا عائداً الى بـلاده ، وظل ريتشارد يحارب لتحقيق الهدف وهو استعادة بيت المقدس • ولكنه لم يتمكن رغم الانتصارات المحدودة التي حققها فى الساحل •

صـلح الرملة :

أدرك ريتشارد قلب الأسد ان التغلب على السلطان صلاح الدين حرباً لايمكن تحقيقه ، فأوفد اليه مندوبين للتفاوض • واقترح ريتشارد ملك انكلترا زواج أخته الأميرة (جوانا) بالعادل أخى صلاح الدين على أن تكون القدس والمدن الساحلية له ، فرفض صلاح الدين ، وانتقل الى القدس حيث قام بتحصين المدينة • وعاد ريتشارد مـن جديد وأرسل مندوبين لاجراء مفاوضات انتهت بعقد صلح فى بـلدة الرملة سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ينص على أن يسمح للحجاج الفرنج بزيارة بيت المقدس ، وأن تكون المنطقة الساحلية من صور الى يافا بيد الفرنج • وبعد توقيع الاتفـاق عاد ريتشارد ملك بريطانيا الى بـلاده •

وفاة صلاح الدين :

عاد صلاح الدين الى دمشق بعد أن نظم الأمور فى بيت المقدس وولى عليه عز الدين جورد بك ، وعين للقضاء بهاء الدين بن يوسف الشافعي • وفى دمشق أصيب بالحمى فمات وهو فى الخامسة والخمسين من عمره ــ سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) ، ودفن بجوار الجامع الأموي •

وكان صلاح الدين رجلاً عادلا ، وانساناً عظيماً ، وبطلاً مجاهداً ،

حمل راية وحدة الشرق الاسلامي فحقق للشرق النصر العظيم •

استمرار الدولة الأيوبية :

بعد وفاة صلاح الدين استمرت دولته قائمة ، ولكن ليس كما كانت فى عهده • وفى هـذه المرحلة التي دامت حتى سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) توالى على الحكم من البيت الأيوبي عدة ملوك كان من أبرزهم وأعظمهم شأناً هم :

١ ـ الملك العادل سيف الدين :

هو الذي تمكن بعد وفاة أخيه صلاح الدين أن يقضي على الفتن والمنازعات التي دبت فى البيت الأيوبي ، ويبسط سلطته على بلاد الشام ومصر واليمن • وقد وجه اهتمامه لمقاومة مطامع الفرنج الصليبيين والحفاظ على سيادة الدولة ومركزها • ودام حكمه حتى توفى سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م) •

٢ ـ الملك الكامل :

خلف أباه العادل ، قاوم الحملة الصليبية التي هاجمت مصر سنة ١٢١٩م بقيادة (جان دو بارين) واندريه الثاني ملك هنغاريا • وحاول بعد أن استولت القوات الغازية على دمياط التوصل الى اقناع بارين وزميله بوقف الحرب والجلاء عن مصر ، فعرض عليهما شروطاً سخية من ضمنها مئات الآلاف من الدنانير ولكنهما رفضا • وعندئذ أمر بقطع الجسور وتعويم الأرض بالمياه فأحاطت بقوات الفرنج ومعسكراتهم ، فاضطروا الى اخلاء المنطقة ، والاقلاع عن مغامرتهم التي كلفتهم أرواحاً وأموالاً ، وأبحروا راجعين الى بلادهم سنة ١٢٢١م

وفى سنة ١٢٢٨م تعرض الشرق الى حملة عسكرية جديدة بقيادة فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا • وكان هدفه الاستيلاء على مصر والمناطق التي كان صلاح الدين طرد منها الصليبيين بما فيها بيت المقدس • فدخل معه الملك الكامل فى مفاوضات انتهت بتوقيع اتفاقية نصت على تسليم القدس للامبراطور فريدريك • فأثار ذلك موجة سخط فى جميع البلاد الاسلامية •

٣ ـ الملك الصالح أيوب :

هو الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين بعد أن كان امبراطور ألمانيا استولى عليها فى عهد الملك الكامل • ولما شاع خبر استرداد المسلمين للقدس فى أوروبا جهز ملك فرنسا لويس التاسع حملة عسكرية واتجه الى مصر ، فاستولى على مدينة دمياط سنة ١٢٤٩ م ، ومنها زحف على المنصورة واحتلها •

وبعد احتلال قوات الملك لويس المنصورة توفى الملك الصالح أيوب ، فأخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته حتى يحضر ابنه توران شاه الذي كان غائباً عن مصر • ولما حضر توجه فوراً الى المنصورة على رأس قوة من الفرسان واشتبك مع الصليبيين فى قتال عنيف • وقد انهارت مقاومة جيش الملك لويس ولم يعد يتمكن من الخروج من المنطقة التي طافت بمياه النيل الذي كان فى أعلى ارتفاعه ، فغرق الكثير من جنوده وضباطه • ووقع ملك فرنسا فى الأسر واقتيد الى دار لقمان فى المنصورة حيث ظل والنبلاء الذين كانوا معه حتى دفع الجزية ، (الفدية) ثم أطلق سراحهم جميعاً •

نهاية الدولة الأيوبية :

كانت نهاية هذه الدولة التي أسسها صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) فى انتزاع الملك من توران شاه ابن الملك الصالح أيوب وقتله فى القاهرة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) • وكان مقتله على يد نفر من زعماء المماليك بالاتفاق مع شجرة الدر زوجة الملك الصالح •

وقد قامت الدولة الأيوبية بأعمال جليلة تمثلت فى الدفاع عن الاسلام ، والوقوف بوجه الحملات الصليبية واسترداد بيت المقدس والمناطق الأخرى التي كان الفرنج استولوا عليها قبل ان يتصدر صلاح الدين قيادة الشرق الاسلامي •

وفى عهد الأيوبيين ازدهرت الزراعة وراجت التجارة ، وانتشرت المدارس فى مصر وبلاد الشام • وقد نبغ فى عصرهم طائفة من الأدباء ورجال القضاء •

دولة المماليك

قامت دولة المماليك فى مصر بعد مقتل توران شاه • والمماليك أرقاء جلبهم ملوك الأيوبيين من بلاد القوقاس وتركستان • وقاموا بتعليمهم اللغة العربية ، وثقفوهم ، ودربوهم على فنون الحرب • وخرج منهم رجال قبضوا على مقاليد الحكم وأسسوا دولة دام حكمها أكثر من قرنين ونصف القرن •

وأقام المماليك فى بداية حكمهم بمصر (شجرة الدر) ملكة عليهم • وكانت هذه مملوكة الأصل فى قصر الملك الصالح أيوب ، فتزوجها وولدت له أبناً دعي خليل • وهي التي اتفقت مع بعض قواد فرسان المماليك على قتل ابن زوجها توران شاه الذي اختلفت معه •

واختاروا المماليك (عز الدين ايبك التركماني) ليقوم بمساعدة الملكة شجرة الدر فى ادارة الدولة • وقد تزوج ايبك من الملكة وتنازلت له عن السلطة ، ولقب بالملك المعز • وكانت نهاية شجرة الدر القتل على يد المماليك وسبب ذلك قتلها لزوجها ايبك الذي كان مضى على تسلمه السلطة سبع سنوات •

سلالة المماليك :

يقسم المماليك الى قسمين هما :

١ ـ المماليك البحريون : هم الذين اشتراهم الملك الصالح وأسكنهم جزيرة الروضة على النيل • ومن مشاهير دولتهم : ايبك ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، والأشرف خليل • واستمرت دولتهم من عام ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م •

٢ ـ المماليك البرجيون : هم الذين أقامهم السلطان قلاوون فى أبراج قلعة القاهرة • وكان أول سلطان منهم الظاهر برقوق ،

وآخرهم قانوصه الغوري ، وحكمت دولتهم الى عام ١٥١٧م ، تاريخ استيلاء الأتراك العثمانيون على مصر .

القضاء على معاقل الصليبيين

(بقيادة الظاهر بيبرس وقلاوون)

اتبع المماليك السياسة التي سار عليها سلاطين الدولة الأيوبية قوامها الجهاد ضد الفرنج الصليبيين . وقد قام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي تولى الحكم سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) بحملات عسكرية قادها بنفسه ، وانتزع من يد الفرنج بعد سلسلة من المعارك حصن الكرك الشهير سنة ٦٦٠ هـ ، والقيسارية وبعض القلاع سنة ٦٦٣ هـ . وفي سنة ٦٦٦ هـ استولى على يافا وقلعة الشقيف ، ثم على انطاكية وقلاعها في نفس السنة وبالتحديد في شهر رمضان . وفي سنة ٦٦٩ هـ استولى على صافيتا والمجدل وحصن الأكراد .

وعندما توفي الظاهر بيبرس في دمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧م) كانت معظم المدن والقلاع سقطت ولم يبق في أيدي الصليبيين من المدن الهامة سوى عكا وطرابلس وبعض القلاع على الساحل وفي حماة . وكان بيبرس رجلا شجاعاً وقائداً عظيماً اتصف بالشهامة وبعد النظر ، وحبه للخير . وقد أصلح الموانيء وحفر الأقنية ، وأنشأ عدة مدارس ومساجد في الشام ومصر . وهو الذي انتصر على التتر المغول في غزة وزحف مع السلطان المظفر قطز الى عين جالوت حيث أنزل بالمغول هزيمة فادحة (سنأتي على ذكر الغزو المغولي بالتفصيل فيما بعد) .

وعلى غرار ماقام به بيبرس فقد استمر السلطان المنصور قلاوون الذي تسلم الحكم سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩م) يحارب الصليبيين بشجاعة وحماس . فاستولى على حصن المرقب جنوب شرقي بانياس سنة ٦٨٤ هـ وتلاه سقوط مدينة طرابلس بعد حصار دام شهراً سنة ٦٨٨ هـ .

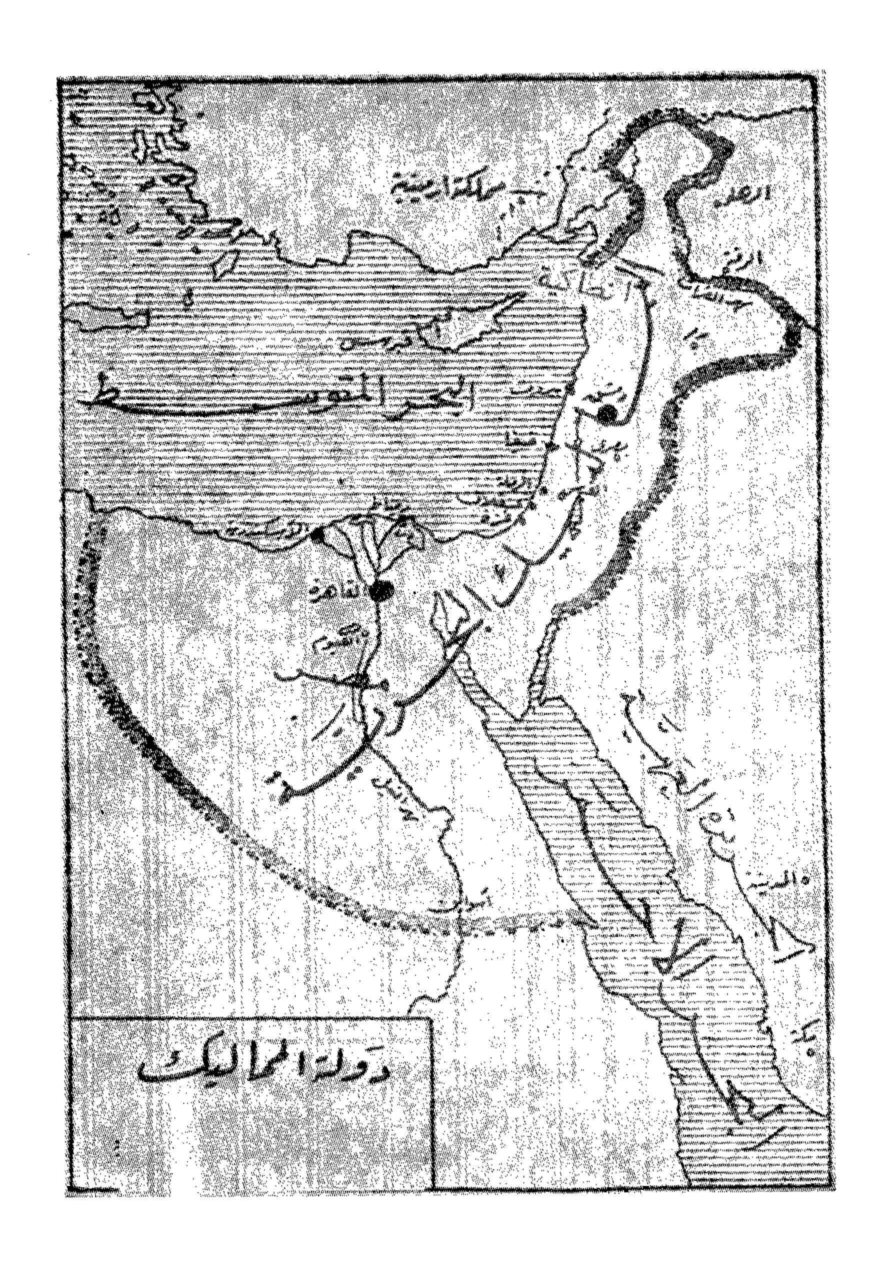
وبسقوط طرابلس التي كان الصليبيون استولوا عليها سنة ١١٠٩ ميلادية لم يبق بيدهم سوى مدينة عكة المحصنة • فقام السلطان الأشرف خليل الذي تولى الحكم بعد وفاة والده المنصور قلاوون سنة ٦٨٩ هـ (١١٩٠م) باعداد جيش زوده بآلات الحصار وزحف به الى عكا وشدد الحصار عليها حتى سقطت • كان ذلك سنة ٦٩٠ هـ (١١٩١م) •

وهكذا تهاوت القلاع والحصون واستعاد المسلمون جميع المدن ، وطهرت البلاد من بقايا الفرنج الصليبيين ، وطويت آخر صفحة من وجودهم فى الشرق •

البلاد الاسلامية فى عهد المماليك :

أفلح المماليك فى تحرير المناطق التي كانت لاتزال بيد الصليبيين بعد سلسلة من المعارك انتصروا فيها على الفرنج وأجلوهم عن الشرق • كما تصدوا لغزو المغول الخطير الذي اجتاح فارس والعراق وبلاد الشام وهزموهم شر هزيمة فى عين جالوت قرب بيسان وطردوهم من بلاد الشام •

وفى عهد دولة المماليك ازدهرت البلاد المصرية وازدادت ثروتها الاقتصادية • وقد اعتنى سلاطينها بالزراعة والصناعة والعلوم والعمران فأنشأوا المباني الكثيرة والقصور فى القاهرة والاسكندرية ، وشيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات ، نخص بالذكر منها المستشفى المنصوري الذي أقيم فيه بالاضافة الىالأجنحة الخاصة لمعالجة الأمراض مدرسة للطب استقدم لها أساتذة من مشاهير الأطباء فى ذلك العصر •


البحر المتوسط
دولة المماليك

وبالاضافة الى ما قاموا به من أعمال جليلة فقد حاول السلطان الظاهر بيبرس احياء الخلافة العباسية ، فاستدعى أحـــد أبناء البيت العباسي الذي كان نجا من مذبحة هولاكو واسمه أبو القاسم الى مصر ، وبايعه الناس ولقب بالمستنصر • ثم ارسل بيبرس مع الخليفة قوة عسكرية ترافقه الى بغداد لاستردادها • وقبل وصوله الى العاصمة العباسية هاجمه المغول وقتلوه •

أما في عهد سلاطين دولـــة المماليك البرجية التي خلفت دولة المماليك البحرية عام ١٣٩٠م واستمرت حتى انهارت على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧م فقد نشطت الحركة التجارية وأثرى المماليك ثراءً كبيراً وغاصوا بالترف • ولزيادة دخلهم فقد فرضوا الضرائب الباهظة على الأهالي وخاصة التجارة •

وفي المرحلة الأخيرة من حكمهم ساءت الأحوال في مصر والشام ، وفقدت الدولة مورداً كبيراً كانت تعتمد عليـــه بسبب تحول طريق التجارة القديم الى الطريق البحري الجديد الذي اكتشفه سنة ١٤٩٧م الملاح البرتغالي فاسكودوغاما (١) حول رجاء الصالح • وبهذا التحول انتقلت الحركة التجارية من الموانىء المصرية والسورية ، فأفقد ذلك المماليك أهم مواردهم المالية ، وانهار الوضع الاقتصادي في البلاد ، ودخلت الدولة في دور الضعف والانحطاط ، ثم الانهيار •

---

(١) ان الذي ساعد فاسكو دوغاما للوصول الى الهند وقاد سفنه اليها عبر المحيط الهندي هو البحار العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد من مواليد جلفار (رأس الخيمة)

الفصل الحادي عشر

البواعث على الحروب الصليبية
واثرها في الغرب والشرق

تاولنا فى الفصل العاشر الحروب التي دارت رحاها بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين ، واسترداده لبيت المقدس والمدن الساحلية بعد موقعة حطين التي هزمت فيها جيوش الفرنج هزيمة ساحقة وأدت الى انهيار المملكة اللاتينية . وفى نهاية تلك الفترة التي دامت خمس سنوات لم يبق بيد الصليبيين سوى الساحل الضيق الممتد من صور الى يافا ، ومدينة طرابلس وانطاكية وبعض الحصون والقرى . وهذه بدورها سقطت جميعها فى أيدي المسلمين الواحدة تلو الأخرى

خلال المرحلة الأولى من حكم المماليك الذين تولوا مقاليد الأمور في مصر بعد مقتل توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية • وكانت نهاية الصليبيين في الشرق سنة ١٢٩١ م •

أما الأسباب التي دعت أوروبا لارسال حملات صليبية الى الشرق الاسلامي ، وتتائج تلك الحروب وأثرها في الغرب والشرق فهي استناداً على أوثق المصادر كما يلي :

بيزنطية تستنجد بالبابا لصد تيار السلاجقة :

عندما اكتسح السلاجقة آسيا الصغرى وشعر امبراطور بيزنطية ديوجين بالخطر الذي يهددكيان امبراطوريته استنجد بالبابا غريغوريوس السابع فكتب له يقول مدعياً ان السلاجقة يعاملون الحجاج المسيحيين معاملة سيئة ، والطريق الى القدس براً أصبح عبوره خطراً على الحجاج الوافدين من أوروبا • ورأى البابا في دعوة الامبراطور البيزنطي فرصة سانحة لاعادة ضم الكنيسة الشرقية الارثوذكسية الى روما • وكان قد مضى على انفصالها عن سلطان البابوية ١٩ سنة ، يعود تاريخه الى عهد ميخائيل كارولاريوس بطريرك القسطنطينية عام ١٠٥٠ ميلادية • وأراد البابا غريغوريوس القيام باعداد حملة من دول أوروبا للمساهمة مع بيزنطية في صد تيار السلاجقة واجلاء قواتهم عن آسيا الصغرى ، ولكن الخلاف الذي نشب بين البابا وهنري الرابع امبراطور ألمانيا حول السلطة الزمنية وتدخلها في شؤون السلطة الروحية حال دون تحقيق ماكان يهدف اليه البابا غريغوريوس •

وفي تلك الحقبة كان السلاجقة يشكلون قوة عسكرية هائلة

ودولة شاسعة الأطراف • وهم ينتسبون الى (سلجوق) أحد زعماء قبائل الترك فى بلاد تركستان • وفى بادىء الأمر استقروا فى بخارى ، ثم انطلقوا الى الأقاليم المجاورة لبسط سيادتهم عليها ، فاستولى طغرل بك السلجوقي على بلاد خراسان سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧م) وتمركز فيها حيث بدأ يعد قواته للقضاء على دولة بني بويه التي كانت بسطت نفوذها فى فارس والعراق منذ عام ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) وقد ساعد طغرل بك النزاع الذي كان قائماً بين أبناء أسرة بني بويه على السلطة ، فزحف على فارس والعراق ودخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م) • وبذلك قضى على الدولة البويهية ، وهيمن على الخلافة العباسية التي كانت فى دور الضعف • وتربع السلاجقة على سدة السلطة ، ونمت دولتهم واتسعت فى عهد (الب ارسلان) الذي استولى على حلب والحجاز ودخل بلاد الروم وهزم امبراطور بيزنطية رومانوس ديوجين فى وقعة (ملازجرد) بارمينيا سنة ١٠٧١م وانتزع منه مناطق هامة فى آسيا الصغرى •

الدعوة الى حرب صليبية :

عادت بيزنطية تستغيث ، فوجه الامبراطور الكسيوس كومنينوس نداءً الى البابا أوربان الثاني يطلب فيه النجدة للوقوف بوجه السلاجقة الذين كانوا وصلوا فى زحفهم الى شواطىء بحر مرمرة ، ودعم هذا النداء بترويج اشاعة فى أوروبا تقول ان الحجاج المسيحيين يلقون اضطهاداً من السلاجقة • فتحمس البابا أوربان الثاني وألقى خطبة فى ٢٦ تشرين الثاني — نوفمبر عام ١٠٩٥م بمدينة كليرمون فيران الفرنسية دعا فيها ملوك أوروبا وشعوبها الى انتزاع الأرض المقدسة بفلسطين من أيدى المسلمين •

وهكذا استجاب البابا لنداء امبراطور بيزنطية وقام يحث ملوك أوروبا ويدعوهم الى ارسال حملة صليبية الى الشرق آملا بذلك استعادة سلطة البابوية على كنيسة القسطنطينية وضمها الى روما ، واعلاء نفوذها وسلطانها .

الأهداف والمطامع :

رأى ملوك أوروبا والنبلاء وأصحاب الاقطاعات فى تحقيق دعوة البابا فرصة سانحة لجني المكاسب وجمع الثروات من الشرق ، وتأسيس فيه امارات لهم وبالوقت ذاته للتخلص من الأزمة الاقتصادية التي كانت تعانيها بلادهم ، سببها الحروب الداخلية .

تلك هي الدوافع التي هيمنت على أولئك الذين قادوا الحملات الصليبية ، والذين أسهموا فيها كتجار امارات البندقية وجنوى وبيزا الايطالية للسيطرة على حركة التجارة فى الشرق . علماً بأن هذه الامارات قدمت السفن لنقل الجيوش الصليبية التي كانت تحشد فى الموانىء . أما العامل الديني الذي ألهب شعاره عاطفة الجماهير وحماسها فى أوروبا فقد اتخذه أصحاب المصالح ستاراً لتحقيق المطامع الدنيوية فى مختلف صورها .

مراحل الحملات الصليبية :

فى المرحلة الأولى تجمعت الحشود الهائلة من الفرنج فى مدينة القسطنطينية سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م) ، معظمهم من الفرنسيين الذين كان يطلق عليهم اسم فرانك أي الفرنجة ، ومن النورمنديين . واسم فرنجة أطلق فيما بعد على الأوروبيين جميعاً . وكان هؤلاء يحملون على صدورهم اشارة الصليب فعرفوا باسم الصليبيين .

الحملة الأولى :

كانت الحملة الصليبية الأولى تتألف من أربعة جيوش اقطاعية بقيادة امراء من عدة مقاطعات هم :

بودوان دوهانو غود فروى دوبويون	جيش اللورين والألمان
الكونت دو فيرماندوى الدوق دو نورماندي	جيش الشمال الفرنسي
الكونت ريموند دو تولوز أدعار دوموتتى	جيش الجنوب الفرنسي
تانكريد دوهوتفيل بوهيموند دوتارانت	جيش النورمان الايطالي

وقـد قـدم الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس الى الجيوش الصليبية المؤن والعتاد • وتعهد له القواد الأمراء بأن يسلموه المناطق التي يستولوا عليها فى آسيا الصغرى التابعة للسلاجقة •

وعندما تحرك الصليبيون وزحفوا عـلى بلاد الشام وفلسطين لم تكن هناك جبهة اسلامية موحـدة فى الشرق الـذي كان يعاني عهدئذ التفكك والانقسام • ففي العراق كان أمراء السلاجقة يتنازعون على الملك • وفى بلاد الشام التي استقل فيها الأتابكة لما أصاب الدولة السلجوقية التفكك لم يـكن بين حكامها والسلاجقة رابطة تعـاون ووفاق • وفى مصر كانت الـدولة الفاطمية فى دور الضعف الشديد والتنازع بين القواد على السلطة •

وعبرت الجيوش الصليبية الأناضول واستولت على المدن والقرى التي فى طريقها الى بلاد الشام • وحاول الأمير السلوجي قليج ارسلان التصدي لها ولكنه لم يتمكن لكثرة أعدادها التي لاتقارن بجيشه المحدود العدد والعتاد • ثم تابعت سيرها وتقدمت بعض الفيالق باتجاه الرها واحتلتها سنة ١٠٩٨م بينما حاصر جيش النورمان انطاكية التي صمدت عدة أشهر بفضل مناعة حصونها واستبسال أميرها رضوان السلجوقي • والذي ساعد الصليبيين على اقتحامها هو خيانة أحد الأرمن من حراس الأبراج ، وعدم وصول أية نجدات من أمراء السلاجقة • وكان سقوط انطاكية وطرسوس وما جاورهما منحصون سنة ١٠٩٨م

ثم واصلوا زحفهم حتى القدس فحاصروها وشددوا عليها الحصار شهراً ونيفاً • وفى شهر تموز سنة ١٠٩٩م دخلوا المدينة وانقضوا على سكانها قتلا وتنكيلا دون تميز حتى امتلأت الأزقة والشوارع بجثث القتلى •

وكانت نتيجة هذه الحملة الصليبية الأولى توطيد أقدام الفرنج فى الشرق وقيام مملكة بيت المقدس ، وامارة الرها ، وامارة انطاكية ، ثم امارة طرابلس التي استولوا عليها سنة ١١٠٩م • وفى المرحلة الأولى اختاروا غود فروى دوبويون حاكماً وحامياً للقدس ولكنه توفى بعد سنة ، فنادوا بأخيه (بولدوين) أمير الرها ملكاً عام ١١٠٠م • وبذلك أصبحت القدس مملكة تشمل رعايتها الامارات اللاتينية الأخرى التي كان يتولى مقاليد الأمور فيها أمراء كل منهم مستقل بادارة امارته • وقد تولى امارة انطاكية الأمير بوهيموند ،

وامارة طرابلس الأمير دوتولوز ابن الأمير ريموند الذي كان أحد قواد الحملة الصليبية وتوفى قبل احتلال الصليبيين لمدينة طرابلس .

وقد أسهمت أساطيل امارات ايطاليا البحرية فى استيلاء الفرنج على موانىء بلاد الشام الواقعة على البحر المتوسط فساعد ذلك بولدوين ملك القدس على توسيع مملكته وتأمين المواصلات مع أوروبا ، والسيطرة على حركة التجارة بالاشتراك مع جنوى والبندقية . وقد حاول بولدوين بعد أن أصبح فى مركز القوة الاستيلاء على مصر ولكنه فشل .

الحملة الثانية :

فى أعقاب استرداد المسلمين للرها على يد عماد الدين زنكي أمير الموصل الذي قام بمهاجمة الامارة الصليبية واجلاء الفرنج عنها سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٤م) ، تحركت أوروبا لنجدة وحماية الامارات الصليبية فى الشرق ، فقامت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧م بقيادة كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، واتجهت الى الشام وحاصرت دمشق ، ولكنها فشلت فى اقتحامها بفضل استبسال حماتها والنجدات التي ارسلها نور الدين زنكي من حلب . وبذلك سجل الجهاد الاسلامي الانتصار الثاني أمام أبواب دمشق بعد الانتصار الأول فى الرها .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية وتقهقرت أمام صمود المسلمين وقوتهم المستمدة من الايمان واليقظة الاسلامية . وعاد الامبراطور كونراد الى ألمانيا وتبعه صديقه ملك فرنسا لويس السابع يحمل كل منهما أذيال الخيبة .

الحملة الثالثة :

كانت أقوى الحملات الصليبية من حيث التنظيم وعدد الجنود المدربة ووفرة العتاد • وقد اشترك فيها أعظم ملوك أوروبا : (ريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا ، وفيليب أوغست ملك فرنسا ، وفريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا) • وهذا الأخير غرق وهو يعبر نهراً فى كيليكية •

وهذه الحملة اتجهت الى الشرق فى أعقاب هزيمة الصليبيين فى موقعة حطين واسترداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس سنة ١١٨٧م • ولم يستطع ملوك أوروبا انتزاع القدس من صلاح الدين ، واضطروا فى النهاية الى عقد صلح معه بعد حرب استمرت من عام ١١٨٩م الى عام ١١٩٢م • « أتينا على ذكرها مفصلا فى الفصل العاشر ـ الدولة الأيوبية وحروب صلاح الدين مع الصليبيين والانتصارات العظيمة التي حققها • »

الحملة الرابعة والخامسة :

وفى أعقاب الحملة الثالثة أعد الأمير بونيفاس دومونفيرا الايطالي وصديقه الأمير بودوان دوفلاندر الفرنسي حملة صليبية للتوجه الى فلسطين ، فوصلت القسطنطينية سنة ١٢٠٣ حيث أعادت الى العرش اسحق الثاني امبراطور بيزنطية الذي كان خلع • وقبل أن تواصل الحملة الصليبية طريقها الى الشرق قامت حركة فى القسطنطينية ضد الامبراطور اسحق انتهت بخلعه وتنصيب الأمير بودوان قائد الحملة على العرش ولقب امبراطور المملكة اللاتينية فى الشرق • أما صديقه الأمير بونيفاس فأنشأ امارة فى سالونيك واستقر فيها • وبذلك

اكتفى بما حصل عليه كل من قائدي الحملة الصليبية الرابعة وتوقفت الحملة عن مواصلة سيرها الى الشرق •

ثم قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيـادة جان بارين واندريه الثاني ملك هنغاريا ونزلت فى مصر من البحر سنة ١٢١٩م ، ولكنها فشلت فى تحقيق أهدافها وجلت عن البلاد سنة ١٢٢١م (أتينا على ذكرها فى الفصل العاشر ــ دولة المماليك ــ عهد الملك الكامل) •

الحمـلة السادسة والسابعة :

وفى سـنة ١٢٢٨م قاد فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا حمـلة صليبية ، استطاع بعد مفاوضات من توقيع اتفاقية مع الملك الكامل تسلم بمقتضاها بيت المقدس • وبعد وفاة الكامل استرد ابنه الملك الصالح أيوب القدس من الصليبيين • (أتينا على ذكره فى الفصل العاشر ــ دولة المماليك ــ عهد الملك الكامل وابنه الملك الصالح أيـوب) •

وقامت الحمـلة الصليبية السابعة قادها بحراً الى مصر لويس التاسع ملك فرنسـا سنة ١٢٤٨ ، كان مصـيرها الهزيمـة الساحقة ووقوع الملك فى الأسر بمدينـة المنصورة سـنة ١٢٤٩م ، ثم أطلق سراحه • (أتينا على ذكره فى الفصل العاشر ــ دولة المماليك ــ عهد الملك الصالح أيوب) •

وهناك حملة صليبية ثامنة أعدها لويس التاسع ملك فرنسـا بعد أن كان مضى على حملته السابعة ٢٢ سنة وسار بها الى تونس سنة ١٢٧٠م وحاصر قرطجنة ولكنه فشـل ، وتوفى على اثر اصابته بمرض الطاعون الذي تفشى فى جيشه وقضى على قسم كبير منه •

اثر الحروب الصليبية فى الغرب والشرق :

عنـدما قامت أوروبا بحملاتها الصليبية كانت متأخرة علميـاً واجتماعياً واقتصادياً • فساعدها الاتصال المباشر بالشرق الاسلامي الغني بتراثه الحضاري وثرواته الاقتصادية والعلوم والفنون عـلى التطور والتقدم •

أجل ان الحروب الصليبية تركت أثراً بالغ الأهمية فى أوروبا تمثل فى الفوائد والمكاسب التي جنتها من الشرق خلال قرنين السادس والسابع هجري ـ الثاني عشر والثالث عشر ميلادي • وفيما يـلي خلاصة ما اقتبسه الفرنج ونقلوه الى بلادهم :

١ ـ نقلوا الكتب العربيـة فى الطب والفلك والهندسة وقام بترجمتها العلماء فى أوروبا •

٢ ـ تعلموا طريقة التداوي والمعالجة فى المصحات والمستشفيات (البيمارستانات) ، فبدأوا فى القرن الثاني عشر ميلادي بانشاء دور المصحات والمستشفيات فى أوروبا •

٣ ـ نقلوا عدة أنواع من نباتات الشرق وعمموا زراعتها فى بلادهم مثـل الأرز والسمسم والـذرة وقصب السـكر والبطيخ والمشمش والليمون •• الخ •

٤ ـ اقتبسوا وتعلموا استخدام الحمام الزاجل لنقل المعلومات الحربية ، وفن الحصار وصناعة القذائف المحرقة والقوس •

٥ ـ اكتسب الصليبيون الأذواق الشرقية خاصة أدوات الزينة والروائح العطرية ، واستعمال التوابل فى أنواع الطعام ، واستخدام السكر لصنع الحلويات • وارتدى الرجال الملابس الشرقية الملائمة لطبيعة البلاد ، والنساء الأزياء العربية المزركشة •

٦ ــ ازدهرت الحركة التجارية ، وفاضت أسواق أوروبا بخيرات الشرق ومنتجاته كالمنسوجات والسجاد والزجاج والأواني .. الخ .

أما بالنسبة للشرق الاسلامي المزدهر فلم يستفد من أوروبا المتأخرة فى تلك العصور شيئاً . بدليل لم يكن عندها من العلوم والفلسفة والفنون والابتكارات والصناعات لينقلها أبناء الشرق الذي أمد عالم الغرب باتناجه الحضاري العلمي والثقافى أيام كان غائصاً فى ظلام القرون الوسطى .

وخلاصة القول ان الأثر الذي أحدثته الحروب الصليبية فى الشرق تمثل فى وثبة التضامن الاسلامي لمجابهة جحافل أوروبا ومقاومة خطرها . وبفضل هذا التضامن الذي اتخذ شعاره الجهاد فى سبيل الله ونصرة الاسلام تحقق النصر العظيم وتحررت البلاد من الفرنج الصليبيين .

الفصل الثاني عشر

الغزو المغولي

أصـل المغول وموطنهم :

المغول هـم من أواسط آسـيا ، موطنهم منغوليا ، يشكلون مجموعات كبيرة من القبائل عرفت بالقسوة والشراسة وعدم الاستقرار . وظلت تعيش قروناً طويلة متنقلة فى مناطق شاسعة تمتد من منشوريا حتى تخوم تركستان . وكانت ترهب جيرانهـا بغاراتها العنيفة التي تشنها عليهم بقصد النهب والسلب والبطش .

وفى أوائل القرن الثالث عشر الميلادي قام (تيموجين) أحـد زعماء قبائل المغول بتوحيد جميع هذه القبائل تحت سلطانه ، وسمي

(جينكيز خان) أي الحاكم الأعظـم • واتخـذ مدينة (قرة قورم) الواقعة على نهر ارخون بمنغوليا عاصمة لدولته التي أقامها على أساس نظم عسكرية سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م) •

اجتيـاح الصـين :

بعد أن أنشأ جيشاً قوياً انقض جينكيز خان على جارته الصين التي كان حكامها قد أقاموا لحمايتها من الغارات الخارجية حصوناً فى المنطقة الشمالية المتاخمة لمنغوليا ، ولكنها لم تصمد أمام هجوم جحافل جنكيز خان ، فتهاوت وسقطت المناطق الشمالية فى أيدي المغول ، ودخل جينكيز خان بكين على أشلاء مـن القتلى والدمار • وكانت تحكم الصين آنذاك أسرة (سونغ) التي حققت وحدة هذه البلاد الشاسعة سنة ٩٦٠م بعد أن كانت مجزأة الى عدة أجزاء ومقاطعات كل منهـا خاضعة لحكم أسرة مستقلة •

وهكذا تمكن المغول من الاستيلاء على شـمال الصين والأجزاء الشرقية فى المرحلة الأولى من غزوهم لها الذي بدأ سنة ١٢١٢م • ثم امتـد نفوذهم الى أجزاء أخرى ، وفى النهـاية سيطروا على بـلاد الصـين •

هجوم المغول على البلاد الاسلامية

لم يكد ينتهي جنكيز خان من اخضاع القسم الأكبر من بـــلاد الصين حتى تحول لغزو البـــلاد الاسلامية . فبدأ بدولة الخوارزم فى تركستان التي كانت استقلت عن الخلافة العباسية وبسطت سيادتها على بلاد ماوراء النهر . وأصل حكامها من اقليم خوارزم الواقـــع على نهر أمود اريا (جيحون) ، ومن أشهرهم السلطان علاء الدين خوارزم شاه الرجل القوي الذي اتسعت فى عهده الدولة الخوارزمية وقوي مركزها ونفوذها .

واتخذ جنكيز خان حادث القاء القبض على بعض تجار مـــن المغول وقتلهم فى خراسان ذريعة لاجتياح بلاد ماوراء النهر ، وأرسل يهدد السلطان علاء الـــدين خوارزم يأمره بالخضوع والاستسلام . فرفض وأعد قواته لمواجهة المغول .

الدمار والمذابح فى تركستان وخراسان :

لم يتمكن جيش الخوارزم من الصمود طويلاً أمام قوات المغول الزاحفة حتى انهار وهلك معظمه ، وفر السلطان علاء الدين الى بلاد قزوين . واندفع جنكيز خان بجيوشه الى مدينـــة بخارى الزاهرة فاقتحمها وقتل أهلها ثم قام بحرق الجوامع والمدارس والمنازل . ومنها واصل سيره الى مدينة سمرقند والمدن الأخرى فأعمل المذابح الوحشية فى سكانها ودمرها .

وما كاد يمر عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) حتى سقطت بلاد تركستان فى قبضة جنكيز خان . وتلتها خراسان وأذربيجان وبعض مدن فارس

سنة ٦١٨ ــ ٦١٩ هـ حيث عمها الدمار والنهب والمذابح الرهيبة .

ذلك مافعله المغول فى اجتياحهم لهذه البلاد الاسلامية بقيادة ملكهم جنكيز خان الذي توفي بعد عودته الى عاصمته قرة قورم بمنغوليا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وخلفه ابنه تولي .

زحف المغول على العراق والشام :

بعد أن توطد حكم المغول فى البلاد التي اكتسحوها وقضوا على العمران والحضارة فيها جددوا غاراتهم على البلاد الاسلامية بقيادة (هولاكو) بن تولي بن جنكيز خان . وكان فى عنفه وبطشه كجده الذي لم يدخل بلدا الا وخربها ، وعلى منواله سار غازياً سفاحاً بجيش جرار الى فارس والعراق والشام . واجتاح بلاد فارس ، ونهب وأحرق المدن والقرى التي مرت فيها جحافله وهي فى طريقها الى بغداد . ولما وصل الى همدان أرسل خطاباً الى الخليفة المستعصم بالله يدعوه الى التسليم ، فأبى وأمر قواده بالاستعداد للحرب . وكان وزير الخليفة ، مؤيد الدين محمد بن العلقمي يعمل فى الخفاء ضد الخليفة ، وتبين فيما بعد بأنه كان على اتصال بالمغول (١) .

سقوط بغداد :

حاصر هولاكو بغداد فى شهر محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) بجيشه البالغ عدده نحو ٢٠٠ ألف مقاتل ، وظل يدك أسوارها بالمنيق

(١) أكد بعض المؤرخين منهم عماد الدين ابن عمر بن كثير القرشي فى (الجزء الثاني عشر من كتابه البداية والنهاية) ان الوزير محمد بن العلقمي عمل على تصفية جيش الخليفة العباسي حيث ظل يسرح ضباطه وجنوده حتى أفقده قوته ، ثم كاتب المغول وسهل لهم اجتياح البلاد .

من الناحية الغربية والشرقية حتى انهار بعض أجزاء منها • وعندئذ أوفد الخليفة بالاتفاق مع أعيان المدينة وزيـره ابن العلقمي ليطلب الصلح من هولاكو وتسليم بغـداد له على شرط أن يؤمن للخليفة والسكان على أرواحهم وأملاكهم وأموالهم • فوافق القائد المغولي ولكن كان ذلك خدعة • فبعد أن دخل المدينة قتـل الخليفة وولديه أحمد وعبد الرحمن • ثم نهبها وأباحها لجنده فخربوها وظلوا يقتلون أهلها أياماً وليالي ، ويستبيحون كل شيء •• ومن بين الذين قتلوا فى تلك المذابح الرهيبة الأمراء والعلماء ورجال الدولة والأئمة وخطباء المساجد وحملة القرآن • ولم ينج من كبـار القوم وأعيان المدينة إلا البعض الـذين التجأوا الى دار الوزير ابن العلقمي المرضي عنه من هولاكو •

وباستيلاء المغول على العراق وقتلهم للخليفة المستعصم بالله زالت الخلافة العباسية بعد حكم دام خمسة قرون وربع القرن كان بدايتـه سنة ١٣٢ هـ وآخره سنة ٦٥٦ هـ (٧٥٠ــ١٢٥٨م) • وكان الخليفة المستعصم هو السابع والثلاثون من خلفاء بني العباس وآخرهم •

سقوط حلب ودمشق :

تحول هولاكو بعد أن سيطر على فارس والعراق لغزو بـلاد الشام والأقاليم الأخرى التي كانت تحت حكم دولة المماليك • وأرسل ابنه اشموط على رأس جيش ليمهد له الطريق ، فاستولى سنة ٦٥٧ هـ على بلاد الجزيرة ونهبها وخرب مدنها وقراها ، ثـم اندفع فى اتجاه حلب حتى وصل الى موقع قريب منها ، فتوقف حتى وصل هولاكو •

وفى شهر صفر سنة ٦٥٨ هـ أطبق المغول على حلب وحاصروها عدة أيام ، ثم أعطى هولاكو الأمان لأهلها ولكنه غدر بهم بعد أن فتحوا له أبواب المدينة وقتل كثيراً منهم ونهب أموالهم •

ومن حلب أرسل هولاكو جيشاً الى دمشق بقيادة أحد كبار قواده واسمه كتبغا ، فاحتلها فى أواخر شهر صفر الذي تم فى العاشر منه سقوط حلب • ودمر المغول القلعة وخربوا بعض القصور والمساجد ، ونهبوا ، وقتلوا النقيب جمال الدين ابن الصيرفى الحلبي ومعه جماعة من وجهاء المسلمين •

وحاول هولاكو ارهاب المظفر سيف الدين قطز سلطان دولة المماليك فى مصر ، فبعث له من حلب رسالة تهديد ، ويطلب منه التسليم والطاعة •• فاغتاظ السلطان قطز غضبا وعزم على مجابهة المغول وقتالهم • وفى تلك الأثناء بلغ هولاكو موت أخيه الخاقان الأكبر فعاد الى فارس وأناب عنه فى بلاد الشام القائد المغولي كتبغا • وبعد ذلك بخمس سنوات توفى هولاكو عام ١٢٦٥ م •

هزيمة المغول فى عـــين جالوت

كان هدف المغول بعد أن استولوا على بلاد الشام الزحف الى مصر البلد الاسلامي الذي سبق وقاوم ببسالة حملات الفرنج الصليبيين الخامسة والسابعة وهزمها وانتصر عليها فى عهد الدولة الأيوبية (أتينا على ذكرها فى الفصل العاشر) •

وقام السلطان المظفر قطز باعداد الجيوش لقتال المغول الـذين كانوا توغلوا فى زحفهم حتى وصـلوا الى ساحل غـزة • وانطلقت القوات الاسلامية لملاقاة العدو السفاك الجبار ، وكان من بينها الكتائب التي انسحبت من الشام أمام هجوم المغول وجاءت الى مصر • وعلى بعد خمسين كيلو متراً من غزة اشتبكت طلائع من الجيوش الاسلامية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري بالمغول الذين كانوا تمركزوا فى تلك المنطقة وسجلت الانتصار الأول على الغزاة ، ثم واصل بيبرس تقدمه وفقاً للخطة المرسومة • وبالوقت ذاته كانت تزحف القوات الاسلامية الرئيسية بقيـادة السلطان المظفر سيف الـدين قطز • عبر فلسطين الى الشام وعند (عين جالوت) على مقربة من مدينة بيسان بفلسطين دارت رحى المعركة الكبرى فى شهر رمضان المبارك سـنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) هزمت فيها قوات المغول شر هزيمة وقتل أميرهم كتبغا • واستمر الجيش الاسلامي يطارد الفلول الهاربة حتى وصلوا دمشق فاستردها فى ٢٧ رمضان ، ومنها واصل الأمير بيبرس سيره الى حلب وطرد منها المغول • وبذلك تحررت بلاد الشام من الغزاة المدمرين ، وعادت اليها الحياة الطبيعية والأمـن والاستقرار • وتلى ذلك فترة امتازت بالنمو والازدهار وتنظيم دوائر العدل برئاسة قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الذي أوفده السلطان قلاوون •

توقف الزحف المغولي وتحرير الشام :

تعتبر معركة عين جالوت من الوقائع التاريخية الحاسمة • فقد هزم فيها المغول الغزاة لأول مرة منذ ظهور جنكيز خان واجتياحه للصين وتركستان وخراسان ، واكتساح حفيده هولاكو فارس والعراق وسوريا • ذلك لأن النصر العظيم الذي حققه الجيش الاسلامي فى موقعة عين جالوت قد أوقف الزحف المغولي الكاسح ، وأنقذ الحضارة الاسلامية ، وحمى أقطار البحر المتوسط من دمار المغول الرهيب •• تلك كانت نتائج هذه المعركة الفاصلة التي غيرت وجه التاريخ ، ومحت من أذهان الشعوب الأسطورة القائلة : ان المغول لا يغلبون ••

ظهور تيمورلنك واجتياحه لبلدان آسيا

بعد مائة وعشرين سنة مضت على اندحار المغول وطردهم من بلاد الشام ظهر تيمور لنك الملك المغولي الذي قام بسلسلة حملات متواصلة لاعادة تثبيت دعائم الامبراطورية التي أسسها جنكيز خان على أنقاض الممالك التي اجتاحها •

واتخذ تيمورلنك مدينة سمرقند عاصمة له • وأخذ يعد جيوشاً جرارة لاكتساح بلدان آسيا • وكانت وقتذاك آسيا الصغرى وشمال البلقان تحت حكم الدولة العثمانية التي أسسها عثمان ابن ارطغرل • (سنأتي على ذكرها مفصلا فيما بعد) •

وبدأ تيمورلنك هجومه سنة ٧٨٢ هـ (١٣٨٠م) على فارس وخراسان وأذربيجان واحتلها بعد سلسلة من الغارات العنيفة المتواصلة ثم اتجه الى العراق سنة ١٣٩٣م وأعمل فى مدنها وخاصة بغداد وتكريت النهب والتقتيل •

وفى سنة ١٣٩٥م زحف تيمور لنك بجيش جرار شمالا عبر (سهوب القرغيز والأورال) حتى وصل الى موسكو واحتلها وأقام فيها أربعة عشر شهراً . وقبل أن يتركها ويعود الى سمرقند حمل معه الأموال والأشياء الثمينة وخلافها .

ثم اتجه فى سنة ١٣٩٨ م الى الهند وغزا المناطق الشمالية ودخل دلهي بعد حصار وقتال عنيف . وقد انتقم من أهلها وقتل منهم أعداداً هائلة وخرب المدينة .

وجاء دور بلاد الشام التي كانت لا تزال تحت حكم دولة المماليك ، فهاجمها بقوات كبيرة سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) ودخل حلب ونهبها وأباحها لجنده . ومنها واصل زحفه السريع الخاطف الى دمشق فقاومته شهراً ونيفاً ، وأخيراً استسلمت ودخلها ، وأحرق قصورها والجامع الأموي ونهبها وسلبها .

وتحول تيمور لنك الى آسيا الصغرى ، واشتبك مع القوات العثمانية فى معركة عنيفة قرب أنقره وقضى على معظمها وأخذ السلطان بايزيد العثماني أسيراً فى تموز ـ يوليو سنة ١٤٠٢م ، ثم سار الى مدينة بورصة العاصمة ونهبها وخربها ، وأيضاً مدينة ازمير وغيرها من المدن العثمانية .

وعاد تيمور لنك الى سمرقند ومعه السلطان العثماني بايزيد أسيراً فى قفص من حديد . وبعد عامين زحف على الصين ولكنه توفى قبل أن يصل الى المنطقة الشمالية . وبذلك أخمدت نيران موجة الغزو المغولي الثالثة بموت تيمور لنك سنة ١٤٠٥ م .

الفصل الثالث عشر

الدولة العثمانية

منشأ الأتراك وقيام دولتهم :

ينتسب الأتراك العثمانيون الى احدى قبائل الغز التركية من القيرغيز فى بلاد تركستان . وعندما اجتاح المغول تركستان لجأت هذه القبيلة التركية الى جنوب القوقاس حيث تكثر المراعي الخصبة فى سهول وهضاب ارمينيا . وبعد أن استقرت فيها فترة من الزمن توفى أثناءها زعيمها سليمان وتسلم قيادتها ابنه (ارطغرل) نزحت الى شمال بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) التي كانت آنذاك تحت حكم السلطان السلجوقي علاء الدين الثاني . وقد اشترك ارطغرل فى صد غارات

الأعداء على الأناضول ، فكافأه السلطان عـلاء الدين باقطاعه منطقة (اسكي شهر) المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية •

وفى سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨م) توفى ارطغرل وخلفه ابنه (عثمان) الذي تنتسب اليه الدولة العثمانية التي قامت بجهوده وجهود الذين خلفوه من سلالة بني عثمـان •

وكان عثمان بن ارطغرل شاباً شـجاعاً وطموحاً ، فقام بحركة توسعية استهلها فى استيلائه على جزء كبير من منطقة بيثينا البيزنطية الواقعة على البحر الاسود • ثم واصل غاراته على المـدن البيزنطية المجاورة لامارته وتمكن من فتح بعضها وضمها الى ملكه •

وخلف عثمان بعد وفاته ابنه (أورخان) سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦م) فحذا حذو أبيـه فى التوسع وتقوية امارته التي ازدهرت فى عهـده ووطدت مركزها فى آسيا الصغرى •

التحول من امارة الى دولة :

أصبحت الامارة العثمانية بعد أن اتسعت أملاكها دولة اتخذت فى المرحلة الأولى من تأسيسها مدينة بورصة (بروسه) عاصمة لها •• ووجه السلطان أورخان الرجل القدير اهتمامه الى التنظيم الداخلي وتقوية الجيش لمتابعة فتوحاته • فأنشأ عدة فيالق عسكرية أطلق عليها اسم ياني شريه أي الجنود الجدد • ثم تابع توسعة مملكته فى المناطق البيزنطية الأوروبية ، فاستولى على شبه جزيرة غاليبولي ، وعلى مدينة درنة الهامة •

وعندما توفى أورخان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩م) كانت الـدولة العثمانية الفتية فى مركز قوي ساعد مراد الأول الذي خلف والده على

الاستمرار فى الفتوحات . وكان السلطان مـراد شـجاعاً وماهراً فى فنون الحرب . فنقل عاصمة الدولة الى ادرنة سنة ١٣٦٢م ، ومنها بدأ فى حملات مركزة للامتداد عبر البلقان ، فاستولى على سالونيك والمنطقة المجاورة لها .

العثمانيون يهزمون حكام البلقان :

خشيت دول البلقان من وجود الدولة العثمانية ونمو قوتها ، فتحالفت ضدها لتقضي عليها . وبقيادة ملك صربيا جهزت الجيوش المتحالفة من الصربيين والبلغاريين والمجريين ، وسارت لقتال العثمانيين وتصفية دولتهم . وفى كسوفا (قوصوى) دارت المعركة بين الجيش العثماني بقيادة مراد الأول والجيوش البلقانية بقيادة ملك صربيا سنة ١٣٨٩م ، قتل فيها السلطان مراد ، وتولى ابنه بايزيد القيادة ، وظل يواصل المعركة حتى انتهت بدحر القوات البلقانية وأسر ملك صربيا وقتله . وبهذا الانتصار قوي مركز الدولة العثمانية وتوطدت أقدامها فى البلقان .

هجوم المغول ونتائجه :

لم تنج الدولة العثمانية من غارات تيمور لنك المدمرة . فقـد هاجمها سنة ١٤٠٢م ، وقضى على معظم الجيش العثماني عنـد أنقره وأسـر السلطان بايزيد ، ونهب وخرب ممتلكات العثمانيين فى آسيا الصـغرى .

وبعد تلك الكارثة قام السلطان محمد الأول بن بايزيد باعادة بناء الدولة . ولما خلفه ابنه مراد الثاني سنة ٨٢٤ هـ (١٤٢١م) استمر فى سياسة الاصلاح والتنظيم حتى أعاد لها قوتها ومركزها . كمـا شيد فى كافة الأقاليم المساجد والمدارس والمصحات .

ثم تحول السلطان مراد الثاني لمجابهة حلف الـدول المسيحية المؤلف مـن دول البلقان والامارات الأوروبية • وقد انتصر عـلى جيوشها وهزمها هزيمة ساحقة •

فتـح القسطنطينية :

بلغت الدولة العثمانية الأوج فى التنظيم والقوة فى عهد السلطان محمد الثاني الذي خلف أباه مراد الثاني سنة ٨٥٤ هـ (١٤٥١م) • ولم يعد يفصل أملاكها فى أوروبا عن أملاكها فى آسيا الصغرى إلا القسطنطينية التي كانت لا تزال تابعة للدولة البيزنطية •

وقرر السلطان العثماني الاستيلاء على القسطنطينية وجعلها عاصمة للدولة العثمانية • وكانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً حماها من الغارات التي تعرضت لها فى السابق • ولم تكن الدولة البيزنطية وقتذاك قوية قادرة عـلى مجابهة العثمانيين • فاستنجد الامبراطور قسطنطين الحادي عشر بالبابا وطلب منه ارسال حملة عسكرية للدفاع عن القسطنطينية • ومقابل ذلك وافق الامبراطور البيزنطي رغم معارضة شـعبه على توحيـد الكنيسة الأرثوذكسية مـع الكنيسة اللاتينية البابـوية •

وهاجم السلطان محمد الثاني القسطنطينية وظل يـدك أسوارها وحصونها دون توقف • وعجز قسطنطين عن صد الهجوم ، ولم تصله النجدات من البابا سوى كتيبة من الجنود وبعض سفن حربية جاءت من جنوى والبندقية • وأخيراً سقطت القسطنطينية وقتل الامبراطور البيزنطي سنة ١٤٥٣م • ودخل محمد الثـاني المدينة دخول الأبطال ولقب باسم (محمد الفاتح) •

فتح العثمانيين للبلاد العربية

عندما أخذت أنظار العثمانيين تتجه الى البلاد العربية كانت هناك الدولة الصفوية تحكم فارس والعراق ودولة المماليك فى مصر وبلاد الشام والحجاز • مع العلم ان الدولة الصفوية ظهرت فى أواخر القرن الخامس عشر ميلادي بايران وضمت اليها العراق بعد أن استولى الشاه اسماعيل الصفوي (1) على بغداد سنة ١٥٠٨م ، وعمل على نشر المذهب الشيعي فى بلاد الرافدين •

لم يكن بين الصفويين والعثمانيين أي انسجام • وقد أدى النزاع الذي حصل بينهما بسبب لجوء بعض المعارضين لحكم السلطان سليم الأول العثماني الى ايران واكرامهم وتشجيع الشاه اسماعيل الصفوي لهؤلاء الى نشوب حرب بين الدولتين •

واتجه السلطان سليم على رأس جيش كبير الى ايران سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤م) ، وبالقرب من مدينة تبريز فى سهل (تشالديران) اشتبك مع قوات اسماعيل الصفوي فهزمها وشتتها • وكان من ثمار هذا النصر الذي أحرزه السلطان العثماني انتزاعه من الصفويين كردستان وديار بكر وضمها الى الدولة العثمانية •

فتح الشام ومصر :

كانت العلاقات حسنة بين المماليك حكام مصر والشام وبين الأتراك العثمانيين • ولقد أقام المماليك فى مصر الاحتفالات والزينات عندما علموا أن العثمانيين فتحوا القسطنطينية وذلك تضامنا معهم ،

---

(1) اسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية فى ايران ، توفى بمدينة اردبيل سنة ١٥٢٤م وكان آخر ملوك السلالة الصفوية الشاه طهماسب الثاني الذي خلع سنة ١٧٣٢م •

كما أرسلوا للسلطان محمد الفاتح بتهانيهم • الا أن تلك المودة لم تدم طويلا بسبب عدة حوادث وقعت فعكرت صفو العلاقات بينهما • ومن تلك الحوادث أن الأمير (جم) خاصم أخاه بايزيد الثاني على العرش ففشل وهرب الى مصر فرحب به السلطان قايتباي وأكرم وفادته ، فظن بايزيد أن تلك المعاملة من قبـل سلطان المماليك لأخيه تشجيعاً له على التمرد والعصيان • فما كان من السلطان العثماني الا أن أعلن الحرب على المماليك التي دارت رحاها بالقرب من حلب •

وفى عهد سليم الأول ازدادت العلاقات سـوء بـين العثمانيين والمماليك • فقداتهم السلطان العثماني قانصوه الغوري سلطان المماليك بأنه عـلى اتصـال بالشاه اسماعيل الصفوي ، وعمل عـلى ايواء أعداء الدولة العثمانية • وتتيجة لذلك استولى السلطان سليم وهو عائد من حملته العسكرية على الصفويين بايران على المنطقة الواقعة تحت سيادة المماليك والممتدة من جبال طوروس فى الشمال الغربي من بلاد الشام الى مدينة مالطة بآسيا الصغرى •

وحاول الغوري بعد أن وصل الى حلب على رأس جيش مـن مصر حل النزاع سلمياً مع السلطان سليم الأول ، فأرسل اليه بعثـة للتفاوض معه ، ولكنه رفض وقال : على الغوري أن يلاقينا عند مرج دابق • وهذا يعني الحرب ••

وفى الموقع الذي أشار اليه السلطان سليم (مرج دابق) دارت رحى المعركة فى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) بين جيش المماليك والجيش العثماني انتهت بهزيمة المماليك وقتل السلطان الغوري أثناء المعركة اذ وقع عن ظهر جواده ومات تحت سنابك الخيل •

وكان الجيش العثماني متفوقاً بأسلحته الجديدة من المدافع والبنادق على أسلحة المماليك الذين أظهروا فى بداية المعركة بسالة وقوة ، ولكن مالبث أن وهن عزمهم بسبب انسحاب بعض قوادهم مع جنودهم وانضموا الى العثمانيين .

وبذلك انتهى حكم المماليك فى بلاد الشام واستولى عليها السلطان سليم . ثم واصل زحفه على مصر التي تولى السلطة فيها (طومان باي) أحد أقارب الغوري . وعند الريدانية (ضاحية من ضواحي القاهرة) دارت معركة عنيفة سنة ١٥١٧م كان النصر فيها للجيش العثماني وفرار طومان باي الذي لم يلبث أن وقع فى قبضة العثمانيين وأعدم . وقضى بذلك السلطان سليم على المماليك ، ودخلت مصر فى حوزته .

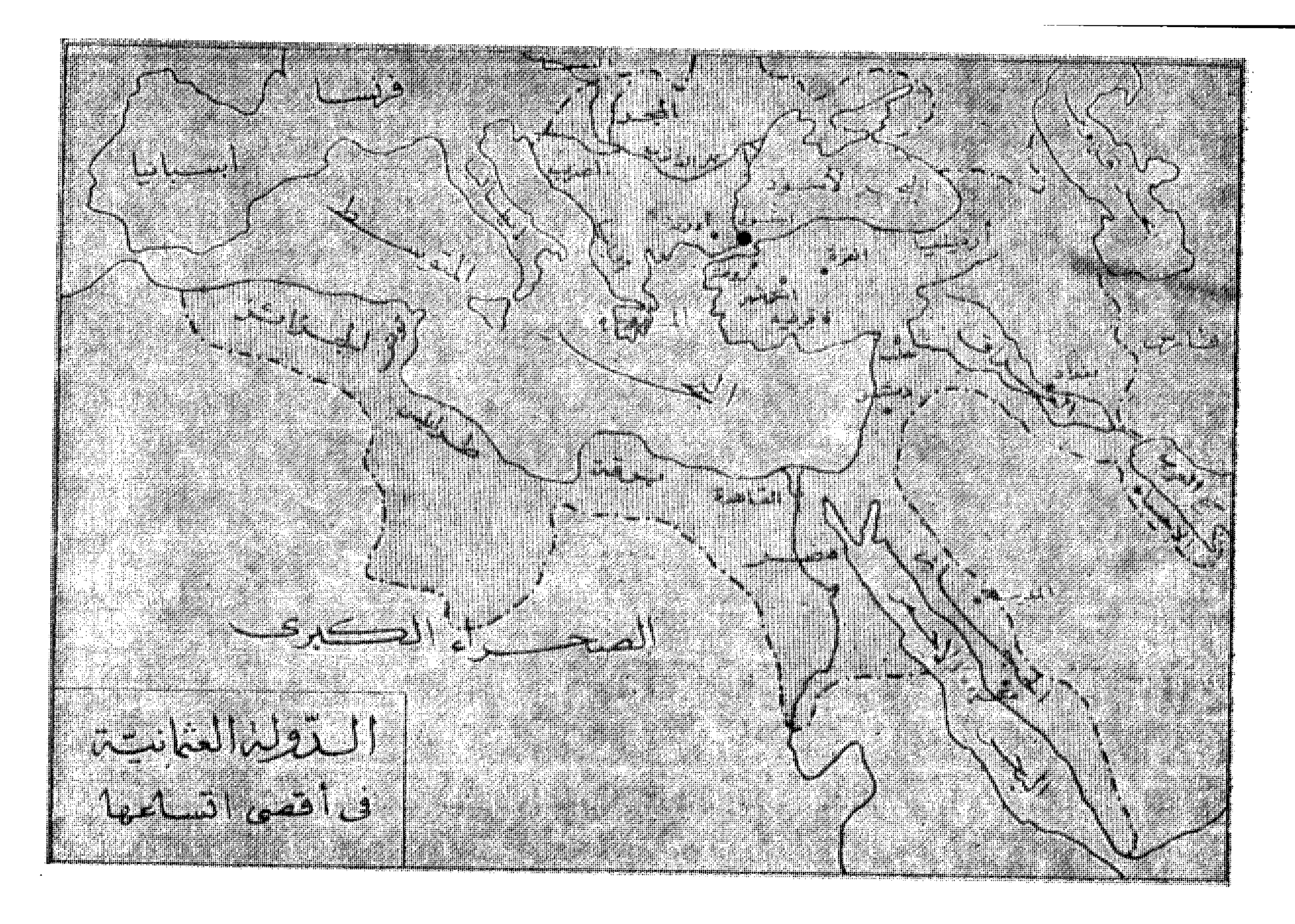
السيطرة على الحجاز واليمن :

كانت الحجاز خاضعة لحكم المماليك ، وكان كل سلطان منهم يلقب نفسه (خادم الحرمين) . ولما استولى السلطان سليم على مصر وقضى على المماليك صار هو الوارث لهذا اللقب . وقبل أن يبرح القاهرة أرسل اليه شريف مكة بركات مفاتيح الحرمين الشريفين معبراً بذلك الولاء للدولة العثمانية . وبذلك دخلت الحجاز فى حوزة العثمانيين وبقي شريف مكة محتفظاً بمنصبه .

واستمر العثمانيون فى فتوحاتهم ، فأرسل السلطان سليمان الأول المعروف باسم سليمان القانوني (١) حملة بحرية الى عدن وسواحل

---

(١) السلطان سليمان الاول (١٥٢٠-١٥٦٦م) لقبه الاتراك بالقانوني والفرنج بالعظيم . بلغت فى عهده الدولة العثمانية الاوج ، وبسطت سيادتها على أكثر من نصف بلاد هنغاريا بالاضافة الى بلاد العرب . وبيده نسخ القرآن الكريم عدة مرات ، ودون القوانين والشرائع ، وأشاع العدل ، وشجع العلوم ، وأنشأ المساجد والمدارس .



الدولة العثمانية
فى أقصى اتساعها
فرنسا
إسبانيا
الصحراء الكبرى

اليمن فى الوقت الذي كانت فيه الأساطيل البرتغالية تهاجمها منطلقة من قواعدها فى مسقط والخليج العربي الذي وقع تحت سيطرة البرتغال • وتمكنت الحملة العثمانية من الاستيلاء على عدن سنة ١٥٣٨م ، وتلتها حملات أخرى استولت على سواحل اليمن ثم صنعاء سنة ١٥٥١ م • وفى تلك المرحلة قام العثمانيون بعدة حملات ضد البرتغاليين ولكنهم لم يوفقوا فى اجلائهم عن الخليج العربي الذي كانوا تمركزوا فيه منذ عام ١٥٠٦ م وكانت البرتغال وقتذاك دولة بحرية كبرى تملك مستعمرات فى الهنـد وجنوب افريقيا •

الاستيلاء على المغرب العربي :

وبدورها بلاد المغرب دخلت فى حوزة الدولة العثمانية ماعدا مراكش وكانت هذه البلاد مؤلفة من ثلاث دويلات هي تونس والجزائر والمغرب قامت على أنقاض دولة الموحدين التي زالت سنة ١٩٦١م بعد حكم دام قرنين • والذي ساعد عـلى توطيد أقـدام العثمانيين فى المغرب العربي هي الأحداث الداخلية والصراع الذي نشب بـين خير الدين بربروسا ومراكش ، فطلب المعونة من السلطان العثماني مقابل ضـم بلاد المغرب الى الدولة العثمانية ، فاستجاب لطلبه ، وانضمت الجزائر سنة ١٥١٩م ثم ليبيا سنة ١٥٥١م ، وتم فتح تونس على يد القائـد التركي سنان باشا ١٥٧٤م •

فتـح العراق :

أما العراق الذي كان الصفويون استولوا عليه سنة ١٥٠٨م فقد عزم السلطان سليمان العثماني على انتزاعه منهم • فجهز جيشاً وقاده بنفسه حتى وصل الى بغداد واستولى عليها سنة ١٥٣٤م • ثم اخضع الأجزاء الأخـرى من العراق بعـد معارك انتهت بهزيمـة الصفويين (الايرانيين) •

وهكذا دخلت البلاد العربية فى حوزة العثمانيين وأصبحت ولايات عثمانية منذ القرن العاشر هجري ، السادس عشر ميلادي الذي بلغت فيه هـذه الدولة الاسلامية الكبرى أوج مجدها واتساعها • فقـد بسطت سيادتها على البلقان والقوقاس والقرم وآسيا الصغرى وأقطار الشرق العربي والشمال الافريقي •

نظـام الحكم العثماني

فى عهـد السلطان سليمان الأول نظمت الامبراطورية العثمانية على أساس حكم مركزي وادارة الولايات • وبموجب هـذا التنظيم وضعت القواعد الأساسية للحكم الذي كان مطبقاً كما يـلي :

الحكومة المركزية :

كان السلطان مـن الأسرة العثمانية هو رئيس الدولة وصاحب الكلمة العليـا ، والسلطة المطلقة • وكان يلقب بخليفة المسـلمين ، ويساعده فى ادارة الحكومة مجلس وزراء يرأسـه الصدر الأعظـم (رئيس الوزراء) ، والديوان السلطاني المكون من الوزراء وكبـار موظفي الادارة المركزية المدنيـين والعسكريين ، والقضاء (لتطبيق الشريعة الاسلامية وأحكامها) يتولى أمرها شيخ الاسلام والقضاة • وشيخ الاسلام هو الذي يصدر الفتاوي والمرجع الأعلى فى كل مايتعلق بأمور القضاء •

وكان الجيش هو الجهاز الهام فى الدولة ، يتألف من الفيالق البرية والأساطيل البحرية • وكان من أشهر فرق الجيش العثماني (يني شريه) أي الجنود الجدد أو الجيش الجديد ويليه (السياهي) المؤلف مـن الفرسان •

ادارة الولايات :

قسم العثمانيون امبراطوريتهم الشاسعة الى ولايات لكل منها جهازها الخاص من الموظفين لادارة شؤونها • وكان الوالي (الباشا) يعين من قبل السلطان ، وتتركز في يده السلطات المدنية والعسكرية • وهو الذي يتولى جمع الضرائب والأموال المقررة وارسالها الى الاستانة (القسطنطينية) ، ويعاونه في أعمال ادارة الولاية (الديوان) المؤلف من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين •

أما القضاء فكان يتولاه قاضي القضاة يعرف باسم (قاضي العسكر) ، ومن صلاحياته تعيين قضاة نواباً له في الأقاليم ، والاشراف على شؤون الأوقاف ، وتطبيق نصوص الشريعة الاسلامية •

وقسمت الولاية ادارياً الى سناجق عين على كل منها حاكم سمي بالسنجق ، مهمته الاشراف على شؤون الأقاليم ، والحفاظ على الأمن ، وجمع الضرائب • وكانت مناصب السناجق يختار لها شخصيات كبيرة من أهل الولاية ، يساعدهم في أعمالهم موظفون عرفوا باسم الكشاف •

وكان في كل ولاية حامية عسكرية لمساعدة الباشا في الحفاظ على النظام والأمن • وقد ارتكب رجال بعض تلك الحاميات الأعمال المشينة مثل ابتزاز الأموال من الشعب •

الـدولة العثمانية فى دور الانحدار

لقد أسس الأتراك العثمانيون امبراطورية شاسـعة مترامية الأطراف امتدت حدودها من تخوم فيينا غرباً حتى جبـال القوقاس شـرقاً ، ومن ضفاف البوسفور حتى شواطىء البحر الأحمـر ، ومن الشام حتى مصر ومنها حتى الجزائر •

وعاشت الامبراطورية العثمانية أكثر من خمسـة قرون ونصف القرن ، وبالتحديد منذ منتصف القرن الخامس عشر حتى مطلع القرن العشرين • وقد بلغت أوج مجدها واتساعها فى القرن السادس عشـر ميلاي ، وحافظت على قوتها وهيبتها حتى أواخر القرن السابع عشر ثم بدأ الضعف يدب فيها لعدة أسباب أهمها : ١ ـ تتابع على الحكم بعد السلطان سليمان القانوني الذي اتصف بالمقدرة والعدل بعض سـلاطين ضعاف انغمسوا فى الترف والملذات • ٢ ـ تـدخل رجال الحاشية فى شؤون الحـكم • ٣ ـ انتشرت الرشوة وفسدت أجهزة الدولة • يضاف الى ذلك امتداد الضعف الى الجيش وانهزامه فى عدة معارك حربية كانت نتائجها وخيمة على الدولة العثمانية اذ أدت الى ضياع أملاكها فى جنوب شرقي أوروبا • ففي سنة ١٦٨٧م فقـدت هنغاريا ، وفى سنة ١٧١٨م فقدت بلغراد ودلماسيه وألبانيا ، وفى سنة ١٨٢٠م فقدت اليونان ، وفى سنة ١٨٥٦م فقدت رومانيا ، وفى سـنة ١٨٧٨م فقدت صربيه وبلغاريا •• الخ تلك البلدان التي فقدتها الدولة العثمانية كانت تعتبر جزءا هاماً من امبراطوريتها •

وقد حاول بعض السلاطين القيام باصلاحات بعـد أن أدركوا خطر التـأخر الاجتماعي والاقتصادي والثقافى فى الولايات التابعـة للدولة العثمانية ولـكنهم اصطدموا بمعارضة فئة من كبار رجال الدولة

وضباط الجيش ، وظلت السياسة القديمة سائدة • وكان هؤلاء يعتقدون ان وصد الأبواب بوجه التطور وبقاء الولايات بمعزل عن التيارات الفكرية والعلمية الحديثة يجنبها أطماع الدول الأوروبية فيها وتبقى للعثمانيين • ولكن هذه السياسة لم تبعد أطماع بعض هذه الدول مثل روسيا وفرنسا وانكلترا التي تحركت لما انتاب الدولة العثمانية الضعف ودخلت فى دور الانحدار ، وأخذت تتدخل بشؤونها وتنتزع منها الغنائم والامتيازات السياسية والاقتصادية •

الوضع فى البلاد العربية :

بصورة عامة كانت البلاد العربية تعاني التأخر فى شتى الميادين ، تعيش فى عزلة بعيدة عن النهضات التي قامت فى أوروبا • واستمرت تلك المرحلة الطويلة حتى أواخر القرن الثامن عشر الذي تميز بتضعضع الدولة العثمانية ، وعجزها عن مقاومة أطماع دول أوروبا التي أخذت تمتد الى العالم العربي فى الوقت الذي أصبح نتيجة تدهور النظم العثمانية وضعف الدولة مسرحاً للفوضى والقلاقل والمنازعات والحركات الانفصالية •

الحركات القومية فى العالم العربي :

أدى سوء ادارة الحكم العثماني واختلاله ، وتضعضع الأحوال فى البلاد العربية الى قيام حركات ذات طابع انفصالي كان أبرزها هي :

أولاً — فى مصر ظهرت حركة قام بها علي بك الكبير أحد المماليك سنة ١٧٦٩ استهدف بها الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية • فطرد الوالي التركي ، وأبطل ارسال الجزية الى الاستانة ، واستولى على الحجاز والشام • وأخيراً هزمته القوات العثمانية بقيادة محمد بك

أبو الذهب الذي كان من كبار مساعديه ثم انقلب عليه • ومات علي بك وانهارت حركته سنة ١٧٧٣م •

ثانياً — فى فلسطين تمكن الشيخ ظاهر العمر زعيم قبائل صفد من الاستيلاء على عكا ، ومنها انطلق بحركته فى الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، فاستولى على طبرية وصيدا وحيفا • وحاولت الدولة العثمانية عن طريق البحر ضرب قواعده والقضاء على حركته ولكنها أخفقت فى المرة الأولى ، ثم جددت حملتها فى سنة ١٧٧٥ واستولت على عكا • أما الشيخ ظاهر فقد اغتاله أحد أعدائه ، وبموته انتهت حركته القومية •

ثالثاً — فى لبنان قامت حركة الأمير فخر الدين المعني الثاني المعروف باسم الكبير • وكان يهدف الاستقلال بلبنان ، فتمكن من بسط سلطته على البلاد وفصلها عن الدولة العثمانية • وأقام الأمير فخر الدين علاقات مع بعض دول أوروبا ، وقوي مركزه ، وأصبح بنظر العثمانيين يشكل خطراً على نفوذهم وهيبتهم ، فأرسلوا جيشاً الى لبنان تمكن من الاستيلاء عليه ، وأخذ الأمير أسيراً سنة ١٦٣٥م ، وأرسل مع أولاده الى استنبول وأعدم •

وبدوره قام الأمير بشير الشهابي الكبير بحركة تميزت بتوطيد علاقاته بمحمد علي حاكم مصر واسهامه معه فى حروبه ضد الدولة العثمانية فى بلاد الشام التي انتهت بتدخل بريطانيا وانسحاب قوات محمد علي سنة ١٨٤١ ، وبذلك انتهى حكم الأمير بشير الشهابي فى لبنان ، ونفي الى استنبول حيث توفى سنة ١٨٥٠ •

رابعاً — فى اليمن ، استمرت المقاومة ضد العثمانيين بقيادة الأئمة الزيديين ، وظلت الثورات مشتعلة حتى اضطر الأتراك الى

الاعتراف بسلطة الامام • ثم تجددت الثورة فى عام ١٨٧٢ واستمرت حتى منحت اليمن استقلالها الذاتي سنة ١٩١١ •

خامساً – فى المغرب العربي ، قامت حركات فى تونس وليبيا والجزائر أدت الى تقلص نفوذ الدولة العثمانية •

رواد الدعوة الى الاصلاح

كان أبرز حركة اصلاحية ظهرت فى ذلك العصر هي حركة المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب (سنأتي فيما بعد على شرح هذه الحركة الاصلاحية الدينية الكبرى فى نجد وأثرها فى العالم الاسلامي) •

ومن رواد الاصلاح الذين قاوموا الانحراف والنظم الفاسدة ، وطالبوا السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى الحكم سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٩٠٩ باصلاح شامل ووضع دستور للبلاد على أساس ديمقراطي نذكر :

مدحت باشا :

ولد فى استنبول ١٢٣٨ هـ (١٨٢٢م) ، كان أبوه حافظ محمد أشرف قاضياً وعالماً دينيا ، فأنشأ ابنه مدحت نشأة عالية • وتعلم فى جامع الفاتح حيث كانت تعقد حلقات الدروس الدينية ، والنحو والبلاغة والمنطق والحكمة • وبالاضافة الى اللغة التركية والعربية كان يتقن الفارسية والفرنسية •

وكان مدحت باشا رائد حركة الاصلاح فى تركيا • وهو الذي قال : لا حياة للدولة العثمانية الا بنشر العدل ، والقضاء على الجهل والاستبداد ، والأخذ بالنظم الديمقراطية الصحيحة السليمة لتعم المساواة

بين العناصر المختلفة ويضمن لها الحرية •

واصطدم مدحت باشا بالسلطان عبد العزيز وحاشيته عندما تقدم بمشروعه الاصلاحي على أساس وضع دستور للبلاد • وتحت ضغط الأحداث وخطورتها عين مدحت رئيسا للوزراء (الصدر الأعظم) • وما كاد يبدأ بالاصلاحات الداخلية حتى اصطدم من جديد مع السلطان عبد العزيز ، وأقصي عن الوزارة •

وبعد أن تولى السلطان عبد الحميد مكان عبد العزيز الذي خلع سنة ١٨٧٦ ، تسلم مدحت باشا منصب الصدر الأعظم وقام بحركته الاصلاحية ، فوضع دستوراً اشتمل على ١١٩ مادة ، ينص على قيام مجلسين الأول ينتخب من أهالي البلاد ويسمى بمجلس المبعوثان ، والثاني مجلس الأعيان تعين الدولة أعضاءه • ويتضمن الدستور المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية أمام القانون ، ويبيح حرية الصحافة ، ويجعل التعليم اجبارياً ، ويمنع مصادرة أموال الناس • كما يحد من سلطة السلطان المطلقة •• الخ وقد وافق السلطان عبد الحميد على الدستور وأعلن فى محفل عام بالاستانة سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦م) • ثم مالبث عبد الحميد الذي كان يؤمن بالحكم المطلق أن عطل الدستور وألقى القبض على الشخصيات المؤيدة لحركة الاصلاح التي يتزعمها مدحت باشا ، ونفي مدحت خارج البلاد • وظل الدستور معطلا مدة ثلاثين سنة حتى قامت حركة جماعة الاتحاد والترقي سنة ١٩٠٨ وأرغم السلطان عبد الحميد الى اعادة الدستور للبلاد • ثم خلع سنة ١٩٠٩ وتولى الحكم السلطان محمد رشاد الخامس •

جمال الدين الأفغاني :

ولد سنة ١٢٥٥ هـ (١٨٣٩م) فى أسعد باد (افغانستان) درس

على العالم الشهير باد شاه علوم الدين والأدب والتاريخ والفلسفة . طاف الأقطار الاسلامية ودرس أحوالها . وفى القاهرة مكث سنة واحدة فى زيارته الأولى لها ، ثم رحل الى الأستانة سنة ١٨٧٠ حيث رحبت به الحكومة وعينته عضوا فى مجلس المعارف . وحاول اصلاح مناهج التعليم ولكن بعض أعضاء المجلس لم يوافقوا على مقترحاته ، فترك الأستانة ورجع الى القاهرة سنة ١٨٧١ حيث التفت حوله طائفة من المعجبين بنظرياته الفلسفية وحكمته . وكان فى بيته يلقي دروسه وآرائه على زواره من رجال الفكر .

وكان جمال الدين الأفغاني يدعو الى التمسك بالاسلام ، والقضاء على البدع ، واصلاح المسلمين اجتماعياً وسياسياً ، وتحرير الشرق من السيطرة الأجنبية .

وأخيراً نفي من مصر فى عهد الخديوي اسماعيل سنة ١٧٨٩ ، ونفي أيضاً رفيقه فى الجهاد الشيخ محمد عبده . وفى باريس أصدر هو ورفيقه مجلة العروة الوثقى . وكان بالوقت ذاته يحاضر عن الاسلام ويدافع عن الشرق . ثم عاد من جديد الى الأستانة سنة ١٨٩٢ بناءً على دعوة السلطان عبد الحميد ليعمل على توثيق العلاقات بين المسلمين وكانت الفكرة تهدف الى قيام جامعة اسلامية تضم المسلمين فى كافة أقطارهم لتقف حاجزا بوجه مطامع الغرب فى العالم الاسلامي .

وكانت وفاة جمال الدين الأفغاني العلامة المصلح سنة ١٨٩٧ عن عمر يناهز ٥٨ سنة .

الشيخ محمد عبده :

ولد سنة ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) فى قرية نصر (مصر) وترعرع فى الريف ، ودرس فى الأزهر ، ثم أصبح من كبار أساتذته فى علوم

التوحيد والمنطق والأخلاق • وفى دار العلوم التي عين فيها مدرساً للتاريخ اهتم خصيصاً بشرح مقدمة ابن خلدون وفلسفته التي اتخذها قاعدة لمحاضراته عن علم الاجتماع •

وقام الشيخ محمد عبده بنشر سلسلة من المقالات فى جريدة الأهرام عن الاصلاح الاجتماعي كان لها أثرها الكبير فى مصر وبالأخص فى أوساط المفكرين والمثقفين • ولما قدم جمال الدين الأفغاني الى مصر لازمه محمد عبده ووجد فى فلسفته وآرائه الهدف السامي للاصلاح الخلقي والاجتماعي الذي عليه تتوقف نهضة الشرق الاسلامي •

وتولى الشيخ محمد عبده رئاسة تحرير جريدة (الوقائع المصرية) فجعل منها منبراً للتوجيه والدعوة الى الاصلاح • وظل ثمانية عشر شهراً يعمل دون انقطاع حتى نفي الى بيروت على اثر قيام الثورة العرابية فى مصر وسافر الى باريس حيث اشترك مع صديقه جمال الدين الأفغاني فى تأسيس جريدة العروة الوثقى وتحريرها • ثم عاد الى بيروت سنة ١٨٨٥م ومنها رجع الى مصر بعد أن صدر العفو عنه حيث استأنف جهاده • فعين قاضياً ، ثم مفتياً للديار المصرية •

وكانت رسالة الشيخ محمد عبده سامية فى جوهرها وأهدافها المتمثلة فى الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي والتربوي ، والحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية ، وتطوير نظم الحكم ، والاعتماد فى النضج السياسي على التربية الاسلامية السليمة النقية • وتوفى محمد عبده الفيلسوف الاسلامي المصلح فى الاسكندرية سنة ١٩٠٥ م

عبد الرحمن الكواكبي :

ولد فى حلب (سوريا) سنة ١٢٦٥ هـ (١٨٤٩م) من أسرة عريقة ، درس فى المدرسة الكواكبية التي كانت فى منهجها كالمدرسة

الأزهرية . ولما أتم دراسته انكب على العمل وأخذ يحارب الفساد ويدعو الى الاصلاح . وقام برحلات فى الأقطار الاسلامية درس أحوالها الاجتماعية والاقتصادية ، وفى ضوء ماشاهده ودرسه درساً عميقاً نشر مجموعات كبيرة من المقالات فى الصحف والمجلات انتقد فيها نظم الحكم العثماني ودعا الى اصلاح البلاد .

وكان الكواكبي مفكراً وداعياً نزيهاً للاصلاح فى الشرق الاسلامي . وقد تعرض كغيره من رواد الاصلاح فى عهد عبد الحميد للملاحقة والنفي . ومن أشهر مؤلفاته : (كتاب الاستبداد ، وكتاب أم القرى) . وتوفى عبد الرحمن الكواكبي فى مصر سنة ١٩٠٢ .

مطامع أوروبا وزوال الدولة العثمانية

دخلت الدولة العثمانية كما ذكرنا فى دور الانحدار منذ أواخر القرن الثامن عشر الذي تميز بتحرك أوروبا وامتداد مطامعها الى الشرق والمغرب العربي . ففي سنة ١٧٨٩ قاد نابليون بونابرت حملة عسكرية نزلت فى مصر ، كانت تهدف بالاضافة الى الاستيلاء عليها السيطرة على طريق الهند . وأرسلت بريطانيا أسطولها بقيادة الأميرال نلسون لاحباط خطة نابليون الذي اضطر الى العودة لفرنسا بعد أن تحطم أسطوله فى أبوقير سنة ١٧٩٨ ، واجلاء قواته عن مصر سنة ١٨٠١ ، وفى أعقاب خروج الفرنسيين تولى محمد علي الحكم فى مصر .

وفى سنة ١٨٣٠ استولت فرنسا على الجزائر ثم على تونس سنة ١٨٨١ ، وبدورها ايطاليا استولت على ارتيريا وجزء من الصومال سنة ١٨٩٥ ، وبعد أن تم فتح قناة السويس سنة ١٨٦٨ أخذت بريطانيا تتدخل بشؤون مصر ، وتحول ذلك الى احتلال سنة ١٨٨٢ ، ثم استولت على السودان . وفى عام ١٨٠٠ احتلت مسقط وساحل عمان ، ثم بسطت

نفوذها على الخليج العربي سنة ١٨٢٠ ، وسيطرت فرنسا على مراكش سنة ١٩١٢ ، وبعدها بسنة واحدة احتلت ايطاليا ليبيا •

وهـكذا وقعت جميـع الأقطـار العربية فى قبضـة بريطانيا وفرنسا وايطاليا ولم يعد للدولة العثمانية أي نفوذ فيها • وهي بدورها انهارت فى أواخر الحرب العالمية الأولى التي انتهت سنة ١٩١٨ بانتصار الحلفاء وتقسيم الشرق العربي الى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا ، فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، والعراق والأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني • وبذلك انتهت الدولة العثمانية بعد حكم استمر فى العالم العربي أربعمائة سنة •

فلسطين والصهيونية :

منذ أواخر القرن التاسع عشر أخذت الحركة الصهيونية تعمـل على تحقيق أطماعها المتمثلة بقيام دولة يهودية فى فلسطين العربية • وفى سنة ١٨٩٧ عقد المؤتمر الصهيوني بزعامة هرتزل فى مدينـة بال (سويسرا) ووضع الخطة لتحقيق انشـاء وطن قومي يهـودي فى فلسطين • وحاول الصهاينة اقنـاع السلطان العثماني بالسماح لهم بالهجرة الى هذا القطر العربي العميق الجذور بعروبته واسلاميته ، فرفض وأصدر قانوناً بمنع الهجرة اليهودية واقامة مستعمرات لليهود فى فلسطين •

وبعد زوال الدولة العثمانية ، فتحت أبـواب فلسطين للهجرة اليهودية فى عهد الانتداب البريطاني الذي توطد سـنة ١٩٢٠ وفقاً لقرارات مؤتمر الصلح (بسان ريمو) حيث تم فيه تقسيم مناطق النفوذ فى الشرق بين فرنسا وبريطانيا •

وخلال مرحلة الانتـداب البريطاني ازدادت الهجرة اليهودية ،

واستطاعت الحركة الصهيونية عن طريق المؤامرات والخداع أن تقيم دولة فى فلسطين سنة ١٩٤٨ بمساعدة دول الكتلتين الغربية والشرقية ، وتشريد أكثر من مليون عربي عن أرضهم وديارهم .

ولم تقف مطامع الصهيونية على سلب أكثر من ٧٧ بالمئة من أراضي فلسطين سنة ١٩٤٨ بل توسعت واستولت فى عدوانها الغاشم سنة ١٩٦٧ على فلسطين بكاملها ، هذا بالاضافة الى احتلالها لمرتفعات الجولان السورية وصحراء سيناء والضفة الشرقية لقناة السويس . تلك هي مطامع الصهيونية فى الشرق العربي وخطرها على هذا الشرق الذي قاوم الغزاة فى مختلف العصور وانتصر عليها بفضل وحدته تحت لواء الاسـلام .

الفصل الرابع عشر

حركة الاصلاح الكبرى في نجد

ظهر فى شبه جزيرة العرب فى أوائل القرن الثامن عشر عالم من علماء الدين هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب • ولد فى عام ١١١٥ هـ (١٧٠٣م) ببلدة العيينة ، ونشأ نشأة صالحة اذ كان أبوه عالماً جليلاً وقاضياً فدرس عليه الفقه على مذهب الامام أحمد بن حنبل •

وقد زار الكثير من البلدان حيث كان يتابع أحوال المسلمين فحز فى نفسه ماسمعه وما رآه من بوادر الانحلال وعلامات الانهيار بعد أن ظهرت فى ذلك الوقت البدع التي تتنافى مع تعاليم الاسلام •

وأخذ محمد بن عبد الوهاب يدعو الى نبذ هذه البدع ، وكان

يؤكد للناس أنه لا يرشدهم الى مذهب جديد فى الاسلام بل يدعو (الى الله وحده لاشريك له والى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم) ، ولكي يضمن نجاح حركته الاصلاحية رأى من الضروري ان يعتمد على سند سياسي ، واستطاع أن يكسب ود الأمير « محمد بن سعود » أمير الدرعية الذي رحب به بعد أن فهم دعوته واعتنق فكرته وأخذ ينشر مبادىء هذه الدعوة الاصلاحية بين قبائل العرب • وخلال سنوات قلائل انتشرت مع الحكم السعودي فى شبه الجزيرة العربية •

اتساع حركة الاصلاح :

بعد أن توفى الأمير محمد سنة ١١٧٩ هـ — ١٧٦٥ م خلفه ابنه عبد العزيز • وكان متديناً متحمساً للدعوة • وقد تخطى حدود نجد وهاجم الأحساء واستولى عليها وانطلق لنشر الدعوة فى امارات الخليج العربي ، ثم أخذت قواته تغير على حدود العراق حتى وصلت الى كربلاء فذعر السلطان العثماني وطلب من ولاته فى العراق القضاء على هذه الحركة ولكنهم أخفقوا •

وفى عام ١٨٠٣م أغتيل الأمير عبد العزيز فخلفه ابنه الأمير سعود الذي لقب بسعود الكبير • وفى عهده بلغت الدلة «السعودية» أقصى اتساعها • واستطاع ان يفتح الحجاز وفر الشريف غالب بن مساعد أمير مكة « الى جدة » وقد أبقاه الأمير سعود فى منصبه بعد أن تعهد بأن يسير نظام الحكم فى الحجاز وفقاً للدعوة الاصلاحية الجديدة التي انتشرت فى شبه الحزيرة وبعض البلدان المجاورة •

جدد السعوديون حملاتهم على العراق وهاجموا النجف والزبير ثم أرسلت الحملات الى الشام ووصلت الى جنوب حوران فأمر السلطان العثماني والي دمشق أن يقضي على الحركة ولكنه عجز عن ذلك

وقد وجه سعود الكبير ضربة قوية الى السلطان العثماني عندما أمر الحجيج المصري والشامي بالعوة لأنهما لم يمتثلا الى الأحكام الشرعية بمنع الطبل والزمر أثناء الحج بينما سمح للحجيج من بقية البلاد الاسلامية الأخرى •

وطلب السلطان العثماني من محمد علي والي مصر أن يقضى على حركة الاصلاح الناشئة فقبل محمد علي هذه المهمة لارضاء السلطان من ناحية ولتحقيق أطماعه التوسعية من ناحية أخرى • وأرسل الحملات الحربية الى شبه الجزيرة (١٨١١ ــ ١٨١٨م) فاسترد الحجاز ثم أتم ابراهيم باشا فتح الدرعية فى سبتمبر عام ١٨١٨م بعد أن هدمها وأرسل الأمير عبد الله بن سعود الذي خلف أباه سعود الكبير الى القسطنطينية حيث أعدم هناك عام ١٢٣٣ هـ ١٨١٧م •

ولا يعني هذا ان الدولة العثمانية نجحت فى القضاء على الحركة الاصلاحية ، فبمجرد أن سحب محمد علي جيوشه من شبه الجزيرة عام ١٨٤٠م عاد السعوديون الى توطيد حكمهم والعمل على نشر الدعوة الاصلاحية الدينية •

آثار حركة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية :

١) ظلت الحركة مصدرا لجميع الحركات الاصلاحية التي ظهرت فى العالم الاسلامي خلال العصر الحديث •

٢) نجحت الحركة فى القضاء على البدع والضلالات التي تفشت بين المسلمين وكادت تؤدي بالأمة الاسلامية الى الانهيار •

٣) لقيت الدعوة صدى طيباً فى الأقطار الاسلامية وعمت آثارها مصر والشام والعراق وايران والهند •

٤) أثبتت الحركة قدرتها علـى أن تكون أساسا صالحاً قوياً لبناء دولة اسلامية كبرى •

٥) أحدثت المناظرات والمناقشات التي كانت تدور فى مجالس العلماء نـوعاً من اليقظة الفكرية ، كان الشـرق العربي الاسلامي فى مسيس الحاجة إليها بعـد الجمود الفكري الذي هيمن عليه قروناً طويلة •

٦) ساد حكم الشريعة الاسلامية فى شبه الجزيرة العربية فساد الأمن والنظام فيها •

الـدولة السعودية الثانية

ساد نجد الاضطراب واختل الأمن والنظام حتى تمكن الأمـير (فيصل بن تركي) الذي كان منفياً فى مصر من الفرار والعودة الى امارته ، وماكاد يصل اليها حتى التف حوله الشعب وتمكن من استرداد نجد عام ١٨٤٣م ثم أخذ يبسط نفوذه فى معظم شبه الجزيرة ، فامتد ملكه الى الأحساء والقطيف وعسير ودانت له بعض امارات الخليج ونعمت البلاد طول فترة حكمه التي دامت ٢٢ عاماً بالأمن والطمأنينة •

وعندما توفى فيصل بن تركي عام ١٨٦٥م وقعت البلاد فى فوضى مرة أخرى واشتد النزاع بين ولديه عبد الله وسعود • وقـد انتهز الأتراك الفرصـة السانحة واحتلوا منطقة الأحسـاء وضموها الى ممتلكات السلطان العثماني •

وعندما توفى سـعود بن فيصل عـام ١٨٧٤م وبويـع أخوه عبـد الرحمن أميراً على الرياض تجدد الشقاق بـين الأمراء وعندئذ

استغل محمد بن عبد الله الرشيد أمير حائل الفرصة لينتزع من آل سعود الملك ويؤسس دولة لآل الرشيد • وكانت تركيا تؤيده وتشد أزره ، فدخل ابن الرشيد الرياض وتمكن من بسط سلطانه على نجد •

الدولة السعودية الثالثة

عز على الأمير عبد الرحمن بن فيصل آل سعود أن يعيش فى بلده تحت رحمة آل الرشيد الذين كانوا من قبل أتباعاً لآل سعود ، فرحل مع أفراد أسرته الى الربع الخالي حيث قضى فترة لدى بني مرة ثم انتقل الى قطر ومنها الى الكويت حيث نزل ضيفاً كريماً لدى الشيخ مبارك الصباح مع أفراد أسرته عام ١٣٠٩ هـ — ١٨٩١م •

عبد العزيز يوطد ملك آل سعود :

فى الكويت التي وصلها عبد العزيز مع والده عبد الرحمن وهو فى الثانية عشر من عمره قضى فترة شبابه • وكانت فترة عصيبة بالنسبة له اذ درس التيارات السياسية المختلفة التي كانت تلعب دورها فى المنطقة ، وأخذ يستعرض المحن التي تعرضت لها أسرته • ولم ينس قط ما رآه من أحداث فى بلاده وهو صغير • وأخيراً عقد العزم على استرداد ملك آبائه وأجداده •

الاستيلاء على الرياض :

سئم عبد العزيز الحياة الراكدة فى الكويت ، وصمم على أن يسترد ملك آل سعود أو يموت دونه ، ومن أجل ذلك قام بمخاطرات جريئة اذ أخرج فى عدد قليل من رجاله لا يتعدون الأربعين من

الكويت فى أواخر عام ١٩٠١م قاصداً الرياض ، وعندما اقترب من المدينة أعد خطة الهجوم ، وفى يناير عام ١٩٠٢م تسلل ليلاً مع عشرة رجال من بينهم ابن عمه عبد الله بن جلوي وترك الثلاثين الباقين خارج الأسوار ، وتمكن من قتل أمير الرياض ويسمى (عجلان) نائب ابن الرشيد ، وكان ذلك مفاجأة لأهل الرياض الذين أسرعوا لمبايعة الأمير عبد العزيز ، وبذلك حقق أول انتصار كان بداية الكفاح لاعادة تأسيس الدولة السعودية • وأخذ يسترد نجد ، منطقة بعد أخرى ، وهزم الحملة العسكرية التي أرسلتها الدولة العثمانية من العراق لنصرة الرشيد عام ١٩٠٤م ، ثم جهز عبد العزيز جيشاً من أعوانه سماه جيش (الاخوان) وهزم قوات الرشيد هزيمة ساحقة فى الدلم واستولى على الأفلاج والحوطة ووادي الدواسر ثم اتجه الى المناطق الشمالية واحتل القصيم • وبذلك أصبح عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود سيد بلاد نجد •

ضم الأحساء والقطيف :

كان عبد العزيز يعتبر الأحساء جزءً لا يتجزأ من الدولة السعودية لأنها كانت المنفذ الوحيد لدولته على الخليج العربي • وفى عام ١٩١٣م قبيل قيام الحرب العالمية الأولى انقض بجيش مكون من ستمائة رجل على اقليم الأحساء (الحسا) وفاجأ الحامية التركية فقاوم الجنود الأتراك وعندما تأكدوا من عدم جدوى مقاومتهم آثروا الانسحاب ، ثم أرسل سرية من رجاله الى القطيف فاحتلوها دون مقاومة •

فتح حايل (حائل) :

بعد أن انسحب العثمانيون من العالم العربي اثر انتهاء الحرب العالمية الأولى انتهز عبد العزيز الفرصة لفتح حائل فحاصرها

ثلاثة أشهر حتى استسلم ابن الرشيد فى نوفمبر عام ١٩٢١م فعفا عنه واصطحبه الى الرياض معززاً مكرماً • وكان من آثار هـذا الموقف الكريم لعبد العزيز أن أخلص له آل الرشيد •

فتح الحجـاز :

بعد أن سيطر عبدالعزيز آل سعود علىمعظم شبه الجزيرة لم يبق أمامه الا الحجاز التي تمركز فيها الشريف حسين عندما خذله الانكليز وخيبوا آماله فى مشروع الدولة العربية الكبرى •

ولما كانت الحجاز تضم الأماكن الاسلامية المقدسة (مكة والمدينة) التي هي قبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها لم يغب هذا عـن بال عبد العزيز ابن سعود • وأدرك انه لا بد من ضـم الحجاز اليه حتى يستتب له الأمر وتتوحد الجزيرة العربية •

بدأ النزاع بين الطرفين على تحديد الحدود بين نجد والحجاز ثـم نشأ نزاع آخر عنـدما رفض الحسين الاذن للحجاج الوهابيين بالحج ، وفى مايو عام ١٩١٧م احتلت قوات الشريف حسين بقيادة ابنه عبد الله (تربة) « بلدة تبعد ٩٠ ميلا من الطائف » ولكن عبد العزيز آل سعود هزمهم عام ١٩١٩م ثم عاد الى نجد بعد أن حذرته الحكومة البريطانية من التقدم فى الحجاز •

وفى عام ١٩٢٣م اختمرت فكرة فتح الحجاز ، فسار عبد العزيز آل سعود واحتـل الطائف عام ١٩٢٤ ثم دخل مكة وحاصر جـدة واستولى عليهـا ، ثم على المدينـة ، وانهارت مقاومة الهاشميين • وبذلك سيطر السعوديون على بـلاد الحجاز عام ١٩٢٥م وبويـع عبد العزيز آل سعود ملكاً ، وأصبح لقبه الجديد (ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها) •

ضم منطقة عسير :

كانت عسير أمارة يحكمها الأدارسة وهم من أصل مغربي ينتسبون للشيخ أحمد الادريسي الذي قدم من المغرب وبسط سلطانه الروحي على هذه المنطقة الواقعة جنوب الحجاز ، وكانت موضع تنافس بين الحجاز واليمن . وقد انتهز الامام يحى امام اليمن فرصة القتال بين الأمير عبد العزيز والشريف حسين واحتل عسير فاستنجد أميرها الادريسي بعبد العزيز الذي سارع لنجدته ودخل فى حرب مع الامام يحى واسترد عسير ووضعها تحت حمايته عام ١٩٢٦م ، ثم ضمت نهائياً الى ملكه .

المملكة العربية السعودية :

أصبح أسم الدولة السعودية هو (المملكة العربية السعودية) وقد صدر مرسوم ملكي بذلك فى سبتمبر عام ١٩٣٢م ، وتهيأت بذلك الجزيرة العربية لاستقبال العهد الجديد الذي بدأه الملك عبدالعزيز .

النهضة فى عهد الملك عبد العزيز :

قاوم الملك عبد العزيز بنهضة كبيرة واصلاحات عظيمة . وقد بنى دعائم ملكه على أساس سليم فى الداخل والخارج ، فعمل على تقوية مركزه الدولي بعقد معاهدات مع الدول وتوثيق الروابط مع البلاد العربية والاسلامية .

أما فى الداخل فقد وطد دعائم الأمن فى البلاد بتطبيق أحكام القرآن والشريعة الاسلامية ، وقضى على خلافات القبائل ، وأصبح الحج الى الحرمين مأموناً ، وأنشأ القرى التي ساعدت على استقرار البدو ، وأقام المدارس والمستشفيات .

وهكذا استطاع الملك عبد العزيز آل سعود بفضل ايمانه العميق

وحكمته وسياسته أن يعيد بناء الدولة السعودية الكبيرة على مبادىء الشريعة السمحاء مع الأخذ بأسباب النهضة الحديثة .

وفى ربيع الثاني عام ١٣٧٣ هجرية الموافق ٩ نوفمبر ١٩٥٣ ميلادية توفى هذا الملك العظيم الذي يعتبر بحق (مجدد مجد العرب وباني دولتهم) وخلفه ابنه سعود الذي كان ولياً للعهد . وقد أصيب الملك سعود فى عام ١٩٦٤م بمرض شديد أضعفه وأقعده عن القيام بأعباء الحكم .

الملك فيصل بن عبد العزيز :

وفى شهر رجب عام ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤م بويع ولي العهد الأمير فيصل بن عبد العزيز ملكاً على المملكة العربية السعودية . وهو الابن الثاني للملك الراحل عبد العزيز مؤسس المملكة ، وسبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الديني الكبير من جهة والدته ابنة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ من كبار علماء نجد . ويتمتع الملك فيصل بمناقب وفضائل جعلت مواهبه الفذة وسياسته البناءة رائداً حكيماً تنعقد عليه آمال العرب والمسلمين . وفى عهده تضاعفت النهضة الاصلاحية فى المملكة وقطعت شوطاً بعيداً فى شتى الميادين .

انتشار الاسلام في العالم

دخل الاسلام آسيا وافريقيا وجنوب شرقي أوروبا وجزر البحر المتوسط فى عصور مختلفة متصلة المراحل كان أهمها مرحلة الفتوح التي تمثلت بانضواء تحت لواء الرسالة الاسلامية كتلة من الشعوب والأمم المختلفة الأجناس والقوميات وانصهارها فى المجتمع الاسلامي الكبـــير .

لقد جاء الاسلام دين الهدى والحق للناس كافة . جاء برسالة تجمع الشعوب فى أمة واحدة لا تعرف شعوبية ولا اقليمية ، رابطتها العقيدة الدينية والأخوة والتعاون الصادق والحب والسلام .

والاسلام دين السلام والعلم والتقدم . وهو فى تشريعه يعتبر نظاماً عالمياً أوجب حماية القيم الروحية والأخلاقيـــة ، والخصائص الفـــردية والجماعية ، والوحدة بين أبناء الأمة فى الحقوق والواجبات والتضامن فى المسؤوليات ، واقامة العدل والمساواة بين الناس بغير تفرقة بـــين الأنساب والأجناس والألوان . كما حث على الجهاد فى سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الحق ، ونصـــرة المظلوم . تلك هي المبادىء التي قامت عليها الدعوة الاسلامية الخالدة .

العالم الاسلامي فى العصر الحاضر :

يشـكل المسلمون فى العصر الحاضر كتـــلة بشرية هائلة يبـــلغ تعدادها ٦٢٠ مليون نسمة يقطن معظمها قارة آسيا وافريقيا . ويشغل

العالم الاسلامي مساحات شاسعة مترامية الأطراف تمتد من المحيط الهادي شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً .

وهذا العالم الاسلامي الكبير يشكل قوة بشرية ، وقوة اقتصادية وقوة سياسية لها وزنها فى الثقل الدولي . هذا بالاضافة الى خصائصه الجغرافية ومواقعه الاستراتيجية الهامة ، مع العلم انه من أغنى بقاع العالم من حيث سعة المساحات الزراعية والثروة البترولية .

ويتألف العالم الاسلامي حالياً من مجموعة دول عربية وأسيوية وافريقية ، منها ١٤ دولة فى قارة آسيا ، و ١٩ دولة فى قارة افريقيا معظم سكانها من المسلمين .

وحسب الاحصاءات التي اعتمدنا فى جمعها على أوثق المصادر يقدر عدد المسلمين ونسبتهم فى كل بلد من بلدان العالم كما هو مبين فى الجدول التالي :

المسلمون فى آسيا :

يقدر عدد المسلمين فى آسيا نحو ٤٦٣ مليون نسمة موزعة كما يلي :

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
جمهورية الباكستان	١٠٧	٩١ بالمئة
جمهورية أندونيسيا	١٠٢	٨٥ »
جمهورية تركيا	٣٣	٩٦ »
مملكة ايران	٢٣	٩٧ »
مملكة افغانستان	١٥	٩٩ »
المملكة العربية السعودية	٨	١٠٠ »
جمهورية العراق	٧ ١/٢	٩٥ »

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
الجمهورية العربية السورية	٥ ١/٢	٨٨ بالمئة
اليمن	٥	١٠٠ »
كشمير	٤ ١/٢	٨٥ »
المملكة الأردنية الهاشمية	٢	٩٢ »
جمهورية لبنان	٢ ١/٤	٥٠ »
ماليزيا	٦	٥٨ »
الجنوب العربي	١ ١/٤	١٠٠ »
مسقط وعمان (٨٠٠ ألف)		١٠٠ »
الكويت (٤٥٠ ألف)		٩٥ »
امارات الخليج (٦٠٠ ألف)		٩٧ »
فلسطين (الفلسطينيون)	١ ١/٢	٩٠ »

في الاتحاد السوفياتي :

تركستان
أوزبكستان
تركمانستان
قيرغيزيا
اذربايجان
داغستان
كاوستان

} ٣٤ مليون مسلم

في الصين	٥٤ »	»
في الهند	٥٨ »	»
في الأقطار الأخرى الآسيوية	٢٥ »	»

المسلمون فى افريقيا :

يقدر عددهم ١٤٧ مليون نسمة موزعة كما يلي :

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
نيجيريا	٤٦	٧٣ بالمئة
مصر (الجمهورية العربية المتحدة)	٣٠	٩٠ »
جمهورية السودان	١٣ ١/٢	٨٤ »
المملكة المغربية	١٣	٩٥ »
الجمهورية الجزائرية	١٢	٩٣ »
الجمهورية التونسية	٤ ١/٢	٩٥ »
الجمهورية الليبية	١ ١/٢	٩٠ »
جمهورية موريتانيا	١	٩٩ »
جمهورية السنغال	٣ ١/٢	٨٠ »
جمهورية مالي	٤ ١/٢	٩٠ »
جمهورية غينيا	٣ ١/٢	٨٥ »
جمهورية تشاد	٣ ١/٤	٨٣ »
جمهورية النيجر	٣	٨٠ »
جمهورية الصومال	٢ ١/٢	٩٥ »
جمهورية افريقيا الوسطى	١ ١/٢	٥٢ »
الحبشه	٢١	٦٢ »
ارتيريا	٢	٦٧ »
جمهورية تنزانيا	١٠	٥٠ بالمئة
جمهورية الكمرون	٥	٦٠ »
جمهورية توغو	١ ١/٢	٥٣ »

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
جمهورية فولتا العليا	٤ ١/٢	٤٩ بالمئة
جمهورية داهومي	٢ ١/٢	٥٣ »
سيراليون	٢ ١/٢	٥٠ »
جمهورية ساحل العاج	٣ ١/٢	٤٨ »
البلدان الافريقية الأخرى :	٩٢	١٥ »

المسلمون فى أوروبا :

هناك دولة ألبانيا تعتبر اسلامية لأن معظم سكانها من المسلمين • ويقدر عددهم مليون ونصف المليون أي بنسبة ٨١ بالمئة من مجموع السكان •

وفى جزيرة القرم يوجد مليون ونيف من المسلمين ، وفى يوغسلافيا مليون بالمنطقة الجنوبية • وهناك أيضاً مجموعات من الجاليات الاسلامية منتشرة فى أوروبا الغربية معظمها من أبناء المغرب العربي وايران •

المسلمون فى أميركا :

وفى قارة أميركا توجد مجموعات كبيرة من الجاليات الاسلامية موزعة فى مختلف أقطارها وبالأخص فى المدن الكبرى • والبعض من هذه الجاليات من أصل عربي معظمها يقيم فى أميركا اللاتينية (الجنوبية) وبعض مدن أميركا الشمالية •

المراجع

تاريخ الأمم والملوك .... الطبري

الكامل في التاريخ .... ابن الأثير

البداية والنهاية في التاريخ .... عماد الدين بن كثير القرشي

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان .... ابن خلكان

مالك الأبصار في ممالك الأمصار .... ابن فضل الله العمري

معجم البلدان ومعجم الأدباء .... ياقوت الحموي

مروج الذهب ومعادن الجوهر .... المسعودي

لسان العرب .... ابن منظور

الآداب السلطانية .... محمد ابن الطقطقي

مفرج الكروب في أخبار بني أيوب .... ابن واصل

خطط الشام ، فلاسفة الاسلام .... محمد كرد علي

زعماء الاصلاح الاسلامي .... أحمد أمين

جزيرة العرب .... حافظ وهبه

تاريخ العرب والاسلام .... عبد اللطيف الطيباوي

دائرة المعارف الاسلامية (٤ مجلدات)........ وضعها كبار المستشرقين

دائرة المعارف .... بطرس البستاني وسليم البستاني

تاريخ العالم (مجلدان) .... (لاروس) باشراف البرفسور دونان

الاسلام وعدالته .... أنيل راندس

تاريخ الوهابية منذ نشأتها .... كورانتريز

تاريخ الحضارة الاسلامية .... أندريه بروديل

تاريخ الشرق الاسلامي .... أحمد علي خان

تصــويب

وقعت فيهذاالكتاب بعضأخطاء مطبعية ونود هنا لفت نظر القارىء الكريم لتصحيحها كما هي مشروحة أدناه :

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
فحمى	فمحى	٢٢	١١
نشأوا على الخلق	نشأوا علىهذا الخلق	٩	١٧
الغــير	غــير	١٧	١٧
من المعتدى	للمعتدي	٢١	١٧
دماءا	دمــاء	٦	١٨
لعــرب	العرب	٦	١٩
مفخر	فخــر	٨	١٩
يــوم	يــوما	١٠	٢٤
انفض	أنقض	١	٤٤
اليموم	اليوم	١٦	٥٦
الشريقة	الشرقية	١٥	٧٤
فقــراء	قفــرا	٢	٨٢
والتقا	والتقيا	١١	٩٠
أبــاه	أبــوه	٩	٩٤
وأدنت	ودانت	٣	١٠٤
٧٠٥	٧٥٠	٦	١١٢
لتسكن	ليستكين	١٦	١٢١
ونزعاته	ونزغاته	١٧	١٢١
محمــد	لمحمــد	٢٤	١٢٧
يحى	يحيى	٢٠	١٣٠

الخطأ	الصواب	السطر	الصفحة
فيـــه	فيهـــا	٩	١٥٢
ثلاث	ثـــلاثة	٢	١٥٤
هـــو	هـــي		١٥٩
أحكام	بأحكام	٢١	١٦١
قائمة قرنين	قائمة مدة قرنين	١٤	١٧٤
أمولا	أموالا	١٥	١٧٧
أمولا	أموالا	٣	١٧٩
ويملاؤها	ويملأها	٨	١٧٩
يعـــد	يعودوا	١٥	١٨٨
ولم تمضي	ولم تمض	١١	١٩٤
قانوصه	قانصوه	١	٢١٤
تاولنـــا	تناولنا	٤	٢١٨
الايوى	الأيوبي	٥	٢١٨
السلوجي	السلجوقي	٢	٢٢٣
بالمنيـــق	بالمنجنيق	١٨	٢٣٢

الفهـــــرس

« أ »

صفحة

الفصل الرابع

صفحة

طبع بمطـابع
شركة المدينة للطباعة والنشر
جـدة ـ المملكة العربية السعودية